

الفتح المبين مختصر

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة المحدث المؤرخ

محمد راغب الطباخ

تحقيق ودراسة

الدكتور زكريا عبد العزيز الجاسم

المجلد الأول





وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

دولة قطر





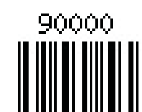
طبعة خاصة
هذا الكتاب
وقف لله تعالى
طبع على نفقة
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
وهو يوزع مجاناً ولا يجوز بيعه

turathuna@islam.gov.qa

إدارة الشؤون الإسلامية
ص. ب: ٤٢٢

ISBN 978-9933-549-20-6





الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

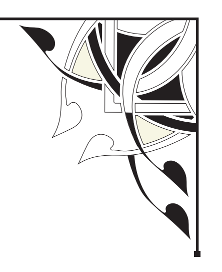
قامت بعمليات التنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة



لبنان - بيروت
ص. ب: 4462/14
هاتف: 009611652528
فاكس: 009611652529
E-mail: info@daralnawader.com
Website: www.daralnawader.com





كَلِمَةُ ٱلإِدَارَةِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أمّا بعد:

فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ـ وقد وفقها الله لأن تضرب بسهم في نشر الكتب النافعة للأمة ـ لَتحمد الله سبحانه وتعالى على أن ما أصدرته قد نال الرضا والقبول من أهل العلم.

والمتابع لحركة النَّشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة العلوم الشرعية ورفد المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب القديمة والمعاصرة؛ وذلك منذ ما يزيد على تسعة عقود، عندما وجه **الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني** حاكم قطر آنذاك بطباعة كتابي (**الفروع**) و(**تصحيح الفروع**)، سنة ١٣٤٥هـ، وكان **المؤسس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني** رحمه الله تعالى قد سن تلك السنة من قبل.

وما الجهود التي تبذلها الوزارة إلا امتداد لذلك النهج وسير على تلك المحجة التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ هذه الانطلاقة المباركة يسَّر الله جلَّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمَّهات كتب التراث والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون مختلفة.

ويسرنا أن نقدم كتاب (**الفتح المبين على كتاب نور اليقين**) للعلامة المحدث المؤرخ الشيخ محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم الطباخ (ت١٣٧٠هـ)، وقد شرح فيه كتاب نور اليقين للشيخ محمد الخضري (ت١٣٤٥هـ)، بأسلوب واضح، بذلت فيه جهود بينة، وأمانة علمية جلية تظهر من خلال توثيق النصوص

وردها إلى مصادرها، وقد حقق الباحث كثيراً من أهداف شرح المتن وتفصيل محتوياته من خلال إعادة النصوص إلى مواضعها التفصيلية، وإضافة ما يزيدها بياناً من مصادر أخرى، مع الشرح والبيان للمعاني الغريبة، وإضافة بعض التحليلات المهمة.

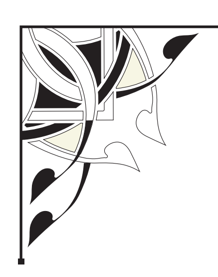
وقد حظيت هذه الطبعة بمزيد من المراجعة والتدقيق بإدارة الشؤون الإسلامية.

والحمد لله على توفيقه ونسأله المزيد من فضله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إِدَارَةُ ٱلشُّؤُونِ ٱلإِسْلامِيَّة

❑ ❑ ❑






مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

الحمد لله يُحيي العزيمة، ويبعث الهمم بقدرته وسلطانِه، يُعيدُ النِّعم ويُجدِّدها بكرمه وإفضاله؛ ليتمِّم الفضلَ والجودَ بمنِّه وإحسانه.

أحمدُه سبحانَه على توفيقه وامتنانه، وأشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ولا نِدَّ له كما أخبر في آياتِه وقرآنه.

والصلاة والسلام على المبشر رحمة بمغفرته ورضوانه، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وأَنْعِم على سيدنا محمَّدٍ المفضَّلِ على جميع المخلوقات وسائر المرسَلين من إخوانه، وعلى آله ومن دَوَّن سنَّتَه وحفظها وقام على خدمتها إلى يومِ معادِه وجميلِ غفرانه.

وبعد:

فإن دراسة السنة النبوية أمر له أهميته لكل مسلم، فهو يحقق عدة أهداف، من أهمها: الاقتداءُ برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته وأعماله، وأقواله وتقريراته، وتُكسب المسلمَ محبةَ الرسول صلى الله عليه وسلم وتنمِّيها وتباركها، ويتعرَّف على حياة الصحابة الكرام الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتدعوه تلك الدراسةُ لمحبتهم، والسيرِ على نهجهم، واتباعِ سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياةَ الرسول صلى الله عليه وسلم، بدقائقها وتفاصيلها، منذ ولادته وحتى قبضه، مروراً بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجاً وأباً، وقائداً ومحارباً، وحاكماً، وسياسيًّا، ومربياً وداعيةً وزاهداً وقاضياً، وعلى هذا، فكل مسلم يجد بغيته فيها.

فالداعية يجد له في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليبَ الدعوة، ومراحلَها المتسلسلةَ، ويتعرف على الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات، والصعوبات، وما هو الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن؟

ويجد المربي في سيرته صلى الله عليه وسلم دروساً نبوية في التربية والتأثير على الناس بشكل عام، وعلى أصحابه الذين ربَّاهم على يده، وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنيًّا فريداً، وكوَّن منهم أمة هي خيرُ أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولة نشرت العدلَ في مشارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحاربُ في سيرته صلى الله عليه وسلم نظاماً محكماً، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش والقبائل والشعوب والأمة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة، وحرصاً على تجسيد مبادئ العدل وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء، والراعي والرعية.

ويتعلم منها السياسي كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبدِالله بن أُبيٍّ ابنِ سلولَ الذي أظهرَ الإسلامَ، وأبطن الكفرَ والبغضَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يحوك المؤامرات، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإضعافه، وتنفير الناس منه، وكيف عامله صلى الله عليه وسلم، وصبر عليه وعلى حقده، حتى ظهرت حقيقته للناس، فنبذوه جميعاً، حتى أقرب الناس له، وكرهوه، والتفوا حول قيادة النبي صلى الله عليه وسلم.

ويجد فيها الزهادُ معانيَ الزهد وحقيقتَه ومقصدَه، ويستقي منها التجارُ

مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتلَوْن أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمُهم على السير في طريق دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل، ويوقنوا أن العاقبة للمتقين.

وتتعلم منها الأمةُ الآدابَ الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسموَّ الأخلاق، وطهارةَ القلب، وحبَّ الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نُعلَّم السورة من القرآن»، سمعت محمدَ بنَ عبدالله يقول: سمعت عمي الزهريَّ يقول: «في علم المغازي علمُ الآخرة والدنيا».

وقال إسماعيل بنُ محمد بنِ سعد بنِ أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعدُّها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها».

إن دراسة الهَدْيِ النبويِّ في تربية الأمة وإقامةِ الدولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي صلى الله عليه وسلم في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركةَ النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، والمراحلَ التي مر بها، وقدرتَه على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطَه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولتَه إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضَه لها على القبائل في المواسم، وتدرُّجَه في دعوة الأنصار، ثم هجرته المباركة إلى المدينة المنورة.

فإن خدمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامٌ لا يوازيه مقام، إذا صحَّت فيه النيَّة وصلحت فيه السريرة؛ كسائر العبادات العظيمة المقرِّبة من الله ورسوله، وإنها لشرف عظيم وأيُّ شرف، واصطفاء كريم وأيُّ اصطفاء، أنعِمْ به من حال لا يستطيع المرء أن يؤديَ حقَّ شكره، ولذلك تمسَّكَ بهذه الوظيفة من

تمسَّك ممن كان قبلنا، وإنها لخساسةٌ وأيُّ خساسة أن يطلب المرء بهـا دنيـا، أو يرتجيَ بها شهرة.

وفي الختام أسأل الله العليَّ القدير أن يُسبغ فيضَ رحمته على أئمة المسلمين، وأن يحشرنا وإياهم في زمرة عباده الصالحين، وأسأله أن يجعل عملـي هـذا خالصـاً لوجهه الكريم، وأن يلهمني الرشد والصواب في القول والعمل، إنه سميع مجيـب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، ومـن تـبعهم بإحسـان إلـى يوم الدين، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.






القسم الأول

الدراسة







الفَصْلُ الأَوَّلُ

ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ والشيخ محمد الخضري

المبحث الأَوَّل

ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ

* تمهيد:

لو قام باحثٌ لِيَعُدَّ مفاخِرَ مدينةِ حلبَ الشهباء، بدءاً من دخول الإسلام فيها إلى يومنا هذا، فإنَّه لن يتردَّدَ في ذكرِ علَّامتها ومؤرِّخِها ومُسْنِدها ومحدِّثِها ومربِّي الأجيالِ فيها، ومخرِّجِ العلماءِ منها، والمصنِّفِ الذي بَلَغَتْ تصانيفُهُ العشرات، والمؤلِّفِ الذي كَتَبَ كثيراً من الكُتُب والمَقَالات، العلامةِ الشيخِ محمد راغب الطَّبَّاخِ، المتوفَّى سنة (١٣٧٠هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ.

عاش هذا الرجلُ في حلب متعلِّماً وعالماً، وأنفق عمرَه وماله ليترك في الناس عملاً نافعاً، وكان قلبُه وقالبُه سواء.

كان شاهداً ومشاهداً، فدوَّن ما شهد، وحلَّل ما شاهد، تذكرُه أحياءُ حلب وحاراتُها وأزقتُها، يعلو سُلَّماً يُمسكُه طلابُه؛ ليقرأ عبارةً أكلَ الزمانُ حروفَها، ولينتشل تاريخاً من الضياع، وليصحِّح خطأً قد لا نلقي بالاً لما هو أكبرُ منه بكثير، وبفضلهِ عرفنا معالمَ، ووصلنا إلى علامات، وحصلنا على معلومات...، مثال ذلك تحديدُه موقع (دار الحديث) التي أنشأها أحد صانعي الحركة العلمية في حلب: بهاء الدين ابن شداد، ومدرسته التي نزل فيها ابنُ خلكان، ولولاه لم نعرف أين عاش هذا القاضي المؤرِّخ الكبير حين عاش في حلب طالبَ علمٍ يتكونُ في سني حياته الأولى.

لم يرحل الشيخ (الطباخ) خارج الشام، ولم يزر سوى المكتين وبيروت، وطرابلس، ولو رحل لامتدَّت يدُه إلى مصادر أخرى كثيرةٍ يغني بها تاريخه، وقد رحلتِ اهتماماتُه فشرَّقَتْ وغرَّبَتْ، وطارتْ رسائله في الآفاق متابعاً كلَّ كلمة يمكن أن تفيده في إنجاز ما بدأ.

ولئن ضُرَّ بأوراق كتابه لدى الباعة، فله بذلك أسوةٌ بأبي سعد السمعاني الذي جُعِلَتْ أوراقُ جزءٍ من كتابه (الأنساب) مقاييسَ للقلانس في حلب، واتصل الخبرُ بوزيرِها وقاضيها القفطي، وكانت نسختُه تفتقدُ هذا الجزء، فأقامَ للكتابِ مأتماً حضر فيه الأعيانُ يعزُّونه على ما ضاع من هذا الكتاب!

فقد بَرَعَ منذ نشأتِهِ بالعِلْمِ، وأمسكَ منذُ طلعَتِهِ بالقَلَم، ونقَّبَ في المخطوطات والمطبوعات ليستخرجَ منها نفائسَ المؤلَّفات، ويكتبَ لمدينةِ حلبَ الشهباءِ تأريخاً هو المرجعُ لكلِّ مؤرخٍ يريدُ الاطلاعَ على تاريخها، أو باحثٍ يُعْنَى برصدِ آثارِها، أو هاوٍ يُكَحِّلُ عينيه بمآثرها، دَفَعَه إلى ذلك غَيْرَتُهُ الدينيةُ، وحميَّتُهُ الإسلاميةُ، عندما رأى رجلاً غريباً عن دينه ولغته وبلده، يتصدر لتأليف كتاب عن تاريخِ بلده، يتداولُهُ الطلبةُ وعوامُّ الناسِ، ولا ينبري من أبناءِ جلدتِهِ من يقوم بهذه المهمَّةِ، ويخوضُ تلكَ اللُّجَّةَ، وهي ـ وإن كانت كثيرةَ العقباتِ، متشعبةَ الاتجاهاتِ ـ إلا أنها واجبٌ تهونُ أمامَهُ كلُّ الصعاب، وتنكسرُ كلُّ الحواجز.

وهذا الحَدَث يمكن أن يكون مفتاحاً لشخصيةِ العلَّامةِ الطَّبَّاخ، فهو رجلٌ متعددُ المواهب، متنوعُ القدرات:

فإن شئتَ وجدتَهُ مدرِّساً، قضى معظمَ حياته في تعليمِ الطلبةِ ـ بدءاً من الكلية الفَارُوقيَّةِ إلى المدرسة الخُسْرَوِيَّةِ ـ وتخرج على يديهِ علماءُ وخطباءُ وأساتذةٌ وباحثون.

وإن شئتَ وجدتَهُ كاتباً، يكاتبُ الجرائدَ والمجلاتِ، ويكتبُ البحوثَ والمقالاتِ، ولا يقتصر على صحافةِ بلدِهِ، بل يتعداها ليكتبَ في صحافةِ دمشقَ

وبيروتَ والقاهرة.

وإن شئتَ وجدتَهُ مؤلِّفاً ومحققاً، يُصدِرُ عشرات الكتب من خلال مطبعته العلمية الفاخرة.

وإن شئتَ وجدتَهُ تاجراً، عمل في مهنةِ أبيهِ، ويؤهِّلُهُ ذلكَ ليكون عضواً في «غرفة تجارة حلب».

وإن شئت وجدتَهُ سياسيًّا، يخوض مع «جمعية الاتحاد والتَّرَقِّي» ـ حين انخدع بها كثيرٌ من الناس ـ مجالسَ ومحافل، ويستطيع التأثيرَ فيها، ليفرضَ من خلالها تعليم اللغة العربية في مدارس وكتاتيب حلب.

هذه الشخصية الفذَّة المؤثرةُ دفعتني للبحث في خبايا أسرارها، والتّعرفِ عليها.

أما عن أهم مصادر هذه الدراسة: فهي: مصوَّرَةُ مخطوطةِ ترجمةِ الطباخ الذاتية بخط يده، والتي هي بعنوان: **(ترجمة نفسي بخط يدي)**[1]، والتي تُعَدُّ أهمَّ مرجعٍ لدراسةِ العلَّامة الطباخ، إضافة لرسالة ولده الفاضل الأستاذ محمد يحيى الطباخ ـ والتي كانت بعنوان: **(محمد راغب الطباخ ـ حياته وآثاره)**[2]، فكان هذان الكتابان أهمَّ المصادر التي اعتمدتُ عليها في ترجمة العلامة محمد راغب الطباخ رحمه الله، مضافاً لها كتابُه: **(الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية)** للعلامة محمد راغب الطباخ نفسِه، والذي قام بطباعته في مطبعته العلمية بحلب[3].

كانت هذه أهمَّ مصادر الدراسة، بالإضافة لكتابه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، و«مجلة المجمع العلمي» في دمشق، و«مجلة الرسالة» رقم (١٩/ ٩٦٥)

---

(١) فعندما يكون الكلام بصيغة المتكلم يقول النقل من هذه الترجمة.

(٢) المقدمة للجامعة السورية ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ (١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م).

(٣) وذلك سنة (١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م).

لعبد اللطيف الطباخ.

* * *

*** المطلب الأول ـ اسمه ونسبه، ومولده ونشأته:**

هو محمد راغب بن محمود بن هاشم بن السيد أحمد بن السيد محمد الشهير بالطباخ، والجدُّ هو الشيخ حسنُ بنُ عليٍّ الحنبليُّ الشافعيُّ الشريفُ المتوفَّى سنة (١١٤٠هـ).

ولـد ـ رحمه الله ـ في مدينة حلب، وفي أحد أحيائها القديمة، (باب قنسرين)، وبين زقاقين غيرِ نافذين، وأمام الباب الثاني للبيمارستان الأرغوني تقع دار عظيمة مؤلفة من غرف كثيرة، وباحة واسعة، في هذه الدار ولد محمد راغب الطباخ.

وكانت ولادته في الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنةَ ألف ومئتين وثلاث وتسعين.

عُرفت عائلته بالعلم والتجارة، إذ كان جده هاشم يقرأ العلوم الدينية في مساجد العمري والزيتونة والشيخ حمود حسبةً لله تعالى ـ لا يأخذ على ذلك أي أجر ـ وعندما رحل إلى الآستانة، عُرض عليه منصب القضاء فأباه، وقال: إن لنا صنعةً أغنانا الله بها عن القضاء، وكانت صنعة البصم[1].

---

(١) اشتهرت حلب في صناعة البصم: وهو طبع الشاش واتخاذه عصائب وملايات، وكانت تصدره إلى طرابلس وحمص وحماة، والحجاز وبلاد الأناضول حتى قارص، ولما وقعت الحرب الروسية ـ العثمانية (١٢٩٠هـ)، استولت روسيا على قارص، وألزم مصطفى كمال أتاتورك الأتراك لبس القبعة، وبدأت البضائع الأجنبية تنافس الإنتاج المحلي، ذهبت هذه الصناعة بالاضمحلال حتى لم يبق في سنة (١٣٤٥هـ) من معلِّمي هذه الصنعة إلا اثنان.

في هذه البيئة العلمية، التجارية، نشأ محمد راغب الطباخ.

* * *

*** المطلب الثاني ـ تلقيه العلم:**

يقول الشيخ رحمه الله: وختمتُ القرآنَ العظيمَ وعمري ثمان[1] سنين، ثم شرعتُ في الكتابة على الشيخ محمد العريف الخطاط المشهور المعروف بشيخ الأشرفية (نسبة إلى المدرسة الشرفية المشهورة الكائنة وراء الجامع الكبير، والناس يقولون غلطاً: الأشرفية)[2]، ثم دخلَ المدرسة المنصورية في محلة الفرافرة سنة (١٣٠٤هـ)، وقد اتخذتها الحكومةُ مدرسة ابتدائية في جملة ما افتتحته من المدارس الابتدائية في أول هذا القرن، فمكثَ بها سنةً ونصفاً، قرأ في خلالها مبادئ اللغة التركية والفارسية والإفرنسية والعربية، ونال شهادتها كما ذكَرتْ ذلك «جريدةُ الفرات» الرسمية بعدد (١٠٢٣) في (٢٧) ذي القعدة سنة (١٣٠٦هـ).

ويضيف أيضاً: ورغبتُ ـ بعد إحرازي الشهادةَ ـ أن أذهب إلى الآستانة؛ لأدخلَ بعضَ مدارسها العالية، فلم يُقْسَم لي ذلك، وكان في عَدمِ الذهاب الخيرُ الكثير، واللطفُ العظيمِ منَ الله تعالى.

ويقول: في هذه الأثناء طُلب أخي الحاج عبد القادر للجُندية، فارتدى ثوبَ العسكرية مُدَّةَ خمسةِ أشهرٍ، بعد أن أدى البَدَل النقدي، وقدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً، وهذا لمن أراد ألَّا يتم المدة العسكرية، وهي أربعُ سنواتٍ، فاحتاج والدي وقتئذٍ لمن يكتبُ له في الدفاترِ في مخزننا الكائن في «خان العلبية» فأتى بي إليه، فصرت أكتب له الأمور الحسابية، والتحاريرَ التجارية، وأتعود على البيع والشراءِ.

وفي الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة (١٣٠٧هـ) كُتبَ لي التوجُّه إلى

---

(١) كذا الأصل: (ثمان) والصواب: (ثماني).

(٢) وهي اليوم مقر المكتبات الوقفية الإسلامية بحلب.

الحجاز الشريف صحبةَ والدي، وعدنا منه في الثامن من جمادى الأولى سنة (١٣٠٨هـ)، وعدتُ إلى معاطاة التجارة عند والدي، إلَّا أني صرتُ أتردد إلى المدرسة الشعبانية، فحفظت «**الآجروميَّة**» في النحو، و«**الجوهرة**» في التوحيد، و«**إيساغوجي**»، وشيئاً من «**الألفية**»، وقرأتُ «**الفصولَ الفكرية**» في النحو على ابن خالي الفاضل الشيخ محمد كلزية، وكان مجاوراً في المدرسة المذكورة، وهو لم يزل في عداد الأحياء إلى حين كتابة هذه السطور، وذلك في غُرَّةِ جُمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة وألف. و«**شرح الآجرومية**» للسيد الدحلاني على الفاضل الشيخ محمد الجزماتي، وكان أيضاً مجاوراً في المدرسة الشعبانية، وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في العام الماضي (١٣٧٥هـ).

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الثاني سنة (١٣٠٩هـ) توفي والدي إلى رحمةِ الله وعفوه، فتركت التردد إلى المدرسة.

وفي غرة رمضان من سنة (١٣١٠هـ) توجهتْ والدتي إلى الحجاز صحبةَ أخي الحاج تيسير، وأوصتني بالعود إلى طلب العلم، ووعدتني بالدعاء عند البيت العظيم، والأماكنِ المقدسةِ، فعملتُ بما أشارتْ به، وعدتُ إلى طلبِ العلمِ مع الاشتغال بالتجارة، فأخذتُ في حفظِ المتونِ، واستظهرتُ المتونَ الثلاثةَ المتقدمةَ، ومتنَ «**ألفية ابنِ مالكٍ**» بتمامها، و«**البيقونية**» في علم المصطلح، و«**السلَّم**» في المنطق، و«**السمرقندية**» في الاستعارات، و«**الجوهر المكنون**» في المعاني والبيان والبديع، و«**متن القطر**» في النحو لابن هشام، و«**نظم خلاصةِ الفرائض**»، ونحو النصف من العبادات من «**متن تنوير الأبصار**» في الفقه الحنفي، و«**السنوسيَّة**» في التوحيد.

١ ـ ما قرأه من كتب النحو[1]: قرأ «**شرح الآجرومية**» للشيخ خالد الأزهري

---

(١) انظر ترجمة جملة من شيوخه في كتابه: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» المجلد السابع منه.

على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدمِ الذكر، وعلى الشيخ محمد السراج ـ دفينِ «تُرْبَةِ» السفيرة ـ .

و«**شرح نصف القطر**» لابن هشام على الشيخ أحمد البدوي الجميلي (نسبة لبني جميل قبيلة من قبائل العرب حول حلب) المجاور في المدرسة الشعبانية، ثم عرض له سَفَر، فأتمَّ قراءته على الشيخ محمد أفندي، المجاور في المدرسة العثمانية.

ثم قرأ «**شرح ابن عقيل على الألفية**» من أوله إلى: باب كان وأخواتها على الشيخ خالد الجزماتي المتقدم الذكر، ومن باب الإضافة إلى الآخر على الشيخ عبدالله سلطان في المدرسة الإسماعيلية، ثم جاور بجامع الحاج موسى الكائن في محلة السويقة، فقرأ فيه «**شرح ابن عقيل**» من باب كان إلى الآخر، على الشيخ حسني الأورفه لي (نسبة إلى أورفه: بلدة شمالي حلب إلى الشرق، وهي الآن من بلاد الأتراك، وتدعى قديماً: الرُّها، ولا يزال العربان الذين حولها يسمونها كذلك).

ثم قرأ عليه: «**شرح الأشموني على الألفية**»، من الأول إلى أواخر الجزء الثاني، وكان سبق له قراءتُهُ من الأول إلى باب الحال على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدم، ثم قرأ من أواخر الجزء الثاني إلى أوائل الجزء الثالث من الأشموني مع حاشيته على الشيخ محمد رضا أفندي الزعيم مفتي الألاي، وأتمَّ مطالعته إلى الآخر وحده.

وكان طالع قبل ذلكَ «**شرح تمرين الطلاب**»، و«**شرح الشذور**» لابن هشام، وطالع «**متن التوضيح**» لابن هشام مع صديقه الشيخ عبد الحليم الزُّوَيْتيني نجلِ مفتي حلب، الشاغلِ الآنَ ـ في وقتها ـ وظيفةَ محررِ المقاولات في الآستانة؛ لهجرته إليها بعد سنة (١٣٢٠هـ)، ورافَقنا في هذه المطالعة ـ وقد كنت في المدرسة الحلوية ـ الشيخُ أحمدُ الحجّار حفيدُ العلامة الشهير الشيخ أحمد الحجّار المعروف بـ «شنُّون». وقد كنا عند الاقتضاءِ نُشَارف شَرْحَهُ للعلامة الشيخ خالد الأزهري.

٢ ـ **علم الصرف:** قرأ منه «**شرح لامية الأفعال**»، و«**متن الشافية**» على الشيخ محمد رضا الزعيم الدمشقي مفتي الألاي بحلب، وقد ترجمه بتاريخيه ترجمةً حافلةً[1].

٣ ـ **علم المنطق:** قرأ منه «**شرح منظومة السلم**» لمصنفه، و«**حاشية الباجوري**» عليها، على الشيخ المذكور، و«**شرح القطب على الشمسية**» على الشيخ عبد السميع الكردي نزيلِ حلب، ودفينها، المجاورِ وقتئذٍ في المدرسة الأحمدية، ثم صار مدرسَها، وله ترجمة في تاريخيه[2]، وانظر ما كتبه هناك بشأن علم المنطق.

٤ ـ **المعاني والبيان والبديع:** قرأ «**شرح الجوهر المكنون نظم التلخيص**» في هذه الفنون الثلاثة على الشيخ محمد رضا المتقدم، وقرأ منه قسم المعاني من الكتاب المذكور على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدمِ ذكره.

و«**حاشية الباجوري على السمرقندية**» على الشيخ أحمد المكتبي.

و«**متن التلخيص**» على الشيخ الأورفه لي، ثم طالعه وحده مع مشارفة معظمِ شرحِهِ للسعد التفتازاني ـ رحمه الله ـ.

٥ ـ **العروض والقوافي:** قرأ منه «**كتاب الكافي**» على الشيخ محمد رضا الزعيم.

٦ ـ **آداب البحث:** قرأ منه «**حاشية الصبان على رسالة العضد**» عليه أيضاً.

٧ ـ **الحكمة:** قرأ منها «**شرح المقولات العشر**» للسجاعي على الشيخ عبد السميع الكردي ـ رحمه الله ـ.

٨ ـ **الحكم:** قرأ منها «**شرح الحكم**» لابن عطاء الله الإسكندري على الشيخ أحمد المكتبي ـ رحمه الله ـ.

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٧/ ٥٧٧ ـ ٥٨١)، المتوفى سنة (١٣٣٤هـ).

(٢) ينظر: «إعلام النبلاء» (٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٥)، المتوفى سنة (١٣٣٨هـ).

٩ ـ **التوحيد**: قرأ منه «**حاشية الباجوري**» على «**السنوسية**»، وبعضاً من «**حاشيته**» على «**الجوهرة**» على الشيخ خالد الجزماتي، ثم طالعه بنفسه في هذا العلم عدة كتب.

١٠ ـ **مصطلح الحديث**: قرأ منه «**شرح البيقونية**» للعلامة الزرقاني على الأديب الشيخ أحمد الصابوني الحموي في رحلته إلى حماه سنة (١٣١٩هـ)، بقي في هذه الرحلة نحو شهرٍ ونصفٍ، قرأ في خلالها الكتاب المذكور عليه.

١١ ـ **الحديث الشريف**: قرأ منه حصةً وافرةً من «**شرح العزيزي على الجامع الصغير**» للجلال السيوطي على العلامة الفقيه الشيخ محمد أفندي الزرقا، حينما كان يقرأ في المدرسة الأحمدية، وقرأ منه من أول «**صحيح الإمام البخاري**» إلى أواسط أو أواخر كتاب الحج على الشيخ بشير أفندي الغزي قراءة درايةٍ وتحقيقٍ.

١٢ ـ **الفقه الحنفي**: قرأ منه «**شرح نور الإيضاح**» المسمّى بـ: «**مراقي الفلاح**»، بعضه على الشيخ محمد السراج، وبعضه على الشيخ خالد الجزماتي.

ثم «**متن تنوير الأبصار**»، ثم «**شرح الدرر والغرر**» لملا خسرو، والجزء الأول من «**الدر المختار شرح تنوير الأبصار**» على الشيخ محمد أفندي الجزماتي أمين دار الفتوى، ودفين تربة الشيخ ثعلب الكائنة جنوبي المكتب السلطاني.

و«**متن ملتقى الأبحر**» إلى باب الرجعة على ابن خاله المتقدم، وحصةً من شرحه المشهور بـ «**شرح الداماء**» من قسم المعاملات على الشيخ عبدالله أفندي سلطان في المدرسة الإسماعيلية، وفي أواخر سنة (١٣٢٢هـ) وصل الشيخ محمد أفندي الزرقا إلى مسائل شتى من حاشية العلامة المرحوم ابن عابدين، وكان قد مضى على بداءته بها اثنتا عشرة سنة، فقرأ عليه من مسائل شتى إلى آخر الحاشية.

ثم قَرَأَ بعدها «**الأشباه والنظائر الفقهية**» للعلامة ابن نجيم، فحضرها عليه إلا شيئاً قليلاً منها، وفي شوال من سنة (١٣٢٥هـ) ابتدأ بقراءة «**شرح الإمام الزيلعي**

على الكنز» فحضر عليه شيخنا الجزء الأول، فقرأ عليه نحو النصف منه، ثم ترك الحضور بتاتاً، واكتفى بالمطالعة، ودَأَبَ عليها.

١٣ ـ أصول الفقه الحنفي: قرأ منه «**شرح المنار**» لابن مَلَك، مع مشارفة حواشيه الثلاث المطبوعة معه في الآستانة على الشيخ عبد السميع الكردي نزيل حلب في المدرسة الأحمدية، لكنه لم يتم قراءته، بل بقي منه بقية، وكان أول من استحضر هذه الحواشي من الآستانة.

أما ما طالعهُ [في] أثناء التحصيل، وبعده إلى هذه السنة ـ وهي سنة (١٣٥٨هـ) ـ من الكتب والرسائل في العلوم الآلية والأدبية والتاريخية والفقهية والحديثية والأخلاقية وكتب التصوف، والردود، والمجلات والجرائد، فحدِّثْ عنه ولا حرج، ويطولُ الكلامُ جدًّا لو سردتُ ذلك، وربما استعظمتَه واستكثرتَه، وذلك مما منَّ اللهُ به عليَّ، وكان فضلُهُ عليَّ عظيماً[1].

* * *

*** المطلب الثالث ـ مشايخه:**

تقدم ذكر أغلب من قرأ أو تتلمذ عليهم العلَّامةُ الطباخ فيما سبق، لكن أُريد أن أذكر هنا أهم مشايخه الذين تأثَّر بهم، وكان لهم كبيرُ أثر في تكوين شخصيته العلمية ومنهجِه العلمي، وهم:

١ ـ الشيخ محمد بن السيد عثمان بن الحاج محمد بن الحاج عبد القادر الزرقا الحلبي الحنفي: ولد في حلب سنة ثمان وخمسين ومئتين وألف من الهجرة.

كان حجة في المذهب الحنفي، تولى التدريس في المدرسة الشعبانية، ثم تولى رئاسة المحكمة الشرعية، ثم دُعي إلى الآستانة ليكون معاوناً لأمانة الإفتاء

---

(١) إلى هنا انتهى ما أورده في كتابه «الأنوار الجَلِيَّة» منقولاً عنه، مع بعض زيادةٍ وتعديلٍ. (ص: ٦٣ ـ ١١٨).

فيها؛ لكنه لم يلبث أن رجع لحنينه إلى وطنه، وأصبح قاضياً أيام الحكومة العربية في عهد فيصل، عُيِّن لمجلس التمييز في دمشق، فلم يوافق على ذلك؛ لعدم مساعدة سنه على السفر، فاستعفى، ولزم بيته مقتصراً على دروس الحديث والفقه لحين وفاته، سنة (١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م).

٢ ـ **الشيخ بشير الغزي**: كان حجة في العربية وشعرها وأدبها، وكان حاضر الذهن في الاستشهاد بها، أو بالشعر، وأعجب من ذلك أن كُتب: الأغاني لأبي الفرج، والحماسة لأبي تمام، والأمالي للقالي، والكامل للمبرد، ودواوين أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري كلها كانت على مناط القلب، يحفظها، ويروي عنها، ويعيها في صدره، فلا يكاد يخطئ في الرواية عنها، أو العزو إليها، أو الاستشهاد منها.

تولى أمانة الفتوى في حلب، ثم انتخب رئيساً لجمعية الاتحاد والترقي فيها، ثم نائباً لمجلس المبعوثين، فقاضي قضاة لدولة حلب أيام الانتداب الفرنسي. توفي سنة (١٣٣٩هـ).

٣ ـ **الشيخ محمد كلزية**: ابن خالته، تتلمذ عليه في النحو خاصة، وتأثر بتقواه وطيب أخلاقه؛ فكان يستشيره في كثير من الأمور، فيجد من رجاحة عقله، وحسن تبصره خيرَ عون له، ولعل عامل القرابة هذا وبدء التلمذة دفعه إلى مصاهرته، فتزوج أخته.

٤ ـ **الشيخ محمد رضا بن محمد بن يوسف الدقاق الشهير بالزعيم الدمشقي**: المولد والمنشأ، ولد سنة (١٢٧٤هـ)، ونشأ في طلب العلم؛ فقرأ في الشام على الشيخ ملَّا طه الكردي، والشيخ محمد الطنطاوي، وملَّا ناصر الدين الجيلاني، وملَّا عيسى الكردي نزيلا دمشق، وتلقى فنون الأدب على العلامة الشهير طاهر الجزائري، والحديث وعلم الوضع والبيان على الشيخ بدر الدين المغربي المحدث الشهير، وأجازه إجازة عامة.

قال في وصفه: قوي الجسم جداً، وكان مقداماً جريئاً كثير الحركة والمداخلة مع الحكام، بقصد إصلاح ما فسد من الأمور، ولا تفتر له في ذلك عزيمة . . .

توفي ـ رحمه الله ـ في الثامن عشر من ربيع الأول سنة (١٣٣٤هـ).

* * *

*** المطلب الرابع ـ وفاته وما قيل في رثائه:**

توفي ـ رحمه الله ـ في صبيحة يوم الجمعة في (٢٥) رمضان، عام (١٣٧٠هـ)، والموافق لـ (٢٩) حزيران، عام (١٩٥١م)، وذلك إثر مرض عضال ـ وهو النقرس ـ ألزمه داره مدة أربعة أشهر، انقطع خلالها عن الحياة العامة، وانصرف إلى المطالعة التي أحبها ولازمته طوال فترات حياته، بالإضافة إلى العبادة والتقرب إلى الله تعالى.

وكان يزوره في فترة مرضه بعض أصدقائه وأصحابه وتلاميذه إلى أن وافته المنية بعد أن بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة.

وقُبيل الظهر شُيِّع جثمانه من داره الكائنة في محلة السفاحية بالقرب من المدرسة الخسروية ـ الكلية الشرعية ـ بموكب ضمَّ كبار أئمة المسلمين والعلماء والنواب ورجال الدولة والوجهاء، بالإضافة إلى تلامذته وأصدقائه وأقربائه، ثم صلِّي عليه بعد صلاة الجمعة في المسجد الأموي بحلب، ونقل بعدها محمولاً على الأكفِّ إلى مقبرة السنابلة حيث دفن هناك.

وقد أقيم في دار الكتب الوطنية بحلب حفل تأبيني نقلته دار الإذاعة السورية، وحضره محافظ حلب تحسين الجوهري ممثلاً عن رئيس الجمهورية آنذاك، وتوالى على منبر الخطابة فيه: الدكتور عبد الرحمن الكيالي، والشيخ عمر مكانس، والشيخ محمد الحكيم، وقاضي حلب أحمد مهدي الخضر، والشيخ عبدالله العتر، ويونس رشدي.

ومما جاء في رثائه قول الأستاذ عبد الوهاب عزام: رأيتُ الشيخ أول مرة في صف الصلاة في مدرسة الخسروية، ورأيته من بعد في مجامع العلم والأدب، ورويت منه آذان الإسلام في داره، كذلك كان الشيخ ـ رحمه الله ـ للدين والعلم، وكذلك كان سمحاً كريماً يألف ويؤلف، وكذلك ينبغي أن يكون علماء المسلمين.

وقول تلميذه الأستاذ مهدي الخضر: رحمك الله ما أرحمك بنا! لقد أشفقتَ علينا من الليل، فنثرتَ لنا نجوماً كانت النذيرَ بذلك الغروب.

وقد رثاه الشيخ عمر مكانس بقصيدة جاء فيها:

من للمحابر والأقلام والكتبِ	وللمحافل والتاريخ والأدبِ
وللمعالي إذا ضلَّ الخبيرُ بها	من بعدِ أن غُيِّب الطباخُ في التُّرَب
كم كنتَ تسعى لجمع الدِّين مجتهداً	مع الحِجا في صعيدٍ واحدٍ رَحبِ
آخيتَ بينهما في حكمةٍ ظهرتْ	وثَّقتَ ما بينهما من لُحْمَة النسبِ
فكنت فذّاً بهذا الفِكر منفرداً	في عصرنا اللاهبِ المحمومِ بالكذبِ
وكنتَ داعيةَ الإصلاح في بلدٍ	تَحَمَّل الظلمَ من طغيانِ مغتصبِ
وكنتَ حرباً على الجُهَّال من وَلِعوا	بالشَّعوذاتِ وتضليلٍ لمضطرب
فالدِّينُ أوضحُ مما ظنَّ جاهلُهم	والدِّين أوسعُ ميداناً لمُرتقبِ
ذكراك خالدةٌ في القلب ماثلةٌ	سقى ضريحَك هَطَّالٌ من السُّحُبِ
نم في ثراك قريرَ العين مغتبطاً	أديتَ واجبكَ الأسمى لدى العرب

* * *

المبحث الثَّاني
جهوده العلمية

لاشك بأن مثل هذه الشخصية العلمية الفذة، وجهودها المتميزة والواسعة ستكون متشعبةَ الأعمال ومتنوعتَها، فهو صاحبُ المطبعة العلمية ومؤسِّسُها، ومؤرخُ حلب وتاريخها، والمدرس والمدير للمعاهد والمدارس العلمية والمؤسسُ لها؛ إذ عُيّن في أول الأمر بمدرسة شمس المعارف، وعندما أغلقت انتقل للتدريس في المدرسة الخسروية في حلب (الثانوية الشرعية اليوم)، فدرّس فيها اللغة العربية والتاريخ والحديث والثقافة الإسلامية، ثم عيّن مديراً لها، وكان له فضل كبير في تأسيس تلك المدرسة، وتعديلِ برامجها بما يوافق العصر الحديث، وهذا ما سبب له بعض العقبات التي حالت دون نهضة علمية دينية تشمل جميع المدارس الدينية في ذلك الوقت. ولكن هذا كله لم يثبط همته، بل دفعه إلى الإصلاح الديني، والتوفيق بين الماضي والحاضر، والدعوة إلى الاطلاع على العلوم الحديثة، والجمع بينها وبين العلوم الدينية. ولم تقتصر جهوده في الإصلاح على المدرسة الخسروية، بل تعدتها إلى بقية المدارس الدينية القديمة، ولاسيما المدرستين: الشعبانية، والعثمانية.

*** أولاً ـ صبره في البحث:**

اتصف العلامة الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ بحبِّ التحقيق والصبر عليه، والبحث عن المصادر التي تفيده في ذلك، مقتفياً آثار أسلاف علمائنا في التأليف والتحبير والنشر، بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، ولا يثبط من عزيمته بعدُ مسافة أو زمن.

وقد أثنى على هذه الهمة العالية كثير من الباحثين في عصره، فمن ذلك: ما جاء في جريدة «الشهاب»، العدد (٨٩)، للأستاذ فوزي فيض الله:

كان المغفور له أستاذنا الجليل المؤرخ محمد راغب الطباخ أول من انتبه

إلى طريقة جمع أشعار المغمورين من الشعراء، ممن ليست لهم دواوين في المكتبة الأدبية العربية في العالم، وذلك بالخوض في كتب الأدب والتاريخ، وتسجيل كل ما يعثر عليه أو يصادفه من الشعر لشاعر معروف أو مغمور لا ديوان له في المكتبة الأدبية، ويُظنُّ أنه فقد من مكتبتنا العظيمة.

صنع هذا أستاذنا الجليل فيما نعلم بالنسبة إلى شاعر حلبي معروف هو الصنوبري، وبالنسبة إلى شعراء السيرة من الصحابة وغيرهم، وقد أخرج إلى العالم ما يشبه ديواناً صغيراً للصنوبري سماه: «الروضيات»، والناظر فيه يرى الجهد المشكور، والاطلاع الواسع، والبحث الموفق الذي يتحلى به المغفور له الأستاذ الطباخ، ويرى المصادر النادرة التي كان يجمع منها باقة الزهور من شعر الصنوبري.

ولهذا أثنى أستاذنا الأديب الدكتور شوقي ضيف في إحدى محاضراته بكلية الآداب في جامعة القاهرة على طريقة الأستاذ الطباخ ـ رحمه الله ـ في بعث الدواوين، وإحياء شعر المغمورين من شعراء العربية، وقال: إنه أول من اهتدى إلى هذه الطريقة من الشرق، وصبر عليها بالرغم من صعوبتها.

وفي أواخر حياته لفتَ نظره كتاب «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي، وهو من منشورات الجامعة الأمريكية، والذي قام بتصحيحه الدكتور سليمان جبور، فاشترى الجزء الأول، فرآه مع الجهود المبذولة في تنقيحه وتصحيحه غيرَ متدارَك من الأغلاط كما يجب، فصحَّح ما ورد فيه من أسماء الأعلام والدساكر وبعض الحوادث، وما هي إلا أيام معدودات لا تتجاوز ستة أيام حتى انتهى من تنقيح الكتاب، فبعث به إلى الدكتور سليمان جبور، الذي شكره برسالة جاء فيها:

اسمحوا لي قبل كلِّ شيء أن أشكر لكم ثناءكم على عملي، واهتمامكم بمراجعة الكتاب، وتصحيحاتكم الثمينة لما ورد من أخطاء في النسخة الأصلية، ولعلكم تلاحظون أني تقيَّدتُ بالنص، وكان هناك أخطاء ظاهرة؛ كالعقدة مثلاً،

فقد كان باستطاعتي إصلاحها، ولكني آثرتُ إبقاءها على حالها حتى يرى القراء الاصطلاحات التي كان يألفُها بعض الكُتَّاب في ذلك العصر.

غير أن أكثر التصحيحات التي أشرتم إليها هي على غاية من الأهمية، سيما تلك التي لها علاقة بأسماء المنسوبين إلى قرًى أو دساكر كانت غير واضحة في الأصل، فصحَّحتموها.

وسأشير ـ كما سبق فذكرت ـ إلى تلطُّفكم بصحيحها[1]، وأنسبُ إليكم الفضلَ في ذلك؛ لأنكم لا زلتم من أهل الفضل.

كما أني أغتنم هذه الفرصة، فأشكر لكم اهتمامكم وجهودكم العلمية، وفضلكم العميم هذا، وتفضَّلوا بقبول فائق احترامي.

يقول الأستاذ محمد يحيى ابن الأستاذ محمد راغب الطباخ عقب ذكره لهذه الحادثة: ولقصر نظري قلت له عندما استلم الجزء الثاني من «الكواكب السائرة» هدية من الناشر الفاضل، قلت: ما الذي استفدت بعد هذا الجهد الطويل والعمل المضني في الليل والنهار، فابتسم وقال: إنكم يا أبناء هذا الجيل لا تُعنون إلا بالمادَّة، أين طلب العلم للعلم؟ وهل ظننت أنني سأتقاضى شيئاً عما فعلت؟ معاذ الله، لم تحدثني بذلك نفسي.

وكان ـ رحمه الله ـ محبّاً لجمع الكتب والمخطوطات القيمة والمفيدة، والتي أفاد منها في أبحاثه وتحقيقاته، فخلَّف مكتبة ضخمة فيها كثير من الكتب النفيسة والمخطوطة، حيث كان يرسل إلى أصدقائه ومعارفه في البلاد؛ ليخبروه بما طبع في بلادهم، أو يطلب إليهم تصوير بعض الكتب.

ولا شك أن أبرز عملين بذلهما للعلم هما: تأليف كتاب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، وتأسيس المطبعة العلمية.

---

(١) أي: بذكر لفظها الصحيح.

*** ثانياً ـ تأليف تاريخ حلب:**

وسببه: حيث يقول رحمه الله: لم يكن لي ـ مبدأ نشأتي ـ عنايةٌ بعلم التاريخ وكتبِهِ، إلّا ما كنتُ قرأتُهُ في صغري من «الفتوحات الشامية» للواقدي، الذي كانت نسخته في خزانة والدي ـ رحمه الله ـ بل كانت عنايتي واشتغالي بالفقه الحنفي، والنحو، ونحوِ ذلك، وكنتُ أطالع بعض الكتب الأدبية على سبيل التسلي وترويح النفس في بعض الأحيان.

ولما شرعتُ بطبع شَرْحَي الكواكبي، احتجت للوقوف على ترجمته، فقيل لي: إنها توجد في **«خلاصة الأثر»** للعلامة المحبي، فاستعرته، واستنسخت منه ترجمة المؤلف، واقتضى أن أستعير وقتئذٍ **«سلك الدرر»** للعلامة المرادي، وأستنسخَ منه ترجمة ولد المؤلف، وهو العلامة أحمد أفندي الكواكبي واضعُ الحواشي على شرحي والده، وبعد أن استنسختُهُما، تصفحت التاريخين، فوجدت فيهما كثيراً من تراجم أعيان الحلبيين في هذين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فاستنسختُها جميعاً بخطِّ يدي، فجاءت في مجلدٍ، وكان ذلك في سنة (١٣٢٣هـ)، فوقع في نفسي منذ ذلك الحين أن أنهض لوضع تاريخ لهذه المدينة العظيمة التي طَوَتِ الكثير من الأعيان في العصور الغابرة، وحصل فيها كثيرٌ من الحوادثِ العظيمةِ، كيف لا؟ وهي نقطة الاتصالِ بين الشرقِ والغربِ.

ولمّا استخرجتُ ترجمةَ العلامة الكواكبي، واستنسختُ ما في **«خلاصة الأثر»** و**«سلك الدرر»** من تراجم الحلبيين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تقوّى في نفسي ذلك الفكر، واستسهلت ذلك الصعب، وصحَّت مني العزيمة ـ ولله الحمد ـ على النهوض لذلك العمل، فتم لي ذلك في مدة اثنتين وعشرين سنة، ووفقني المولى تعالى لطبعه في مطبعتي العلمية ـ كما سيأتي ـ.

ويضيف سبب آخر: وهناك داعٍ آخرُ لوضعي لهذا التاريخ، هو أني كنت ابتعتُ كتابَ **«تحف الأبناء بتاريخ حلب الشهباء»** للطبيب بيشوف الجرماني، وهو

كتيّب في (١٦٠) صحيفة، طبع في المطبعة الأدبية في بيروت سنة (١٨٨٠ ميلادية)، فيه حوادث حلب، ومن تولاها من عهد الفتح العربي إلى استيلاءِ السلطان سليم العثماني عليها سنة (٩٢٢ هجرية) بصورة موجزة.

وهذا الطبيب الجرماني (الألماني) كان قد جاء إلى حلب أواخر القرن الماضي، فاستطابها، ورآها بلدةً رخيصةَ الأسعار، فأقام بها، وصار يتعاطى صنعة الطبابة فيها، وتوفي أول هذا القرن.

فطالعتُ هذا التاريخ، وكان يأخذني العجب كيف أن رجلاً يأتي من بلاد جرمانيا، ويقيم في الشهباء، وليس من أبناء هذه البلاد، ولا يعرف من لغة أهلها إلا القليل كما أنبئتُ، ويضع تاريخاً لها.

أَخَلَتْ هذه الديارُ، وأقْفَرَتْ هذه البلادُ من رَجُلٍ فيه فضلٌ وهمةٌ يقوم بهذا الأمر، ويسدُّ هذه الثُّلْمَةَ، حتى يأتي هذا الرجل الأجنبي، ويؤلف لها تاريخاً؟! فكان ذلك يَعْظُمُ عليّ، ويكبر جدّاً لديّ، وأجدُ في ذلك عاراً كبيراً على هذه البلاد وأهلها، فكانت النفس تناديني بالنهوض لهذا الأمر الخطير، والتشميرِ عن ساعد الجدِّ؛ دَفْعاً لذلك العار، وسَدّاً لتلك الثُّلْمَةِ، إلّا أني كنتُ أرجع إليها بقلة البضاعة، ونُزُورِ المعرفة، وثقلِ هذا العبءِ، والمشاقِّ العظيمة التي ستعتري ولا بدّ.

أما عن منهجه في إعلام النبلاء: فتتدرج معه عبر القرون، وترى الحركةَ العلميةَ التي تطبع كلَّ قرن أو عهد بطابعها، وتعيشُ مع المتعاصرين، فتمشي معهم في مساجدهم ومدارسهم وأسواقهم، وتكاد تُظِلك سماؤُهم، وتسمعُ أحاديثَهم في أسمارهم ليالي شتائِهم البارِدِ الطويل.

كان الشيخُ في تراجمه ناقلاً وقائلاً، وكان النقلُ أكثر؛ لأن المسافات الزمنية التي اقتضته أطول، وكان قائلاً معبِّراً بنفسه وَفْقَ رأيه، وما انتهى إليه من علمٍ مرئيٍّ أو مسموعٍ في عصره، وما اتصل به، ويتجلى هذا في النصف الثاني من المجلد الأخير، وهو السابع.

وانصبَّ جهدُه فيما سبق عصرَه في تتبُّع تراجِم الحلبيين من سير القـرون؛ كتاريخ الإسلام، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنـة، والضـوء اللامـع لأهـل القرن التاسع، والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، وخلاصـة الأثـر فـي أعيـان القرن الحادي عشر، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشـر، وحليـة البشـر فـي تاريخ القرن الثالث عشر، وغيرها، ومن المهم الانتباه إلى مصطلحه في النقـل، فهو لا يصرِّح بذلك إلا مرةً واحدة عند البدء بتراجم أصحاب كلِّ قرن.

وهو في هذا ملتزمٌ بحرفية النقل اضطراراً، ولا يملِك غيرَ ذلك فـي أنـاسٍ باعدَ بينه وبينهم الزمان، وربّما استدرك وأضاف وعلَّل، وقـد صـوَّر مَـنْ رآهـم، أو رأى مَنْ رآهم تصويراً جيداً، وفيما يَكتب من التراجم نسيجٌ من الخاص والعام، والذاتي والموضوعي، ونحنُ لن نطالبه بمنهج الدراسات الحديثـة المنظَّمـة وَفْـق فصول ومطالب، فهو تتمةٌ لما سبق، وحلقةٌ مما مضى.

وقد ترجَم لعلمـاء الشـريعة، ولـم يفـرِّق بـين أهـل المـذاهب والمشـارب، وترجَم للفضلاء والوجهاء، والتجار والنبهاء، وترجم لغير المسلمين مقتصـراً علـى الأدباء.

وبَثَّ في هذه التراجم آراءَه وأفكارَه، ومقترحاته وانطباعاته، فـي الأشـخاص والعلوم ومصادرها، وذكَرَ ما يتعلق بالمترجَم من آثار ووقوف، وحال هذه الآثار والوقوف، والعاملين فيها، وما عرَض لها من اعتداءٍ من القريب والغريب.

واهتمَّ بالصـناعات والصـنائعيين، والتجـار والتجـارات، حاضـراً وماضـياً، اهتماماً قلَّ من يهتم بمثله.

أمّا المخطوطات، فله فيها غرامٌ جميلٌ، وجهدٌ نبيلٌ، وتتبُّعٌ حفيـلٌ، ممـا يستدعي تبيانُه بحوثاً مفردة.

ولا يُخلي الترجمةَ مِن مواقفَ جميلة، ونقدٍ بنَّاء، وإبراز جوانب النبـوغ، والتحذيرِ من الخطأ والخطيئة، والتخويف من الاعتداء على مال الوقف.

ويركِّز على الإبداعات في العلوم الشرعية والطبيعية، وأخبار المبدعين، كذاك الذي أَلَّف رسالةً فصَّلَ فيها المسألة الصِّهْيَونيَّة قديماً وحديثاً، وبيَّن الوسائلَ التي يقتضي اتخاذُها، والطرقَ اللازمَ سلوكُها تُجاه هذه القضية.

ويهتمُّ بما يتقنه المترجَم من اللغات، وبلباسه وطبائعه، وطعامه وشرابه، ومنهجه اليومي. وأكاد أراه يتتبع شواهدَ القبور ويستنطقها؛ ليضيفَ، ويُصحِّح، ويُنقِّح.

ويُصيغ أسلوبَه بوضوح، وقد يَسجع سجعاً مقبولاً، ويتلطف بعباراته في غالب أمره؛ مما يدل على نفسيته الهادئة، ويشتد حين يرى تحريفاً أو انحرافاً.

وكأن شعاره ما قاله في بعض التراجم: ما أحوجَ الأمة الإسلامية إلى استبدال هذا النزع والشقاق بالوئام والوفاق، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذه الضالة المنشودة ما دامتْ مختلفةَ النزعات، متباينةَ العقائد.

*** ثالثاً ـ تأسيسه للمطبعة (العلمية)، وتآليفه حيث يقول:**

في سنة (١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م) وفقني المولى تعالى لتأسيس مطبعة دعوتها: «المطبعة العلمية»، وساعدني في تأسيسها مديرُ المدرسة الفاروقية السيد عبدُ الغفور المسوتي، وتكبدتُ مشاقَّ كثيرةً في توسيع نطاقِها بقدر الإمكان.

* * *

*** المطلب الأول ـ مؤلفاته المطبوعة في مطبعته العلمية:**

١ ـ **«إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»** في سبع مجلدات كبار[1].

---

(١) حيث يقول في مقدمته: وقسمته إلى مقدمة وقسمين، القسم الأول في مجلدين، ذكرت فيه من ملك حلب ومن تولاها من حين الفتح الإسلامي سنة (١٦هـ) إلى سنة (١٣٢٥هـ)، وأخبار ملوكها وأمرائها والحوادث التي حصلت في زمنهم وما لهم من الآثار. والقسم الثاني وهو في أربع مجلدات، ذكرت فيه تراجم أعيان =

٢ ـ ٤ ـ «**المطالب العلية في الدروس الدينية**»، وهو ثلاثة كتب متسلسلة: الأول والثاني والثالث، وهي كتبٌ مدرسية.

= الشهباء ما بين وزير خطير وأمير كبير، ومحدث وفقيه، وشريف ووجيه، وخطيب وشاعر، وأديب وتاجر، وزعيم، وغيرهم من ذوي المزايا وأرباب المناقب. وقد ابتدأت فيه من أوائل القرن الثالث للهجرة؛ لأني لم أقف على تراجم لأحد من أعيان الشهباء قبل ذلك، ولعلك تجد لهم ذكراً في تاريخ ابن العديم، وهذا القسم نقف فيه عند السنة التي ينتهي فيها الطبع إن شاء الله تعالى.

وقد التزمت ألَّا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء، أو كان ممن توفي فيها، وأما من نزلها ثم ارتحل عنها أو اجتاز بها فإني ضربت عنه صفحاً؛ لأن ذلك مما يطول شرحه، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة. وجعلت أعيان كل قرن على حدة، مبتدئاً من القرن الثالث إلى هذا العصر، مرتباً لهم على مقتضى سني الوفاة؛ لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريباً، وسلسلة حوادثهم متصلة غير منفصلة، أو قريبة الارتباط ببعضها...

ومن مزايا تاريخي: أني عزوت كل حادثة وكل ترجمة إلى الكتاب المنقول عنه وما تجدونه غير معزو، أو بعد كلمة أقول، فإنه مما أملاه فهمي الفاتر، وسطره قلمي القاصر، قصدت بذلك أن يكون القارئ مطمئن البال، وليسهل عليه الرجوع إلى الأصل عند اقتضاء الحال.

ويزيد ما تصفحته من الكتب عن ثلاث مئة مجلد، هذا غير المجاميع والأوراق المبعثرة التي ظفرت بها في الخزائن، وما تلقيته من أفواه الرجال الذين أثق بهم، ولا تسل عما تكبدته من المشاق، وما تجشمته من المتاعب في سبيل الحصول على هذه المواد، واقتناص شواردها، وجمع شملها المتبدد حتى انتظم فيها عقد هذا التاريخ وتراصفت مبانيه.

على أن ما صرفته من ثمين الوقت، وما لاقيته من المصاعب كنت أجده شراباً سائغاً، ومورداً عذباً بجانب الغاية النبيلة التي كنت أقصدها، وهي القيام بخدمة بلادي وأبناء وطني بكتاب يوقفهم على تاريخ أوطانهم ومآثر أسلافهم.

٥ ـ **«عِظَة الأبناء بتاريخ الأنبياء»**: وهو كتاب مدرسي، وقد وضعتُهُ أوسعَ مما طُبع عليه، إلا أن المعارف كلفتني اختصارَهُ، والأصلُ الواسعُ لا زالَ محفوظاً عندي.

٦ ـ **«تمرين الطلاب في صناعة الإعراب»**: رسالة في (١٦) صحيفة تسهل على المبتدئين كيفية الإعراب وتعلمه في وقت قريب.

٧ ـ **«الروضيات»**: وهو ما جمعهُ من شعر الشاعر المُجيد أبي بكر الحسين الصَّنوبري؛ أحدِ شعراء سيف الدولة بن حمدان المتوفى سنة (٣٣٤هـ)، مع ترجمة الشاعر المذكور.

٨ ـ **«العقود الدرِّيَّة في الدواوين الحلبية»**: وهي ثلاثة دواوين لثلاثة من شعراء حلب في القرن الحادي عشر، الأول (وهو من جمعنا) ديوان الشاعر الأديب أحمد بن الحسين الجزري[١].

٩ ـ **«الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبية»**: وهي الثبت المسمى: **«كفاية الراوي والسامع، وهداية الرائي والسامع»**، للعلامة المحدث الشيخ يوسف الحسيني الحلبي، و**«ثبت»** العلامة المحدث الشيخ عبد الكريم الشراباتي الحلبي، و**«ثبت»** العلامة المحدث الشيخ عبد الرحمن الحنبلي الحلبي، ويلي ذلك إجازات مشايخي لي مع ترجمتي لبعضهم[٢].

---

(١) فات المؤلف هنا عدُّ باقي الدواوين، وقد ذكرها فيما بعد.

(٢) مؤلَّفٌ من ثلاثة أثبات، وهي:

١ ـ الثبتُ المسمى: كفاية الراوي والسامع وهداية الرائي والسامع، للعلامة المحدث يوسفَ بنِ درويش الحسيني الدمشقي ثم الحلبي الحنفي نقيب الأشراف المتوفى سنة (١١٥٣هـ).

٢ ـ والثبتُ المسمى: إنالةَ الطالبين لعوالي المحدثين، للعلامة المحدث الشيخ عبدِ الكريم بنِ الشيخِ أحمدَ الشراباتي الشافعي الحلبي المتوفى سنة (١١٧٨هـ). =

١٠ ـ «**المصباح على مقدمة ابن الصلاح**»: وهي تعليقات على هـذا الكتـاب طُبِعتْ مع الأصل وشرحه المسمى: «**التقييد والإيضاح لما أُطلق أو أُغلـق مـن مقدمة ابن الصلاح**» للحافظ العراقي.

* * *

*** المطلب الثاني ـ مؤلفاته التي لم تطبع:**

ويقول رحمه الله في ذلك: بقي من مؤلفاتي التي لم تطبع:

١ ـ «**الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**»: وهو حاشية على هذا الكتاب تبلغ (٤٠٠) صحيفة، وضعتها حين قرأتُهُ في المدرسة الخسروية؛ ليكون تذكرةً لي كلما قرأته أرجع إليه[1].

٢ ـ والتقطتُ من «**معجمِ البلـدانِ**» ليـاقوت الـبلادَ الملحقـةَ بولايـة حلـب، وكلامَهُ عليها، لكني لم أضع لهذه المجموعة اسماً.

٣ ـ وفي سنة (١٣٥٣هـ) وضـعت للإمـام الكمـالِ بـنِ العـديم مـؤرِّخِ حلـبَ ترجمةً خاصةً، وتكلمتُ علـى تاريخـه الكبيـر لحلـب، وهـي فـي (٨٠) صـحيفةً، دعوتها: «**ترجمة الكمال بن العديم، والكلام علـى تاريخـه العظـيم**»، نشـر منهـا (٦٠) صحيفة في مجلة الجامعة الإسلامية الحلبية.

٤ ـ في سنة (١٣٥٦هـ) وضعت «**رسـالةً فـي شـرح حـديث طـول آدم عليـه السلام**» المذكور في «صحيحي البخاري ومسلم»، والجواب عن الإشكال الذي

= ٣ ـ والثبتُ المسمى: منارَ الإسعادِ في طرق الإسناد، للعلامة المحدث أبـي محمـد الشيخِ عبدِ الرحمن بنِ عبـدِالله الحنبلـي الشـامي ثـم الحلبـي المتـوفى سـنة (١١٩٢هـ).

والمختصر هذا في مجلد واحد يتألف من (٤٤٧) صفحة.

(١) وهو كتابنا الذي بين أيدينا.

ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح البخاري» عند شرحه لهذا الحديث في كتاب بدء الخلق، وهي في (٢٠) صحيفة.

٥ ـ وفي سنة (١٣٥٦هـ) وضعت للحافظ الكبير أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) ترجمةً مسهبة في (٥٠ صحيفة كبيرة)، وبينتُ أنه كان أديباً كبيراً كما كان محدثاً كذلك.

٦ ـ وفي أواخر سنة (١٣٥٧هـ) وضعتُ مقالةً لتلقى محاضرة عنوانها «**السياسة في القرآن**» مفسراً فيها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦] مبيناً فيها أن القرآن العظيم مشتمل على آيات كثيرة تتعلق بالسياسة لمن تتبع ذلك وتدبره، وقد ألقيتها في نادي دار الأرقم، ونشرت في مجلة «الفتح» المصرية.

٧ ـ وفي سنة (١٣٥٨هـ) ألفت «**رسالة**» رددت فيها على من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم مات من السم الذي تناوله في الذراع الذي سمته له اليهودية، حتى قال بعض العلماء: إن الله جمع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين النبوة والشهادة، وفقدت، وتمت هذه الرسالة في (٢٢) جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ).

ولي مقالات كثيرة نشرت في «مجلة الحقائق» الدمشقية، و«مجلة المكتبة» المصرية، و«مجلة الزهراء» المصرية، و«مجلة الجامعة الإسلامية» الحلبية.

٨ ـ ومما نشرته في هذه في العدد (٣٦): «**تحقيقات هامة عن قبر أبي العلاء المعري**».

و«مجلة الاعتصام الحلبية».

٩ ـ ومن جملة ما نشرته في هذه المجلة، ما جمعته من «**شعر عمر بن حبيب**

الحلبي» الأديب المشهَّر من أعيان القرن الثامن.

١٠ ـ ورسالة «**الكنز المظهر في استخراج المضمر**» للعلامة رضي الدين محمد بن يوسف الحنبلي المؤرخ المتوفى سنة (٩٧١هـ)[١].

١١ ـ ومقالة عن «**رحلتي لطرابلس الشام**» في صفر من سنة (١٣٥٢هـ)، واجتماعي فيها بالعلامة الشريف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني الفاسي.

١٢ ـ ومحاضرة عن «**رحلتي لمسكَنَة (بالِس) والرُّصافة والرقة**» مع أعضاء لجنة العاديات نشرت في «مجلة العاديات»، مع غيرها نشرت فيها.

١٣ ـ ومحاضرة عن «**تاريخ المولد النبوي وعناية الأمة بالاحتفال به**» ألقيتها في نادي دار الأرقم.

١٤ ـ «**رسالة في العروض**» مقتضبة من «الكافي في علمَي العروض والقوافي» سهلت فيها تعلُّمَ هذا العلم في مدة وجيزة، وقرأتها غير مَرَّة.

١٥ ـ رسالة «**كشف الغَمّ عن حديثِ السُّمّ**» حررتُها سنة (١٣٥٨هـ).

١٦ ـ «**ذو القرنين والسد. من هو وأينَ هو؟**» حررتُها سنة (١٣٥٩هـ)[٢].

١٧ ـ «**القولُ الفصل في مقر العَقْل**» (رسالة) حررتُها سنة (١٣٦٠هـ).

---

(١) قلت: رضيُّ الدين العلامةُ المؤرخ محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنبلي الحلبي صاحب الزبد والضرَب في تاريخ حلب، ودُرر الحَبَب في تاريخ أعيان حلب، كلاهما مخطوطان، له اشتغال في الحديث ومصطلحه، وله مصنفاتٌ، وحذف اسم الأب والنسبة إلى الجد مباشرة فهو جائز، أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين عن نفسه فقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فحذف أباه عبدالله لاشتهار عبد المطلب أكثر، ورضيُّ الدين ولد بحلب سنة (٩٠٨هـ)، ومصنفاته تزيد على نيف وخمسين مصنف، توفي بحلب سنة (٩٧١هـ)، رحمه الله وإيانا آمين. اهـ.

(٢) طُبع في حياته رحمه الله.

١٨ ـ «**حسن الفهم لحديث الشؤم**» (رسالة) حررتُها سنة (١٣٦٢هـ).

١٩ ـ «**الثقافة الإسلامية**» (مجلد) سنة (١٣٦٣هـ)[١].

* * *

*** المطلب الثالث ـ مطبوعات المطبعة العلمية:**

ويقول رحمه الله: ما طبعته من الكتب الثمينة المفيدة في مطبعتي العلمية:

١ ـ «**الطب النبوي**» للحافظ ابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٥٧١هـ)[٢].

٢ ـ «**الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار**» للحافظ الحازمي المتوفى سنة (٥٨٤هـ)[٣].

٣ ـ «**السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين**» للحافظ الطبري المتوفى سنة (٦٩٤هـ)[٤].

٤ ـ «**الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير**» لأبي عثمان الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ)[٥].

٥ ـ «**مشكاة الأنوار في الأحاديث القدسية**» للشيخ محيي الدين بن عربي المتوفى سنة (٦٣٨هـ).

٦ ـ ويليه: «**الأربعون القدسية**» لملا علي القاري المتوفى سنة (١٠١٦هـ).

٧ ـ كتاب «**الفراسة**» لفيلمون الحكيم.

٨ ـ ويليه: «**جمل أحكام الفراسة**» لأبي بكر الرازي (٣١١هـ).

---

(١) طُبع في حياته رحمه الله.

(٢) وذلك سنة (١٩٢٨م).

(٣) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م).

(٤) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م).

(٥) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م).

٩ ـ **«السفينة النوحية في علم النفس والروح»** لأحمد بن خليل الخولي المتوفى سنة (٦٨٧هـ).

١٠ ـ **«النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنايع المحتاج إليها في علم الميقات»** لأبي الخير الأميوني من علماء القرن العاشر، وهو يبين عناية سلفنا بمختلف الصناعات.

١١ ـ **«بيان السنة والجماعة»** (عقيدة الإمام الطحاوي) المتوفى سنة (٣٢١هـ).

١٢ ـ **«القُرَبُ في فضل العرب»** للحافظ عبد الرحيم العراقي المتوفى (٨٠٦هـ).

١٣ ـ **«اللوامع الضيائية في نظم السراجية»** في علم الفرائض على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ للشيخ عبدالله الموقت الحلبي المتوفى سنة (١٢٢٣هـ).

١٤ ـ **«الإفصاح عن معاني الصحاح»** للوزير عون الدين يحيى بن حمد بن هبيرة المتوفى (٥٦٠هـ).

١٥ ـ **«دمية القصر وعصرة أهل العصر»** للأديب أبي الحسن علي الباخرزي.

١٦ ـ ويليه **«قطعة من ديوانه»**، المتوفى (٤٦٧هـ).

١٧ ـ كتاب **«فضل الخيل»** للحافظ عبد المؤمن الدمياطي المصري، المتوفى سنة (٧٠٥هـ).

١٨ ـ ويليه: **«رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد»** للشيخ محمد النجش الحلبي المتوفى سنة (١٠٩٨هـ).

١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ **«العقود الدريّة في الدواوين الحلبية»**، وهي ثلاثة دواوين لثلاثة من شعراء حلب في القرن الحادي عشر:

الأول: ديوان الشاعر الأديب أحمد بن الحسين الجزري. وقد قدمت أن هذا من جمعي.

الثاني: ديوان الشيخ فتح الله النحاس.

الثالث: ديوان الشيخ مصطفى البابي.

ومجموع هذه الدواوين (٤٠٠) صحيفة.

٢٢ ـ «**الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري**» للشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة (١٣٤٣هـ).

٢٣ ـ «**علوم الحديث**» المعروف بمقدمة ابن الصلاح.

٢٤ ـ «**شرحه: التقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من مقدمة ابن الصلاح**» للحافظ عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة (٨٠٦هـ)، وفي ذيل هذين تعليقات لي على المقدمة سميتها: «**المصباح على مقدمة ابن الصلاح**»، وقد قدمت ذلك.

٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ثلاث رسائل حديثية للحافظ البرهان إبراهيم الحلبي المتوفى سنة (٨٤١هـ).

الأولى: «**تذكرة الطالب المعلَم بمن يقال إنه مخضرم**».

الثانية: «**التبيين لأسماء المدلسين**».

الثالثة: «**الاغتباط بمن رمي بالاختلاط**».

الثلاثة في (٨٠) صحيفة.

٢٨ ـ «**المدخل في أصول الحديث**» للحاكم النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٥هـ)، في (٣٦) صحيفة.

٢٩ ـ «**معالم السنن**» للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، وهو شرح سنن الإمام أبي داود المتوفى سنة (٢٧٥هـ)، في أربعة أجزاء، وكان ختام طبعي له في سنة (١٣٥٣هـ).

وهذا الشرح أقدمُ شرحٍ ظهر لعالم المطبوعات من كتب الحديث؛ فإن وفاة الشارح ـ رحمه الله ـ كانت سنة (٣٨٨هـ)، ولا أعلمُ شرحاً من شروح كتب الحديث ظهرَ لعالم المطبوعات، وهو مؤلَّفٌ في القرن الرابع، قبل هذا، والحمد لله على توفيقه[١].

وبعد طبع هذا الكتاب إلى هذه السنة حين تحريري لهذه السطور، وذلك في سابع جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ) لم أطبع شيئاً، في حين أنه كان في النية أن أطبع كتباً كثيرة، هي من الأهمية بمكان، وكلها نفيسة من نفائس كتب المتقدمين، إلا أنه حال بيني وبين ما أشتهي أسباب متعددة.

* * *

*** المطلب الرابع ـ ما استنسخه بخط يده من الكتب:**

حيث يقول: ومما منَّ الله به عليَّ: سرعةُ الكتابة، وحبُّ النسخ، فمما نسخته:

١ ـ الجزء الأول من «**شرح العلامة الكواكبي الحلبي على منظومته**

---

(١) ومما يجدرُ ذكرُهُ هنا، وهو مما أنعم الله به عليّ: أنني عزمتُ بعد الاتكال على الله تعالى على الابتداء بطبع هذا الكتاب يوم الأربعاء الموافق للخامس من جمادى الثانية سنة (١٣٥١هـ)، ففي ليلتها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا طويلة، نسيت معظمها بعد الاستيقاظ، وفي ذلك علامة على القبول ـ إن شاء الله تعالى ـ، وصادف أني ليلةَ ختام طبعه رأيت الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ، وهو طويلُ القامة، خفيفُ اللحيةِ، أسمرُ اللونِ، يلبس جبة زرقاء إلى أنصاف ساقيه، تحتها ثوب إلى فوق كعبيه بقليل، ومعه شخص آخر يغلب على ظني أنه أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم، وللشك في هذا بينته؛ خشية أن أكون داخلاً تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «**ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»، وذلك أيضاً علامة القبول ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الفقهية»، وقد طبعت هذا الشرح كما تقدم.

٢ ـ و«**تاريخ الرضي الحنبلي**» المسمى: «**درُّ الحَبَب والدُّرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب**» المنسوب لابن الشحنة.

٣ ـ و«**متن منظومة الكواكبي**» الفقهية، وهي نحو خمسة آلاف بيت.

٤ ـ و«**متن المنار**» في أصول الفقه الحنفي.

٥ ـ و«**حِكَم ابن عطاء الله**».

٧ ـ و «**غريب القرآن**» للسجستاني قبل أن يطبع.

٨ ـ و «**منظومة السراجية**» المسماة بـ: «**اللوامع الضيائية**».

٩ ـ وكتاب «**الدلائل والاعتبار**» للجاحظ.

١٠ ـ وكتاب «**الفراسة**» لفليمون.

١١ ـ و «**كتاب الفراسة**» للرازي.

١٢ ـ وكتاب «**السفينة النوحية**».

١٣ ـ و «**ديوان الجزري**».

١٤ ـ و «**عقيدة الطحاوي**»، وهذه الكتب قد طبعتها، وهي مذكورة في عداد ما طبعته.

١٥ ـ و «**منظومة أبي الوفا الرفاعي**» في مزارات حلب، والترب التي دفنوا فيها، وهي منظومتان تخالف الواحدة الأخرى زيادةً ونقصاً.

١٦ ـ ورسالة «**العطائي**» في أدباءِ حلب في أول القرن الثاني عشر، وقد أدرجتها بتمامها في التاريخ.

١٧ ـ و «**متن القَطْر**» في النحو لابن هشام.

١٨ ـ و «**منظومة الجوهر المكنون في المعاني والبيان**».

١٩ ـ و «**منظومة الفُتَّني**» في الفرائض.

وهذه الثلاثة كنت استظهرتها.

٢٠ ـ وقطعة كبيرة من الحاشية المسماة بـ: «**المباحث العجائب**» للمولى أحمد أفندي الكواكبي، على شرح والده المسمى: «**إرشاد الطالب إلى منظومة الكواكب**» الذي طبعته على هامش شرحه لمنظومته الفقهية كما تقدم، والحاشية المسماة بـ: «**التقييد والإيضاح على مقدمة ابن الصلاح**» في (٢٧٠) صحيفة، نقلتها عن نسخة بخط الحافظ ابن حجر.

٢١ ـ وإحدى عشرة رسالة تتعلق بعلم الحديث، منها: «**المدخل**» للحاكم النيسابوري، وقد طبعته كما تقدم.

٢٢ ـ وفي سنة (١٣٥٥هـ) كتبت ملخص فهرس المكتبة الأحمدية، وهي أهم مكتبة مخطوطة في مدينة حلب، وهو في (٤٨) صحيفة.

٢٣ ـ وفي سنة (١٣٥٧هـ) كتبت مقالة «**نوادر المخطوطات**» المنشورة في السنة (٢٨) من «مجلة الهلال» بقلم صديقي المرحوم أحمد تيمور باشا المصري، وقد كنت استنسختها قبل ذلك بخطي وخط ابن أخي، وفُقدتْ من عندي.

ويضيف رحمه الله: وإذا أضفتَ إلى ذلك مسوداتِ تأريخي الكبير ومبيضته، ومؤلفاتي ومقالاتي التي نشرت في المجلات والجرائد، وما كتب من ذلك ولم ينشر، وما كتبت من الكتب التجارية وغيرها، وما نقلته من حسابات الدفاتر أثناء تعاطي التجارة من اليومية إلى الذمم، يبلغ ذلك ولا ريب أزيَدَ من مئة ألفِ صحيفة، ولذلك فإني حينما يُذكَر أولئك الناسخون في القديم، وكثرةُ ما نسخوه، لا أستغربُ ذلك، إلا أني لما وَهَنَ العظمُ مني، واشتَعَلَ الرأسُ شيباً، وعرض ذلك المرض الذي حصل في شعبان من سنة (١٣٤٨هـ)، ضَعُفَتْ مني تلك الهمة، وفترتْ تلك العزيمة، وأصبحتُ كما قال الشاعرُ:

أهمُّ بأَمْرِ الحَزْمِ لَو أسْتَطِيعُهُ ... وقد حِيْلَ بينَ العَيْرِ والنَّزَوَانِ

وأسألُ اللهَ تعالى حُسْنَ الخاتمةِ عند انتهاءِ الأجل، وأن يرحمني، ويعفوَ عن الخطأ والزلل، يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم، إنه سميع مجيب.

* * *

*** المطلب الخامس ـ ما صححه من الكتب: حيث يقول رحمه الله: ما صححتُهُ من الكتب:**

١ ـ ديوان أبي فراس: صححتُ نسخةً مطبوعة في بيروت من ديوان أبي فراس الحمداني على نسختين خطيتين من هذا الديوان موجودتين في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، فإن المطبوع كثير التحريف والغلط، وقد أصبح بعد تصحيحه مسودةً، وفي النسختين المخطوطتين زوائدُ كثيرة على المطبوع، فالتقطتها على حدة، والتقطتُ من بعض كتب التاريخ والأدب أبياتاً لأبي فراس، لا وجود لها في المخطوطتين، فبلغ مجموع الزوائد نحو (٨٠٠) بيت، أثبتُّ الجميع على حدة، ورتبتُ المطبوعَ على نَسَقِ المخطوطِ المرتَّبِ على الحروف الهِجائيّة(١).

---

(١) يقول رحمه الله: ورأيتُ في فهرس المكتبة السلطانية المصرية أن فيها شرحاً لهذا الديوان، لكن لم يذكروا اسم الشارح، فأرسلت فاستنسخته، فإذا في آخره أن مؤلفه فرغ من تأليفه سنة (١٠٧٥هـ)، فعلمتُ أنه من أدباء القرن الحادي عشر، فتتبعت «خلاصة الأثر» للمحبي، فتبين أنه لأحد أدباء دمشق يقال له: البَهَائي، فنقلت ترجمته في آخر هذا الشرح، وفي إحدى رحلاتي لدمشق ذاكرتُ الأديبَ الفاضلَ السيد أحمد عبيد المكتبي بشأن هذا الديوان، وتصحيحي له، والتقاطي للزوائد، واستنساخي لشرحه من مصر، وكيف اهتديت للوقوف على مؤلفه، فأعرب عن رغبته في طبعه، ولفتور همتي عن طبع الكتاب وافقته على ذلك، وأعطاني أجرة نسخ الشرح الذي استنسخته من المكتبة السلطانية في مصر، فأعطيته الديوان المصحَّحَ، وهذه الزوائدَ، وذلك الشرحَ مع سطورٍ متقطعة من ترجمة أبي فراس، ومنزلتِهِ بين الأُدباء، كان في نيتي أن أجمع شتاتها وأجعلها =

٢ ـ **جزء من «بغية الطلب في تاريخ حلب»**: في المدرسة الحسينية في الموصل جزء من تاريخ الإمام الكبير، والوزير الخطير، الكمال عمر بن أحمد بن العديم الحلبي، المتوفى سنة (٦٦٠هـ)، المسمى: «**بغية الطلب في تاريخ حلب**»، فأرسلت إليها فاستنسخته بواسطة الطبيب داود الجلبي مؤلفِ كتاب «**مخطوطات الموصل**»، أولُه ترجمةُ زهدمِ ابنِ الحارث، وآخره ترجمةُ سعيد بن سلام المغربي، ولما جاءني، صححت الغلط الكثير الذي فيه، ومراجعة مظانّ وجود هذه التراجم لأجل ذلك، على أن الكثير من التراجم التي فيه لم أجدها إلى الآن في غيره، ومنها ما تراه في غيره موجزة، وهنا مبسوطةً، ومع تصحيحي لغلطات كثيرة فيه لا يزال فيه بعض الغلط، وانظر ما كتبته على هذا التاريخ، وترجمة مؤلفه في الرسالة التي وضعتها خصيصاً في ذلك، وقد نشر من هذه الرسالة ستون صحيفة في تسعة أعداد من أعداد مجلة الجامعة الإسلامية الحلبية، وبقي منها عشرون صحيفة.

٣ ـ ٤ ـ **«القَصْدُ والأَمَم»، و«الإنباه على قبائل الرواه»**: وصححت هذين الكتابين الموجزين للحافظ ابن عبد البر الأندلسي، أرسلهما لي من مصر السيد حسام الدين القدسي الدمشقي ثم المصري، وكانا مختلطين كما بينه المومأ إليه في مقدمة النشر، فصححتهما، وميزت بين الكتابين على نسختين في الأحمدية والتكية الإخلاصية المعروفة الآن بتكية الشيخ بهاء الرفاعي.

٥ ـ **«الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» للحافظ السخاوي**: صححت منه جزءين بعد طبعه، وأرسلت ذلك لناشره السيد حسام الدين القدسي الكتبي، وقد أشار إلى ذلك في خاتمة الطبع في آخر الجزء الثاني عشر.

٦ ـ **«الكواكب السائرة» للغزي**: وفي شعبان سنة (١٣٦٧هـ) ابتعت الجزء

= مقدمةً للنشر، على أن ينسبها إليّ، وقد كان ذلك في صيف سنة (١٣٥٦هـ)، وإلى الآن ونحن في صيف (١٣٥٨هـ)، الموافق لآخر حزيران من سنة (١٩٣٩م)، ولم يباشر بطبعه.

الأول من «**الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة**» للنجم الغَزِّي الذي نشره الأديب سليمان جَبُّور أحد أساتذة الكلية الأمريكية في بيروت، وفي رمضان منها صححت هذا الجزء، فبلغت أغلاطه ست صفحات، وأرسلتها إليه، ووعد بنشرها في الجزء الثاني.

٧ ـ تصحيحي الجزء الأول من «مبسوط السرخسي»:

وعلى أثر تعييني عضواً في جمعية المعارف النعمانية في الهند، أرسلتْ لي الجزء الأول من مبسوط السرخسي مخطوطاً، فصححته على الجزء الموجود في مكتبة الأحمدية بحلب، المعنون فيها بكتاب الإمام محمد، وهو جزء من مبسوط السرخسي، وغرض الجمعية تصحيح جميع كتاب المبسوط، ثم إعادة طبعه؛ لأن المطبوع كثير الغلط.

وصححت بنفسي جميع الكتب التي طبعتها في مطبعتي من مؤلفاتي، ومما نشرته من غير مؤلفاتي، وصححتُ مما طبع في مطبعتي على نفقة أصحابه كثيراً من الكتب، منها: «**قبس الأنوار**»، وهو ترتيب «مسند الشهاب القضاعي» للشيخ محمد العربي المغربي نزيل بيروت.

* * *

*** المطلب السادس ـ ما استُنسخ بواسطته من الكتب للآفاق: ويضيف رحمه الله:**

١ ـ أول ما استُنسخ بواسطتي من الكتب للآفاق: أجزاءٌ ثلاثة أو أربعة من «**تاريخ دمشق**» لابن شاكر الكتبي؛ فإن هذا التاريخ منه أجزاء في الظاهرية بدمشق، وأجزاء في الأحمدية بحلب، فاستنسخ الوجيه الأديب السيد وجيه أفندي الكيلاني ـ رحمه الله تعالى ـ الأجزاء التي في دمشق، واستعلم مني عن الأجزاء التي في حلب، ثم استنسخ منها ما كان غير موجود عنده، وأظن أنه من النسختين لا يكمل نسخة واحدة، فاستنسخ ما نقصه من مكتبة أخرى، فكَمُلتْ نسختُه الخطية، وبلغني أنها بيعت بعد ذلك لمكتبة الأمة في باريس.

٢ ـ واستُنْسِخَ بواسطتي كتاب «**مختصر طبقات المحدِّثين**» لابن عبد الهادي الحنبلي، استنسخه الشيخ منير الدمشقي.

٣ ـ واستُنسخ الأول والثاني والثالث من «**البداية والنهاية**» لابن كثير الدمشقي، برسم الشيخ فرج الله زكي الكردي، والسيد أمين الخانجي الكتبيين بمصر عن نسخة تامة في مكتبة الأحمدية هي في (١٠) مجلدات، واكتفى بالأجزاء الثلاثة التي وصل فيها إلى حوادث سنة (٩)؛ لوجود نسخ في مصر كافية.

٤ ـ واستنسخ أيضاً الجزء الأول من «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم الأصفهاني، هو في مكتبة الأوقاف الموضوعة في المدرسة الشرفية إلى السيد أمين الخانجي المومأ إليه.

٥ ـ واستنسخ جزء من «**المحلى**» لابن حزم، الموجود في مكتبة الأحمدية برسم الوجيه الفاضل عين أعيان جُدّة السيد محمدأفندي نصيف.

٦ ـ واستنسخ «**المعربات**» للجواليقي عن نسخة في الأحمدية، برسم الأديب المفضال السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأستاذ في جامعة عليكره في الهند.

٧ ـ واستُنسخ «**أصول السرخسي**» عن نسخة في مكتبة الأحمدية بحلب، وقوبل على نسخة في مكتبة العثمانية إلى جمعية إحياء المعارف النعمانية التي يرأسها الشيخ أبو الوفا.

٨ ـ واستنسخ برسم هذه الجمعية «**شرح الجامع الكبير**» للعتابي، وقد طبعت الجمعية الجامع الكبير في مصر، وحضر منه نسخ إلى حلب.

٩ ـ واستنسخ بواسطتي «**ذيل القطب اليونيني في التاريخ**» عن المجلد الموجود في مكتبة الأحمدية برسم المستشرق «د. س. مرجليوث» في لندن في «جامعة أكسفورد»، وهو أحد أعضاء مجمعنا العلمي العربي.

* * *

* **المطلب السابع ـ ما نشرَه وطبعَه خارج مطبعته العلمية: حيث يضيف: نشري لشرحَي العلامة محمد بن الحسن الكواكبي الحلبي المتوفى سنة (١٠٩٦هـ) على منظومتيه في الأصول والفروع:**

سببُ نشري لهذين الكتابين: أن عندي الجزء الثاني من شرح هذا العلامة على منظومته في الفقه الحنفي بخط قديم، وكنت كلما طالعت فيه ازددتُ به شغفاً؛ لسلاسة نظمه، وسُهولةِ شرحِه، فعوَّلتُ على إكمال النسخة، وتحرير الجزء الأول عن نسخة في مكتبة المدرسة العثمانية بحلب، وتم لي ذلك في سنة (١٣١٨هـ).

وفي ذلك الحين استنسخ السيد عبد القادر الكواكبي من ذرية المؤلفِ نسخةً عن هذه النسخة، واستنسخ شرح العلامة المذكور على منظومته في الأصول عن نسخة في مكتبة المدرسة الأحمدية، وقابلها على نسخة أخرى هناك، فخابرتُ الشيخ فرج الله زكي الكردي من أرباب المطابع في مصر، وأرسلت له نسخَتَي السيدِ المذكور، فباشر بالطبعِ سنةَ (١٣٢٢هـ)، وكمل سنة (١٣٢٧هـ)، وانتشر الكتاب في ذلك الحين. وانظر ذلك في ترجمة المؤلف في الجزء السادس من تاريخي **(إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)**، وانظر ما كتبته في آخر الجزء الثاني من الشرحين المذكورين.

* * *

المبحث الثَّالث

المناصب التي تقلدها

لا يخفى على أحد أن هذه الشخصية العلمية ـ التي تحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، وتعد الشخصيةَ الأبرز في وجاهة بلده ـ لا بُدَّ لها من أن يُسند بعض المهام والمناصب، سواء من قبل الحكومة، أو من قبل الهيئات والمؤسسات الاجتماعية أو الخيرية، أو من قبل وجهاء البلد أنفسهم، فأهم تلك المناصب:

١ ـ تعيينه عضواً في «غرفة تجارة حلب»:

ويقول: كنتُ مع اشتغالي بالتحصيل أتعاطى صنعة طبع المناديل التي تسمى عند العامة (بالبصمه جي)، وهي صنعةُ آبائي وأجدادي، وأتعاطى معها مع إخوتي التجارة للبلاد السورية والمصرية والحجازية والعراقية، فلِما لي من العلاقة التجارية انتخبت سنة (١٣٣٤ هجرية) عضواً في «غرفة تجارة حلب» التي كان مقرها في «خان العلبية»، وهو الخان الذي كان فيه حانوتنا للتجارة، ثم انتقلت الغرفة «لخان البنادقة»، وكان الذي رغب في انتخابي عضواً، وسعى في ذلك، الوجيهُ الشهير الحاج فاتح أفندي المرعشي الذي كان رئيس الغرفة في ذلك الوقت، ولما حصل الانتخاب الداخلي بين أعضائها، انتخبتُ معاوناً ثانياً للرئيس، ولما انتهت مدة الانتخاب المعينة في قانون الغرفة، وهي ست سنوات، وذلك في سنة (١٣٣٧هـ، وسنة ١٩١٩م) انتخبت لها مرة ثانية، وفي الانتخاب الداخلي عينت معاوناً أول، وبقيت إلى انتهاء المدة، وذلك في سنة (١٣٤٣هـ في ٢٤ شعبان، الموافقة لسنة ١٩٢٥م) في تاسع آذار، والرئيس في هذه المدة كلها هو المومأ إليه فاتح أفندي.

ولما أرادوا انتخابَ أعضاءٍ لها في هذه السنة، وهي سنة (١٣٤٣هـ)، قصد الكثير انتخابي للمرة الثالثة، فرجوت ألّا يفعلوا، وذلك لكثرة أشغالي، واشتغالي وقتئذٍ بالدروس التي أنيطت بي في المدرستين: الخسروية العلمية، والفاروقية التجهيزية، وبالرغم عن ذلك، فقد انتخبني الكثيرون لها، لكني لم أنل الأكثرية، وذلك لما قدمت من رجائي للكثيرين ألّا يفعلوا، ولو نلتها لقدمت استعفائي؛ وذلك لما قدمته.

٢ ـ تعيينه عضواً في دائرة الأوقاف أولاً وثانياً في المجلس الإداري:

في سنة (١٣٣٧هـ، و١٩١٩م)، أو التي بعدها، عينت عضواً في دائرة الأوقاف في اللجنة التي ترى فيها حسابات المتولين، ويقرر فيها على الإنشاءات التي تحصل في عقارات الأوقاف المضبوطة أو الملحقة.

وكان مدير الأوقاف وقتئذٍ مرعي باشا الملاح ـ رحمه الله تعالى ـ وهو الذي سعى في ذلك، غير أني لم ألبث أن استعفيت منها، وكانت مدتي فيها أقل من سنة على ما أذكر، فإني لم أقيد ذلك عندي.

ثم انتخبت إليها ثانية، وذلك في سنة (١٣٤٠هـ، و١٩٢١م) في شهر أيلول، وكان قد عين مديراً لها السيد يحيى أفندي الكيالي.

وعلى أثر ذلك وفقني الله وإياه لافتتاح المدرسة الخسروية العلمية، وتنظيم برنامجها، وشاركَنا في ذلك الأستاذُ الصديق المرحوم الشيخ محمد الحنيفي، وقصد المدرسة الطلابُ من كلِّ صوب، وقد تكلمت على ذلك في الجزء الثالث من التاريخ في الكلام على المدرسة الخسروية[1].

وقرر وقتئذٍ أن تكون صفوفها اثني عشر صفًّا؛ ليخرج الطالب المجد منها وقد امتلأ وعاؤهُ علماً، إلا أن المراقب العام للأوقاف الإسلامية الذي كان مقرُّه في بيروت، أرجعها إلى ستة صفوف ـ عليهِ من الله ما يستحق ـ إلا أني لم أَيْئَسْ من إيصالها إلى ما قرر عليه، أو إلى أحد عشر صفًّا، وقد وضعتُ برنامجاً لها بالاشتراك مع بعض الإخوان، وهم: الأستاذ العلامة الشيخ أحمد الزرقا، وولدُهُ الشاب النجيب الفاضل الشيخ مصطفى، والأستاذ الشيخ أسعد العبجي مدرسُ الفقه الشافعي والنحو في المدرسة المذكورة، والشابُّ النجيب الفاضل معروف الدواليبي، وبيَّضْنَا صورةً منه وقَّع عليه أساتذة المدرسة الخسروية، وقدِّمت لقاضي حلب الحالي الشيخ عزيز أفندي الخاني، وذلك سنة (١٣٤٨هـ)، ولا أزال أسعى مع بعض الإخوان في إبراز ذلك لحيز العمل، ومن الله التوفيق.

٣ ـ تعيينه عضواً في دائرة الأوقاف في المجلس العلمي:

في (١٤) شوال سنة (١٣٦٢هـ) الموافق (١٣) تشرين الأول سنة (١٩٤٣م) عينت عضواً في المجلس العلمي في دائرة الأوقاف بموجب قرار صدر من رئاسة

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٥).

مجلس الوزراء مؤرخ في (١٠) تشرين الأول من هذه السنة، وعين معي الشيخ أحمد سراج الدين المحامي، فاستعفينا جميعاً، فقُبِلَ استعفاؤهُ، ولم يُقبل استعفائي، وصدر القرار ثانياً بتعييني وتعيين الشيخ نجيب الخياطة، وذلك في (٤) ذي الحجة سنة (١٣٦٢هـ)، و(١) كانون الأول سنة (١٩٤٣م)، وأولُ جلسةٍ جلستُ فيها أنا والشيخ نجيب كانت في (١٨) ذي الحجة سنة (١٣٦٣هـ)، و(١٥) كانون الأول سنة (١٩٤٣م).

ثم قدمت استقالتي في (١٢) ربيع الثاني سنة (١٣٦٣هـ)، و(٦) نيسان سنة (١٩٤٤م)، ثم قدمتها في (٣) جمادى الأولى سنة (١٣٦٣هـ)، و(٢٧) نيسان سنة (١٩٤٤م)، ثم في (١٩) تموز سنة (١٩٤٤م)، ثم في (٢٢) رمضان سنة (١٣٦٣هـ)، و(٣٠) آب سنة (١٩٤٥م)، وفي الجميع لم تقبل استقالتي، وكنت أوافق على الرجوع أملاً بالقيام بأعمال تستحق الذكر في هذا المجلس، وإصلاح لبعض أوضاعِهِ، فلم يحصل ما أتمناه، فقدَّمتُ استقالتي في (٢٧) جمادى الثانية سنة (١٣٦٦هـ)، الموافق (٧) أيار سنة (١٩٤٧م)، وكان مدير الأوقاف الشيخ أحمد القاسمي الدمشقي، فكتبَ لي الجواب بتاريخ (٢٥) أيار سنة (١٩٤٧م) يعتذر عن قبول الاستقالة، ويؤمل عودتي، لكني لم أعد، وصممتُ على ذلك.

٤ ـ انتخابه عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى:

وفي ربيع الثاني من سنة (١٣٤٠هـ) وكانون الأول سنة (١٩٢٢م) انتخبت عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى الذي انعقَدَ في دمشق للمرة الأولى، وهو مؤلَّفٌ من قضاة الولايات الأربع (الشام، حلب، بيروت، اللاذقية)، ومعهم أعضاء أربعة، من كل ولايةٍ واحد، وأعضاء أربعة أيضاً حضروا بعد. وكان انعقاده في جمادى الأولى من هذه السنة، وفي كانون الثاني من تلك السنة، وبقي شهراً.

والغرض من انعقاده النظر في المواد التي وُضعت لنظام الأوقاف الإسلامية، وتحويرها، وزيادة ما يقتضى زيادته عليها، والنظر في الميزانية العامة لكل ولاية، ولدائرة المراقبة، ولغير ذلك. وقد انصرفتْ همتي لوضعِ موادَّ تتعلق بإصلاح

المدارس العلمية، والمكاتب المخطوطة التي في حلب، تعلم من تصفح هذا النظام، وقد طبع في بيروت. ولو عُمِلَ بجميع ما فيه لرأينا مدارس الشهباء ومكاتبها الأحمدية والعثمانية والمولوية وغيرها على غير الحالة التي نراها عليه الآن، لكن ويا للأسف ظلت تلك القرارات حبراً على ورق، لم يعمل إلا بالقليل منها، وإلى الله المشتكى.

ومن جملة هذه القرارت: التصديقُ على بقاء «خان قورط بك» الموقوف على المدرسة الخسروية للمدرسة الخسروية، وأنه حق ثابت لها.

انظر قضية هذا الخان الهامة في الكلام على هذه المدرسة في الجزء الثالث من تاريخنا[1]. وأخيراً أعيد إدارةً للمدعين به من قبل السلطة الإفرنسية، والغاية من ذلك إضعاف ريع هذه المدرسة؛ ليكون ذلك وسيلة لعدم زيادة صفوفها على ستة.

٥ ـ تعيينه مدرساً للكلية الفاروقية بحلب:

وفي سنة (١٣٣٧هـ) عُيِّنت مدرساً للغةِ العربية والإنشاء والعلوم الدينية والمحليَّة، في مدرسةِ شمس المعارف الأهلية التي سميت بعد ذلك بالكلية الفاروقية التجهيزية، ومديرها وصاحبها السيد عبدُ الغفور أفندي المسوتي، وبقيت فيها إلى سنة (١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م)، ثم تركتها لإلغاء الصفوف العالية فيها لأسبابٍ ماليةٍ وغيرها.

٦ ـ تعيينه في المدرسةِ الخسروية:

وحينما افتُتحتِ المدرسةُ الخسروية بالتاريخ المتقدم، وهو سنة (١٣٤٠هـ، و١٩٢١م)، أو قبل ذلك بقليل، عُيِّنتُ لتدريس السيرة النبوية والأخلاق، وفي سنة (١٣٤٢هـ) أضيف لي إلى ذلك درس التفسير والحديث في بعض الصفوف، ثم خصصت سنة (١٣٤٣هـ) بتدريس الحديث النبوي في الصفوف التي يدرس

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٥).

فيها الحديث وعلومه، وذلك من الصف الثاني إلى الصف السادس الذي هو منتهى الصفوف الموجودة فيها الآن، وبتدريس السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، ولا أزال على ذلك إلى حين كتابة هذه السطور، وذلك سنة (١٣٥٨هـ، و١٩٣٩م).

٧ ـ تعيينه عضواً للمجمع العربي في دمشق:

وفي سنة (١٣٤١هـ) وسنة (١٩٢٣م) في آذار منها عينت عضواً للمجمع العربي في دمشق مع الأعضاء المعينين له من الشهباء، ولي في مجلته التي يصدرها المجمع رسائل كثيرة، يرجع معظمها لتحقيق مسائل تاريخية، ووصف كثير من الكتب المخطوطة الهامة، وقد صدر منها إلى سنة (١٣٥٦هـ) و(١٩٣٧م) خمسة عشر مجلداً، وآخر مقالة لي فيها مقالة (دُور الكتب في حلب قديماً وحديثاً) نشرت في الجزء الثامن من المجلد الخامس عشر[١]، وهي محاضرة ألقيتها في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية حينما نُقلت من مكانها الصغير الضيق في «خان الكمرك» إلى بناية الأوقاف الكبيرة، التي بالقرب من الجسر الجديد خارج باب الفَرَج.

٨ ـ ذهابه مع وفد لبيروت في قضية المدرسة الخسروية، وكنت أحد أعضائه:

في السنين الأخيرة بذَّرت دائرةُ الأوقاف، والمراقبُ العام ومن يلوذ به في أموال دائرة الأوقاف بحلب، وامتدت يد هؤلاء إلى الأموال التي فيها من الواردات التي تديرها أمانةً.

ولما كَثُرَ اللغط فيها، وأكثرت الجرائد في كتابة المقالات عنها، عندئذٍ أحبَّت أن تتدارك ذلك الخلل، وتقتصد في هذه الأموال؛ لتقابل بين الواردات والصادرات، فأوعزتْ إلى بعض المنتسبين للعلم الذين عُينوا للَجْنة الأوقاف، في جمادى الأولى من سنة (١٣٤٧هـ الموافقة لسنة ١٩٢٨م) أو قُبيل ذلك، أن تخففَ من

---

(١) ينظر: «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق» (١٥/ ٨/ ٢٩٩ ـ ٣١٠)، وكانت هذه المحاضرة بتاريخ (١٨ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ ـ ٢٦ تموز ١٩٣٧م).

رواتب أرباب الشعائر من إمامٍ وخطيبٍ ومؤذنٍ وخادمٍ، مع أن المُعَيَّنَ لهـم يكـادُ لا يَسُدُّ الرَّمَقَ، وأن تقلل من صفوف المدرسة الخسروية، ومن رواتبها ـ على قلتهـا أيضاً ـ وهذا التقليل ـ ولا ريب ـ يفضي إلى إغلاق المدرسة، والقضاء على العلوم الدينية ـ على ضعفها ـ عند ذلك نهض مدرسو المدرسة، وأرباب الشعائر، وعَقَدُوا عدة اجتماعات في المدرسة الخسروية وغيرها، وأرسلوا عدة برقيات إلـى المراقبـة العامة، ثم عوَّلوا على انتخاب وفدٍ يرسل إلى بيروت يسعى في عزل هذا العضـو الذي كانت له اليد الطولى في هذه الحركة، وكان ذلـك، وانتُخِـبَ هـذا الوفـد مـن ثلاثة هم: الشيخ عمر المرتيني، والشيخ أحمد الزَّرقا، وهذا العـاجزُ، وتوجهنـا إلى بيروت يوم الأحد الموافق للرابع عشر من جمادى الثانية سنة (١٣٤٧هـ) الموافق للسادس والعشرين من تشرين الثاني سنة (١٩٢٨م)، وبقينا في بيـروت عشـرين يوماً، وقد وفق المولى تعالى لعزل هذا العضو من اللجنة، وأُبقيتْ رواتـبُ أربابِ الشعائـرِ وصفوفُ المدرسة ورواتبُها على ما هي عليه، وللهِ الحمدُ.

٩ ـ تعيينه عضواً في دار الأيتام الإسلامية:

وفي رجب من سنة (١٣٥٠هـ) عينتُ عضواً في دار الأيتام الإسـلامية الكائنـة في محلة السليمية، وهي تضم بين جدرانها (١٧٠ يتيماً)، وبقيـتُ سـنة وأشـهراً إلى نحو غاية ذي الحجة من سنة (١٣٥١هـ)، ولما حُدِّدَ الانتخابُ سـنة (١٣٥٢هـ)، رجوتُ الإخوانَ، واعتذرتُ لهم بكثرة أشغالي، فقبلوا عُذْري، فلم أُنْتُخب.

وفي سنة (١٣٥٣هـ) جُدِّدَ الانتخابُ، فانتخبتُ للمرة الثانيـة، فبقيـتُ إلـى سنة (١٣٥٦هـ)، ولما جدد الانتخابُ رجوتهم ألّا ينتخبوني، واعتذرتُ لهـم بكثـرة أشغالي العامة والخاصة، وبينتُ لهم ذلكَ، فَعَذَرُوني.

١٠ ـ تعيينه عضواً في جمعية المعارف النعمانية في الهند:

أرسل لي رئيس هذه الجمعية الشيخ أبو الوفا المدرِّسُ بالمدرسة النظاميـة فـي حيدر آباد الدكن في حارة شبلي كنج أن أكون عضواً في جمعية إحيـاء المعـارف

النعمانية (أي: إحياء كتب مذهب أبي حنيفة النعمان، رضي الله عنه) فكتبت له كتاباً مؤرخاً في (١١) جمادى الأولى سنة (١٣٥٤هـ) بالموافقة على ذلك.

١١ ـ تعيينه عضواً في جمعية عاديات حلب:

في (٦) أيار سنة (١٩٣٦م)، الموافق (١٥) صفر سنة (١٣٥٥هـ)، عينت عضواً في جمعية عاديات حلب التي تَرَأَّسَها بعد وفاة الشيخ كامل الغزي الطبيبُ عبدُ الرحمن الكيالي، وعلى أثر ذلك قام معظم أعضائها برحلة إلى مسكنة (بالس) فالرصافة، فالرقة، وبعد حضورنا بأيام كتبت مقالة عن هذه الرحلة نشرت في «مجلة العاديات»، وقد تقدمت الإشارة لذلك.

١٢ ـ تعيينه مديراً للمدارس العلمية:

وفي (١٩) كانون الثاني سنة (١٩٣٧م)، الموافق (٨) ذي الحجة سنة (١٣٥٥هـ)، عينت مديراً للمدارس العلمية الدينية، ومقر إدارتها المدرسة الخسروية، وقد وفقني المولى لإصلاح أمور كثيرة فيها، سآتي على ذكرها، على أنه لو كان هناك دائرة أوقاف تُصغي لصوت الإصلاح، وأمةٌ تعاضد في ذلك، لقمت بأعمال أكثر من ذلك، ولكن إذا عظم المطلوب، قلَّ المساعد، بل بالعكس، هناك فئة تعارضك في كل إصلاح أردته؛ لما فيه من القضاء على مصحلتها الخاصة، وقلَّ في الناس من يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، والغَرضُ ـ كما يقولون ـ مرضٌ، وإلى الله المشتكى.

ثم سعيتُ في استعفائي من المديرية لأسباب يطول شرحها، أهمها المعاكسةُ، وعدمُ المؤازرة التي لاقيتها من يحيى الكيالي وقتئذٍ، فقد تغيرت أحواله وأوضاعه كثيراً عن المرة الأولى لمديريته، التي كانت منذ خمس وعشرين سنة، ولو بسطت ذلك لطال ذيل الكلام، وقال لي بعض محافظي حلب: إن ذلك لكبر سنه، وأدى الحال به إلى إحالته على التقاعد، فاستراح وأراح، ويصدق عليه قول الشاعر:

تولاّها وليسَ له عدوٌّ   وفارقَها وليسَ لهُ صديقُ

وكلمتُ بعض الأصدقاء، فسعى لدى مدير الأوقاف العام السيد جميل بك الدهان في قبول استقالتي، وذلك في (٧) صفر سنة (١٣٦٤هـ)، الموافق (٢١) كانون الثاني (١٩٤٥م)، فتكون مدة بقائي في مديرية المدارس العلمية ثمان سنين، وأبقى لي راتب المديرية لقاء ساعات زيدت لي في دروسي.

١٣ ـ تعيينه رئيساً لجمعية البر والأخلاق الإسلامية:

وفي غرة صفر من سنة (١٣٥٦هـ)، الموافقة لـ (١١) نيسان سنة (١٩٣٧م)، عينت رئيساً لجمعية البر والأخلاق الإسلامية. وعين أيضاً:

١ ـ الشيخ مصطفى الزرقا، نائباً للرئيس.

٢ ـ الشيخ معروف الدواليبي، أميناً للسر.

٣ ـ الحاج نديم الوفائي، التاجر، أميناً للصندوق.

والباقي، وهم:

١ ـ الشيخ أحمد سراج الدين.

٢ ـ الشيخ محمد بلنكو.

٣ ـ الشيخ أحمد المعود.

٤ ـ المحامي السيد عبد القادر السبسبي.

٥ ـ الطبيب توفيق المصري.

٦ ـ التاجر الحاج أحمد الأسود.

٧ ـ التاجر الحاج صلاح شربجي.

٨ ـ التاجر بكور قضيب البان.

٩ ـ التاجر الحاج عبد الوهاب حمدية.

هؤلاء أعضاء.

وقد قامت الجمعية بأعمال مهمة تضمنتها البيانات التي نَشَرَتْها، ومن أهم

أعمالها: تأسيس قاعة المدرسة الشرفية محلًّا لإلقاء محاضراتها، ومَقَراً لأعضاء إدارتِها.

١٤ ـ ذهابه لدمشق مع وفد كبير من علماء وأطباء وزعماء حلب:

في (٢٨) ربيع الأول سنة (١٣٥٠هـ)، و(٣١) تموز سنة (١٩٣٢م)، انتُدبتُ للذهاب إلى دمشق مع وفد كبير من علماء وأطباء وزعماء حلب، ورافقنا من حماة وحمص وفد منهما بلغ عدد الجميع أزيَدَ من (١٥٠) رجلاً، وذلك لأمور تتعلق بالبلاد السورية، خصوصاً أمور الأوقاف، وهناك دعينا لدار رئيس الجمهورية وقتئذٍ محمد علي بك العابد، وألقيتُ يومئذٍ (١٥) خطبة في مواضيع متعددة، وافقت الحكومة على البعض منها في الحال، والباقي دخل في خبر كان.

١٥ ـ ذهابه أيضاً لدمشق لحضور مؤتمر العلماء:

وانتُدبتُ لحضور مؤتمر العلماء الذي انعقدَ بمدينة دمشق في المدرسة الكاملية التي في البزورية، وكان توجهي مع زمرة من علماء حلب ليلةَ الأحد الموافقة للتاسع من شهر رجب سنة (١٣٥٧م)، والرابع من شهر أيلول سنة (١٩٣٨م)، وفي ليلة الثلاثاء حضرنا مع جمع غفير افتتاح المدرسة المتقدمة الذكر، وافتتاح نادي جمعية العلماء في المدرسة المومأ إليها، وفي يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر رجب والسادس من أيلول بعد الظهر انعقد مؤتمر العلماء، وصار يوالي الجلسات إلى يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من شهر رجب، والتاسع من شهر أيلول، ففيه قبيل صلاة الجمعة اختتم المؤتمرُ، وقُرر في هذه الأيام الأربعة (١٥) قراراً تتعلق بالأوقاف، والقضاء الشرعي، وإصلاح المدارس الدينية، ومستقبلِ طلاب العلوم الدينية، وغير ذلك، وقد نَشَرَتِ الصحف هذه القرارات، وطُبعتْ من قبل المؤتمر على حدة.

وفي مساء الأحد الموافق للسادس عشر من رجب، والحادي عشر من

أيلول، عُدت إلى حلب، وقد ذهب معي في هذه الرحلة ولدي محمد توفيق، وهو في السنة الحاديةَ عشرةَ من عمرِهِ ـ وفقه الله تعالى وأنبتهُ نباتاً حسَناً ـ .

* * *

المبحث الرابع

علاقته بالسياسة والصحافة والمستشرقين

*** المطلب الأول ـ انتسابه لجمعية الاتحاد والترقِّي التركية، وتعيينه عضواً في المعارف، وسعيه لإدخال اللغة العربية في مدارس الحكومة:**

قلت آنفاً: إن آخرَ من قرأتُ عليه من العلماءِ: الفقيهُ الكبيرُ الشيخُ محمد أفندي الزَّرْقَا، وإني لازمته من سنة (١٣٢٢هـ إلى أواخر سنة ١٣٢٧هـ)، ثم تركت الحضورَ، وسببه أنه قبل ذلك بسنتين كان أُعلِنَ الدستورُ العثماني في البلاد العثمانية، وهو حادثة تاريخية مهمة أُلِّفَ فيها عدةُ كتبٍ، وأُطْلِقَتْ من ذلك الحين الأفكارُ من عِقَالِها، وقد كان الحابس لها السلطان عبد الحميد خان الثاني، كما هو مُسَطَّرٌ معلومٌ في كثير من الكتب والمجلات والجرائد، ووقتذٍ هَبَّ الناسُ لإصلاح الفاسد من أمور الدولة العثمانية من أحوالها الإدارية والعلمية، فانتظمتُ وقتئذٍ في «جمعية الاتحاد والترقي» التي كانت تَعْقِدُ اجتماعاتها في ناديها الذي اتَّخَذَتْهُ في الطابق العُلْوي من «خان قورط بك» المشهور، وبلغَ عددُ رجالِ الجمعيةِ من رجال الشهباء، وبعض المأمورين الملكيين والعسكريين نحو (٥٠٠) شخص.

وبعد دخولي بمُدَّةٍ وجيزة رأيتُ أن القابضين على زمامِ الجمعيةِ هم من الأتراكِ المُتَصَلِّبينَ في تركيتهم، فكانت القراراتُ والأوامرُ التي تأتي وقتئذٍ من «سلانيك» مركز جمعية الاتحاد والترقي، وكذلك الخطب التي تلقى في النادي جميعُها بالتركية، فكان الكثيرُ منا؛ لعدم معرفتِهِ بالتركية، أو لإلمامه القليلِ فيها،

لا يَدْري ما يُقَالُ، ولا ما يجري هناك من الأحوال.

دعتني هذه الحالةُ أن أسعى مع بعض إخواني إلى أن قررتِ الهيئةُ الإداريةُ في الجمعية أن تترجمَ هذه القرارات، وأن تُلقي ترجمةَ تلك الخطب بالعربية، بل وحَمَلْنا الجمعيةَ على ترجمة نظامها إلى العربية، وترجمَهُ وقتئذٍ صديقُنا الفاضلُ المرحوم الشيخ محمد الحنفي الذي كان من أعضاء الجمعية وأركانها، ولا تزال تلك الترجمةُ بخطه عندي؛ لأنه أحب أن أمرّ بنظري عليها بعد الترجمة، وقد طُبع هذا النظام في حلب في «المطبعة البهائية»، التي كانت أمام دار الحكومة القديمة، ووُزِّعَ على الأعضاءِ.

وكنت على وقوفٍ تامٍّ من حالة اللغة العربية في المكاتب الابتدائية والرشدية، والمكتب السلطاني الكبير المبني في محلة الجميلية، حيث إنها كانت اسماً بلا جسم، لا عناية بها مطلقاً، فكان يخرج العربي ابن البلاد العربية منها وهو لا يعلم شيئاً منها إلا تلك الكلمات التي يتحدث بها في بيته وبين بني جلدته، وكانت العربية محصورةً بين جدران المدارس الدينية، بل كان العلماءُ في الشهباءِ في القرن الماضي إلى أوائل هذا القرن قليلي العناية بالكتابة، اللهم إلا أفراداً لا يبلغون عددَ أصابعِ الكف، كانوا يعانون شيئاً من الأدب والمحاضرات، والباقون قَصَرُوا معرفتَهم على معرفة قواعد النحو، وعلى الفقه، ووقفوا عند هذا الحد.

وكان في ذلك الوقتِ صديقي السيد نجيب الباقي في وظيفته مفتش المعارف في ولاية حلب، وهو من محبي اللغة العربية، والراغبين في إحيائها، غيرَ أن الوظيفة وقتئذٍ كانت تحول بينه وبين المجاهرة بمطالبة الحكومة في العناية بها وإحيائِها، فسعى (وقد علم مني رغبةً عظيمةً في إحياء هذه اللغةِ بواسطةِ مساعدتي له مساعدةً أدبية في «مدرسة الأهلية»، التي كان افتَتَحها هو قبلَ ذلكَ، وسمَّاها وقتئذٍ: شمسَ المعارف) عند انتخاب أعضاءٍ لمجلس المعارف، في ولاية حلب، في انتخابي إليه، وتم له ما أراد، وعُيِّنْتُ عضواً فيه في شهر ذي القعدة

سنة (١٣٢٨ هجرية).

بعد تعييني أقنعتُ من كان هناك من الأعضاء من أبناءِ العـربِ، كـلٌّ علـى حدة، وثَنَّيْتُ بمن كان هناك من الأعضاء الأتراك، أخص منهم بالذكر حميد بـك نجلَ المرحوم جميل باشا والي حلب، وسعدَ الدين أفندي الذي كان شـيخاً للتكيـة المولوية، ثم طرحت ذلك في المجلس، وبينتُ لهم حالة اللغة العربية في المدارس الابتدائية، ولزومَ النظرِ في هذه القضية الهامَّةِ، واقترحتُ زيارة بعض هذه المـدارسِ للنظر فيما آلتْ إليه حال اللغة فيها، وعجْـزَ ابـنِ الـبلادِ عـن كتابـةِ كتـابٍ بسـيط لوالده، إذا كان في سفر، فقُوبِـلَ اقتراحي بالموافقة، وزرنا وقتئذٍ عدةَ مدارسَ، وأقنعت الأعضاءَ بلزوم الاهتمام باللغة العربيـة لغـةِ أبنـاء هـذه الـبلاد، وأعطـي القرار بالاتفاق بتاريخ (١٦ كانون الأول سنة ١٣٢٦ هجرية).

ومن ذلك الحين تنسمت اللغة العربية في المدارس الابتدائية ريحَ الحياة، وأخذتْ في الانتعاشِ، وصارت العلومُ الدينية تُقرأ فيها باللغـة العربيـة، بعـد أنْ كانت تُقرأ في كتب تركية، وكذلك النحو والصرف.

وألَّفْتُ في ذلك الحين كتاباً مدرسيًّا في العلوم الدينية، دعوتُهُ: «**المطالـب العلية في الدروس الدينية**» القسـم الأول، وقـد طبـع سـنة (١٣٣٠هـ) فـي حلـب، والقسم الثاني، وقد طبع في بيروت بسبب قلة المطابع وقتئذٍ في حلب، وقررت اللجنة العلمية التي كنتُ وقتئذٍ عضواً فيها تدريسَه في المكاتب الابتدائية كما هـو مُحررٌ عليهما.

ولم أقف عند هذا الحد، بل صرت أنا والأديب الفاضل السيد بدر الـدين النعساني نكتبُ المقالاتِ المتعددة في الجرائد؛ لنبين فيها حالة اللغة فـي المدرسـة التجهيزية السلطانية، وإحدى المقالات التي حررها السيد المومأ إليه مطبوعة في دفتري (الكوبيا) وقد نشرت بواسطتي في جريدة الاتحاد العثماني البيروتية، وعلى أثرها تعين السيد المذكور أستاذاً للُّغـة العربيـة فـي المدرسـةِ المـذكورةِ، وبقـي

أستاذاً فيها إلى العام الماضي (١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ) فأُحيلَ إلى التقاعُدِ.

* * *

*** المطلب الثاني ـ مكاتبته للجرائد:**

في سنة (١٣١٩هـ) أخذت في قراءة الجرائد، وأخص بالذكر منها جريدةَ **«ثمرات الفنون»**، التي كانت تصدر في بيروت، وفي سنة (١٣٢٣هـ) صرتُ أكاتبُها، وأنشرُ فيها بعض المقالات.

وبعد إعلان الدستور العثماني استعاضَ محررُها المرحوم الشيخ أحمد حسن طبارة عنها بجريدة **«الاتحاد العثماني»**، فبقيتُ أكاتبُها إلى أن قُبض على الشيخ أحمد المومأ إليه، وأُخِذَ مع من أُخِذَ إلى «عَالِيهْ» في لبنان، وهناك شُنِقَ مع من شُنِق، وذلك مُسَطَّرٌ في الكتب، معلوم في القضية السورية، وقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ كاتباً حسن الكتابة، دَيِّناً حسن العقيدة، مُخْلِصاً، وقد جره إخلاصه للقضية السورية وحُبُّهُ لإصلاح الشؤون الإسلامية، وحالة الدولة العثمانية إلى الدخول في هذه المعركة حتى أدت به الحال إلى ما ذكرنا. رحمه الله رحمةً واسعة؛ فقد كان لي نِعْمَ الصديقُ.

وكاتبتُ كثيراً **«جريدةَ الحقيقة»**، التي تصدر في بيروت، و**«جريدة البلاغ»** و**«المفيد»** البيروتيتين أيضاً. وكتبتُ عدة مقالاتٍ في جريدة **«صدى الشهباء»** التي كانت تصدر في حلب.

* * *

*** المطلب الثالث ـ اتصاله بالمستشرقين:**

اتصل ـ رحمه الله ـ ببعض المستشرقين المهتمين بالتاريخ والآداب العربية، وذلك بغية إحياء التراث العربي والإسلامي، والاستعلام منهم عن المخطوطات العربية المحفوظة في مكتباتهم ومتاحفهم.

ومن ذلك: المراسلاتُ التي دارت بينه وبين المستشرق الدكتور سالم كرنكوى، ففي بعض هذه المراسلات سأله الأستاذ الطباخ عن تاريخ ابن العديم، فبين له الدكتور كرنكوى أن النسخة الموجودة في المتحف البريطاني مشوهة؛ لتسرب الرطوبة إليها، وقال: وقد كتبت إلى صديقي البروفسور ريتر في القسطنطينية، فسألته أن يفتش في المكاتب هناك: هل فيها نسخ جيدة من «بغية الطلب»؟ ورجائي أنه سيكتب إليكم بخبر وجودها.

وعندما كان الأستاذ الطباخ يتتبع أشعار الصنوبري في «روضياته»، طلب من المستشرق كرنكوى أن يفيده فيما إذا كان يوجد في مكاتب ألمانيا بعض تلك الأشعار، فأجابه الدكتور كرنكوى برسالة مؤرخة بـ (١٣) تشرين الأول، سنة (١٩٣٢م)، ومما جاء فيها: أما أنا، فكنت مشتغلاً بتصحيح كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني، فوجدت فيه أبياتاً للصنوبري، وهي كما وجدتها في ضمن هذا المكتوب، ولم يكن لي إلى الآن الفرصة للمطالعة: هل هي من الأشعار التي جمعتموها؟ وقد خدمتم الآداب العربية خدمة كبيرة في جمع ما تبدد من شعر هذا الشاعر.

وعندما نشر الأستاذ الطباخ كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح» للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة المتوفى سنة (٥٤٠هـ) أهدى المستشرقَ المذكورَ نسخةً منه، فأجابه برسالة مؤرخة بـ (١٢) إيلول، سنة (١٩٢٩م) يثني فيها على عمله، ويشكره على هديته، ويسأله أن يصف له كتاب «صفوة الصفوة».

كما أنه اتصل بمستشرقين آخرين للغاية نفسها؛ من أمثال: د. س. مرجليوث، وكارل سوسهايم مدرس اللغات الإسلامية وتاريخ دول الإسلام بجامعة مورنك، و ل. أ. ماير.

* * *

المبحث الخامس

ترجمة الشيخ محمد الخضري بك[1]

* **المطلب الأول ـ مولده ونسبه ونشأته:**

محمد بن عفيفي الباجوري، أو **محمد الخضري بك**، المعروف بالشيخ الخضري، وهو شقيق عبدالله الباجوري، ولد بالقاهرة سنة (١٢٨٩هـ ـ ١٨٧٢م)، كانت إقامته في (الزيتون) من ضواحي القاهرة، باحث، وخطيب، وفقيه أصولي، ومؤرخ مصري، وأحد علماء الشريعة والأدب وتاريخ الإسلام.

ولد الشيخ محمد الخضري في بيئة دينية صالحة، فأبوه: الشيخ عفيفي الباجوري من علماء الأزهر كان خطيباً وإماماً لمسجد قاهري بالحلمية، وكان من أنصار بعض الطرق الصوفية، وله شيخ يسمّى: الخضري، فسمى ابنه: (محمد الخضري) تيمناً به، وكان يُظَنّ أن الخضري لقب عائلته، وليس الأمر كذلك، فنحن نعرف أن الأستاذ عبدالله عفيفي الأديب المصري، صاحب كتاب «المرأة العربية» هو شقيق الشيخ الخضري، ولكنه حمل اسم أبيه دون أخيه، وليس معنى ذلك: أن الشيخ دُعِيَ إلى غير والده، ولكنه سُمّيَ باسم شيخ أبيه، واقتصر في التوقيع على اسمه المركّب؛ إذ به اشتهر!!.

وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة لندرك البيئة الصّوفيّة التي نشأ في رِحابها الشيخ، فهي بيئة تقوى وعبادة، وطبيعي أن يشبّ وليدها متّجهاً إلى حفظ القرآن

---

(١) **مصادر الترجمة**: وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي (٣/ ٣٠٦)، ومجلة المقتطف، مصطفى صادق الرافعي (٧٠/ ٥٥٣ ـ ٥٥٧)، و«الأعلام»، الزركلي (٦/ ٢٦٩ ـ ٣٧٠)، و«معجم المؤلفين»، عمر رضا كحالة (١٠/ ٢٩٥)، و«النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، (١/ ٢٨٣ ـ ٣٠٠).

في الأزهر الشريف، ثم التحق بدار العلوم سنة (١٨٩١م)، وتخرج فيها سنة (١٨٩٥م)، وعُيِّن مُدَرّساً للعربية بمدارس المنصورة، وشبين الكوم، والناصرية، ثم اختير قاضياً بالسودان سنة (١٩٠٢م).

* * *

*** المطلب الثاني ـ مناقبه وتلقيه العلم:**

عبّر فقيد البيان الإسلامي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن ذلك أصدق تعبير، حين قال: «إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالِم المؤرّخ الأديب، يجب أن يرجع بتيّاره إلى منبعه، ليعرف مبلغ انبعاثه، وقوّة جريته، ومدّ عبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلّق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم، الذي أهدته السماء إلى الأرض، وسَمَا في أسمائها: «محمد عبده».

لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين، ولكنَّ دارَ علومه الكبرى كانت أخلاقَ الأستاذ الإمام، وشمائلَه وآراءه، وبلاغته وهمّةَ نفسِه، إلّا أنه لا بدّ من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ منه العدد في كل عصر، وأنت إذا تأمّلت الخضري، فاعلم أنك بإزاء معنىً من معاني الشيخ: محمد عبده، على فرق ما بين النفسين، بل أنت من الخضري كأنك ترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن».

كانت عادتُه القراءةَ في كتب الأدب والتاريخ والحديث والفقه، وكان أشدَّ ما يكون ولعاً بكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وكتب التواريخ وأصول الفقه، ومع هذا الاطلاع الواسع على الأدب وتاريخه، فقد تبحر في تاريخ الفقه الإسلامي، والأدوار التي مر بها، وتطوره التاريخي، وأهم رجاله من أكابر العلماء المتقنين في علوم القرآن والسنة والفقه.

عَرَفَ الخضري كيف فهم مؤرّخو العرب الأُوَل كتابة التاريخ، فحشدوا من المَرويّات الصادقة والزائفة، إذ همّهم الأوفى يتّجه إلى الرصد لا التحقيق، فمهمّة

المؤرّخ ـ كما فهمها أكثر المؤرخين القدامى ـ هي الإحاطة بكل ما قيل؛ لأنهم كانوا يسجّلون كلّ ما يقعون عليه، وفيه ما تظهر لديهم دلائلُ تكذيبه، ما تتطلّب من المؤرّخ المُعاصر يقظة البصيرة، وسلامة الإدراك، ودقّة التخيّل الصائب للوقائع، كما يعقل أن تكون!، وقد أدرك الشيخ الخضري دقّة مهمته، فتحدّث في مقدمة الجزء الأول من تاريخ المحاضرات الإسلامية عن واجب المؤرّخ حيث قال:

«وكثيرٌ ممّن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكّم في حوادثه تحكّماً تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ، فإن عاطفة الحبّ تجعل كلّ ما ليس بحَسَن حَسَناً، وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة، حتى ما أدّى منها إلى سقوط فاعله وخيبته، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضدّ ذلك، فتجعل الحَسَن قبيحاً، وتستنبط من الخير شرّاً، ولم يخلص من هذا الشرّ العظيم الذي يطمس معالِم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلّا نفر قليل جدًّا. . .

فلا بدّ أن نجعل أمام أعيننا أنّا ندرس تاريخ أُمم، إن كانت أخطأت في بعض تصرّفاتها، فليس علينا من تَبِعَة ذلك الخطأ شيء، وليس لنا إلّا أن نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المَحَجّة، فإنّ ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثلُ أعمالهم، لذلك: يحتاج دارِس التاريخ إلى سعَة صدر تحتمل كلّ ما يَرِد على تاريخ قومه من نقد، حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسُحُب عاطفتَي الحبّ والبغض».

وبِهَدْيٍ من هذا القول سار المؤلّف في حديثه الجيد عن عصر النبوّة، وعهد الخلافة الراشدة، وزمان الدولة الأموية، ووقائع الدولة العباسية!، ولا بدّ لمَن يتحدث عن هذا المدى الحافل من الزمان والوقائع والشخصيات أن يلمّ بما تختلف حوله الآراء، وتتضارب النظرات، فقد كان للرجل من الأحكام الصائبة ما ضمن لآثاره الذّيوع والسّيرورة، بحيث أصبحت مصدراً هامّاً من مصادر التاريخ الإسلامي، وقد كثرت بعدها مؤلفات الأساتذة الجامعيين في كلّيّات الشرق العربي،

دون أن تُزاحِمها على التقدم والصدارة، بـل إن أكثـر مَـن خاضـوا مَخـاض الأسـتاذ الخضري يحرصون في معظم صحائفهم على الائتناس برأي الشيخ الكبير.

* * *

*** المطلب الثالث ـ حليته وأخلاقه:**

كان الشيخ الخضري قريباً إلى القِصَر، أسمر اللون، خفيف اللحية، معممـاً بعمامة بسيطة، ويلبس اللباس الأزهري، منير الوجه، وقوراً في مجلسه وحديثـه ومشيته، أشاد طلابه بأخلاقه وحرصه وذكائه ولباقته وإجادته للغة العربية.

ولعل لنشأة الخضري الدينية أثراً كبيراً في تسامحه لدى بعـض الأحكـام، ومحاولة تجنّبه كثيراً من المسائل الشائكة، حول رجال الصّدر الأُوَل مـن البعثـة المحمدية بالذات، على نحو لا نعرفه الآن، بعد أن أخذ البحث التاريخي عدّتـه من الاستيعاب والتدقيق والجرأة والتفنيد!، ويخيّل إليّ: أن طبيعة الـزمن الـذي أملى فيه الشيخ محاضراته كانت تلزم المؤرّخ بشغف مُفرِط بمواقف السّالفين من رجال العرب والإسلام؛ إذ إن مَعاوِل الناقدين من باحثي الغرب قد أحـدثت اتجاهـاً عكسيًّا لدى أمثال الشيخ: الخضري، فتجنّبوا إثارة الغُبار حول بعض الأحداث!.

وهذا حديث مَن يريد أن يكون كتابه مجال عبرة واقتداء ومُفـاخرة بالسّـلف؛ بعثاً للهِمَم، وإيقاداً للعزمات.

* * *

*** المطلب الرابع ـ المناصب التي تقلدها:**

عُيِّنَ مُدَرّساً للعربية بمدارس المنصورة، وشبين الكوم، والناصـرية، ثـم اختير قاضياً شرعيًّا في الخرطوم بالسودان سنة (١٩٠٢م)، فأستاذاً بكلية غـوردن سنة (١٩٠٤م)، فمدرساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة مدة (١٢) سنة، وذلك سنة (١٩٠٧م)، وظل بها إلى سنة (١٩٢٠م)، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعـة

المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف المصرية، وما زال مفتّشاً إلى أن لَقِيَ ربَّه سنة ١٩٢٧، عن خمسة وخمسين عاماً.

* * *

*** المطلب الخامس ـ آثاره ومؤلفاته:**

الخضري كاتب من أفراد الكُتّاب، معروفٌ بالمتانة والدقة، وجمالِ الأسلوب وقوة الحجة، ويمتاز بحدَّة ذهنه، وحبه للإصلاح، وبغضه للجمود على كل قديم في العلم أو الدين، وله في الاجتماعيات والمباحث الدينية من الرسائل ما يسمو به إلى منزلة المصلحين. ومن أهم مؤلفاته:

١ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: (وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وهو أول كتاب ألفه ـ رحمه الله ـ).

كان أول كتاب ألّفه الأستاذ الخضري هو: «نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين»، وعنوانه مسجوع كما يرى القارئ؛ إذ يمثّل تفكيرَ مُدرّس مبتدئ تخرّج حديثاً في دار العلوم، ثم عُيّن بالمدرسة الصناعية بالمنصورة، فلم يتقوقع في مدرسته، بل اتصل بالجمهور الثقافي في المدينة، وحاضر وناظر، ودارت له شُهرة بين المثقفين، جعلت قاضي المحكمة الأهلية يقترح عليه: أن يؤلّف في سيرة الرسول كتاباً يقرّبها من الناشئة وذوي التعليم المدني، ممّن لا يصبرون على قراءة صُحُف القدامى من المؤرّخين!.

ويخيّل إليَّ أن فكرة تذليل الكتب القديمة بمحاولة تأليف عصري يقدّم خلاصتها السّهلة، قد نجمت لدى الشيخ منذ عزم على تأليف نور اليقين، فأكبّ على وضع ملخّص سهل لسِيرة الرسول، ولم يكن من همّه أن يناقش الحوادث، ويعلّل النتائج، ويصحّح المَرويّات، بل إن شعور المؤمن بضرورة تقريب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما رَوَتها كتب الثقات قد صرفه عمّا سوى السّرد المتتابع في سهولة وإيمان.

وقد أخذ بروايات الكتب القديمة كما جاءت، وأفاض فيما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من معجزات، دون أن يحاول دعمها بحُجَج العلم والمنطق، وكأنه يرى: أن المعجزة في معناها الأول عمل خارق يعجز العقل أن يقف على سِرّه، فمحاولةُ تعليله بتفسير منطقي مما يخرج به عن معنى المعجزة الخارقة إلى حدث معقول تلتمس له المبرّرات.

وقد رزق كتاب: «نور اليقين» حظوة بالغة، حيث تعدّدت طبعاته في حياة صاحبه، وبعد وفاته إلى الآن، حتى قاربت العشرين، ونحن نحمد له أن نأى عن مبالغات سابِقِيه، ممّن يسجّلون كل غريبة، كما تخفّف من حذلقة بعض المحلّلين، ممّن يهمّهم أن يبرزوا شخصياتهم بالتعليل المتمحّل، والتفسير المغتصب، وكأنهم لا يعنون بتوضيح الحقائق قدر ما يعنون بإظهار براعاتهم الكتابية!!.

٢ ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء: ثم أعقب الخضري كتاب: نور اليقين بمؤلّف عن الخلفاء الراشدين دعاه: «إتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء»، سلك فيه مسلكه السّلفي من عرض المرويات المأثورة!، دون أن يتعرّض إلى نقد بعض الحوادث والأشخاص، بل آثر ألّا يحكم بشيء في الخلاف بها، وهو مسلك نعرفه لدى المُحافظين ممّن يعزّ عليهم أن تكون سِيَر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع النقد والتجريح!، ولكنه مع ذلك شيء وكتابة التاريخ شيء آخر، وقد تخلّى الأستاذ عن خطّته المُسالِمة نوعاً ما فيما بعد ذلك من صحائف التاريخ.

لقد كان «نور اليقين»، و«إتمام الوفاء» فجراً صادقاً لبحوث تاريخية هامّة، اضطلع بها الأستاذ عن جدارة واستحقاق؛ إذ أُسند إليه منصبُ أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، فعكف على تمحيص الكتب القديمة عكوف المخلص الدؤوب، وكانت مهمته من المشقّة والعُسْر بحيث تتطلّب الجَلَد المستميت، والسّعيَ الحثيث.

٣ ـ تاريخ الأمم الإسلامية من محاضرات الجامعة المصرية: ويقع في جزأين:

الجزء الأول: يشتمل على تاريخ البعثة النبوية إلى الدولة الأموية على عهد مروان.

إذ تحدّث الشيخ بإتقان عن الإسلام، وعن النّظم الاجتماعية والدينية كما سنّها القرآن، ثم عن المعاملات والحدود والأسرة والخلافة والبيعة ونظام الحكم. . .، وهي أمور هامّة لا بدّ أن تكون مهضومة للمؤرخ الإسلامي الذي يتصدّر لكتابة التاريخ عن خِبرة واستعداد.

ونحن لو تجاوزنا عصرَ الصحابة ومشيخة التابعين نجد للأستاذ شخصيته القوية فيما تحدّث به عن عصر الفتوح الإسلامية، أيام الدولة المروانية، كما نلمس استشفافه البصير؛ إذ يتصدّى لتعليل الهزّات الثورية، وما أعقبها من سقوط دولة بني أميّة، مُفصّلاً بواعثَ هذا الانهيار تفصيلاً كاشفاً، هذا إلى حديثه المُلِمّ بالخَراج، والقضاء، والجيش، والإدارة، مما يعتبر بالنسبة إلى الشيخ الخضري مجال سَبْق وتجديد؛ إذ إنه كان كثيراً ما يتّكئ على نفسه، دون استشارة شاملة لمراجع الاستشراق.

وقد كان تاريخ الخضري للأمويين تمريناً دقيقاً للبحث التاريخي الكاشف، فجاءت محاضراته العباسية أصلبَ عوداً على النقد، وأكثر إشعاعاً على الحقائق، والعصرُ العباسي بزمنه الطويل مجالٌ للكلام المتشعّب عن دولٍ وممالكَ كثيرة، قد انبتت عن الدولة، وأسّست حضارات مستقلة، أو تابعة تبعاً اسميًّا مظهريًّا، ولكن الشيخ قد اكتفى من ذلك بما يتحتّم الإلمامُ به على كل متطلّع إلى معرفة هذا العهد.

والجزء الثاني: في الكلام عن الدولة العباسية: وفيه تاريخ العلويين، والأتابكة، وإغارة المغول والتتار.

وكذلك حديث الخلافة والقضاء، والخَراج والصدقات والعُشُور، والانتخاب وولاية العهد والبيعة. ثم ما ينحو هذا النحو في تاريخ بني العباس مما يرجع فيه المؤلّف إلى أقيسة شرعيّة وأصول فقهيّة، قد ألمّ بها عن دراسة شاملة مستوفاة.

وقد كان الشيخ الخضري دقيقاً في مسلكه حين قصر الحديث على الناحية السياسية، وأعلن في مقدمة المحاضرات العباسية قوله: «وقد تركت تاريخها العلمي لما رأيت من جَعْلِ ذلك في محاضرات خاصّة، تنتظم تاريخَ الإسلام العلميَّ؛ لارتباط بعضه ببعض، ولعدم اتّباع الحركة العلمية لقوّة بني العباس السياسية؛ فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد؛ لأن الخلفاء لم يكن لهم ـ إذ ذاك ـ إلّا الاسم، ومع ذلك: فقد كانت الحركة العلمية قوية، وإنّي أُعِدُ قُرّاء كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية، وأرجو من الله التوفيق. اهـ».

ولا ندري كيف استطاع الشيخ أن يقدّم خُلاصاتٍ موجزةً دقيقةً لحركات العلويين، والقرامطة، والروم، والبويهيين، والصليبيين، والسلجوقيين، والتتار، والمغول! وكلّ حركة واحدة من هذه الحركات العواصف تتطلّب كتاباً ذا أجزاء!.

وإذا كانت طبعات المحاضرات قد تعدّدت على ممرّ السنين، فإن ذلك يدلّ على أن القارئ العربي كان في حاجة ماسّة إلى كتاب تاريخي، يقدّم الخلاصة الوافية لعصور العهود الماضية، فحين قام الشيخ بذلك أشبع جوعاً، ونقع غلّة!.

٤ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي**: أما تأريخ التشريع في كتاب متسلسل يوضح أدواره، ويرسم تيّاراته، فذلك ما فتح الله به على الشيخ دون سابقة، وقد رتّب حديثه وفق العصور التاريخية، فتحدّث عن التشريع في عصر النبوّة، ثم في عصر الصحابة، ثم في العصور المتتالية حتى مطلع القرن العشرين!!.

وقد قال الشيخ عن منهجه ما نصّه: «يتردد الكاتب لتاريخ الفقه والفقهاء بين أن يجعله مبنيّاً على العصور المتمايزة، وأن يبنيه على أشخاص المجتهدين تبعاً

لاختلاف طوابعهم النفسية، ولكن نظرة واحدة جعلتنا نرجّح الوجه الأول، وهو بناء ذلك التاريخ على العصور المتمايزة؛ لأنها أقوى وأعمّ أثراً، وأما نفسيات الفقهاء، فسيتّضح أنها لم تكن على اختلاف حقيقي، ولا سيما مَن كانوا منهم في عصر واحد».

ونظام التاريخ العلمي أو الأدبي وَفْقَ العصور السياسية كان موضع المناقشة لدى كثيرٍ من الناقدين؛ لأن التطوّر الأدبي أو الثقافي لا يسير مُحاذياً للعصر العباسي، حتى يحدّد به.

٥ ـ **الدروس التاريخية الإسلامية**: إن الأستاذ الخضري قد أثبت عملياً فشل الذين يدرسون تاريخ الإسلام دون إلمام بأصول الشريعة، وليسوا جميعاً من ذوي الاستشراق الاستعماري، بل إن فيهم مسلمين فهموا التاريخ الإسلامي على أنه حروب وأحداث، وسقوط وارتفاع؛ بحيث يصعب عليك أن تلمس لدى كثيرٍ منهم وعياً بصيراً بالإسلام.

ولعلّ أحدهم حين يترجم الآية القرآنية من مصادرها الأجنبية يُكابد رهقاً في الرجوع إلى النص القرآني من كتاب الله! . وقد رأينا من هؤلاء مَن نسأل الله لهم التوفيق في مهمتهم الشّاقّة، وقد أصبحوا أساتذة التاريخ في أرقى الكليّات! .

٦ ـ **أصول الفقه**: على أن روح الفقيه الأصولي لم تترك الشيخ في بحوثه الأدبية، ومقالاته الصّحفية، فأنت إذا قرأت شيئاً من ذلك للشيخ في أُمّهات الصّحف والمجلاّت، وجدت عقل العالم يملك زمام الأديب، فأنت منه أمام كاتب عالِم، مهما جرى الحديث عن الأدب والاجتماع، وقد كان الرجل معتزّاً بموهبة الإقناع البياني لديه، فحاضَرَ وناظَرَ، وملأ الصّحف كتابةً وبحثاً؛ بحيث لم تكن تدور مشكلة دينية، أو أدبية، أو اجتماعية، إلّا كان في طليعة المتحدّثين في المحافِل، والكاتبين في الجرائد، فاشرأبّت إليه الأعناق في ترحيب وإكبار.

يقول الشيخ: كُلِّفْتُ أن أُملي دروساً في أصول الفقه على طلبة كلية غوردن،

الذين يُرَبَّون ليكونوا قضاةً بمحاكم السودان الشرعيةِ، فبذلت الجهد في أن أجعل ما أُمليه عليهم سهل العبارة، واضح المعنى، ورأيت أن لا فائدة من إكثار الموضوعات مع استغلاق الألفاظ، فكنت أختار لهم المسائل معتمداً على أصول البزدوي، وشروح ابن الحاجب، وتنقيح الأصول، وشروح الأسنوي للمنهاج.

وصادف بعد ذلك أن زارنا الأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده ـ عليه رحمة الله ـ، فأحببت أن أعرض عليه ما كتبته ليكون عندي شيء من الاطمئنان، فعرضته عليه، فقرأ كثيراً منه، وناقش الطلاب في بعض مسائله، وأثنى على ما كتبته خيراً، ولكنه أشار عليّ أن أُطالع كتاب «الموافقات» للشاطبي، وأمزج ما أُملي بشيء منه؛ ليكون في ذلك لفتُ نظر لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامي، فاستحضرت هذا الكتاب، وأخذت أطالعه مرّات، حتى ثبت في نفسي طريقة الرجل، وجعلت آخذ منه الفكرة بعد الفكرة؛ لأضعَها بين ما آخذه من كتب الأصول، حتى جاء بحمد الله ما أمليتُه وَفْقَ مرامي، وعلى قدر حاجة الطلاّب في تلك البلاد النائية... إلخ.

٧ ـ محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتابُ «في الشعر الجاهلي» لطه حسين: وعندما صدر كتاب «الشعر الجاهلي»: كان الخضري أسبقَ ناقِديه، وقد دَعَا إلى محاضرة بالجامعة المصرية، حيث أُلقِيَت فصول الكتاب على الطلاب، ولكن القائمين على الجامعة قد هالَهم أن تندحر بحوثُ الأساتذة بصَولاتِ أُناسٍ تعُدّهم غُرباءَ عن حرمها الأمين، فمنعوا المُحاضِر عن الإلقاء، واضطر الشيخ أن يُصدِر نقده في مؤلَّف لطيفٍ خاصّ!!.

٨ ـ مهذب الأغاني: هذا، ولا بدّ أن نلمّ بصنيع الشيخ الهائل بكتاب الأغاني؛ فقد رأى أن يقوم على تهذيبه وتوضيحه، فقضى خمسةَ عشرَ عاماً في إخراج المهذّب بريئاً من مآخذِ أصله؛ إذ إن مؤلِّفه لم يرتّب شعراءه ومُغنّيه، بل كتبه كما اتّفق، كما بَتَرَ كثيراً من القصائد الرائعة فلم تُستكمَل، ثم ترك الضبط

والتفسير، فمُنيَ الكتاب بتحريف كثير، وزاد، فترخّص في ذِكْر ألوان من المجون لا تُربّي خلقاً أو تُحيي عاطفةً، فبادر الشيخ إلى تلافي ذلك كله، وتقدّم بأجزاء المهذّب وقد بلغت تسعة كاملة إلى القرّاء، تشهد بما عانى من بحث، وتكبّد من مَشاقّ.

لكن الدكتور طه حسين: قد انتقد تهذيب الأغاني بجريدة السياسة، ورآه تشويهاً لصنيع مؤلّف قديم، وقد كان على الشيخ ـ في رأي طه حسين ـ أن يترك أبا الفرج وما صنع، ثم يؤلّف كتاباً أدبيًّا يحمل اسمه، وينجو من سَقطات صاحبه، وأفاض الدكتور في نحو ذلك.

وقد ردّ عليه الأستاذ ردّاً حاسماً، وفيه يقول مُخاطباً الدكتور: «أَلِفْتُ الأدبَ العربيَّ مبدّدَ الشّمل فرتّبْتُه، ووضعتُ كلَّ درّة بجانب أُختها، وكلّ إلْفٍ بجانب أليفه، فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شِعْر عصر، أو شِعْر قبيلة بعينها، كان ذلك ميسوراً، وهذه ضالّة تنشدها أنت بما تُتحِف الجمهور به في صحيفتك الأدبية، وجدتُ تحريفاً كثيراً يُضِلّ الشّادي، ويُتعِب العالِم، وقد أحسستَ أنت بأثره، فبذلتُ من الجهد ما اللهُ به عليم في إصلاح ذلك الفساد.

وجدتُ نقصاً في فاخر الشعر وجيّده، كما يصفه أبو الفرج، فأتممتُ ذلك النقص لِما توقّعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب.

وجدتُ نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره، فاحتملت عبء ذلك كله، وأَزَلْتُ عَناءً كان يشعر به أمثالي من قُرّاء الأغاني، وقد تلقّيت كتباً كثيرةً تزيد من هذا الضبط وهذا التفسير، وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله.

أما ما نقصته منه: فلم يَعْدُ إحدى اثنتين: إما فُحْشٌ صدّ عن الأغاني وجوهَ كثيرٍ من أهل الأدب، كانوا يشكون ذلك منه، ومن أكثر كتب الأدب العربي، وإني معهم في ذلك... وإما أشياء قلت عنها: لا تُفيد أدباً، ولا تُرقّي فكراً».

ولكن الدكتور قد أصرّ على رأيه واهِماً أن هذا العمل تشويه للأغاني،

ومقطع الردّ على ذلك أن كتاب الأغاني لم يُفقَد من الوجود، حتى يشوّهه الخضري في مهذّبه، ولكنَّ كتابَ أبي الفرج موجود لمَن يرغب في قراءته، وكتابُ المهذّب انتقاء سديد لرجل يقدّر مهمّته!، فهل مَحَقَ الشيخ نُسَخ الكتاب محقاً، وبدّلها تبديلاً آخر بكتابه، ثم أطلق عليه كتاب الأغاني؛ ليُوهِم الناس أنه يقدّم نِتاج أبي الفرج؟ لم يفعل الشيخ سوى أن هذّب ما وجده في حاجة إلى تهذيب، ثم ترك للقرّاء أن يختاروا ما يشاؤون!.

على أن الدكتور قد رجع عن رأيه فيما أعتقد حين سمح لنفسه أن يقوم على تحقيق كتاب: تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، فهو اختصار آخر لكتاب أبي الفرج.

والدكتور حين يُقبِل على تقديمه وتحقيقه لا يعتقد أنه تشويه!، لكنه عَدَلَ عمليّاً بذلك عن رأيه في المهذّب، بعد تأمّل وتحقيق.

٩ ـ **الغزالي: ترجمته وتعاليمه وآراؤه**: نُشر تباعاً في المجلد (٣٤) من مجلة المقتطف.

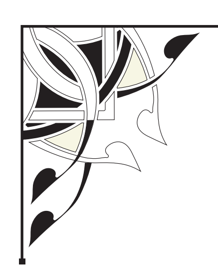
١٠ ـ وقد حكى الرافعي في مقاله عن الشيخ: أن للخضري كتاباً في جزأين كبيرين عن **الأدب المصري**، لم يُقَدّر له أن يرى الضياء!! ولو بُذِلَت الهِمَمُ المخلصة في البحث عن أصوله، لاستفاد الناس بخيره الجزيل، ولكن المخطوطات المعاصرة تلحق بأخواتها العتيقة دون اهتمام!، وإلّا فأين شرحُ السيد المرصفي لكتاب العقد الفريد، وقد فعل به ما فعل بالكامل، فجاء خزانةَ أدبٍ ولغة وعلم؟! وأين تأريخ الشيخ السكندري للأدب العربي؟ وقد تركه مخطوطاً في ألفين من الصفحات!، أين ذلك كلُّه لأساتذتنا المُعاصرين، وتلاميذُهم الآن ملء الأبصار والأسماع؟!.

أما بعد: فقد أردت أن أتحدّث عن جهاد الخضري في اليقظة الفكرية الإسلامية، فتحدّثت عن مؤلّفاته أبلغ الحديث وهي ـ بَعْدُ ـ شاهِدُ عدل لا يقبل التجريح.

* **المطلب السادس ـ وفاته:**

توفي ـ رحمه الله ـ ودفن بالقاهرة سنة (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م).

❐ ❐ ❐




الفَصْلُ الثَّانِي
دراسة الكتاب

المبحث الأَوَّل
اسم الكتاب

جاء التصريح بعنوان الكتاب على صفحة الغلاف للنسخة الأصل التي كتبها المؤلف بخطه، ونصه: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

وجاء عنوان الكتاب على صفحة الغلاف للنسخة (ب) التي كتبها محمد أسعد طلس ـ تلميذ المؤلف ـ كما يلي: «كتاب الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

وقد ذكر الشيخ محمد راغب الطباخ ـ رحمه الله ـ في سياق ترجمته لنفسه عنوان هذا الكتاب، فقال: «الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

ونجد أن هذه العناوين متشابهة، إلا أن العنوان الذي كتبه المؤلف بخطه على غلاف النسخة الخطية يزيد على غيره بلفظ: «كتاب»، وهذا الذي سنعتمده.

* * *

المبحث الثَّانِي
منهج المؤلف

إن كتاب «الفتح المبين» هو عبارة عن شرح على كتاب «نور اليقين»، ولذلك سنتناول فيما يلي منهجَ الماتن في «نور اليقين»، ومنهجَ الشارح في «الفتح المبين»:

أ ـ منهج العلامة الخضري في «نور اليقين»:

بدأ الخضري ـ رحمه الله ـ كتابه بمقدمة ذكر فيها ما دفعه إلى تأليف هذا

الكتاب، وهو ما رآه من حاجةٍ إلى كتابٍ متخصصٍ في السيرة النبوية، بعيدٍ عن التطويل والحشو، ينتفع به عامة المسلمين وخاصتهم.

ثم افتتح كتابه بذكر النسب الشريف لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ يتناول أهم الأحداث التي مرت في سيرة حياته عليه الصلاة والسلام، سواءٌ التي كانت قبل البعثة، أم بعدها، إلى أن وصل إلى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفاته.

ثم تناول شمائله صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تميَّز هذا الكتاب بسمات كثيرة جعلته ينتشر بين الناس بمختلف تخصصاتهم وتوجهاتهم، فهو كما وصفه مؤلفه في مقدمته: فجاء بحمد الله، سهل المنال، عذب المورد، تنتفع به العامَّة، وترجع إليه الخاصَّة.

ونعرض فيما يلي لأهمِّ ما تميَّز به هذا الكتاب:

* **لغته وأسلوبه:** حيث تميزت لغة الكتاب بالسهولة واليسر، مع تجنُّب الإغراب في الألفاظ، وشرح ما يحتاج إلى بيان وتوضيح.

* **الترتيب الزمني للمواضيع:** وذلك أن القارئ للكتاب يسير مع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوةً تلو خطوة، فينتقل في قراءة سيرته عليه الصلاة والسلام من حين ولادته إلى وفاته، مستعرضاً بذلك أهم ما مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحداث.

* **وضع العناوين المناسبة للأحداث المختلفة:** قام الشيخ الخضري ـ رحمه الله تعالى ـ بوضع عناوين لكلٍّ حدث من الحوادث، أو موضوع من المواضيع في السيرة النبوية، وكذلك وضع عناوين لكل سنة من السنوات التي تلي هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وذلك لكي يسهل على القارئ الرجوع للموضوع الذي يريده أو السنة التي تريد التعرُّف على أحداثها.

* **تحليل الأحداث:** لم يكتفِ الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ بعرض أحداث السيرة، بل قام بتحليل بعض هذه الأحداث، وذلك لتنبيه القارئ إلى الحِكَم والدروس التي حوتها سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

* **الشمائل والمعجزات:** لم يغفل الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ عن الكلام على شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته الدالة على صدق نبوته، وخصَّصَ لذلك مبحثين مستقلين في آخر الكتاب.

ب ـ منهج العلامة الطباخ في كتابه «الفتح المبين»:

قام الشيخ الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ في حاشيته بالوقوف على ما يحتاج إليه قارئُ كتاب «نور اليقين»، فنقل عن كثير من المصادر والمراجع ما يزيد عن سبعين مصدراً إضافيًّا لما ذكره العلامة الخضري بك في سبيل ذلك، مما جعل هذه الحاشية مغنية لقارئها عن الرجوح لتلك المراجع.

واشتمل هذا الكتاب على النقاط الآتية:

أولاً: ضبط غريب الألفاظ وشرحها، وسواء في ذلك ما يقع في المتن «نور اليقين»، أو يأتي في سياق الروايات والأحاديث والأقوال التي يسوقها الشارح في حاشيته، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة، وكتب غريب الحديث وشروحه.

فمن ذلك ما جاء في «نور اليقين»: **وكفله جدُّه عبد المطلب**[1].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (وكفله):** كفل من باب (قتل)، والكافل: هو الذي يعول إنساناً وينفق عليه. اهـ. «مصباح»[2].

وقال الخضري في «نور اليقين»: **وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش**[3].

---

(١) انظر (١/ ١١٧) من الكتاب.

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: كفل).

(٣) انظر (١/ ١٢٣) من الكتاب.

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (والأحابيش):** في «القاموس»: حُبْشِيٌّ: جبل بأسفل مكة، ومنه: أحابيش قريش؛ لأنهم تحالفوا بالله أنهم لَيَدٌ على غيرهم ما سجا ليل ووضح نهار، وما رسا حُبْشيٌّ. اهـ[١]؛ أي: ما بقي هذا الجبل.

ثانياً: تفسير الآيات وبيان سبب نزولها، وذلك بالرجوع إلى كتب تفسير القرآن، وأسباب النزول.

ثالثاً: ذكر الأدلة والشواهد على المواضيع التي تناولها الخضري في كتابه.

رابعاً: ذكر الأحاديث والروايات التي توضح الأحداث، مع إتمام بعض الروايات التي ذكرت مختصرة، وتخريج بعض الأحاديث، وذلك بالرجوع إلى كتب الحديث والسير.

ومن ذلك ما جاء في «نور اليقين»: **وأرسلت إليه تخطبه لنفسها**[٢].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (وأرسلت إليه تخطبه لنفسها):** كان الرسول نفيسة بنت منية رضي الله عنها.

روي عنها أنها قالت: أرسلتني خديجة دسيساً ـ أي خفية ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقالت: يا محمد! ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قلت: فإن كفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكمال، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: هي خديجة، قال[٣]: «وكيف لي بذلك؟» قلت: علَيَّ[٤]، [قال][٥]: «وأنا أفعل»،

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حبش).

(٢) انظر (١/ ١٣٠) من الكتاب.

(٣) في الأصل: «قلت»، والتصويب من «الطبقات الكبرى» و«السيرة النبوية» لدحلان.

(٤) في الأصل: «بلى»، والتصويب من «الطبقات الكبرى».

(٥) ما بين معكوفتين من «الطبقات الكبرى».

فذهبتُ إليها فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت الساعة كذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها[1].

خامساً: تصحيح بعض الأوهام التي وقعت في كتاب «نور اليقين».

جاء في «نور اليقين»: **لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً**[2].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (لم يرث عليه السلام...) إلخ:** هذا سهو، والصواب: أنه ورث خمساً من الإبل، وقطعة من غنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشية حاضنته، كما في «السيرة الحلبية»[3].

سادساً: التعريف ببعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم في «نور اليقين»، أو ذكروا بكناهم فقط، سواء أكانوا من الصحابة، أم من غيرهم، وذلك بالرجوع إلى كتب السير والتراجم.

سابعاً: محاججة أهل الكتاب والمستشرقين ومن سار في ركابهم، وذلك بما حوته هذه الحاشية من إثبات نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من كتب أهل الكتاب، والردِّ على بعض شبهات المستشرقين أو مَن يسير في ركابهم؛ كالرد على مَن يقول: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بالسيف وسفك الدماء، والرد على دعاة خلع الحجاب، ونحو ذلك.

ثامناً: تحليل الأحداث: لم يكتفِ العلامة الطباخ رحمه الله بعرض أحداث السيرة، بل قام بتحليل بعض هذه الأحداث، وذلك لتنبيه القارئ إلى الحِكَم والدروس التي حوتها سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وفيما يتعلَّق بلغة هذه الحاشية وأسلوب الشارح فيها؛ فقد تميزت كمتنها

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) عن نفيسة بنت منية رضي الله عنها.

(٢) انظر (١/ ١٣٩) من الكتاب.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٨٥).

بالسهولة واليسر، والقرب من العامة والخاصة، ولعلَّنا لا نبالغ إنْ قلنا: إن كتاب «الفتح المبين» مع متنه «نور اليقين» هو من أفضل ما أُلِّف في السيرة النبوية في عصرنا الحديث، بما حوياه من مميزات كثيرة تقدَّم الإشارة إلى أهمها.

إضافة إلى ذلك فإن كتاب «الفتح المبين» هو كتاب منهجي ومدرسي، كان يدرِّسه العلامة الطباخ على مدى سنين عدة في المدرسة الخسروية بحلب.

* * *

المبحث الثَّالث
موارد المؤلف

أ ـ موارد كتاب «نور اليقين»:

ذكر الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ أسماء المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في تصنيف كتابه، وهي سبعة كتب، فقال في مقدمة كتابه: وقد كان موردِي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنَّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدَّ من تفهيم العبارات، فكان يساعدني: «الشفا» للقاضي عياض، و«السيرة الحلبية»، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي.

ب ـ موارد كتاب «الفتح المبين»:

تنوعت المصادر والمراجع التي اعتمد عليها العلامة الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ في حاشيته تبعاً لتنوع المواضيع التي يُعلِّق عليها؛ فنجده ينقل عن كتب تفسير القرآن، وكتب الحديث، وشروحه، وكتب غريب الحديث، والفقه، ومعاجم اللغة، وكتب السير والتراجم، وغيرها، وهذا يدلُّ على سعة علم المؤلف، ومعرفته الواسعة بالمكتبة الإسلامية، وأذكر فيما يلي أهم تلك المصادر التي نقل عنها:

*** كتب العقائد وعلم الكلام:**

«هداية الحيارى» لابن القيم (ت: ٧٥١هـ).

و«المواقف» للإيجي (ت: ٧٥٦هـ).

و«شرح العقائد النسفية» للتفتازاني (ت: ٧٩٣هـ).

و«إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (ت: ١٣٠٨هـ).

* **كتب تفسير القرآن:**

«جامع البيان» للطَّبري (ت: ٣١٠هـ).

و«أسباب النزول» للواحدي (ت: ٤٦٨هـ).

و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ).

و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للنسفي (ت: ٧١٠هـ).

و«لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (ت: ٧٤١هـ).

و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ).

* **كتب الحديث:**

وتشمل الكتب الستة؛ الصحيحين، والسنن الأربعة، بالإضافة إلى كتب المسانيد، والمعاجم، والأجزاء الحديثية.

* **كتب شروح الحديث وغريبها:**

«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦هـ).

و«شرح صحيح مسلم» لمحيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ).

و«فتح الباري» لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ).

و«عمدة القاري» للعيني (ت: ٨٥٥هـ).

و«فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوي (ت: ١٢٢٧هـ).

* **كتب الفقه:**

«الهداية شرح البداية» للمرغيناني (ت: ٥٩٣هـ).

و«بداية المجتهد» لابن رشد (ت: ٥٩٥هـ).

و«حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ).

و«حاشية الطحطاوي» (ت: ١٢٣١هـ).

*** كتب السيرة النبوية والشمائل:**

«سيرة ابن إسحاق» (ت: ١٥١هـ).

و«السيرة النبوية» لابن هشام (ت: ٢١٣هـ).

و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (ت: ٢٣٠هـ).

و«شمائل النبي صلى الله عليه وسلم» للترمذي (ت: ٢٧٩هـ).

و«أعلام النبوة» للماوردي (ت: ٤٥٠هـ).

و«دلائل النبوة» للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ).

و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ).

و«الروض الأنف» للسهيلي (ت: ٥٨١هـ).

و«الرياض النضرة» لمحب الدين الطبري (ت: ٦٩٤هـ).

و«السيرة النبوية» للدمياطي (ت: ٧٠٥هـ).

و«المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (ت: ٧٣٢هـ).

و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ).

و«أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» للسيوطي (ت: ٩١١هـ).

و«الخصائص الكبرى» للسيوطي (ت: ٩١١هـ).

و«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي (ت: ٩١١هـ).

و«المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني (ت: ٩٢٣هـ).

و«سبل الهدى والرشاد» للصالحي (ت: ٩٤٢هـ).

و«المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ت: ٩٧٤هـ).

و«إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» لنور الدين الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ).

و«نسيم الرياض» للخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ).

و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (ت: ١٣٠٤هـ).

* **كتب التزكية والأخلاق:**

«أدب الدين والدنيا» للماوردي (ت: ٤٥٠هـ).

و«الذريعة لمكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ).

و«إحياء علوم الدين» للغزالي (ت: ٥٠٥هـ).

* **كتب التراجم:**

«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ).

و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ).

و«شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ت: ١١٧٨هـ).

* **معاجم اللغة:**

«الصحاح» للجوهري (ت: ٣٩٣هـ).

و«المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصبهاني (ت: ٥٠٢هـ).

و«أساس البلاغة» للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ).

و«المصباح المنير» للفيومي (ت نحو: ٧٧٠هـ).

و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (ت: ٨١٧هـ).

و«الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ).

* **كتب أخرى:**

«المعمرون» لأبي حاتم السجستاني (ت: ٢٤٨هـ).

و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ).

و«المتناثر في الحديث المتواتر» للكتاني (ت: ١٣٤٥هـ).

و«حاشية الخضري على شرح ابن عقيل»، وهو صاحب متن «نور اليقين».

* * *

المبحث الرابع

منهج التحقيق

وإن ممَّا شرَّفني الله تعالى بخدمة سنة نبيه صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب العظيم لعلَّامة حلب الشهباء ومؤرخها الشيخ محمد راغب الطباخ المسمى بـ: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، للشيخ محمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالخضري ـ رحمه الله ـ، خدمته وفق خطة أحسب أنها كافية لخدمة هذا الكتاب العظيم والسِّفر الجليل، على قدر الجهد والطاقة، مع الجهل والافتقار إلى العلم والعمل وضعف الحال، وإنما قوَّاه حسنُ الظن بالله سبحانه وتعالى، فكانت على النحو الآتي:

١ ـ نسخ نص كتاب «الفتح المبين» من النسخة الخطية التي كتبها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بخطه، ثم مقابلته بنسخة تلميذ المؤلف محمد أسعد طلس ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ وضع علامات الترقيم للنص، وتمييز نص «نور اليقين» بوضعه بين قوسين، وكتابته بخط ثخين، مع ضبط المشكِل من الكلمات والأعلام.

٢ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواردة في النص.

٣ ـ توثيق النصوص المنقولة من كتب أصحابها.

٤ ـ عزو الأشعار إلى دواوين أصحابها إن وجد، أو غيرها من كتب السيرة والتاريخ والأدب.

٥ ـ كتابة الآيات القرآنية برسم المصحف، وعزوها إلى مكانها في المصحف بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

٦ ـ إدراج متن «نور اليقين» في أعلى الصفحة، وذلك بالاعتماد على النسخة التي طبعت في حياة الشيخ محمد الخضري ـ رحمه الله تعالى ـ[١]، مع تخريج الأحاديث والآثار الواردة فيه مما لم يذكر الشارح تخريجه، وتوثيق الأقوال، وعزو الأبيات الشعرية لقائليها، وتوثيقها من الدواوين الشعرية، وكتب السير والأدب.

٧ ـ القيام بصنع الفهارس المناسبة للكتاب، والتي تسهل على القارئ الوصول لبغيته.

٨ ـ كتابة مقدمة للكتاب، وتتضمن: ترجمة المؤلف الشيخ محمد راغب الطباخ ـ رحمه الله ـ، وترجمة مؤلف المتن «نور اليقين» الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ، وبيان اسم الكتاب، ومنهجه، وموارده، ومنهج التحقيق، مع وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

* * *

المبحث الخامس

وصف النسخ الخطية

*** النسخة الأولى:**

هي النسخة الخطية المحفوظة في مكتبة مؤلفها الخاصة في حلب، وتمَّ الحصول على صورة منها بواسطة ولده الأستاذ محمد يحيى الطباخ ـ حفظه الله تعالى ـ، وعدد أوراقها: (٢٤٥)، وعدد الأسطر في الورقة الواحدة: (١٩) سطراً، وهي نسخة المؤلف، كتبها بخطه، وقد أتم إنجازها في (١٣٤٣هـ).

كتب على ورقة الغلاف عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، وتاريخ بدء تأليفه، وفيما يلي نصُّه: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضري المصري، وضعتُها حين قراءتي له في المدرسة الخسروية

---

(١) وهي النسخة التي طبعت في المطبعة الجامعة بمصر، ط١، عام (١٣١٥هـ).

بمدينة حلب حين افتتاحها في ربيع الأول سنة (١٣٤١هـ)، وفقني الله للإتمام وحسن الختام بمنِّه وكرمه، وأنا الفقير إليه تعالى محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم المعروف بالطباخ الحلبي مولداً ومنشأً ووطناً».

وكتب في الصفحة الأولى من هذه النسخة: «قوله ٢: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب. . .) إلخ: لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة. . .».

وكُتب على اللوحة الأخيرة من النسخة: تاريخُ إتمام تأليف الكتاب، وهذا نصُّه: «نجز تحرير هذه الحواشي اللطيفة سحر ليلة السبت، المصادف للسادس والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة ألف وثلاث مئة وثلاث وأربعين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمُّ التحية، والحمد لله أولاً وآخراً، وأسأله حسن الخاتمة».

وهي النسخة الأصل التي تم الاعتماد عليها في التحقيق.

*** النسخة الثانية:**

وهي النسخة المحفوظة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم (٥١٥٩)، وعدد صفحاتها: (٨٥)، وعدد الأسطر: (١٨) سطراً، وناسخها هو محمد أسعد عبد الوهاب طلس، تلميذ المؤلف، وتاريخ النسخ: ١٠/ جمادى الأولى/ ١٣٤٦هـ.

وهي نسخة ناقصة، سقط منها عددٌ من الصفحات في موضعين، من (ص: ١٦) إلى (ص: ٧٠)؛ أي: من (مبحث: إسلام حمزة) إلى أثناء (مبحث: الإيذاء)، ومن (ص: ١٤١) للآخر؛ أي: من (مبحث: معاهدة اليهود) لنهاية الكتاب.

كتب على صفحة الغلاف عنوان الكتاب، واسم مؤلفه: «كتاب الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تأليف سيدي المؤرخ الثقة، والأستاذ الفاضل، صاحب مؤلَّف: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، السيد الشيخ راغب

الطباخ، أدامه الله وحفظه، آمين».

وكُتب على الجهة اليسرى من صفحة الغلاف: اسمُ الناسخ، وتاريخُ النسخ، وهذا نصُّه: «خطته أنامل تلميذ حضرة المؤلف محمد أسعد عبد الوهاب[1]، ١٠/ جمادى الأولى/ ١٣٤٦هـ».

وكُتب بعد صفحة الغلاف: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وعلى جميع إخوانه النبيين، وعلى تابعيهم إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه تقريرات وضعتها حين قراءتي لكتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) في المدرسة الخسروية، اقتصرت فيها على زبدة أقوال العلماء والمؤرخين، وذلك حين افتتاح المدرسة المذكورة في ربيع الأنور من سنة (١٣٤٦هـ)[2]، والله أسأل حسنَ الختام، والتوفيقَ للإتمام، محمد راغب الطباخ».

وكتب في الصفحة الأولى من النسخة: «عونك اللهم وتوفيقك، قوله: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب): لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة...».

وكتب في نهاية الصفحة الأخيرة: «فلما جاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم انصرف عنه قومه إلى الإسلام، فضغن ـ أي: أضمر العداوة ـ؛ لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكاً عظيماً».

وتم الرمز لها بالنسخة «ب».

❐ ❐ ❐

---

(١) كتب بعدها بخط مغاير: «طلس».

(٢) تقدم عند وصف النسخة الأولى أن تاريخ افتتاح المدرسة الخسروية كان في سنة (١٣٤١هـ).




صور المخطوطات




الفتح المبين

تقريرات

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد
الخضري المصري وضعتها حين قراءتي له في المدرسة الخسروية
بمدينة حلب حين افتتاحها في ربيع الأول سنة ١٣٤٠
وفقني الله للإتمام وحسن الختام بمنه وكرمه
وأنا الفقير إليه تعالى
محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم المعروف
بالطباخ الحلبي مولداً ومنشأً ووطناً

صورة صفحة الغلاف من النسخة «الأصل»

(١)

قوله: واجدها العقل الإنساني أحسن ... التاريخ يصقل العقول وينير البصيرة
وفيه للإنسان موعظة كبيرة وعبرة عظمى وحسبه فضلاً قوله تعالى في القرآن المبين مخاطباً
لنبيه ... (وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك
في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)

وما أحسن قول الإمام الأرجاني في بيان فوائد التاريخ

إذا عارف الإنسان أخبار من مضى — تخيلته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره — إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

قوله: وكانت ... على ترك البيان ... أي مع عناية السلف بتعلم وتعليم
... قال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها. وقال الإمام الزهري في علم المغازي علم الآخرة والدنيا. وفي ذكر السير أيضاً
معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وكمالاته وفضائل الصحابة وقريش وسائر العرب وغير ذلك
من الأسباب المقوية للإيمان. وفيه معرفة معاني كثير من الآيات القرآنية والأحاديث
النبوية وغير ذلك من الفضائل والفوائد

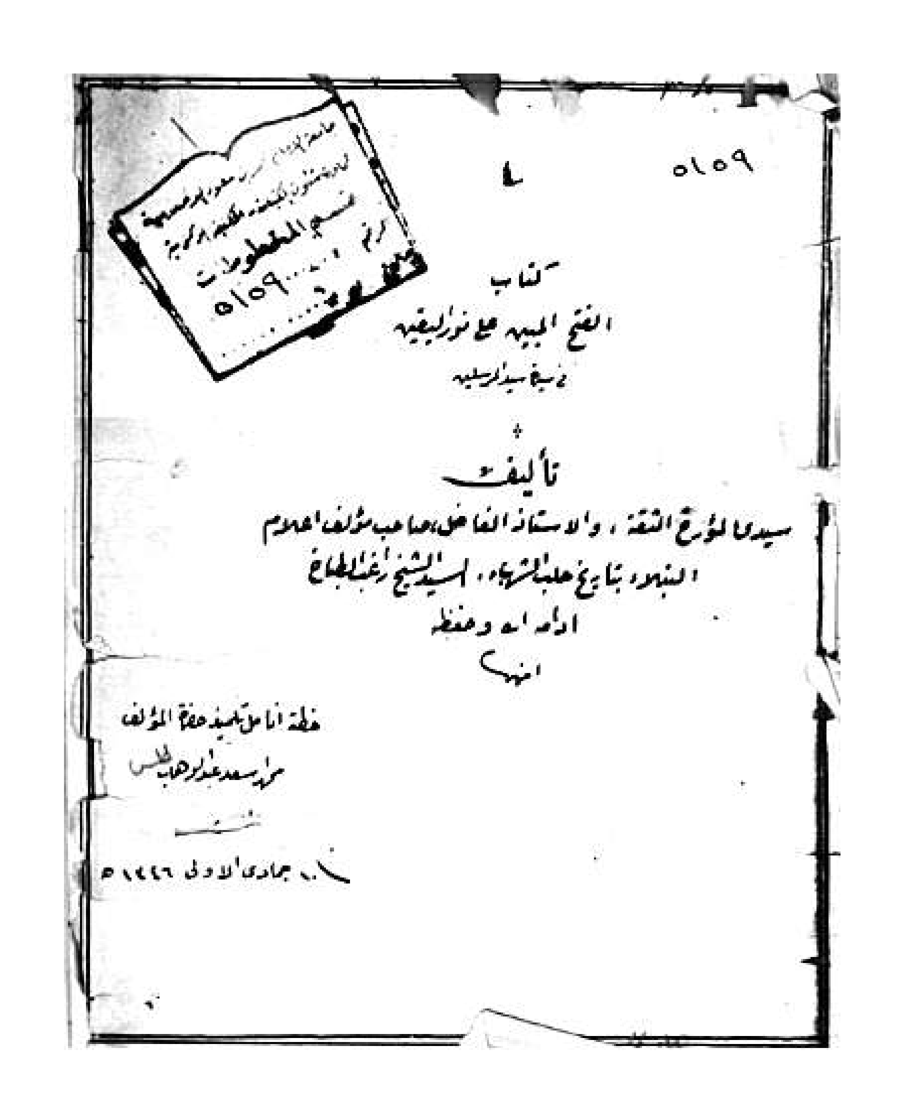
قوله: بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع. قال في كشف الظنون أول من صنف في علم السير
الإمام المعروف محمد بن إسحق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ فإنه جمعها ودونها
ثم أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ فأحسن وأجاد (ولكتابه
مطبوع متداول ويعرف بسيرة ابن هشام) وشرح هذا الكتاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن
السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسماه الروض الأنف (وهو مطبوع أيضاً) ومن صنف

صورة ورقة اللوحة الأولى من النسخة «الأصل»

صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة «الأصل»

نجز تحرير هذه الحواشي اللطيفة سحر ليلة السبت المصادف للسادس والعشرين
من شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين من الهجرة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية والحمد لله أولاً وآخراً وأسأله حسن الخاتمة

صورة الورقة الأخيرة من النسخة «الأصل»



كتاب
الفتح المبين على نور اليقين
في سيرة سيد المرسلين

تأليف
سيدي المؤرخ الثقة، والاستاذ الفاضل صاحب مؤلف اعلام
النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، السيد الشيخ راغب الطباخ
ادام الله وحفظه
امين

خطه انا من تلاميذ حفظة المؤلف
محمد سعد عبد الوهاب طلس

في جمادى الاولى ١٣٤٦ م

صورة صفحة الغلاف من النسخة «ب»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وعلى جميع إخوانه النبيين، وعلى تابعيهم إلى يوم الدين.

وبعد. فهذه تقريرات وصفتها حين قراءتي لكتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين في المدرسة [illegible] اقتصرت فيها على زبدة أقوال العلماء والمؤرخين. وذلك حين افتتاح المدرسة المذكورة في ربيع الأول من سنة ١٣٤٦. والله أسأل حسن الختام والتوفيق للإتمام.

محمد عبد الفتاح

صورة ورقة اللوحة الأولى من النسخة «ب»

عونك اللهم وتوفيقك

قوله [وأحقها بالعقل الإنسان أحسنه تهذيب] لا ريب أن التاريخ يصقل العقول وينير البصيرة ويجعل للإنسان من موعظة وذكرى، وعبرة وعظة وحسب بقصد قوله تعالى في القرآن المبين (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)

وما أحسن قول الإمام ابن حجاف في بيان فوائد التاريخ

إذا عاد الإنسان أخبار من مضى تجده قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

قوله [وكانت نفسي كثيرا ما تأسف على ترك المسلمين لها] أي مع عناية السلف بتعلمها وتعليمها وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يعلم بنيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه وسراياه ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها وقال الإمام الزهري في علم المغازي خير الدنيا والآخرة وفي ذكر السيرة أيضا معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وكمالاته وفضائل الصحابة وفروسيتهم ومآثر العرب وكل ذلك من الأسباب المقوية للإيمان. وفيها معرفة تفسير كثير من الآيات والأحاديث إلى غير ذلك من الفضائل والفوائد

قوله [بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع]. قال في كشف الظنون أول من صنف في علم السير الإمام المعروف بمحمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ فإنه جمعها ودونها ثم أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ فإنه جوّدها (وكتابه مطبوع متداول ويعرف بسيرة ابن هشام) وشرح هذا الكتاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسماه الروض الأنف (وهو مطبوع أيضا) وممن صنف في علم السير ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠ وشيخ الإمام أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس الأندلسي المتوفى سنة ٧٣٤ وهو في مجلدين وسماه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. ثم اختصره في مجلد وسماه نور العيون

صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة «ب»

١٤٠

قبل أن يدخلوا عليك فادخلهم وأسألهم عني فإنهم قوم بُهت. وإنهم إن يعلموا أني أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ وخذ عليهم ميثاقاً أني إن اتبعتك وآمنت بك أن يؤمنوا بك وبكتابك. فلما دخل عليه اليهود وعاهدهم مراراً للإسلام قالوا فقال لهم أي رجل فيكم ابن سلام ؟؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا قال أرأيتم إن شهد أنه رسول الله وآمن بالكتاب أن تؤمنوا قالوا نعم. فدعاه فخرج عليهم وشهد له صلى الله عليه وسلم بالرسالة. فقالوا كنت أن شرنا وابن شرنا قال ابن سلام هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله اهـ دحلان ملخصاً ص ٢٤٤/١

وكان اسمه قبل أن يسلم الحصين فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وهو من ولد يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم

المنافقون

٨٧ المنافقون قال الدحلاني ص ٤٥٢/١ هم جماعة من الأوس والخزرج دخلوا في دين الإسلام تقية من القتل لما تقدم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه وكانوا يعلمون بأنهم من أهل الكذب فكان هواهم مع اليهود في السر وفي الظاهر مع المسلمين وكان عددهم [illegible].

٨٢ عبد الله بن أبي. هو رأس المنافقين. ولاشتهاره بالنفاق لم يعد من الصحابة وكان من أعظم أشراف أهل المدينة وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم لأنه لا نظير له من آل قحطان ولم يتوج من العرب إلا قحطان فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف قومه إلى الإسلام فضغنه أي أضمر العداوة لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكاً عظيماً !

صورة الورقة الأخيرة من النسخة «ب»




القسم الثاني

النص المحقق

الفتح المبين

مختصر

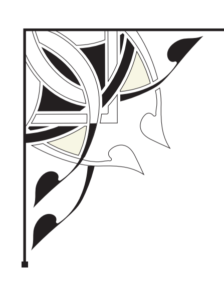
على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة المحدث المؤرخ

محمد راغب الطباخ




مُقَدِّمَةُ ٱلمؤَلِّف

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية، ونصلّي ونسلِّم على مَن أرسلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان، يبتغون من الله الفضلَ والرضوان، والأنصارِ الذين آوَوا ونصروا، وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادَّخروا.

أمّا بعد:

فيقول محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين، وقصص الغابرين، وأجدها لعقل الإنسان أحسنَ مهذِّب، وأنصحَ معلِّم، وكنت أرى في تاريخ نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما لقيَهُ من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده، أعظمَ مُربٍّ لأفكار المسلمين؛ فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه، وما يلزم اجتنابه؛ ليسودوا كما سادَ سابقوهم، ....

قوله: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب...) إلخ: لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة، وفيه للإنسان موعظة كبرى، وعبرة عظمى، وحسبه فضلاً قوله تعالى في القرآن المبين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨].

وخصوصاً ما يتعلق بالحكام؛ من اجتذاب النفوس النافرة، والتأليف بين القلوب المختلفة، وما يتعلق بقواد الجيوش؛ من تأليف الرجال، وإحكام المعدّات حتى يتمَّ لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامّة، من اتحاد قلوبهم، وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم.

فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً، وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على تركِ المسلمين لها، فقلّما أجد من يشتغل بها،. . . . .

وما أحسن قولَ الإمام الأرجاني في بيان فوائد التاريخ:

إذا ما درى الإنسان أخبارَ مَنْ مضى ... تخيلته[1] قد عاش من أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخرَ دهره ... إلى الحشر[2] إن أبقى الجميلَ من الذكر[3]

قوله: (وكانت نفسي تأسف على ترك المسلمين لها)؛ أي: مع عناية السلف بتعلمها وتعليمها، وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يُعلم بنيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه وسراياه، ويقول: يا بني! هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها[4].

---

(١) في «ديوان الأرجاني»: «تحسبه»، ولا يستقيم الوزن بها.

(٢) في الأصل: «الخير»، والمثبت من «ديوان الأرجاني».

(٣) انظر: «ديوان الأرجاني» (٢/ ٦٧٢).

(٤) أورده الحلبي في «السيرة الحلبية» (١/ ٣) باللفظ المذكور. ورواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ١٩٥) عن إسماعيل بن محمد بن سعد قال: كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعدُّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بني! هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرَها.

ولكني كنت أُقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع.

فلما قدمت مدينة المنصورة، جمعتني النوادي مع محمود بك سالم، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة، فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحولُ الرجال، وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبَرِّزاً فيها، مفصِحاً عن الجواب عنها.

وقال الإمام الزهري: في علم المغازي خير الدنيا والآخرة[1].

وفي ذكر السِّيَر أيضاً: معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، وكمالاته، وفضائل الصحابة وقريش وسائر العرب، وكل ذلك من الأسباب المقوية للإيمان.

وفيها: معرفة معاني كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إلى غير ذلك من الفضائل والفوائد.

قوله: (بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع): قال في «كشف الظنون»: أول من صنف في علم السير: الإمامُ المعروف بمحمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة (١٥١هـ)؛ فإنه جمعها ودونها، ثم أبو محمد عبد الملك بن هشام الحِمْيَري المتوفى سنة (٢١٨هـ)، فأحسن وأجاد ـ وكتابه مطبوع متداول، ويعرف بـ: «سيرة ابن هشام» ـ، وشرح هذا الكتاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة (٥٨١هـ)، وسماه: «الروض الأنف» ـ وهو مطبوع أيضاً ـ، وممن صنف في السير: ابنُ أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة (٦٣٠هـ)[2].

---

(١) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٠) باللفظ المذكور. ورواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ١٩٥) بلفظ: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا.

(٢) انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٠١٢).

أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، فعنده منها الخبر اليقين، وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامّة المسلمين، فقلت: يا لله! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي، ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته، وتتميم أمنيته؛ فإن المقام عظيم، وصعوباته أعظم، ولكن لم أرَ من الأمر بُدّاً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة؛ فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب، العميم النفع، الجزيل الفائدة، فقمت معتمداً على الله، راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه، وواصلت السَّيْرَ بالسُّرى حتى بلغت المنى، فجاء بحمد الله، سهلَ المنال، عذبَ المورد، تنتفع به العامّة، وترجع إليه الخاصّة.

وقد كان مورِدي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تفهيم العبارات، فكان يساعدني «الشفا» للقاضي عياض، و«السيرة الحلبية» و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي.

هذا، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفّق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيّدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإحياء معالِم دينه حتى يؤيَّدوا بروح من عند الله.

ومنهم: الإمام أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس الأندلسي المتوفى سنة (٧٣٤هـ)، وهو في مجلدين سماه: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، ثم اختصره في مجلد وسماه: «نور العيون في تلخيص سير الأمين المأمون»، وعلق الإمام برهان الدين إبراهيم بن محمد المتوفى سنة (٨٤١هـ). عليه حاشية سماها: «نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس»[1].

---

(١) انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١١٨٣).

وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول :

وهي في ثلاثة مجلدات، وهما موجودان في مكتبة المدرسة البهائية في حلب، ونسخة منه في مكتبة شيخنا بالإجازة حافظ العصر الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي، وقسم منه الأول والثاني في السلطانية بمصر.

❐ ❐ ❐




النسب الشريف

السيدُ الأكرمُ الذي شرَّف الناسَ بوجوده هو: (محمدُ بنُ عبدالله) من زوجه آمنةَ بنتِ وَهْبٍ الزُّهريةِ القرشيةِ. (ابنِ عبد المطلب) من زوجه فاطمةَ بنتِ عمرٍو المخزوميةِ القرشية. وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يَصْدُرون عن رأيه في مشكلاتهم، ويقدمونه في مهماتهم. . . . .

النسب الشريف

قوله: (النسب الشريف): افتتح المصنف كتابه تبعاً لغيره ممن ألف في السيرة النبوية بذكر نسبه صلى الله عليه وسلم؛ لما في شرف النسب من عظيم الفائدة؛ لأن من رام القيام بالأعمال العظيمة ـ خصوصاً هداية الناس ودعوتهم إلى الله تعالى ـ إذا لم يكن معروفاً بشرف النسب وكرم الحسب، فقلما يطيعه الناس، وتجتمع عليه الكلمة. ودنيءُ الأصل تنفر منه القلوب، ولا يكون موضعَ احترام الناس وتبجيلهم، فلا ينجح في الوصول إلى آماله، والحصولِ على مقاصده.

ويرشدك إلى ذلك قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُم) على قراءة ابن عباس والزهري ـ بفتح الفاء وكسر السين ـ، ومعناه كما في «تفسير الخازن»: أنه من أشرفكم وأفضلكم[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إني خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٤٢٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢٨)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٤): وفيه محمد =

(ابنِ هاشم) من زوجه سلمى بنتِ عمرٍو النجاريةِ الخزرجية. (ابنِ عبد مناف) من زوجه عاتكةَ بنتِ مُرّةَ السُّلَميةِ. (ابنِ قُصَيّ) من زوجه حُبَّى بنتِ حُلَيل الخزاعيةِ، وكان إلى قصيّ في الجاهلية حجابةُ البيت، وسقايةُ الحاج، وإطعامُه المسمى بالرفادة، والندوة ـ هي الشورى ـ لا يتم أمر إلا في بيته، واللواءُ، لا تعقد راية لحرب إلا بيده. ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبدِ الدار، لكنْ بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، . . . .

وقول هرقل سائلاً أبا سفيان: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، ثم قال له: سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسلُ تبعثُ في نسب قومها[1].

فلولا أهميةُ النسب وعظيمُ فائدته، لما سأل هرقل عنه أبا سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

وقد كان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من علماء النسب.

قوله: (حُبَّى بنت حليل): حبى ـ بضم الحاء وفتح الموحدة المشددة ـ، وحُليل: ـ مصغَّر ـ، وحُبَّى هي زوجة قصيّ التي كانت وصيةً هي وأبو غُبشان على مفتاح الكعبة بعد موت أبيها، ثم طلبه منها زوجها قصيّ فاحتجت بأبي غُبشان، فعمل عليه الحيلة قصي. اهـ. من هامش «القاموس»[2].

قال الحلبي: قيل: إن حُليلاً أوصى بأمر البيت لأبي غُبشان بعد أن أوصى

= ابن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحاكم في «المستدرك»، وقد تُكلِّم فيه، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) القصة مذكورة في «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٢٧٤).

وكاد يُفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمرَ عقلاءُ الفريقين، فأعطَوا بني عبد المناف السقايةَ والرفادةَ، فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة، فبقيت بيد بني عبد الدار، وأَقَرَّها لهم الشرعُ، فهي فيهم إلى الآن. وهم بنو شيبةَ بنِ عثمان بن أبي طلحة بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار، وأما اللواء، فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقًّا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة. وقصي (بن كلاب) من زوجه فاطمةَ بنتِ سعد، وهي يمانيةٌ من أزد شَنُوءَة. (ابنِ مرةَ) من زوجه هندٍ بنتِ سرير من بني فهر بن مالك. (ابنِ كعب) من زوجه وحشيةَ بنتِ شيبانَ من بني فهرٍ أيضاً. (ابنِ لُؤَيّ) من زوجه أُم كعبٍ ماوِيةَ بنتِ كعبٍ من قُضاعة. (ابنِ غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنتِ عمرٍو الخزاعي. (ابنِ فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنتِ سعد من هُذيل. وفهرٌ هو قريش ـ في قول الأكثرين ـ. وكانت قريش اثنتي عَشْرَة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرَّة، . . . .

بذلك لابنته زوجِ قصيّ، وقالت له: لا قدرة لي على فتح البيت وإغلاقه، وإن قصيًّا أخذ ذلك منه بزق خمر، فقالت العرب: أخسرُ صفقةً من أبي غُبشان.

وقيل: إن قصيًّا أعطاه أثواباً وأبعرة. اهـ[1].

وسيأتي لذلك زيادة بيان في آخر الكلام على بناء الكعبة.

قوله: (ابنِ كلاب): قال الحلبي: اسمه: حكيم، وقيل: عروة، لقب بكلاب؛ لأنه كان يحب الصيد، وأكثرُ صيده كان بالكلاب. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٥).

وبنو تيم بن مرّة، وبنو عديّ بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو مُحارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون: قريش البطاح، والذين بضواحيها: قريش الظواهر. (ابنِ مالك) من زوجه جندلةَ بنتِ الحارث من جُرْهُم. (ابنِ النضْر) من زوجه عاتكةَ بنتِ عَدْوان من قيسِ عَيْلانَ. (ابنِ كنانة) من زوجه بَرَّةَ بنتِ مُرّ بنِ أُدّ. (ابنِ خُزَيمة) من زوجه عَوانةَ بنتِ سعدٍ من قيس عيلان. (ابنِ مُدركةَ) من زوجه سلمى بنتِ أسلمَ من قُضاعة. (ابنِ إلياس) من زوجه خِنْدِفٍ المضروبِ بها المثلُ في الشرف والمنعة. (ابنِ مُضَر) من زوجه الربابِ بنتِ جُنْدَةَ بنِ معدّ. (ابنِ نزار) من زوجه سَودةَ بنتِ عَكّ. (ابنِ معدّ) من زوجه مُعَانةَ بنتِ جوشمٍ من جُرهم. (ابنِ عدنان).

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدِّثين، أما النسبُ فوق ذلك، فلا يصح فيه طريق، غايةُ الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم . . . .

قوله: **(هُصيص)**: ـ بالتصغير ـ، وقوله: **(جُمَح)**: ـ بضم الجيم وفتح الميم ـ.

قوله: **(البطاح)**: جمع الأبطح، سيلٌ واسع فيه دِقاقُ الحصى، ويجمع على أباطح، وقريش البطاح الذين ينزلون بين أخشبي مكة. والأخشبان: جبلا مكة: أبي قُبيس والأحمر، وجبلا منى.

قوله: **(خِنْدِف)**: ـ بكسر الخاء والدال وسكون النون ـ.

قوله: **(جُنْدة)**: ـ بضم الجيم وسكون النون ـ.

وقوله: **(عَك)**: بفتح العين ـ.

وقوله: **(جُرْهُم)**؛ كقنفد: حيّ من اليمن تزوج فيهم إسماعيل.

ينتهي إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ أبي العرب المستعربة[1].

نسبٌ شريف كما ترى: آباء طاهرون، وأمهات طاهرات، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهديًّا من أوسط العرب نسباً. فهو من صميم قريش التي لها القدمُ الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً، ليس فيهم مسترذَل، بل كلهم سادة قادة، وكذلك أُمهاتُ آبائه من أرفع قبائلهنّ شأناً، ولا شك أن شرف النسب وطهارةَ المولد من شروط النبوة، وكلُّ اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعيًّا بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية، بل طهَّره الله من ذلك، والحمدُ لله.

قوله: (أبي العرب المستعربة): قال أبو الفداء: قسمت المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام: بائدة، وعاربة، ومستعربة.

أما البائدة: فهم العرب الأُوَل الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم؛ لتقادم عهدهم، وهم: عاد، وثمود، وجرهم الأولى، وكانت على عهد عاد، فبادوا ودرست أخبارهم.

وأما جرهم الثانية: منهم من ولد قحطان، وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وأما العرب العاربة: فهم عرب اليمن من ولد قحطان.

وأما العرب المستعربة: فهم ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. اهـ[2].

وفي «القاموس»: عرب عاربة: صُرَحاء، ومستعربة: دُخَلاء، ويعرُب بن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٦).

(٢) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ٩٩).

قحطان: أبو اليمن، قيل: أول مَن تكلم العربية[1].

زواج عبدالله بآمنة، وحملُها

قوله: (من أحبِّ ولد أبيه[2] إليه. . .) إلخ: سبب كونه أحبَّ ولده إليه؛ لأنه كان أحسنَهم خَلْقاً وخُلُقاً، وأكملَ بني أبيه، وأعفَّهم وأحبَّهم إلى قريش، وكان نورُ النبي صلى الله عليه وسلم بيِّناً في وجهه.

وأيضاً: فإنه كان أمر عبد المطلب في المنام أن يحفر بئر زمزم، فنذر أن يذبح ولداً إن سهل له حفر زمزم، ولما تم له ذلك، قيل له: قَرِّبْ أحدَ أولادك، فذبح كبشاً، فقيل له: أكبر من ذلك.

وهكذا إلى أن قيل له: قرب أحدَ أولادك، فضرب القِداحَ على أولاده، فخرج على عبدالله، فأخذه بيده، وأخذ الشفرة، وأقبل على إسافٍ ونائلةَ، ووضع رجلَه على عنقه، فجذب العباسُ عبدَالله من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبدالله إلى أن مات[3].

ولهذا ورد في الحديث: «أنا ابن الذبيحين»[4]، فهذه الحادثة أيضاً كانت

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عرب).

(٢) سقطت من الأصل، والمثبت من «م».

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ: كنا عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله! خلَّفتُ البلادَ يابسة، والماءَ يابساً، هلك المال، وضاع العيال، فَعُدْ عليَّ بما أفاء الله عليك يا بنَ الذَّبيحين، فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر عليه.

فزوَّجَه آمنةَ بنتَ وهبِ بنِ عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وسنُّه ثماني عشرةَ سنة، وهي يومئذٍ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها، حملت بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني عَدِيِّ بنِ النجار؛ فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيتُه بالمدينة وهو راجع، ولما تمّت مدة حمل آمنة، وضعت ولدها، فاستبشر العالَمُ بهذا المولود الكريم الذي بثّ في أرجائه روح الآداب، وتمم مكارم الأخلاق[1].

وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي: أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل . . . .

من أسباب محبة أبيه له.

قوله: (فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة): قال الدحلاني: سبب زواجه من بني زهرة: أنه كان عبدُ المطلب قدمَ اليمنَ مرة، فنزل على حبر من اليهود، فقال: ممن الرجل؟ قال: من بني هاشم، قال: أتأذن لي أن أنظر بعضك؟ قال: نعم، ما لم يكن عورة، ففتح إحدى منخريَّ فنظر فيها، ثم نظر إلى الأخرى، فقال: أشهد أن في إحدى يديك ملكاً، وفي الأخرى نبوة، وإنما تجد ذلك من الملك والنبوة في بني زهرة، فهل لك من زوجة من بني زهرة؟ قلت: أما اليوم فلا، فقال: إن تزوجت، فتزوج منهم، فتزوج عبدُ المطلب هالةَ بنتَ وهيب بن عبد مناف، وزوَّج ولدَه عبدَالله آمنةَ بنت وهب؛ رجاءً لما أخبر به الحبر[2].

قوله: (وقد حقق محمود باشا الفلكي . . .) إلخ: يقرب من قول محمود

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٧١ ـ ٧٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٣).

سنة (٥٧١) من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بِشِعْب بني هاشم، وكانت قابلته الشِّفاء أم عبد الرحمن ابن عوف، ولما ولد، أرسلت أمه لجدِّه تبشِّره، . . . .

باشا ما ورد في الآثار من أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت لعشر ليال[1]، وصححه الحافظ الدمياطي[2].

قوله في الذيل: (أن ملكاً من ملوك الحبشة. . . إلخ): هو أبرهة بن الصباح بن يكسوم، وسبب قصده لها: أن أبرهةَ رأى الناسَ يتجهزون أيام الموسم إلى مكة، فبنى كنيسة بصنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب، فسمع بذلك مالكُ بنُ كنانة، فخرج لها ليلاً، فدخل وتغوط فيها، ولطخ بالعذرة قِبلَتَها، فبلغ ذلك أبرهةَ، فحلف ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها، فسار إليها ومعه فيل عظيم، ولما وصل إلى مكة، أصاب لعبد المطلب مئتي بعير، ثم أرسل إليه رسولاً وقال له: إني لم آتِ لقتال، وإنما جئت لهدم هذا البيت، وأنصرف عنكم، فقال للرسول: هذا بيتُ الله الحرام، وبيتُ إبراهيمَ خليلِه، فإن يمنعْه فهو بيته وحرمُه، وإن يخل بينه وبين ذلك، فوالله! ما لنا به قوة.

ثم إن عبد المطلب ذهب مع الرسول إلى أبرهة، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له: حاجتي أن يرد عليَّ مئتي بعير أصابها، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: كنت قد أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيت هو دينُك ودين آبائك، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمَه، لم تكلمني فيه، وتكلمني في مئتي بعير أصبتُها، قال عبد المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل،

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٠٠) عن الواقدي بإسناده إلى أبي جعفر محمد بن علي.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» للدمياطي (ص: ٢٩ ـ ٣٠).

فأقبل مسروراً، وسمّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبلُ عند العـرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التـي جـاءت بهـا الأنبيـاء؛ كالتوراة والإنجيل، فألهم جدَّه أن يسمّيه بذلك إنفاذاً لأمره، . . . .

ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه منك، قال: ما كان ليمنعه مني، وأمر بإبله فردَّتْ عليه، وفي ذلك يقول من أبيات:

لا هُـمَّ إنَّ العبـدَ يمـ ـنعُ رَحْلَـهُ فـامنعْ رحالَـكْ

وانصـرْ علـى آلِ الصليـ ـبِ وعابديـهِ اليـومَ آلَـكْ

ثم لما أصبح أبرهة، تهيأ للدخول، وهيأ جيشه وفيلَه، فأرسل الله عز وجل طيراً من البحر أمثالَ الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره أمثال الحصى والعدس، فلما غَشينَ القومَ، أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل قوم أصابت، وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق، وذلك قولُه تعالى في سورة الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[الفيل: ٣]؛ يعني: طيراً كثيرة متفرقة، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل: ٤]: من طين مطبوخ، وقيل: ﴿سِجِّيلٍ﴾: حجر وطين مختلط، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل: ٥]؛ يعني: كزرع أكله الدود. اهـ. ملخصاً من الخازن[١].

وهذه السورة سيقت من باب الامتنان على رسوله صلى الله عليه وسلم، وكانت حادثة الفيل تمهيداً لنبوته صلى الله عليه وسلم.

قوله: (وسماه محمداً): قال عبد المطلب: أردت أن يحمَدَه الله تعالى في السماء، وخلقُه في الأرض[٢].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧٤).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١١٣) عن أبي الحكم التنوخي.

وكانت حاضِـنته أمُّ أيمنَ بركةُ الحبشيةُ، أَمَةُ أبيه عبدِاللَّهِ، وأولُ مَنْ أرضعه ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عمه أبي لهب[١].

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المَراضعَ لمواليدهم في البـوادي؛ ليكون أنجبَ للولد، وكانوا يقولون: إن المربَّى فـي المـدن يكـون كليـلَ الذهن، فاترَ العزيمة، فجاءت نِسوة من بني سعدِ بـنِ بكـر يطلـبن أطفـالاً يرضعْنَهم، فكان الرضيع المحمودُ من نصيب حليمةَ بنتِ أبي ذؤيب السـعدية، واسمُ زوجها: أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسبُ له الرسول صـلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به، . . . .

الرضاع

قوله: (فجاءت نسوة من بني سعد. . .) إلـخ: سـبب مجيـئهن أن السـنة كانت سنةً شهباءَ؛ أي: ذاتَ جدب وقحط، فخرجن يطلبن الرضعاء؛ ومعهـن ناقـة مُسنة ما تبض بقطرة لبن، قالت حليمة: وما كنا نام ليلتنا أجمعَ من صبينا الـذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يكفيه بحيث يرفع رأسه، ولمـا قـدمنا مكـة لم تبق امرأة معي إلا وأخذت رضيعاً غيري، وكل امرأة عرض عليهـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم كانت تأباه إذا قيل لها: يتيم، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبي اليتيم[٢]، فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمه وجدُّه؟!

ولما أجمعنا على الانطلاق، قلت لصاحبي: والله! إني لأكره أن أرجـع ولـم آخذ رضيعاً، والله! لأذهبن إلى ذلك الرضيع فلآخذنه، قال: لا عليـكِ أن تفعلـي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته[٣].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٨٩).

(٢) في المصادر: «من أبي الوليد»، وفي بعضها: «من أبي الصبي».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٨ ـ ٣٠٠).

فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء. ودَرّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم، وكانت تربو عن أربع سنوات[1].

وفي رواية عن حليمة قالت: استقبلني عبد المطلب، فقال: من أنت؟ فقلت: امرأة من بني سعد، قال: ما اسمُك؟ قال: حليمة، فتبسم عبد المطلب وقال: بخ بخ سعدٌ وحِلْم. خصلتان فيهما خيرُ الدهر وعزُّ الأبد، يا حليمة! إن عندي غلاماً يتيماً، وقد عرضته على نساء بني سعد، فأبين أن يقبلن، وقلن: ما عند اليتيم من الخير، إنما نلتمس الكرامة من الآباء، فهل لكِ أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به، فقالت: ألا تذرني حتى أشاور صاحبي؟ ولما شاورته، قال لها: خذيه، فأخذته. اهـ. حلبي ملخصاً[2].

قوله: (وكانوا يقولون. . .) إلخ: في الحلبي: إن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرَّ بنا حبُّ الوليد ـ يعني: ولده ـ؛ لأنه لمحبته له أبقاه مع أمه في الحضَر، ولم يسترضعه في البادية مع الأعراب، فصار لحاناً لا عربيةَ له، وأخوه سليمانُ استُرضع في البادية مع الأعراب، فصار عربيًّا غيرَ لحان. اهـ[3].

قوله: (ودرت البركات. . .) إلخ: قالت حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ: ثم قدمنا منازل بني سعد، ولا أعلمُ أرضاً من أراضي الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا، والله! ما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر في المنازل من قومنا يقول لرعاتهم: ويلكم! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ـ يعنونني ـ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٦).

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة، وهي شَقُّ صدره، وإخراجُ حظِّ الشيطان منه، فأحدثَ ذلك عند حليمة خوفاً، فردته إلى أمه، وحدّثتها قائلة: بينما هو وإخوتُه في بَهْم لنا خلف بيوتنا، إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشَقَّا بطنه فهما يَسُوطانه. فخرجتُ أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقَعاً لونُه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بنيّ؟ فقال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأضجعاني فشقَّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو»[1].

تعالى الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه، وفصلتُه. اهـ[2].

حادثة شق الصدر

قوله في الذيل في تفسير قوله: (يسوطانه)؛ أي: يحركانه بسوط: هذا التفسير غير صحيح، والصواب في تفسيره: أنهما كانا يُدخلان يديهما في بطنه، كما في الحلبي والدحلاني[3].

قوله: (ولا[4] أدري ما هو): قال الحلبي بعد نقله لهذه العبارة: وسيأتي

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٣٥) عن حليمة السعدية، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٩٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٨). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٥٢)، وانظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٥٨).

(٤) في الأصل: «وما»، والمثبت من «م»، وهو موافق لما في «نور اليقين»، طبعة الجامعة.

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عَدِيِّ بنِ النجار، وبينما هي عائدة، أدركتها منيتُها في الطريق، . . . . .

أن هذا الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه: «وما أدري ما هو» أنه علقة سوداء استخرجاها من قلبه فطرحاها[1]، زاد في رواية: وقيل: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله[2].

وفاة آمنة، وكفالة جده له ووفاته، وكفالة أبي طالب

قوله: (وتوجهت به إلى المدينة): قيل: كان عُمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتئذ أربعَ سنين، وقبل: خمساً، وقيل: ستًّا، وقيل: أكثر من ذلك[3].

وروى الزهري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين، خرجت به أمه إلى أخوال جده، وهم بنو عدي بن النجار بالمدينة تزورهم، ومعه أم أيمن بركةُ الحبشية، فأقامت به عندهم شهراً. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (أدركتها منيتها): قال الدحلاني: وكان عمرها حين توفيت في

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (١/ ٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٤٦) من طريق ابن إسحاق، كلاهما عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، دون لفظ: «وما أدري ما هو».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٥٢، ١٥٧)، والرواية المشار إليها رواها البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٤١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ورواها مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوها.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٦).

فماتت بالأبواء، فحضنته أُمُّ أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورقَّ له رِقَّـةً لم تُعْهَد له في ولده؛ لما كان يظهر عليه مما يدلّ على أن له شأْناً عظيماً فـي المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، . . . .

حدود العشرين سنة[1].

قوله: (فماتت بالأبواء)؛ أي: دُفنت فيها، وقيل: بالحَجُون، وقيل جمعاً بين الـروايتين: إنهـا دفنـت أولاً بـالأبواء، ثـم نبشـت ونقلـت إلـى مكـة، ودفنـت بالحجون. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (وكفله): كَفَلَ من باب (قتل)، والكافل: هـو الـذي يعـول إنسـاناً وينفق عليه. اهـ. «مصباح»[3].

قوله: (ورق له رقة لم تعهد له في ولده. . .) إلخ: في الـدحلاني: كـان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول: عليَّ بابني؛ أي: احضروه، ويُجلسه بجنبـه، وربما أقعدَه على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه[4].

قوله: (لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً): في الدحلاني: روي عن عبد المطلب أخبار كثيرة تقتضي أنه عرف بها نبوة النبي صلى الله عليه وسـلم، فمن ذلك: أن قوماً من بني مدلج ـ وهم القافة المعروفون بالآثار والعلامات ـ قـالوا له في حق النبي صلى الله عليه وسلم: احتفظ به، فإنا لـم نـر قـدماً أشـبهَ بالقـدم الذي في المقام منه.

وبينا عبدُ المطلب يوماً في الحِجْر، وعنده أسقفُ نجران ـ رئيس النصارى في دينهم ـ وذلك الأسقف يحدثه ويقول: إنا نجد صفة نبي تقيٍّ من ولد إسماعيل،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: كفل).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٧٢).

ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فكفله شقيقُ أبيه أبو طالب، فكان له رحيماً، وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مُقلًّا من المال، فبارك الله له في قليله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثالَ القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أُم أيمن حاضنتُه، فكان إذا أقبل وقتُ الأكل، جاء الأولاد يختطفون، وهو قانع بما سييسرُهُ الله له[1].

وهذا البلد مولده، ومن صفته كذا وكذا، فأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر إليه، وإلى عينيه، وإلى ظهره وقدميه، فقال: هو هو، ما هذا منك، قال: هذا ابني، قال: ما نجدُ أباه حيًّا، قال: هو ابن ابني، وقد مات أبوه وأمه حبلى به، قال: صدقتَ، قال عبد المطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه؟[2].

قوله: (لكن لم يلبث [عبد المطلب] أنه توفي): قال الدحلاني: وكان عمر عبد المطلب حين توفي مئة وأربعين سنة، وقيل: مئة وعشرة، وقيل: أقل، ودفن بالحَجون عند قبر جده قصيّ، ولما حضرته الوفاة، أوصى به إلى عمه شقيق أبيه أبي طالب[3].

قوله: (فكان إذا أقبل وقت الأكل): في الدحلاني: كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان أولَ بكرة النهار شيئاً يأكلونه، فيجلسون وينتهبون، فيكفُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، ولا ينتهب معهم؛ تكرماً منه واستحياء ونزاهةَ نفس وقناعةَ قلب، فلما رأى ذلك أبو طالب، عزل له طعاماً على حدته. اهـ[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٧٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٨٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٨٨).

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنُّه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة، أراد عمّه وكفيلُه السفرَ بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسولُ صلى الله عليه وسلم فراقَه، فرقّ له، وأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة ـ وهم بقرب بُصرى ـ بَحِيرا الراهبُ، فسألهم عمّا رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبيٍّ من العرب في هذا الزمن، . . . .

وكأن لسان حال النبي صلى الله عليه وسلم يقول قول[1] الشنفرى:

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ بأعْجَلِهم إذْ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ[2]

السفر إلى الشام

قوله: (فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه): في الدحلاني: مسك بزمام ناقة أبي طالب وقال: «يا عم! إلى من تكلني، لا أبَ لي ولا أم؟!»، فأخذه معه، وأردفَه خلفه[3].

قوله: (بُصرى): بضم الباء، و**(بَحِيرا)**: بفتح الباء وكسر الحاء.

قوله: (فسألهم . . .) إلخ: ليس فيما رأيناه في سياق قصة بَحيرا ما يفيد أنه سألهم عما رآه في كتبهم . . . إلخ ما ذكره المؤلف هنا، وخلاصة القصة كما في الدحلاني: أن قريشاً كثيراً ما تمر على بَحيرا، فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام، فإنه لما أقبلوا، رأى غمامة تُظِلُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم، ثم لما نزلوا في ظل شجرة، نظرَ الغمامةَ قد أظلت الشجرة، ومالت أغصانها عليه

---

(١) سقطت من الأصل، والمثبت من «م».

(٢) انظر: «ديوان الشنفرى» (ص: ٥٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٧)، وأورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٥٣).

. . . .

صلى الله عليه وسلم، ثم أرسل لهم أني قد صنعت لكم طعاماً وأُحِبُّ أن تحضروا كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بَحيرا في القوم، ولم يَرَ الغمامة على أحد منهم، ورآها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا معشر قريش! لا يتخلفْ أحدٌ منكم عن طعامي، فقالوا: لم يتخلف إلا غلام، قال: لا تفعلوا ذلك، فليحضرْ، ثم قام إليه عمه الحارث، فاحتضنه وجاء به مع القوم، فلما رآه بحيرا، جعل يلحظه [لحظاً][1] شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ [القوم][2] من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرا فقال له: أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسألني باللات والعزى، فوالله! ما أُبغض شيئاً قَطّ بغضَهما»، فقال بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: «سلني عما بدا لك»، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فيخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفة النبي المبعوث آخر الزمن.

ولما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني، قال: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا؟ قال: فإنه ابن أخي، فقال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقتَ، ثم قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقتَ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده، واحذر عليه يهود، وحينئذ خرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة. اهـ[3].

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لدحلان.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لدحلان.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٨ ـ ٩٩)، وهذه القصة أوردها ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٥٣ ـ ٥٥).

فقالوا: إنه لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩][(١)].

حرب الفجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة، حضر حرب الفِجَارِ، وهي حرب كانت بين كِنانة ومعها قريش، وبين قيس . . . .

ونحو ذلك في ابن هشام، والحلبي، وليس فيهما كما ترى أنه سألهم عن بعثة نبي من العرب في هذا الزمن، وأنهم قالوا: لم يظهر إلى الآن[(٢)].

الرد على من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى العلم من بحيرا الراهب

[. . .][(٣)].

حرب الفجار

قوله: (الفِجار)؛ أي: بكسر الفاء، بمعنى المُفاجَرة، كالقِتال بمعنى المقاتلة.

قوله: (عشرين سنة): هذا ليس بالصواب، ففي ابن هشام: كان عمره صلى الله عليه وسلم أربعَ عشرةَ سنة، أو خمسَ عشرةَ سنة[(٤)].

وعلى الرواية الثانية اقتصر الحلبي، والدحلاني[(٥)]، ويؤيد الثانية والثالثة

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لابن هشام (١/ ٣١٩ ـ ٣٢٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

(٣) بياض في الأصل و«م» بمقدار سبعة أسطر.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٤).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٧)، و«السيرة النبوية» =

وسببها: أنه كانَ للنعمان بن المنذر ملكِ العرب بالحيرة تجارةٌ يرسلها كل عام إلى سوق عُكاظ لتُباع له، وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعةٍ وشرف في قومه ليجيزها، فجلس يوماً وعنده البرَّاضُ بنُ قيسٍ الكنانيُّ ـ وكان فاتكاً خليعاً، خلعه قومه لكثرة شرّه ـ وعروةُ بنُ عتبةَ الرحَّال، فقال: مَنْ يُجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البرَّاض: أنا أُجيزها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أُريد مَنْ يُجيزُها على الناس كلهم. فقال عروة: أبيتَ اللعنَ أكلبٌ خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقَيْصوم من أهل نجدٍ وتهامةَ. فقال البَرَّاض: أو تُجيزها على كنانةَ يا عروة؟ . . . .

رواية: أنه حضرها وهو غلام[1]؛ لأن ابن العشرين لا يسمى غلاماً.

قوله: (إلى سوق عكاظ): عُكاظ: كـ (غُراب): سوق بصحراءَ بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلالَ ذي القعدة، وتستمر عشرين يوماً، تجتمع قبائل العرب فيتعاكظون؛ أي: يتفاخرون ويتناشدون الأشعار، وهو من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن، وهي صحراء مستوية لا جبل فيها، وكان يقام فيها السوق في ذي القعدة نحواً من نصف شهر، ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له: سوق مَجَنَّة، فيقام فيه إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له: ذو المجاز، فيقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى، وكان سوق عكاظ لثقيف، وقيس عيلان. اهـ. دحلاني، وقاموس. انظر: «شرح العيني» للبخاري[2].

قوله: (وعروة بن عتبة الرحّال) القيسي قيس هوازن.

= لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٩).

(١) أوردها اليعقوبي في «تاريخه» (٢/ ١٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٠)، و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عكظ)، و«عمدة القاري» للعيني (٦/ ٣٥).

قال: وعلى الناس كلهم، فأسرَّها في نفسه، وتـربَّص لـه حتـى إذا خـرج بالتجارة، قتله غدراً، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحـذرهم قيساً قومَ عروة. وأما قيس، فلم تلبث بعد أن بلغهـا الخبـر أن همّـت لتـدرك ثأرها، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة، فاقتتلوا، ولما اشتدّ البـأس وحميـت قيس، احتمت قريش بحرمها، وكان فيهم رسولُ الله صلى الله عليـه وسـلم. ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنّا لا نترك دمَ عروة، فموعـدُنا عكـاظ العـامَ المقبل، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً، فلما حالَ الحَـوْلُ، جمعت قيسٌ جُمُوعها، وكانـت معهـا ثقيـف وغيرُهـا، وجمعـت قـريش جموعها من كنانة والأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وكان رئيسَ بني هاشم الزبيرُ بنُ عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب، وحمزة، والعبـاس وابـنُ أخيه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكان على بني أميّة حربُ بـنُ أميّـة، وله القيادة العامة؛ لمكانِه في قريش شرفاً وسناً. وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، . . . .

قوله: (قتله غدراً)؛ أي: وكان ذلك في الشهر الحرام.

قال ابن هشام: فلذلك سمي حرب الفجار[1].

وقال بعد ذلك: وإنما سمي يوم الفجار بما استَحل هذان الحيان ـ كنانـة، وقيس عيلان ـ فيه من المحارم بينهم[2].

قوله: (ويحذرهم قيساً)؛ أي: قيسَ هوازن، ولما بلغ بني كنانـة الخبـر، انطلقوا، وهوازن لا تشعر.

قوله: (والأحابيش): في «القاموس»: حُبْشِيٌّ: جبل بأسفل مكة، ومنه:

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٦).

فكان يوماً من أشدّ أيام العرب هَولاً، ولما استُحِلَّ فيه مِنْ حُرُمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سُمي يوم الفِجار. وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها، ولكن أدركهم مَنْ دَعَا المتحاربين للصلح على أن يُحصُوا قتلى الفريقين، فمَن وجد قَتلاه أكثر، أخذ ديَة الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حربُ بن أمية، ورهن لسَدَادها ولده أبا سفيان. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب، تبدؤها صغيراتُ الأمور حتى ألّفَ الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[١].

أحابيش قريش؛ لأنهم تحالفوا بالله إنهم لَيَدٌ على غيرهم ما سَجَا ليلٌ، ووضح نهار، وما رسا حُبْشيٌّ. اهـ[٢]؛ أي: ما بقي هذا الجبل.

قوله: (ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح): هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابنُ أخي حرب بن أمية الذي كان قائداً على بني أمية، فإنه خرج بغير إذن عمه، فلم يشعر به إلا وهو على بعير بين الصفين ينادي: يا معشر مضر! عَلامَ تفانون؟ فقالت هوازن: ما تدعو إليه؟ قال: الصلح الصلح؛ على أن ندفع لكم دية قتلاكم، ونعفوا[٣] عن دمائنا، قالوا: ومن أنت؟ قال أنا عتبة بن ربيعة، فرضيت به هوازن وكنانة وقريش، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً رهناً إلى حين تأدية الديات، فيهم حكيمُ بنُ حزام ابنُ أخي خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ، فلما رأت هوازن الرهن في أيديهم، عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار. اهـ. حلبي ملخصاً[٤].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حبش).

(٣) في النسختين و«السيرة الحلبية»: «وتعفوا»، والمثبت من «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٣٢١). الصواب: نعفو [من دون ألف؛ لأن الواو من أصل الكلمة].

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٠).

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار تداعَوا لحلف الفُضُول، فتمَّ في دار عبدالله بن جُدْعَان التَّيْمِي أحدِ رؤساء قريش، . . . .

حلف الفضول

قوله: (حلف الفضول): الحلف: اليمين والعهد.

والفضول: ما يؤخذ ظلماً.

وسبب هذا الحلف: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان من أهل الشرف والقدر بمكة، فحبس عنه حقَّه، فاستدعى عليه الزبيديُّ الأحلافَ من بني عبد الدار ومخزوم وجُمَحَ وغيرِهم، فأبوا أن يعينوا على العاص، فرقى الزبيدي جبل أبي قبيس، وأنشد أبياتاً شكى فيها مظلمته، فبلغ ذلك الزبيرَ وعبدَالله بن جدعان، وقيل: قام فيه العباس وأبو سفيان، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يردوا إليه حقه، شريفاً أو وضيعاً، ثم مشوا إلى العاص، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها له. اهـ. دحلاني ملخصاً[١].

قوله: (في دار عبدالله بن جدعان): كان عبدالله ذا شرف وسن، وهو من جملة من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية بعد أن كان مغرقاً بها، وسبب ذلك أنه سكر ليلة، فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه، فضحك منه جلساؤه، ثم أخبروه بذلك حين صحا، فحلف لا يشتريها أبداً.

وكان من الكرماء المشهورين، يذبح في داره كل يوم جزوراً وينادي مناديه: من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان، وكان يطبخ عنده الفالوذج ويطعمه قريشاً. اهـ. دحلاني ملخصاً[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٦).

وكان المتحالفون: بني هاشم وبني المطلب ابنَي عبد مناف، وبني أسد بن عبد العزّى، وبني زهرة بن كلاب، وبني تَيْم بن مُرّة، تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى تُردّ إليه مَظْلِمتُه، وقد حضر هذا الحلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه، وقال بعد أن شرّفه الله بالرسالة: «لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جُدعان ما أُحبّ أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[1]، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دينُ الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا[3].

قوله: (فأنصفوا): توضيحه: أنه كان بين الحسين بن علي وبين الوليد بن عتبة منازعة في مال، فقال الحسين للوليد: أحلف بالله لتنصفني من حقي، أو لآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون لحلف الفضول؛ أي: لحلفٍ كحلفِ الفضول، وهو نصرةُ المظلوم على الظالم.

ووافقه على ذلك جماعة، منهم: عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ؛ لأنه كان إذ ذاك في المدينة، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة، أنصف الحسين من حقه

---

(١) رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٢٥٧)، من حديث عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٨٩٤٩)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٥): ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق، وهو ثقة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١١ ـ ٢١٣).

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة، سافر إلى الشام المرّة الثانية، وذلك أن خديجةَ بنتَ خُويلدٍ الأسديةَ كانت سيدة تاجرة ذاتَ شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن محمد صلى الله عليه وسلم من الأمانة وصِدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ممّا كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها مَيْسرةَ، فباعا وابتاعا، وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للنبي الكريم في هذه السفرة من البركات ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة[١].

حتى رضي. اهـ. حلبي[٢].

رحلته إلى الشام المرة الثانية

قوله: (سافر إلى الشام المرة الثانية): سبب ذلك: أن عمه أبا طالب قال له: يا بن أخي! أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد علينا الزمان، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها، فلو جئتها، لفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، فقال صلى الله عليه وسلم: «لعلها ترسل إليّ في ذلك»[٣].

انظر إلى علو نفسه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٥).

(٣) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٥٨) عن نفيسة بنت منية، وعزاه لابن سعد وابن السكن وأبي نعيم.

فبلغ خديجةَ ما كان من محاورة عمه له، فأرسلت إليه وقالت: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعفَ ما أعطي رجلاً من قومك، فذكر ذلك لعمه، فقال: هذا رزق ساقه الله إليك.

فخرج ومعه ميسرةُ غلامُ خديجة في تجارة لها، فسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ سوق بصرى، فنزل تحت شجرة قريبة من صومعة نسطورا الراهب، فاطلع نسطورا إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة! من هذا الذي تحت الشجرة؟ فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فدنا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن عرف العلامات الدالة على نبوته في الكتب القديمة؛ كحمرة عينيه، وقبَّل رأسه وقدميه، وقال: آمنتُ بك، وأنا أشهد أنك الذي ذكر الله في التوراة[1].

وفي رواية: قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ فقال ميسرة: نعم، لا تفارقُه أبداً، قال: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة[2].

ثم حضر صلى الله عليه وسلم سوق بصرى، فباع سلعته التي خرج بها، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال: «ما حلفت بهما قط»، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة ـ وخلا به ـ: هذا نبي، والذي نفسي بيده! إنه الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة، وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يُظلانه في الشمس.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٠)، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

وقبل أن يصلوا إلى بصرى عيي بعيران لخديجة، وتخلف معهما ميسرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الركب، فخاف ميسرةُ على نفسه، فانطلق يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده على أخفافهما وعوَّذهما، فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء.

وألقى الله محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلب ميسرة حتى كأنه عبده.

ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة، وخديجةُ في عُلِّيَة لها رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعير ومَلَكان يُظلانه، فأرته نساءها، فعجبن لذلك[1].

وذكر ابن إسحاق: أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش! إنه يوشك فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له، فلتفعلْ، فحصبنه بالحجارة، وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء، ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرةُ بما رأى من الآيات مع ما رأته هي، قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً، ما ذاك إلا هذا[2].

زواجه خديجة

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٠ ـ ١٣١، ١٥٦) عن نفيسة بنت منية ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٦٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٩).

(٢) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٦٤)، وعزاه لابن إسحاق. ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٥) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فلما قَدِما مكة، ورأت خديجة ربحَها العظيم، سُرَّت من الأمين عليه الصلاة والسلام، وأرسلت إليه تخْطُبُهُ لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسباً، وأوسعِهم مالاً، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمرِو بنِ أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوّجها عمُّها.

قوله: (ورأت خديجة ربحها العظيم...) إلخ: ليس سبب زواجها به ما رأته من ربحها العظيم، ونحن نحاشي السيدة خديجة من ذلك.

قال السيد الدحلاني: سبب عرضها نفسَها: ما حدثها به غلامها ميسرةُ، مع ما رأته هي من الآيات، وقد ذكرت ما رأته من الآيات، وما حدثها به ميسرة لابن عمها ورقةَ بنِ نوفل، فقال لها: إن كان هذا حقّاً يا خديجة؛ فإن محمداً نبيُّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبيٌّ منتظَر، وهذا زمانه. اهـ[1].

قوله: (وأرسلت إليه تخطبه لنفسها): كان الرسولُ نفيسةَ بنتَ منيةَ ـ رضي الله عنها ـ.

روي عنها: أنها قالت: أرسلتني خديجةُ دسيساً ـ أي خفيةً ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقالت: يا محمد! ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قلت: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال، والشرفِ والكمال، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: هي خديجة، قال[2]: «وكيف لي بذلك؟» قلت: علَيَّ[3]، [قال][4]: «وأنا أفعل»، فذهبتُ إليها فأخبرتها، فأرسلت إليه: أن ائتِ الساعةَ كذا، وأرسلت إلى عمها

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٣).

(٢) في الأصل: «قلت»، والتصويب من «الطبقات الكبرى» و«السيرة النبوية» لدحلان.

(٣) في الأصل: «بلى»، والتصويب من «الطبقات الكبرى».

(٤) ما بين معكوفتين من «الطبقات الكبرى».

وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرعِ إسماعيل، وضِئْضِيءِ معدّ، وعنصر مُضَر، وجعلَنا حَضَنةَ بيته، وسُوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلَنا حكّام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمدَ بنَ عبدالله لا يُوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، وعارية مستردّة، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجةَ، وقد بذل لها من الصَّدَاقِ كذا[1].

وعلى ذلك تم الأمر.

عمرِو بنِ أسد ليزوجها[2].

فذكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، ففرحوا، وخرج معه أبو طالب وحمزة حتى دخلا على خويلدٍ أبيها، ـ وقيل: عمها عمرو ـ، فخطبها أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم، فرضي، وأصدَقَها عشرين بكرة، وقيل: اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، والنَّشُّ: نصف أوقية، وقيل: أربع مئة دينار. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وضئضئ)؛ أي: أصل، وهو كجِرْجِر وجرجير وضُؤْضُوء وضَؤْضَوء.

وكان زَواجه بها بعد مجيئه من سفره بشهرين وعشرين يوماً[4].

---

(١) رواه العسكري في «الأوائل» (ص: ٢٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) عن نفيسة بنت منية ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢). وقال الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٦٥): «قال ابن إسحاق في المبتدأ: وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً».

وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالةَ، توفي عنها وله منها ولد اسمُه هالـةُ، وهو ربيبُ المصطفى عليه الصلاة والسلام[1].

بناء البيت

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة، جاء سـيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قـريش هـدمها ليرفعوهـا ويسـقفوها؛ فإنهـا كانـت رضـيمة فـوق القامـة، فاجتمعت قبائلُهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها؛ لمكانها في قلـوبهم. فقـال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإسـاءة؟ قـالوا: بـل الإصلاح، قال: إن الله لا يهلك المُصلِحين[2]، . . . .

قوله: (وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة): قال الدحلاني: وبعـد أبـي هالـة تزوجها عتيقُ بنُ عابد المخزومي، فولدت له بنتاً اسمُها هند، أسلمت وصحبت النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ترو شـيئاً، وقيـل: إن عتيقـاً تزوجهـا قبـل أبـي هالة. اهـ[3].

بناء البيت

قوله: (هابوا هدمها. . .) إلخ؛ أي: خشية أن يحصل لهم بسببه بلاء. اهـ. حلبي[4].

وروي لذلك سبب آخر: وهو أنهم لما أرادوا بناءها قام أبو وهب عمرو بن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٦ ـ ١١٧)، و«السيرة الحلبيـة» لنـور الدين الحلبي (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٢) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٥٩) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٢).

وشرع يهدم، فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صِحافاً نُقش فيها كثير من الحِكَم على عادة مَنْ يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين.

عائذ، فتناول منها حجراً، فوثب في يده حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك: يا معشر قريش! لا تُدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، وفي لفظ: لا تدخلوا في نفقة هذا البيت مهر بَغِيّ، ولا بيعَ رباً، وفي لفظ: لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً، ولا قطعتم فيه رحماً، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين الناس. اهـ. منه[1].

وهذا السبب نستبعد صحته، والذي ذكره المؤلف الصحيح المعقول.

قال الحلبي: وأبو وهب هذا خال عبدالله أبي النبي صلى الله عليه وسلم، وكان شريفاً في قومه[2].

قوله: (نقش فيها كثير من الحكم): قال الحلبي: وجدت قريش في الركن كتاباً بالسريانية، فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا يزول أخشباها، يبارك لأهلها في الماء واللبن.

ووجدوا في المقام كتاباً آخر مكتوب فيه: مكة بلد الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاث سبل.

ووجدوا كتاباً آخر مكتوب فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شرّاً يحصد ندامة، تعملون السيئات وتجزون الحسنات، أجل ـ أي: نعم ـ كما يجنى من الشوك العنب؛ أي: الثمر[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٢).

ثم ابتدؤوا في البناء، وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مَهرُ بغيٍّ، ولا بيعُ رِبًا، وجعل الأشرافُ من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيمن يحمل، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم، وقد خصّص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْرَ، وبنوا عليه جداراً قصيراً، علامةً على أنه من الكعبة، ولما تم البناء ثمانية عشر ذراعاً؛ بحيث زِيدَ فيه عن أصله تسعةُ أذرع، . . . . .

وذكر الحلبي كتباً أخرى[1].

قوله: (وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل): في الحلبي: روى الشيخان عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بنيت الكعبة، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ـ رضي الله عنهما ـ ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة ـ أي: كبقية القوم، فإنهم كانوا يضعون أُزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ـ، ففعل صلى الله عليه وسلم، فخر إلى الأرض، فطمحت عيناه[2] إلى السماء، ونودي: عورتك! فقال: «إزاري» ـ أي: شدوا عليَّ إزاري، فشدَّ عليه. اهـ[3].

قوله: (اسمه باقوم): قيل: إنه كان مولى لسعيد بن العاص، وقيل: إن البحر كان قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة، وكانت تلك السفينة لرجل من تجار الروم اسمه باقوم، وكان بانياً، وكان في السفينة رخام وخشب وحديد، فلما انكسرت السفينة، خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى السفينة، فابتاعوا

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٣).

(٢) في الأصل: «عينيه»، والتصويب من مصدري التخريج و«السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣١)، والحديث رواه البخاري (٣٨٢٩)، ومسلم (٣٤٠).

ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد إليه إلا بـدرج، أرادوا وضـع الحجـر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلـك حتـى كادت تشبّ بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أميةَ بنُ المغيرة المخزوميُّ عمُّ خالد بن الوليد، فقال لهم: يا قوم! لا تختلفـوا، وحكِّمـوا بيـنكم مـن ترضـون بحكمـه. فقالوا: نَكِلُ الأمر لأوّل داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له؛ لِمَا يعهدونه فيه من الأمانـة وصـدق الحديث، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد؛ . . . .

خشبها، فأعدوه لسقف الكعبة، وجاؤوا بباقوم الرومي إلى مكة. اهـ. حلبي ملخصاً[1].

قوله: (حتى كادت تشب بينهم نار الحرب): في الحلبي: قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي؛ أي: تحالفوا على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا: لقعة الدم. اهـ[2].

قوله: (أبو أمية): اسمه حذيفة، وهو عم خالد بن الوليد، ووالد أم سلمة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، وهو أحد أجداد قريش المشهورين بالكرم، وكان يعرف بزاد الراكب؛ لأنه إذا سار لا يتزود معه أحد، بل يكفي كلَّ من سافر معه الزادَ. اهـ. حلبي[3].

قوله: (فقالوا: نكل الأمر لأول داخل): عبارة الحلبي صريحة في أن القائل هو أبو أمية، ونصها: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري، فلما أخبروه الخبر، بسط رداءه وقال: «لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب»، ثم وضع فيه الحجر، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه ووضعه فيه[1].

وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن يمنَّ الله عليهم بعاقلٍ مثلِ أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيمٍ مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يُرضي جميعهم.

ولا يُستغرب من قريش تنافسُهم هذا؛ لأن البيت قِبلَة العرب وكعبتهم التي يحجّون إليها، فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة، وهو أول بيت وُضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم، قال تعالى في سورة آل عمران: . . . .

مَن يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم، وهو باب بني شيبة. اهـ[2].

قوله: (لا يداري ولا يماري)؛ أي: لا يشاغب ولا يخالف، وهو مهموز، وروي في الحديث غير مهموز ليزاوج يماري. اهـ. «نهاية»[3].

وفي «زاد المعاد»: كنتَ تداري ولا تماري[4]، و(تدارئ) بالهمزة من المدارأة، وهي مدافعة الحق، فإن تُرك همزُها، صارت من المداراة، وهي المدافعة بالتي أحسن[5].

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٦٨٣) عن عبدالله بن السائب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ١١٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٦)، من حديث السائب بن أبي السائب ـ رضي الله عنه ـ في وصفه لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

(٥) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم الجوزية (١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[آل عمران: ٩٦ـ٩٧]، وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلةُ جُرهم، فلما بَغَوا وظلموا مَنْ دخل مكة، اجتمعت عليهم خزاعةُ وأجلَوهم عن البيت، . . . .

قوله: (﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ٩٦]. . . إلخ): ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وضع للعبادة، وجُعل متعبَّداً لهم.

وقوله: (﴿مُبَارَكًا﴾)؛ أي: كثير الخير والنفع.

(﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]): لأنه قبلتهم.

(﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾): كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وإن كل جبار قصده بسوء قهره.

(﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾): مبتدأ خبره محذوف؛ أي: منها مقامُ إبراهيم، وقيل: عطف بيان على أن المراد بالآيات أثرُ القدم في الصخرة الصماء.

(﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[آل عمران: ٩٦])؛ أي: ومنها: آمنٌ مَن دخله.

قال الحلبي: الحق أن الكعبة لم تبن جميعها إلا ثلاث مرات: المرة الأولى: بناء إبراهيم عليه السلام، والثانية: بناء قريش، وكان بينهما ألفا سنة وسبع مئة سنة وخمس وسبعون سنة، والثالثة: بناء عبدالله بن الزبير، وكان بينهما نحو اثنتين وثمانين سنة.

وأما بناء الملائكة وبناء آدم وبناء شيث؛ فلم يصح، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي؛ فإنما كان ترميماً. اهـ[1].

قوله: (وأجلوهم عن البيت): ولهذا قال شاعرهم عامرُ بنُ الحارث الجرهميّ:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٧٩).

ووليته خزاعةُ حيناً من الدهر، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصيٍّ بن كلاب، وبسببه أمِنوا في بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين، وامتنّ الله عليهم بذلك في تنزيله، فقال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا . . . .

وكنا وُلاةَ البيت من بعد نابتٍ ... نطوفُ بذاك البيت والأمرُ ظاهرُ

كأن لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ

بلى نحن كنا أهلَها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

اهـ. أبو الفداء[1].

والعواثر: التعساء.

قوله: (ووليته خزاعة حيناً. . .) إلخ: كانت ولاية البيت لخزاعة، وانتهت إلى خليل الخزاعي، فأوصى بها لابنته ـ اسمُها حُبَّى كما تقدم ـ زوجِ قصي، فقالت: لا قدرة لي على فتح البيت وإغلاقه، فجعل أبوها ذلك لأبي غُبشان الخزاعي، فاشترى منه قصي أمرَ البيت وأمرَ مكة بزقّ من خمر، ثم زاده أذواداً من الإبل وأثواباً، فنازعته خزاعة، فدعا قريشاً وبني كنانة لإعانته، فأعانوه حتى أزاح يدَ خزاعة، وذلك بعد أن اقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل والجرح في الفريقين، إلا أنه في خزاعة أكثر، ثم تداعَوا للصلح، وحَكَّموا يعمرَ بنَ عوف، فقضى لقصي بأنه أولى بولاية مكة، فتولاها. اهـ. دحلاني ملخصاً[2].

قوله: (في سورة القصص): الصواب: في سورة العنكبوت[3].

وقوله تعالى: (**﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾**)؛ أي: جعلنا بلدهم مصوناً عن النهب

---

(١) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١٠٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣).

(٣) وهي في طبعة «نور اليقين» التي أثبتناها في المتن مصححة.

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧][1].

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يَرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً، بل ولد يتيماً عائلاً، فاستُرضع في بني سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكِّنه أن يعمل عملاً، كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لمّا رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريطَ كما ذكر ذلك البخاري في «صحيحه».

ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بدّ منه؛ . .

والتعدي، آمناً أهلُه عن القتل والسبي.

(﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: ٦٧]): يُختلَسون قتلاً وسبياً؛ إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب. اهـ. بيضاوي[2].

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

قوله: (لم يرث عليه السلام. . .) إلخ: هذا سهو، والصواب: أنه ورث خمساً من الإبل، وقطعة من غنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشيةُ حاضنتُه، كما في «الحلبية»[3].

قوله: (بل ولد يتيماً): قال في «شرح الهمزية»: قال جعفر الصادق: وإنما يتم صلى الله عليه وسلم؛ لئلا يكون لمخلوق في عنقه حق[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٨٥).

(٤) انظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ١٣٦)، والخبر المذكور رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٥).

لأنهم لو وجدوا أغنياء، لألهتهم الدنيا، وشُغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقةً على استحسان الزهد فيها، والتباعدِ عنها، وحالُ الأنبياء السالِفين أعظمُ شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهدَ الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى، وإبراهيم. وكانت حالتهم في صغرهم ليست سَعَة، بل كلهم سَواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه؛ ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافتِ عليها، وذلك سبب البلايا والمحن. وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادقُ المصدوق صلى الله عليه وسلم في حديث للبخاري.

وقال في الحاشية على الشرح المذكور: ذكر بعضهم حكمة يُتمه: أنه لا يجب عليه طاعة لغير الله، وأن لا يكون عليه ولاية لغير الله. اهـ.

قوله: (كما أخبر الصادق المصدوق في حديث للبخاري...) إلخ: الحديث في (كتاب الإجارة)، ونصه فيه: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». اهـ[1].

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة: أن يحصل لهم التمرنُ برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سَبُع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرُّقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة؛ ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا

---

(١) رواه البخاري (٢٢٦٢).

وهذه أيضاً من بالغ الحِكَم؛ فإن الإنسان إذا استرعى الغنم ـ وهي أضعف البهائم ـ سكن قلبَه الرأفةُ واللطفُ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق، كان لما هُذِّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال. . . . .

اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحمُّلهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك عن أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم.

وخُصَّت الغنم بذلك؛ لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرُّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها. اهـ[1].

قال في «الحلبية»: ووقع الافتخار بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فاستطال أصحابُ الإبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بُعث موسى وهو راعي غنم، وبُعث داود وهو راعي غنم، وبُعثتُ أنا وأنا راعي غنم أهلي بأجياد»[2]: موضعٍ بأسفلِ مكةَ من شعابها. اهـ[3].

قوله: (فكان عيسى أزهد الناس في الدنيا): أذكر هنا حكاية عنه عليه السلام كنت رأيتها في بطن الكتب، وغرب عن فكري في أي كتاب، وهي: إن عيسى عليه السلام كان معه ركوة في بعض سياحاته يشرب بها، فمر على نهر، فإذا برجل يغترف الماء بيديه ويشرب، فقال: لا حاجة إذاً إلى الركوة، وألقاها،

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٤/ ٤٤١).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٨٤) عن عبدة بن حَزْن النصري، وهو مختلفٌ في صحبته كما في «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص: ٣٦٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٦).

ولما شبّ عليه الصلاة والسلام كان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب. وذهب بالتجارة لخديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى الشام على جُعْل يأخذه. ولما شرفت خديجة بزواجه، وكانت ذات يسار، عمل في مالها، وكان يأكل من نتيجة عمله. وحقق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ . . . . .

وصار يشرب بيديه.

قوله: (كان يتاجر)؛ أي: جرياً على ما كانت عليه قريش؛ لأنهم كانوا قوماً تجاراً، ومن لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء. اهـ. دحلاني[1].

ويرشدك إلى ذلك: سورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

قوله: (على جعل يأخذه): في «الجامع الصغير» ما نصه: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص[2]». اهـ[3].

والقلوص: الشابة من الإبل.

قوله: قوله تعالى: (﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾[الضحى: ٧])؛ أي: ضالاً عما أنت عليه اليوم، فهداك إلى توحيده ونبوته، وقيل: وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، فهداك إليها. اهـ. خازن[4].

وفي البيضاوي: ﴿فَهَدَىٰ﴾: فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٠).

(٢) في الأصل: «قلوصين»، والمثبت من «دلائل النبوة»، و«الجامع الصغير».

(٣) أورده السيوطي في «الجامع الصغير»، وعزاه للبيهقي عن جابر، كما في «ضعيف الجامع الصغير وزياداته» (٢). ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٦٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٣٨).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾[الضحى: ٦ ـ ٨] بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام، ولم يكن يدري ذلك قبل.

قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى: ٥٢][1].

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خُلقاً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدَهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، . . . .

وقوله: (﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾)؛ أي: فقيراً ذا عيال، (﴿فَأَغۡنَىٰ﴾[الضحى: ٨]): بما حصل لك من ربح التجارة. اهـ. منه[2].

قولـه: (﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾)؛ أي: قرآنـاً، وقولـه: (﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾)؛ أي: شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل: الصلاة.

سيرته في قومه قبل البعثة

قوله: (أحسن قومه خلقاً. . .) إلخ: حسن وصف الله تعالى له في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وأُمر بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[المؤمنون: ٩٦] الآية.

قوله: (وأبعدهم عن الفحش): في الدحلانية: روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: «لم يكن

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

حتى كان أفضلَ قومه مروءةً، وأكرمَهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدَقهم حديثاً، فسمَّوه الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة؛ من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء[1].

فاحشاً ولا متفحشاً»[2]؛ أي: متكلفاً للفحش؛ أي: لم يقم به فحش طبعاً ولا تكلُّفاً، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. اهـ.

قال في «النهاية»: الفحش: كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال[3].

قوله: (أفضل قومه مروءة): قال في «المصباح»: المروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميلِ العادات، يقال: مَرُؤَ الإنسان، فهو مريء، مثل: قَرب فهو قريب: ذو مروءة، وقد تُشَدَّد فيقال: مروّة. اهـ[4].

وفي «أدب الدنيا والدين»: المروءة: مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق.

ثم قال: سئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل. اهـ[5].

وفي «الذريعة لمكارم الشريعة» للراغب: استحسن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤١٥).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: مرأ).

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٤٠١).

حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضرُ بنُ الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله! ما هو بساحر[1].

من وفدِ عبدِ القيس لما سألهم: «ما المروءة؟» فقالوا: العفة والحرفة[2].

قوله: (وأصدقهم حديثاً) هذا تكرار مع ما قبله، والأَولى حذفُ الأولى لا الثانية؛ لأن لها تتمة، وهي قوله: **(فسموه الأمين. . .)** إلخ.

قوله: (حيث يقول: قد كان محمد. . .) إلخ: قال لهم ذلك بعد أن رام أبو جهل أن يفضخ رأس النبي صلى الله عليه وسلم بحجر، وعرض له دونه فحل من الإبل، فرعب منه ورجع، وأخبر قريشاً بما رآه؛ كما بسطه ابن هشام في فصل حديث النضر وما نزل فيه[3].

ثم قال ابن هشام: فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش! إنه والله! قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً. . . إلخ ما قاله المصنف[4].

وتتمة حديثه بعد قوله: **(ما هو بساحر)**: لقد رأينا السحَرةَ ونفثَهم وعقدَهم، وقلتم: كاهن، لا والله! ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالُجَهم، وسمعنا سجعَهم،

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٨).

(٢) أورده الراغب الأصبهاني في «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص: ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، ولم نقف عليه مسنداً. وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٩٥) عن حبيب التميمي: أن معاوية سأل رجلاً من عبد القيس: ما تعدون المروءة فيكم؟ قال: الحرفة والعفة.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه[1].

وقلتم: شاعر، لا والله! ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه ورَجَزَه، وقلتم: مجنون، لا والله! ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه والله! لقد نزل بكم أمر عظيم. اهـ[2].

قوله: (قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب): القائل لهم في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب ليس النضر بن الحارث، بل هو الوليد ابن المغيرة.

قال الدحلاني: روى ابن إسحاق والحاكم والبيهقي بإسناد جيد: أنه اجتمع في بعض المواسم إلى الوليد نفر من قريش، وكان ذا سِنّ فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش! قد حضرتم هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمِعوا فيه رأياً، ولا تختلفوا فيكذبَ بعضُكم بعضاً، قالوا: فأنت أقم لنا رأياً نقوله فيه، قال: بل أنتم، فقولوا أسمعْ، قالوا: نقول: كاهن، قال: والله! ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: والله! ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا وسوسته، قالوا: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، قالوا: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما تقول أنت؟

قال: والله! إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق ـ عَذِق؛

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٨).

ولما سأل هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدعَ الكذب على الناس ويكذبَ على الله، ورد ذلك في أول «صحيح البخاري»[1].

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً؛ حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عُبَّادُها[2].

كـ (كتف): طيب زكي ـ، وإن فرعه لجناة ـ الجناة: العسل ـ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا أعرفُ أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون في سُبل الناس حين قدموا الموسم لا يمرُّ بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره، فصدرت العرب من ذلك الموسم تتحدث بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، بل في جميع الآفاق، وانقلب مكرهم عليهم. اهـ[3].

والذي أوقع المصنف في هذا السهو تشابه الكلام في آخر الحديثين.

قوله: (وبغضت إليه الأوثان. . .) إلخ: قال الحلبي: جاء عن أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ: أنها قالت: كان بُوانةُ صنماً تحضره قريش وتعظِّمه وتعكف

---

(١) رواه البخاري (٧، ٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لما نشأتُ بُغِّضَتْ إليّ الأوثان، وبُغِّض إليّ الشعر»[1]، و«لم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخلَ مكة فأسْمُر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئتُ أول دارٍ من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذنيَّ فنمت، ....

عليه يوماً إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضر مع قومه، ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه، فيأبى ذلك، حتى قالت: رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشدَّ الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، ويقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً؟! فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن: ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم»؛ وهو المسُّ من الشيطان، فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: «إني كلما دنوت من صنم منها ـ أي: من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة ـ؛ تمثَّل لي رجل أبيض طويل ـ أي: وذلك من الملائكة ـ يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسَّه»، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبَّأ صلى الله عليه وسلم. اهـ[2].

قوله: (فأسمر) أصل السمر: الحديث ليلاً.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢). والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٨).

فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ولم أقضِ شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثلُ ذلك»[1].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب، وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يُحَلِّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوّة وبعدها، أما قبل النبوة، فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيُسند إليهم، وأمَّا بعدها، فليكونوا قدوة لأممهم. عليهم من الله أفضلُ الصلوات وأتمُّ التسليمات[2].

قوله: (لا يأكل مما ذبح على النصب): في الحلبي: روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سمعت زيدَ بنَ عمرِو ابنِ نُفيل يعيب كلَّ ما ذُبح لغير الله تعالى، فكان يقول لقريش: الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟! فما ذقت شيئاً ذُبح على النصب ـ أي: الأصنام ـ حتى أكرمني الله تعالى برسالته». اهـ[3].

قوله: (وحرم شرب الخمر على نفسه): قال الحلبي: روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: هل عبدت وثناً قط؟ قال:

---

(١) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٧٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٧٢)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥ ـ ٢٨٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠١). والحديث المذكور رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/ ١٨٨).

ما أكرمه الله به قبل النبوّة

أولُ منحة من الله: ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضَعاً فيهم؛ فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين، فلما صار بينهم، صارت غُنَيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيلُ لبناً، ويرحم الله البوصيري حيث يقول في «همزيته»:

وإذا سخَّر الإله أُناساً ... لسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ[1]

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظِّ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر، لا يعرف من قوة الله شيئاً؛ لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدَث ولا المستغرَب[2].

«لا»، قالوا: هل شربت خمراً قط؟ قال: «لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان». اهـ[3].

ثم قال: وفي «الخصائص الصغرى» للسيوطي: وحرمت عليه الخمر من قبل ما يُبعث قبل أن تحرم على الناس بعشرين سنة. اهـ[4].

ما أكرمه الله به قبل النبوة

---

(١) انظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٤٢).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٩٥ ـ ٩٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٤). والحديث المذكور أورده ابن منظور في «مختصر تاريخ دمشق» (١/ ١٥٠).

(٤) انظر: «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» للسيوطي (١/ ١٦١).

ومن المكرمات الإلهية: تسخيرُ الغمامة له في سفره إلى الشام، حتى كانت تُظِله في اليوم الصائف، لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرةُ غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره، وهذا ما حبّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً[1].

ولذلك لما جاءته النبوّة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمَتْه من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه: ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار، فكان إذا خرج لحاجته، أبعدَ حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى أحداً، وقد حدَّث بذلك عن نفسه[2].

قوله: (وقد حدث بذلك عن نفسه): قال الحلبي: عن [جابر بن][3] سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرفُ حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». اهـ[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٠٧)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٢٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٣) ما بين معكوفتين من مصدر التخريج.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٦١)، والحديث رواه مسلم (٢٢٧٧).

وليس في ذلك كبيرُ إشكال؛ فقد سخّر الله الجماداتِ للأنبياء قبله، فعصا موسى التقمت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّلت حيّة تسعى، ثم رجعت كما كانت، . . . .

ثم قال: وإلى تسليم الأحجار قبل البعثة يشير الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ في «تائيته» بقوله:

وما جُزْتَ بالأحجار إلا وسلَّمَتْ عليكَ بنطقٍ شاهد قبل بعثةِ

قال السهيلي: يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاماً مقروناً بحياة وعلم، ويحتمل أن يكون صوتاً مجرداً غير مقترن بحياة وعلم، وعلى كلٍّ هو عَلَم من أعلام النبوة[1].

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: أكثر العقلاء بل كلهم يقولون عن الجمادات: لا تعقل، فوقفوا عند بصرهم، والأمر عندنا ليس كذلك، فإذا جاءهم عن نبي أو ولي أن حجراً كلمه مثلاً يقولون: خلق الله فيه العلم والحياة في ذلك الوقت، والأمر عندنا ليس كذلك، بل سرُّ الحياة سارٍ في جميع العالم، وقد ورد أن كل شيء سمع صوتَ المؤذن من رطب ويابس يشهد له[2]، ولا يشهد إلا من علم. اهـ[3].

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٣٩٩).

(٢) روى أبو داود (٥١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤذن يُغفر له مدى صوته، ويشهد له كلُّ رطب ويابس».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

بحث شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في رسالته: «الكلام على الفطرة»، وبسط أدلَّتَها من الكتاب والسنة، وخلص إلى أن الجمادات فُطرت على معرفة =

ولما ضرب بها الحجر، نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً؛ لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَارة شأنهم.

قوله: **(ولما ضرب بها الحجر)**: كان منه ذلك لما صار بنو إسرائيل في التيه، فقالوا لموسى عليه السلام: قد صرنا في أرض لا ماء فيها ولا ظل ولا طعام، فأمر الله موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط

= ربِّها معرفةً تليق بها، ومما قاله رحمه الله: أخبر سبحانه أنه خاطب الجمادات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، والتأويب: هو ترجيع التسبيح، وأخبر سبحانه عن الحجارة أن منها لما يهبط من خشية الله، وهذا يدلُّ على أنها تعرفُ ربها معرفةً تليق بها، فإن الخشيةَ تستلزمُ العلم بالمَخشيِّ... والمقصود: إذا كانت هذه الجمادات قد فُطرت على معرفة ربِّها وتسبيحه وتنزيهه، الإنسان أشرف منها؛ فلأنْ يُفطر على معرفته بربِّه بطريق الأَولى والأحرى؛ لِما رَكَّب اللهُ فيه من العقل والتمييز والفطنة، لا سيما وقد نطق الكتاب والسنة بأنه فطره على الإسلام.

ثم نقل عن العز بن عبد السلام رحمه الله المذاهبَ في هذه المسألة فقال: قال ابن عبد السلام: للعلماء في الحجارة وأنها تهبط من خشية الله ثلاث مذاهب:

قالت الصوفية: هي حيوان، وفيها جزءٌ حيٌّ تسبح الله تعالى، وتخرُّ له، وتسجد له.

وقال آخرون: هذا من مجاز التشبيه.

وقال الأشعري: الله تعالى يخلق لها حياة عند إرادة ذلك منها.

ثم نقض شيخ الإسلام هذه الأقوال الثلاثة لمخالفتها لما قَرَّره. انظر: «مجموعة الرسائل الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٢).

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوّه فيها بذكر كثيرٍ من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم خطاباً لسيّدنا موسى عليه السلام: وسوف أُقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومَنْ لم يُطِعْ كلامه الذي يتكلم به باسمي، فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترئُ عليّ بالكبرياء، ويتكلم باسمي بما لم آمره به، أو باسم آلهة أخرى، فليقتلْ، وإذا أحببتَ أن تميز بين النبي الصادق والكاذب، فهذه علامتك: إنّ ما قاله ذلك النبي باسم الرب، ولم يحدث، فهو كاذب يريد تعظيم نفسه، ولذلك لا تخشاه». ويقول اليهود: إن هذه البشارة ليوشعَ بنِ نون خليفةِ موسى عليه السلام، . . . .

عين، وظلَّل الله عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى[1].

والمَنُّ: شيء كالصمغ، طعمه كالشهد، كان يقع كل ليلة على الشجر ويأكلون منه.

والسلوى: طائر يشبه السُّمانَى، كان يأتيهم كل يوم، فيسترسل إليهم فيأخذونه.

تبشير التوراة به

قوله: (ونوه فيها): قال في «المصباح»: نوه به تنويهاً: رفع ذكره وعظَّمه، وفي حديث عمر: أنا أول من نَوَّه بالعرب[2]؛ أي: رفع ذكرهم بالديوان

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم نقف عليه مسنداً، وأورده الأزهري في «تهذيب اللغة» (٦/ ٢٣٣).

مع أنهم كانوا ينتظرون في مدّة المسيح نبيّاً آخر غيرَ المسيح؛ فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه، فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذاً تُعَمِّدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيحَ ولا النبي؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبيّ لم يأتِ حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي صلى الله عليه وسلم إنه مثلُ موسى، وقد نصّت في آخر سفْر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبيٌّ مثلُ موسى، . . . .

والإعطاء. اهـ[1].

قوله: (مع أنهم كانوا ينتظرون. . .) إلخ: شروع في إبطال ما يقوله اليهود.

قال في «إظهار الحق»: وأيضاً وقع في البشارة: (سوف أُقيم)، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى، داخلاً في بني إسرائيل نبيّاً في هذا الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ؟!

وأيضاً: وقع في هذه البشارة لفظ: (أجعلُ كلامي في فمه)، وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب، وإلى أنه يكون أميّاً حافظاً للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع؛ لانتفاء كلا الأمرين فيه. اهـ[2].

قوله: (ونبي لم يأت حتى زمن المسيح)؛ أي: فكيف يكون المراد به يوشعَ ابنَ نون كما تزعم اليهود، ويوشعُ قبل عيسى بكثير؟.

قوله: (نبي مثل موسى)؛ أي: فكيف يكون المراد به يوشع بن نون؟.

قال في «إظهار الحق»: لا مماثلة بين يوشع وبين موسى؛ فإن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامرَ ونواهٍ، ويوشعُ ليس كذلك، بل

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: نوه).

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١٢٠ ـ ١١٢١).

هو مُتَّبع لشريعة موسى.

وأيضاً: لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى؛ لأن عيسى كان إلهاً وربّاً على زعم النصارى، وموسى كان عبداً له.

وعيسى على زعمهم صار ملعوناً لشفاعة الخلق؛ كما صرَّح به بولس في الباب الثالث من «رسالته إلى أهل غلاطية»، وموسى ما صار ملعوناً لشفاعتهم.

وإن عيسى دخل الجحيم بعد موته؛ كما هو مصرَّح به في عقائد أهل التثليث، وموسى ما دخل الجحيم.

وإن عيسى صلب على زعمهم ليكون كفَّارة لأُمَّته، وموسى ما صار كفَّارة لأُمَّته.

وشريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وغير ذلك، وشريعة عيسى فارغة عنها.

وموسى كان نبيّاً مطاعاً في قومه، نفَّاذاً لأوامره ونواهيه، وعيسى عليه السلام ليس كذلك. اهـ[1].

وقال ابن القيم في «هداية الحيارى»: والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل، لا من بني إسرائيل، فلو كان المراد بها هو المسيح؛ لقال: (أُقيم لهم نبيّاً من أنفسهم)؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران: ١٦٤].

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولا يقال في لغة أمة من الأمم: إن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل، كما أن إخوة زيد لا يدخل فيهم زيدٌ نفسُه[2].

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١١٧ ـ ١١١٨).

(٢) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٢).

وورد في هذه البشارة: أن النبي الذي يفتري على الله يُقتل، ويُشْبهُ ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ . . . . .

وقال بعد ذلك: قال في التوراة في السفر الخامس: (قال موسى لبني إسرائيل: لا تطيعوا العرَّافين والمنجِّمين، فسيقيم لكم الرَّبُّ نبيّاً من إخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي)، ولا يجوز أن يكون هذا النبي الموعود به من أنفس بني إسرائيل كما[1] تقدم أن إخوة القوم ليسوا أنفسهم؛ كما يقال: بكر وتغلب أبناء وائل، ثم يقول: تغلب إخوة بكر، وبنو بكر إخوة ابن[2] تغلب، فلو قلت: إخوة بني بكر بنو بكر؛ كان مُحالاً.

ولو قلت لرجل: ائتني برجل من إخوة بني بكر بن وائل؛ [لكان] الواجب أن يأتيك برجل من بني تغلب بن وائل، لا بواحد من بني بكر. اهـ[3].

وقال قبل ذلك ـ في الرد على بعض اليهود القائلين: المراد به: شمويل النبي ـ: البشارةُ إنما وقعت بنبي من إخوتهم، وإخوةُ القوم هم بنو أبيهم، وهم بنو إسماعيل[4].

قوله: (يقتل)؛ أي: ولو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً، لكان يقتل.

قوله تعالى: (﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾)؛ أي: اختلق علينا.

(﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾)؛ يعني: أتى بشيء من عند نفسه لم نقله نحن، ولم نُوحِه إليه.

---

(١) في «هداية الحيارى»: «لما».

(٢) في «هداية الحيارى»: «بني».

(٣) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٢).

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألِدَّاد من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم، وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أكان يعجز الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله، وهو الذي قال في سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، . . . .

(﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾)؛ أي: لأخذناه بالقوة والقدرة، وانتقمنا منه باليمين؛ أي: بالحق.

قال ابن عباس: لأخذناه بالقوة والقدرة[1].

قال الشماخ يمدح عَرابةَ ملكَ اليمن:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تَلَقَّاها عَرابةُ باليمين[2]

أي: بالقوة.

فعبر عن القوة باليمين؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه.

وقوله تعالى: (﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾)؛ يعني: نياط القلب، وقيل: هو حبل الظهر، وقيل: هو عِرْق يجري بالظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه.

قال ابن قتيبة: لم يرد أنَّا نقطعه بعينه، بل المراد منه: أنه لو كذب علينا، لأمتناه. اهـ. خازن ملخصاً[3].

---

(١) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٠).

(٢) انظر: «ديوان الشماخ» (ص: ٣٣٦).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٣٨).

وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه، وهي الإخبار بما سيأتي.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشياء كثيرة، فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع معه الحَدْس والتخمين؛ كالإخبار بأن الروم سَيَغلِبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً. . . . .

قوله: (وقد أخبرتنا هذه البشارة)؛ أي: قوله في التوراة: وإذا أحببت أن تميز بين النبي الكاذب والنبي الصادق. . . إلخ.

قوله: (كالإخبار بأن الروم سيغلبون. . .) إلخ: روي أن فارس غزوا الروم، فوافوهم بأذرعات وبصرى ـ وقيل: بالجزيرة ـ وهي أدنى أرض الروم من الفرس، فغلبوا عليهم، وبلغ الخبر مكةَ، ففرح المشركون، وشمتوا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر: لا يُقِرَّنَّ الله أعينكم، فوالله! لتظهرن الرومُ على فارس بعد بضع سنين، فقال له أُبيُّ بن خلف: كذبتَ، اجعل بيننا أجلاً أناحِبُك عليه ـ المناحبة: المراهنة ـ، فناحبه على عشر قلائصَ من كل واحد منهما، وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «البضعُ ما بين الثلاث والتسع، فزايدْه في الخطر، ومادّه في الأجل»، فجعلاها مئة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد، وظهرت الروم على فارس يومَ الحديبية[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٧ ـ ١٨) عن عكرمة. ورواه الترمذي (٣١٩٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه، وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أيضاً برقم (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال: حديث صحيح حسن غريب.

حتى كادوا يحتلون القُسْطَنْطِينية عاصمةَ مُلْكِهم، فالإخبار إذاً بأن الروم سَيَرُدُّون ما فُقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله، ولذلك استغربه جدّاً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وقد حقق الله الخبر ـ فاستحق الصدِّيقُ الرهنَ. وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وروى القاضي عياض في «الشفا»: أن عطاء بن يسار سأل عبدالله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: أجل، والله! إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[الأحزاب: ٤٥]، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ. . . . .

فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أُبي، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «تصدَّق به»[(١)].

والآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب. اهـ. بيضاوي[(٢)].

قوله: (حتى كادوا يحتلون القسطنطينية): قال عكرمة وغيره: إن شهرمان قائدَ جيش الفرس لما غلب الروم، لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج، ثم إن كسرى حاول قتل شهرمان وأخيه فرحان لكلمةٍ بلغته عن فرحان، ولما علما بذلك، انضما إلى قيصر ملك الروم، فتقوَّتْ بذلك عزائمُ الروم، ونهضت لمحاربة الفرس، فغلبتها. اهـ. خازن ملخصاً[(٣)].

قوله: (ليس بفظ)؛ أي: سيئ الخلق.

---

(١) أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٧٦) عن الشعبي.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتَح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلفاً[1].

(ولا غليظ)؛ أي: شديد القول، ولا سخاب (ويروى بالصاد) في الأسواق؛ أي: لا يصيح فيها، **وقوله: (حتى يقيم به الملة العوجاء)**؛ أي: ملة إبراهيم التي غيرتْها العرب، وأخرجتها عن استقامتها.

وقوله: (وقلوباً غلفاً)؛ أي: لا تفهم كأنها في غلاف. اهـ. حلبي[2].

ثم قال: قال عطاء: ثم لقيتُ كعبَ الأحبار ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فسألته عنه، فما أخطأ في حرف[3].

قوله: (وحرزاً للأميين): في الحديث: «إنا أمة أُميَّة، لا نكتب ولا نحسب»[4]، أراد: أنهم على أصل ولادة أمهم، لم يتعلموا الكتابة والحساب، فهم على جبلَّتهم الأولى.

وفي الحديث أيضاً: «بُعثتُ إلى أُمة أُميَّة»[5]، قيل للعرب: الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة، ومنه قوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: ٢]. اهـ. «نهاية»[6].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥)، والحديث المذكور رواه البخاري (٢١٢٥). وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٥٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٧). والحديث المذكور مع قول عطاء رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٧٤).

(٤) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٥) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٩) من حديث أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

(٦) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٦٨).

وروي مثله عن عبدالله بن سَلام ـ رضي الله عنه ـ[1]، وهو الذي كان رئيسَ اليهود، فلم تُعْمِه الرياسةُ حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار[2].

وفي بعض طرق الحديث: ولا صَخَّابٍ في الأسواق، ولا قوَّالٍ للخنا، أُسدِّدُه لكل جميل، وأَهبُ له كل خُلُق كريم، وأجعل السكينة لباسَه، والبرّ شعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ مقولَه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملَّته، وأحمدَ اسمَه، أَهدي به بعد الضلالة، وأُعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأُسمي به بعد النكرة، وأُكثِّر به بعد القلّة، وأُغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأُؤلِّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس[3].

قوله: (فلم تُعمه الرياسة. . .) إلخ؛ أي: لو أعمته، لترك الدين القديم وبقي على ضلالته.

قوله: (بعد الخمالة)؛ أي: بعد الانخفاض.

قوله: (وأسمي به بعد النكرة).

قال في «شرح الشفاء»: النكرة ـ بضم النون وسكون الكاف، وبفتح النون وكسر الكاف ـ: خلاف المعرفة، ويطلق بمعنى المجهول، والباء للسببية؛ أي:

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة» (٩٨٠).

(٢) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٣)، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٦) عن وهب بن منبه، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥ ـ ٢٦)، و«المواهب اللدنيَّة» للقسطلاني (٢/ ٥٥٠).

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة، فقال ـ وهو الصادق الأمين ـ : عبدي أحمدُ المختار، مولدُه مكة، ومهاجَرُه المدينة ـ أو قال: طَيْبة ـ وأمته الحمَّادون اللهَ على كل حال[1].

تبشير الإنـجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط، ومعناه قريبٌ من محمد، أو أحمد، ويصدّقه في القرآن قولُ الله تعالى في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]**، وقد وَصَفَ المسيحُ هذا الفارقليطَ بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيّنا، . . . .**

أعرف الناس بسببه ـ أو بما أوحيه إليه ـ الناس المجهولون، أو أعرفهم ما جهلوه من التوحيد وتمامه فيه.

تبشير الإنجيل به

قوله: (بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط. . .) إلخ:

قال في «إظهار الحق»: جاء في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليطَ آخرَ يثبت معكم إلى الأبد، والفارقليط روحُ القدس الذي يرسله الأب باسمي، هو

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤٥٦) من حديث طلحة ـ رضي الله عنه ـ قال: وُجد في البيت كتابٌ في حجر منقور في الهدمة الأولى، فدُعي رجلٌ فقرأه، فإذا فيه: عبدي المنتخب المتمكن المنيب المختار، مولده بمكة، ومهاجرهُ طيبة، لا يذهب حتى يقيم السنة العوجاء، ويشهد أن لا إله إلا الله، أمته الحمادون، يحمدون الله تبارك وتعالى بكل أكمة. وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٠٣).

. . . .

يعلمكم كل شيء، وهو يُذكركم كلَّ ما قلتُه لكم، والآن قد قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنون). اهـ. من البشارة الثامنة عشرة[١].

وقال ابن القيم في «هداية الحيارى»: وفي إنجيل يوحنا: الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء، وبخ العالمَ على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب. اهـ[٢].

قال الحلبي، قال بعد نقله هذه العبارة: وما جاء بذلك وأخبر بالحوادث والغيوب إلا محمد صلى الله عليه وسلم[٣].

وقال ابنُ القيم بعد العبارة السابقة: قال يوحنا في إنجيله في موضع آخر: إن الفارقليط روحُ الحق الذي يرسله إلى[٤] ـ يظهر أن الصواب: إليكم ـ باسمي، هو يعلمكم كل شيء.

وفي موضع آخر: إني سائل إلى[٥] أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يُعلمكم كل شيء. اهـ[٦].

أقول: وقد جاءنا النبي الكريم بشريعة كاملة، فعلمنا منها كل شيء، وشريعته دائمة ثابتة، لا شريعة بعدها، ولا نبي بعد نبينا، فهو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١٨٥).

(٢) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٦).

(٤) في «هداية الحيارى»: «أبي».

(٥) في «هداية الحيارى»: «له».

(٦) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥).

فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلِّمهم جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، . . . .

ومن أراد التوسع في هذا البحث، فعليه بكتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» لعبد الرحمن باجه جي، فقد أتى فيه بالعجب العجاب.

قوله: (فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته): قال الشيخ رحمةُ الله في «إظهار الحق»: وأما البشارات التي توجد في كتب أخرى؛ ليست معتبرة عندهم في زماننا، فما نقلتها، وبعد ما فرغت ـ أي: بعد ما فرغ من نقل البشارات من الكتب المعتمدة عندهم ـ أنقل عنها بشارة واحدة على سبيل النموذج، فأقول: نقل القسيس سيل في مقدمة ترجمته للقرآن المجيد من إنجيل برنابا بشارة محمدية هكذا: اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزي الله عليه؛ لأن الله غير راض عن الذنب، ولما اجتنى أمي وتلاميذي لأجل الدنيا، سخط الله لأجل هذا الأمر، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة؛ ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم، ولا يكون أذية هناك، وإني وإن كنت بريّاً، لكن بعض الناس لما قالوا في حقي: إنه الله، وابن الله؛ كره الله هذا القول، واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة عليَّ، ولا يستهزئون بي، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا، ويظن كل شخص أني صُلبت، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله، فإذا جاء في الدنيا، يُنبه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس. اهـ[1].

أقول: وقد نبَّهنا الله على نفي هاتين الشبهتين بقوله تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦] إلخ الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء: ١٥٧].

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١٢٠٦).

وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤]. وقد ورد في إنجيل برنابا ـ الذي ظهر منذ زمن قريب، وأخفَتْه حجبُ الجهالة ـ ذكرُ اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة.

قوله: (ذكر اسم الرسول صراحة): قال: فجأر الشيطان حينئذ جأراً مخوفاً، وقال: لما كنت تريد أن تصيِّرني أردأ مما أنا عليه، فإني أجعل نفسي كما أقدر أن أكون حينئذ، قال الله: انصرف أيها اللعين من حضرتي، فانصرف الشيطان، ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتحبان: اخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما، ولا يضعف رجاؤكما؛ لأني أرسل ابنكما على كيفية يمكن [بها][1] لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري؛ لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شيء.

فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم، رأى مكتوباً فوق الباب: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، فبكى عند ذلك وقال: أيها الابن! عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً، وتخلصنا من هذا الشقاء[2].

قالوا: إذا لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبيّاً ما؛ فلماذا تبشر بتعليم جديد، وتجعل نفسك أعظم شأناً من مسيّا؟ أجاب يسوع: إن الآيات التي يفعلها الله على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه؛ لأني لست أهلاً أن أحلَّ رباطاتِ جرموقِ أو سيورَ حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيّا الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية[3].

---

(١) ما بين معكوفتين من «إنجيل برنابا».

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩١).

(٣) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩٢).

وقال: لذلك أقول لكم: إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريباً؛ لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة، روح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر، التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه، ما أسعدَ الزمنَ الذي سيأتي فيه إلى العالم! صدقوني أني رأيته، وقدَّمت له الاحترام، كما رآه كل نبي؛ لأن الله يعطيهم روحه نبوة، ولما رأيته، امتلأت عزاءً قائلاً: يا محمد! ليكن الله معك، وليجعلني أهلاً أن أحلَّ سيرَ حذائك؛ لأني إذا نلت هذا، صرتُ نبيّاً عظيماً، وقُدوسَ الله[1].

أجاب يسوع: لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا؛ لأني لست أنا الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم ويحميكم، أما من خصوصي، فإني أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم، لكن احذروا أن تُغشوا؛ لأنه سيأتي أنبياء كَذَبَة كثيرون يأخذون كلامي، وينجسون إنجيلي.

حينئذ قال أندراوس: يا معلم! اذكر لنا علامة لنعرفه، أجاب يسوع: إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً، في ذلك الوقت يرحم الله العالم، فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحدُ مختاري الله، وهو سيُظهره للعالم، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار، ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وإني أسر بذلك؛ لأنه بواسطته سيُعلن ويمجد الله ويظهر صدقي، وسينتقم من الذين يقولون: إني أكبر من إنسان[2].

وقال: أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى: أن إلهنا سيرسل لنا

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩٥ ـ ٩٦).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٣٠ ـ ١٣١).

. . . .

مسيًّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم رحمة، لذلك أرجـوك أن تقول لنا الحق: هل أنت مسيّا الله الذي تنتظره؟ أجاب يسوع: حقّاً إن الله وعدني هكذا، ولكن لست هو؛ لأنه خُلق قبلي، وسيأتي بعدي.

أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتـك علـى كـل حـال أنـك نبـي وقدوس الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيـدنا حبّاً فـي الله بأية كيفية سيأتي مسيّا.

أجاب يسوع: لَعمرُ الله الذي تقف بحضرته نفسي! إني لست مسـيّا الـذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائـل الأرض، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة؛ بأن يحمل عادمَ التقوى على الاعتقاد بأني اللهُ وابنُ الله، فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي، حتى لا يكاد يبقى ثلاثـون مؤمنـاً، حينئـذ يـرحم الله العـالم، ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشـياء لأجلـه، الـذي سـيأتي مـن الجنـوب بقـوة، وسيبيد الأصنام وعَبدَة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سـلطته علـى البشـر، وسـيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً[1].

وقال فيه: فقال حينئـذ يسـوع: إن كلامكم لا يُعزِّيني؛ لأنــه يـأتي ظـلام حين[2] ترجون النور، ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الـذي سيبيـد كــل رأي كاذب [فيَّ][3]، وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره؛ لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم، وإن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه؛ لأن الله سيحفظه صحيحاً[4].

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) في «إنجيل برنابا»: «حيث».

(٣) ما بين معكوفتين من «إنجيل برنابا».

(٤) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٦٠ ـ ١٦١).

ثم قال: فقال حينئذ الكاهن: ماذا يسمى مسيًّا؟ وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟ أجاب يسوع: إن اسم مسيًّا عجيب؛ لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي، قال الله: اصبر يا محمد؛ لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجَمّاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك، حتى إن من يباركك يكون مباركاً، ومن يلغيك يكون ملعوناً، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص، وتكون كلمتك صادقة، حتى إن السماء والأرض تهنان، ولكن إيمانك لا يهن أبداً، إن اسمه المبارك محمد[١].

وقال مخاطباً لبرنابا: إن الله سيصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن ـ يعني: يهوذا الذي دلَّ عليه اليهودَ بثلاثين قطعة ـ حتى يظنه كلُّ أحدٍ إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة، أمكثُ في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزول عني هذه الوصمة. . . وتمامه فيه[٢].

وقال: وبعد هذه السنين ـ أي: وبعد بقاء المؤمنين العصاة في جهنم مدة ـ يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم، ويسمعهم يقولون: يا محمد! أين وعدك لنا أن من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد؟ فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع، فحينئذ يكلم الرسولُ اللهَ ـ أي: مستشفعاً ـ ويقول: ربي وإلهي! اذكر وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد، فيجيب الله: اطلب ما تريد يا خليلي؛ لأني أهبك كل ما تطلب[٣].

وقال: أجاب يسوع: الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٦١ ـ ١٦٢).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٧٨).

(٣) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢١٠).

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة، فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظَر.

فقد حدَّث عاصمُ بنُ عمرَ بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحْبار يَهود، كنا أهل شِرك، وأصحابَ أوثان، وكانوا أهلَ كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقاربَ زمانُ نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتلَ عاد وإرم، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمداً، أَجَبْنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، . . . .

يأتي من سلالته مسيّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض[1].

وقال ما نقلناه آنفاً فيما كتبناه على قوله: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وقد جاء في آخرها ذكرُ اسمه صلى الله عليه وسلم صريحاً[2].

حركة الأفكار قبل البعثة

قوله: (وهذا يسهل لك. . إلخ)؛ أي: تلك البشارات التي أتت في التوراة والإنجيل تسهل لك فهمَ الحركة العظيمة. . . إلخ.

قوله: (يستفتحون)؛ أي: يستنصرون على المشركين.

قوله: (فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون)؛ أي: غلبناهم على أمرهم بشتم أو ضرب أو قتل.

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢٨٢).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢٤١).

فبادرناهم إليه، فآمنّا وكفروا[1].

وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم؛ لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن هذا النبيَّ يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أَنَّ الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم، فينبذون الدين القيّم، فيحقّ عليهم العذاب في الدنيا والآخرة.

وكان أميّةُ بنُ أَبي الصَّلت المتَنَصّرُ العربي كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا[2].

قوله: (فآمنا وكفروا): قال الحلبي: ففي ذلك نزلت هذه الآيات في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩]، اهـ[3].

قوله: (نقتلكم قتل عاد وارم)؛ أي: نستأصلكم بالقتل. اهـ. حلبي[4].

قوله: (وكان أمية بن أبي الصلت...) إلخ: قال الدحلاني: إن أمية بن أبي الصلت الثقفي قال لأبي سفيان: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا، فكنت أظن أني هو، وكنت أتحدث بذلك، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف، فنظرت فلم أجد من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة، إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنه غيره، قال أبو سفيان: فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قلت لأمية، فقال أمية: أما إنه حق فاتبعه، فقلت له:

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٠).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٩).

وحدَّث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن نفسه: أنه صحب قسيساً، فكان يقول له: يا سلمان! إن الله سوف يبعث رسولاً اسمُه أحمد، يخرج من جبال تِهامة، علامته أنه يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان[1].

ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف، إني كنت أخبرهن أني هو، فكيف الآن أتبع فتًى من بني عبد مناف؟!. اهـ[2].

قوله: (وحدث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ. . .) إلخ: بسط الحلبي والدحلاني حديثه: ونحن نلخص ذلك عن الدحلاني، قال: قال سلمان: كنت رجلاً فارسيّاً من أهل أصبهان، من قرية يقال لها: جَيّ، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إلى أبي، ولمحبته لي حبسني في بيت كما تحبس الجارية، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قَطِنَ النار ـ أي: خادماً ملازماً لها ـ، وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل عنها في بنيان له، فأمرني بالذهاب إليها، ثم قال لي: لا تحتبس عني، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبتني صلاتهم، وقلت: هذا خير من الذي نحن فيه، وما برحت عنهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها.

ثم قلت لهم: أين أهل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، ثم إني رجعت إلى أبي، وكان قد بعث في طلبي، وحدثته بأمري، فخاف مني أن أهرب، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته، وبعثتُ إلى النصارى وقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام، فأخبروني بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى، فأخبروني، فألقيت الحديد من رجلي، ثم قدمتُ معهم إلى الشام، فسألت: مَنْ أجلُّ هذا الدين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٩).

. . . .

علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته وخدمته، وصرت أتعلم منه، وأصلي معه إلى أن مات.

ثم إن أهل تلك البلاد جاؤوا برجل آخر، وجعلوه مكانه، فأقمت معه زماناً إلى أن حضرته الوفاة، فقلت له: فإلى من توصي بي؟ فقال: عليك برجل بالموصل، فذهبت إليها، وأقمت عنده مدة إلى أن مات، ثم أوصاني أن أذهب إلى رجل بنصيبين.

فلما مات، لحقتُ بصاحب نصيبن، فأقمت عنده، فوالله! ما لبثت أن نزل به الموت، فلما احتُضِر قلت له: فإلى من توصي بي؟ فقال: ما أعلم بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم.

فلما مات، لحقت بصاحب عمورية، فأقمت عنده، ثم نزل به أمر الله، فلما احتُضِر قلت له: إلى من توصي بي؟ فقال: أي بني! والله! ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، له علامات: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال سلمان: ثم مرَّ بي نفر من كلب تجاراً، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، فحملوني حتى إذا بلغوا بي وادي القرى، باعوني من رجل يهودي، ثم باعني هذا إلى ابن عمٍّ له من بني قريظة، فحملني إلى المدينة، فوالله! ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها ـ أي: تحققتها بصفة صاحبي ـ، فأقمت بها. وبُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله! إني لفي عذق ـ أي: نخل لسيدي ـ أعمل فيه، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابنُ عم له فقال: يا فلان! قاتلَ الله بني قيلةَ؛

. . . .

يعني: الأوسَ والخزرجَ، إنهم الآن مجتمعون بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبيٌّ، قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العرواء، وهي الحمى النافض.

قال: وكان عندي شيء جمعته ـ أي: من التمر أو الرطب ـ، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إني قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم، فقربته إليه، فقال لأصحابه: «كلوا»، وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة من العلامات.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة، فجئته فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

ثم جئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، وقد تبع جنازةَ رجل من أصحابه، وكان عليه شملتان، فجلس مع أصحابه، فسلمت عليه، ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره: هل أرى الخاتمَ الذي وصف لي؟ فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تحوَّل»، فتحوَّلت بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أسلم سلمان، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: «يا سلمان! كاتبْ صاحبك»، فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة ودية، وهي الصغيرة أحييها له بالتفقير ـ أي: أحفر لها وأغرسها بتلك الحفر ـ وعلى أربعين أوقية من الذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعينوا أخاكم»، فأعانوني بالنخل، فخرج

ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض، لم يُهِنْ كتابَه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميعُ ملوك النصارى؛ كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وِفَادَةَ رسله. ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً، . . . . .

معي، وغرس النخل بيده إلا نخلةً غرسها عمر، فأطعم النخلُ كله إلا تلك النخلةَ التي غرسها عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غرسها؟» قالوا: عمر، فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فأطعمتْ من عامها، ودفع إليَّ المال ذهباً بقدر البيضة، فوزنت لصاحبي منه أربعين أوقية، وبقي عندي مثل ما أعطيته[١].

ثم قال الدحلاني: قال الحلبي في «السيرة»: نقل بعضهم الإجماع على أن سلمان عاش مئتين وخمسين سنة، وكان حبراً عالماً فاضلاً زاهداً متقشفاً، وكان يأخذ من بيت المال في كل سنة خمسة آلاف، وكان يتصدق بها، ولا يأكل إلا من عمل يده، وكان له عباءة يفترش بعضها، ويلبس بعضها.

قال بعضهم: دخلت عليه وهو أمير على المدائن، وهو يعمل الخوص، فقلت له: تعمل الخوص وأنت أمير، وهو يجري عليك رزقك؟ فقال: إني أحب أن آكل من عمل يدي. وربما اشترى اللحم وطبخه، ودعا المجذومين فأكلوا معه. اهـ[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٢٢ ـ ١٢٥). وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٣ ـ ٣١١). وقصة إسلام سلمان رواها ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٦٩)، والإمام أحمد في «المسند» من طريقه، كلاهما من حديث سلمان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٢٥). وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣١٧).

وكاد يسلمُ لولا غلبةُ الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوّة يُرهِبُ بها هؤلاء الملوك، اللهمَّ ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم، فأجابوا بالتي هي أحسن، وأما ما سُمع من الهواتف والكُهان قبيل زمنه، فهو ما لا يدخل تحت حصر.

قوله: (أما ما سُمع من الهواتف...) إلخ: في «الحلبية»: كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحدث: أن قوماً من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوساً، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم، فبينا الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفاً يهتف ويقول:

يا أيها الناسُ ذَوو الأحكام ... ومُسندو الحكمِ إلى الأصنام

أما تَرونَ ما أرى أمامي ... من ساطعٍ يجلو دُجَى الظلامِ

ذاك نبيٌّ سيدُ الأنامِ ... من هاشمٍ في ذروةِ السنامِ

مُستعلِنٌ بالبلدِ الحرام ... جاء يَهُدُّ الكفرَ بالإسلامِ

أكرمه الرحمنُ من إمام

قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك، ثم تفرقوا، فلم يَمْضِ بهم ثالثهم حتى فجأهم خبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة، فما أسلم الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عبراً عند أصنامهم. اهـ[1].

و«أعلام النبوة» للماوردي قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بعث؛ ارتجس إيوان كسرى، فسقطت منه أربعَ عشرةَ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠). والخبر أورده إسماعيل بن محمد الأصبهاني في «دلائل النبوة» (ص: ١٦٦ ـ ١٦٧) من طريق الواقدي.

وليس بعدَ ما ذكرتُه لك زيادةٌ لمستكثر. ومع ذلك كلـه، فالأعمـالُ التي جاد الله بها على يديه، والأقوالُ التي أتانـا بهـا أعظـمُ مُقَـوٍّ لحجتـه، ومؤيدٍ لدعوته. وسيأتي عليك بيان ذلك كله بـأجلى بيـان، فتأمَّلْـه ترشـدْ هداك الله إلى الصراط السويّ.

شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلـك بـألف عـام، وغـارت بحيـرة ساوة، فأفزع ذلك كسرى، فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمع وزراءه ومرازِبتـه، وأخبرهم رؤياه.

فقال الموبذان: وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلـة إبـلاً صـعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادنا، فقال: أي شي هذا يا موبـذان؟ فقال: حادثة تكون من ناحية العرب، فكتب إلى النعمان بن المنذر أن ابعث إليَّ برجل عالمٍ أسأله عما أريد، فوجه إليه عبدَ المسيح بنَ عمرِو بنِ بَقيلةَ الغسـاني، فلما قدم عليه أخبره فقال: أيها الملك! علمُ ذلك عند خالٍ لـي يسـكن مشـارف الشام يقال له: سَطيح، فقال: فأته فاسأله عما أخبرتك به، ثم ائت بجوابه.

فركب عبد المسيح راحلته حتى ورد على سطيح وقد أشفى على الموت، وَوُضـع على شفير قبره، فسلم عليه وحياه، فلم يرد سطيح جوابـاً، فأنشـأ عبـد المسيح يقول:

أصـــم أم يســـمع غطريـــفُ الـــيمن ... يـا فاضـلَ الخطـة أعيـتْ مـن ومـن

الغطريف: السيد.

فرفع سطيح رأسه، وقال: عبد المسيح، على جمل مشـيح ـ أي: سـريع ـ ، وافى إلى سطيح، وقد أوفى به إلى الضريح ـ أي: القبر، والمراد بـه المـوت ـ ، بعثك الملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها.

يا عبد المسيح! إذا كثرت التلاوة ـ أي: تلاوة القرآن ـ ، وبعث من تهامة

بدء الوحي

لمّا بلغ عليه الصلاة والسلام سنَّ الكمال، وهي أربعون سنة، أرسله الله للعالَمين بشيراً ونذيراً، ليُخرجهم من ظُلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك في أول فبراير سنة (٦١٠) من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أَنَّ ذلك كان في (١٧) رمضان سنة (١٣) قبل الهجرة، وذلك يوافق يوليو سنة (٦١٠).

صاحب الهراوة ـ الهراوة بكسر الهاء: العصا الضخمة ـ، وفاض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملك وملكات، بعدد الشرفات، وكل ما هو آت آت.

ثم قضى سطيح، فسار عبد المسيح على راحلته ـ وأنشد عند ذلك أبياتاً ذكرها الإمام الماوردي ـ ثم قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره؛ قال كسرى: إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة ملوك أربع سنين، وزال ملكهم عن يزدجرد الرابع عشر بعد اثنتي عشرة سنة. اهـ[1].

وفي «الحلبية» والدحلاني وغيرِهما كثيرٌ من هذه الأخبار.

بدء الوحي

قوله: (بدء الوحي) قال أبو البقاء في «الكليات»: الوحي: هو أول الكلام الخفي يدرك بسرعة، ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة.

وفي «الأنوار»: أنه تلقى الكلام تلقياً روحانيّاً، ثم تمثل الكلام لبدنه، وانتقل إلى الحس المشترك، فانتقش به، من غير اختصاص بعضو وجهة[2].

---

(١) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ٢٤٠ ـ ٢٤٢)، وعزا هذا الخبر لأبي أيوب يعلى بن عمران البجلي عن مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٤/ ٤٣).

وهو كما نصَّ الله عليه على ثلاثة أوجه:

١ ـ بلا واسطة، بل يخلق الله في قلب المُوحى إليه علماً ضرورياً بإدراك ما شاء الله إدراكه من الكلام النفسي القديم القائم بذاته تعالى، وهذه حالة محمدية ليلة الإسراء.

٢ ـ أو بواسطة خَلْق أصواتٍ في بعض الأجسام؛ كحال موسى عليه السلام.

٣ ـ أو بإرسال ملَك، وما يدركه الملَك من النوع الأول، وهذا غالب أحوال الأنبياء.

وإلى الأول الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وإلى الثاني: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وإلى الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[الشورى: ٥١].

والثالث قد يطلع عليه غير المُوحى إليه؛ كما سمع السبعون حين مضوا إلى الميقات مع موسى. اهـ[١].

قوله: (الرؤيا الصادقة): هكذا في «صحيح مسلم»، وكذا رواه البخاري في (كتاب التعبير)[٢]، وفي رواية البخاري في «صحيحه»: «الصالحة»[٣].

قال الدحلاني: والمراد بـ(الصالحة): الصادقة، وإنما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك الذي هو جبريل بالنبوة؛ أي: الرسالة، فلا تتحملها القوى البشرية؛ لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤيا الملك، وإن لم يكن على صورته التي خلقه الله عليها، ولا على سماع صوته، ولا على ما يجيء به، لا سيما الرسالة، فكانت الرؤيا تأنيساً له. اهـ[٤].

---

(١) انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص: ٩٣٦).

(٢) رواه مسلم (١٦٠)، والبخاري (٦٩٨٢)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه البخاري (٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦١).

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خَلْقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصلَ إلى درجة الكمال.

ومن الصعب جدًّا على البشر تلقي الوحي من المَلَك لأول مرة، ثم حبّب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء؛ ليبتعد عن ظُلُمات هذا العالم، وينقطع عن الخلق إلى الله؛ فإن في العزلة صفاءَ السريرة.

وكان يخلو بغار حِراء، فيتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر.

وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر، ثم أوحى إليه في اليقظة.

قوله: (مثل فلق الصبح): قال في «النهاية»: (فلَق الصبح) هو بالتحريك: ضوءُه وإنارته، والفلَق: الصبح نفسه. اهـ[1].

أي: كما لا يشك أحد في وضوح ضياء الصبح ونوره لا يشك أحد في الرؤيا الصالحة. اهـ. الدحلاني[2].

قوله: (بغار حراء)؛ أي: بغار في حراء، وحراء ـ بالمد والقصر ـ: جبل على مقربة من مكة، بينه وبينها نحو ثلاثة أميال عن يسارك إذا سرت إلى منًى، له قُلَّة مشرفة إلى الكعبة منحنية. اهـ. عيني[3].

وكل ثلاثة أميال فرسخ، والميل ألف باع.

قوله: (فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد): قال الدحلاني: أي مع أيامها، وغلَّب الليالي؛ لأنها أنسبُ للخلوة، وأبهمَ العدد؛ لاختلافه بالنسبة للمُدَدِ؛ فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة تسع ليال، وتارة شهر رمضان أو غيره،

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦١).

(٣) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١/ ٤٩).

وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام، ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ، رجع إلى خديجةَ، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل، إذْ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أميّ لم يتعلم القراءة قبلاً. فأخذه فغطَّه بالنَّمَطِ الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، . . . .

فـ (الليالي ذوات العدد) محمولة على القدر الذي يتزود له، فإذا فرغ زاده، يرجع إلى مكة، ويتزود إلى غيرها[1].

قوله: (وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام): هذا أحد أقوال.

قال الدحلاني: وقيل: بشرع موسى عليه السلام، وقيل: كان تعبده التفكر مع الانقطاع عن الناس، وقيل: كان تعبده صلى الله عليه وسلم بالذكر، وصححه بعضهم[2].

قوله: (حتى جاء الحق)؛ أي: الوحي والرسالة.

قوله: (ما أنا بقارئ)؛ أي: أنا أمي لا أحسن القراءة ـ فما نافية، وإنما نفى النبي صلى الله عليه وسلم القراءة والكتابة؛ لأنه فهم أن المراد: أمرُه بالإتيان بها نفسها على الفور، لا بتعلمها ـ .

وقوله: (فغطه بالنمط)؛ أي: غمه بذلك النمط؛ بأن جعله على فمه وأنفه، والنمط ـ بفتح النون والميم ـ: نوع من البسط. اهـ. الدحلاني[3].

قوله: (الجهد): ـ بنصب الدال على المفعولية، وبرفعها على الفاعلية ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٤).

ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ . فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ ، فأخذه فغطّه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فرجع بها عليه الصلاة والسلام يرجف فؤاده مما ألمَّ به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملَك لأولِ مرة، فدخل على خديجة زوجِه، فقال: زملوني، زملوني؛ لتزول عنه هذه القُشَعْرِيرة، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي؛ لأن المَلك غطه حتى كاد يموت، ولم يكن له عليه الصلاة والسلام عِلم قبل ذلك بجبريل، ولا بشكله، فقالت: كلا والله! ما يُخزيك الله أبداً؛ إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، . . . .

قوله: **(فرجع بها)**؛ أي: الآيات، في رواية: «فقرأتها، وانصرف عني، وقد استقر ذلك في قلبي»[(١)]، وفي رواية: «فكأنما كتب في قلبي كتاباً»[(٢)]؛ أي: حفظته. اهـ. دحلاني[(٣)].

قوله: **(ما يخزيك الله. . . إلخ)** الخزي هو: الفضيحة والهوان، وأخزى الله فلاناً: أبعده.

وقوله: **(وتحمل الكل)**؛ أي: الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك.

---

(١) لم نقف عليه باللفظ المذكور، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٢) من حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي بلفظ: «فقرأتُها ثم انصرف عني، وهببتُ من نومي».

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ٥٣٢)، من حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٤).

وتكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فلا يُسلط الله عليك الشياطين والأوهام. ولا مِراء أن الله اختارك لهداية قومك. ولتتأكد خديجة مما ظنته، أرادت أن تَتَثَبَّتَ ممَّن لهم علمٌ، بحال الرُّسُل، ممن اطلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت وَرَقَةَ بْنَ نَوفَلٍ ابنَ عمِّ خديجةَ، وكان امرأً قد تنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا بنَ عمّ! اسمعْ من ابن أخيك، فقال: يا بن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى. فقال له وَرَقَةُ: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى؛ لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثمَّ قال: يا ليتني فيا جَذَعاً ـ شابًّا جلداً ـ إذ يُخرجُك قومُك من بلادك التي نشأتَ بها، لمُعاداتهم إيَّاك، وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقاداتٍ وجدوا عليها آباءهم. فاستغرب عليه الصلاة والسلام ما نُسب لقومه، مع ما يعلمه من حبّهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق، . . . .

وقوله: (وتكسب): ـ بفتح التاء وضمها ـ.

و**(المعدوم)**: الذي لا مال له؛ لأن من لا مال له كالمعدوم؛ أي: توصل إليه الخير الذي لا يجده عند غيرك.

وقوله: (وتعين على نوائب الحق)؛ أي: حوادثه.

قوله: (اسمع من ابن أخيك) إنما أطلقت الأخوة؛ لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: (هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى)؛ أي: صاحب سر الوحي، وهو جبريل. اهـ. حلبي[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

وصدقِ القول، حتى سَمَّوه الأمين، وقال: «أومخرجيَّ هم؟»، قال: لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُوديَ[1]. وقد نطق بذلك القرآن الكريم؛ قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ولتمام تصديقِ ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال: وإن يدْركْني يومُك أَنْصُرْكَ نصراً مؤزّراً ـ معضداً ـ. ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وقال ابن ظفر في «شرح المقامات»: صاحب سر الخير: ناموس، وصاحب سر الشر: جاسوس. اهـ. عيني[2].

قوله: (أومخرجيَّ هم؟!): بتشديد الياء المفتوحة؛ لأنه جمع مخرج، والأصل: أومخرجوني، حذفت النون للإضافة، فصار مخرجوي، قلبت الواو ياء، وأدغمت، وهو استفهام إنكاري، وفيه دليل على شدة حب الوطن وعسرِ مفارقته، خصوصاً وذلك الوطن حَرَمُ الله، وهو جوار بيته، ومسقط رأسه. اهـ. حلبي[3].

قوله: (نصراً مؤزَّراً)؛ أي: شديداً قويّاً، من الأزر، وهو الشدة. اهـ. حلبي[4].

قوله: (ثم لم يلبث): الرواية: ثم لم ينشب[5]؛ أي: لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات، وهذه اللفظة كناية عن السرعة والعجلة.

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٨ ـ ١٢٥).

(٢) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١/ ٥٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

(٥) رواه البخاري (٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فترة الوحي

وَفَتَرَ الوحي مدّةً لـم يتفـق عليهـا المؤرخـون، وأرجـحُ أقـوالهم فيهـا أربعون يوماً؛ . . . .

قال الدحلاني: قال سبط ابن الجوزي: وهو آخر من مات في الفترة، وقد أدرك النبوة، وصدَّق بنبوته، ولم يدرك الرسالة.

ولما توفي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت القسَّ فـي الجنـة وعليه ثياب الحرير»[1]، وجزم ابن كثير بإسلامه، وأنـه أدرك الـدعوة[2]، ومـات في السنة الرابعة. اهـ. ملخصاً[3].

فترة الوحي

قوله: (وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً): لم أرَ في كلامهم ما يفيد تـرجيح هذا القول، ففي الدحلانية نقلاً عن «فتح الباري»: جزم ابن إسـحاق بـأن مـدة فتـرة الوحي كانت ثلاث سنين، وجزم السهلي بأنها كانت سنتين ونصفاً[4].

وقيل: خمسة عشر يوماً، وقيل غير ذلك. اهـ[5].

قال الحلبي: وفي رواية: كانت تلك المدة أربعين يوماً، وقيل: خمسـة عشـر، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: ثلاثة، ثم نقل قول ابن إسحاق، وقول السهيلي[6].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٥٥٥) من حديث أبي ميسرة عمـرِو بـنِ شـرحبيلَ مرسلاً.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤١٥)، وفيه: وتقدم الكلام علـى إيمـان ورقـة ابن نوفل بما وجد من الوحي، ومات في الفترة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٨).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٧).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٩).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢١).

ليشتدّ شوقُ الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتدّ به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى ذِرْوَةَ جبل بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراهُ نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدّى له الملَك قائلاً: أنت رسول الله حَقاً، فيطمئن خاطره، ويرجع عمّا عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين، فعاد إليه الوحي[1].

وكلها كما ترى لم يذكر فيها ترجيح لقول منها.

قوله: (ليشتد شوق الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي...) إلخ: قال الدحلاني: وإنما فتر عنه الوحي؛ ليذهب ما كان يجده من الرعب، وليحصل له الشوق إلى العَوْد، فحزن لذلك حزناً شديداً، حتى غدا مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وافى ذروة جبل كي يلقي نفسه منها، تبدى له جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقّاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه ويرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثلِ ذلك، فإذا وافى لذروة جبل، تبدى له مثل ذلك. اهـ[2].

وقبله في «الحلبية»[3].

ومقتضى [ما][4] جاء في[5] هذه الرواية من قوله: فإذا طالت عليه فترة

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٣٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٩)، والخبر المذكور رواه البخاري (٦٩٨٢) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(٤) ما بين معكوفتين يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «في جاء».

فبينما هو يمشي إذ سمع صـوتاً مـن السـماء، فرفـع إليـه بصـره، فـإذا المَلَك الذي جاءه بحِراء جالس بين السماء والأرض، فرُعب منـه؛ لتـذكّر ما فعله في المرة الأولى، فرجع وقال: «دثروني، دثروني»، فأنزل الله تعـالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]: . . . .

الوحي. . . إلخ: أن مدَّة الفترة لم تكن ثلاثة أيام، ولا خمسة عشر، ولا أربعين يوماً، بل أزيدَ من ذلك، والله أعلم.

عود الوحي

قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾)؛ أي: المتلفف بثيابه.

قال الدحلاني: وذكر السهيلي أن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمي المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو عليها، فلاطفه الحقُّ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]، فبذلك علم رضاه الذي هو غاية مطلوبة، وبه كان يهون عليه تحمُّل الشدائد.

ومن هذه الملاطفة قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد نام وقد ترب جبينه: «قم أبا تراب»[1].

قوله: (﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾): لم يقل بعد قوله: ﴿فَأَنذِرۡ﴾ (وبشر)، مع أنه كما بُعث بالنذارة بُعث بالبشارة؛ لأن البشارة إنما تكون لمن آمن، ولم يكن أحد آمن من قبل. اهـ. دحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٠). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٤١ ـ ٤٢)، والحديث رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٠).

حذِّر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر: ٣]: خُصَّه بالتعظيم، ولا تشرك معه في ذلك غيره، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]؛ لتكون مستعدًّا للوقوف بين يدي الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً، . . . .

قوله: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾): قال الخازن: فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن ينزل لفظ (الثياب) و(التطهير) على الحقيقة، وهو ما فسَّره به المؤلف هنا.

الثاني: أن ينزل لفظ (الثياب) على الحقيقة، و(التطهير) على المجاز؛ ومعناه: وثيابك فقصِّر، ذلك لأن المشركين كانوا يطولون ثيابهم، ويجرون أذيالهم على النجاسات، وفي الثوب الطويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير، فنهى عن تطويل الثياب، وأمر بتقصيرها لذلك.

الثالث: أن ينزل لفظ (الثياب) على المجاز، و(التطهير) على الحقيقة؛ ومعناه: حمل الثوب على النفس، قال عنترة:

وشَكَكْت بالرمح الأصمِّ ثيابه ... ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّم[1]

يريد نفسَه، والمعنى: ونفسَك فطهِّر عن الذنوب والريب وغيرهما، وكنى بالثياب عن الجسد؛ لأنها تشتمل عليه.

الرابع: أن ينزل لفظ (الثياب) و(التطهير) على المجاز؛ ومعناه: وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة.

وقيل: معناه: وخُلُقك فحسِّن، والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: هو طاهر الثياب. اهـ. ملخصاً[2].

---

(١) انظر: «ديوان عنترة» (ص: ٢١٠)، وفيه: «الطويل» بدل «الأصم».

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٢).

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر: ٥]؛ أي: اهجر أسباب الرجز ـ وهو العذاب ـ بأن تطيع الله، وتنفذ أمره، ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[المدثر: ٦]: ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثرَ مما وهبت، فهذا ليس من شأن الكرام، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر: ٧] على ما يلحقُك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾): الرجز: هي الأوثان في قول الأكثرين، وفي مسلم التصريحُ به[2]، وفي التفسير عن أبي سلمة التصريحُ به[3]، وقيل: الشرك، وقيل: الذنب، وأصل الرجز في اللغة: العذاب، وتسمى عبادة الأوثان وغيرها من أنواع الكفر رجزاً؛ لأنه سبب العذاب. اهـ[4].

قوله: (ولا تهب. . .) إلخ: وقيل: معناه: لا تمتنَّ عليهم بنبوَّتك، فتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به.

وقيل: معناه: لا تمنن على أصحابك بما تعلِّمهم من أمر الدين، وتبلِّغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم. اهـ. خازن[5].

وفيه أقوال أخر ذُكرت في تفسير هذه الآية، وأرى أن هذين التفسيرين أليقُ بمقام وسياق الكلام من التفسير الذي ذكره المصنف.

قوله: (على ما سيلحقك من أذى قومك. . .) إلخ: قال الخازن: وقيل:

---

(١) الخبر المذكور رواه البخاري (٤، ٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٠٤).

(٢) رواه مسلم (١٦١/ ٢٥٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، وفيه: «﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، وهي الأوثان».

(٣) رواه مسلم (١٦١/ ٢٥٦) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وفيه: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: الأوثان.

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٢).

(٥) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٣).

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر، ودعا لعبادة الله أقواماً جُفاةً لا دينَ لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجةَ لهم إلا أنهم متّبِعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزّة والأَنَفَة، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه.

معناه: أنك حملت أمراً عظيماً فيه محاربةُ العرب والعجم، فاصبر على ذلك لله عز وجل. اهـ[١].

الدعوة سرًّا

قوله: (الدعوة سرًّا): اعلم ـ رعاك الله ـ: أن كل من حاول إحداث انقلاب في أمة، سواء كان ذلك مما يرجع إلى عاداتها أو معتقداتها أو غير ذلك، فإنه يضطر أولاً أن تكون دعوته إلى ذلك الشيء سرًّا حتى يكون لديه المقدارُ الكافي ممن يميلون إلى آرائه، ويقولون بقوله، ومتى حصل له ذلك، ووجد صدقاً في غمرتهم، وإخلاصاً في أعمالهم، جاهر بما يدعو إليه، ونهض إلى ما يروم الوصول إليه من الأمور، وحينئذ تنجح مقاصده، ويحصل على رغائبه وأمانيه، تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ومن حاول السير على غير هذه الطريقة، فإن المعارضين لآرائه، والمخالفين لطريقته يصادمونه صدمة قوية تقضي على ما أتى به، وتجعله هباءً منثوراً؛ لأن نزعَ العادات، وتبديلَ المألوفات، وتغيير المعتقدات أمرٌ صعب جداً، والمرءُ أسير عاداته، وعبدُ مألوفاته، فهو خاضع لها، مستسلمٌ لقيادها، وانتزاعُ ذلك منه، والأخذُ بيده إلى الطريقة المثلى ومحاسن الأمور لا يكون إلا بحكمة وروية وتأنٍّ وصبر كثير.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٣).

فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعْمَته الرياسة أدبرَ واستكبر كيلا تُسلَب منه عظمتُه.

وكان أولَ من سَطَع عليه نورُ الإسلام: خديجةُ بنتُ خويلد زَوجُه، . . . .

وعلى هذه الطريقة جرى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس إلى التوحيد واتباع الهدى، والنزوع عن سيئ العادات وقبيح المألوفات، فأخذ في بث الدعوة سرًّا؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾[النحل: ١٢٥] مبتدئاً بأقرب الناس إليه، ثم الأقرب فالأقرب، ولما حصل لديه المقدارُ الكافي، واجتمعت عليه الكلمة، والتف الناس حوله، جاهر بما جاء به من الدين الحق، ودعوة الناس كافة إلى توحيد الله تعالى وعبادته، مثابراً على ذلك، صابراً على ما سيلاقيه من ضُروب الأذى، وأنواع المصادمات، إلى أن صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وتم له ما أراد، وحصل على المراد، وأخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وهداهم إلى الصراط المستقيم، والمنهاج القويم.

وقَلَّ من جَدَّ في أمر يحاولُه ... واستعملَ الصبر إلا فازَ بالظفرِ[1]

قوله: (وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة)؛ أي: وذلك لما رأته وسمعت به من الآيات، ولما فيه من الصفات الحميدة؛ كقرى الضيف وحمل الكل، وعرفت أن من كان كذلك لا يخزى أبداً.

قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: وآزرته صلى الله عليه وسلم على أمره، فخفف الله بذلك عنه، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ وتكذيب إلا فرج الله

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٤)، وفيه: «يطالبه» بدل «يحاوله»، «واستصحب» بدل «واستعمل».

وعلي بن أبي طالب ابنُ عمه، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بـأمره؛ لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مُقِـلاً كثيـر الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام لعمّه العباس بن عبد المطلب: . . . .

عنه بها، إذا رجع تثبته وتخفِّف عنه، وتصدِّقه وتهوِّن عليه أمر الناس[1].

قال الدحلاني: قال الحلبي: وبناته صلى الله عليه وسلم كُـنَّ موجـوداتٍ عند البعثة، فيبعد تأخرُ إيمانهن[2].

فهنَّ من أول الناس إيماناً، بل هن ممن لم يتقدم لهن إشراك، فلم يُـذكَرْن مع أول من آمن؛ اكتفاء بذلك، ولإيمان أمهن، ولذلك قال الحافظ ابن كثير: إن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا بـه قبـل كـل أحـد، خديجـةُ وبناتُهـا، وزيـدٌ وزوجتُه، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ، وأما فاطمة، فما ولـدت إلا بعـد البعثـة، فـلا يحتاج إلى التنبيه عليها.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة، أسلمت خديجة وبناتُه صلى الله عليه وسلم. اهـ[3].

وبناته الكبار هن: زينب، ورقية، وأم كلثوم.

قوله: (وعلي بن أبي طالب. . .) إلخ: كان حين أسلم لم يبلـغ الحلـم، كان سنه ثمان سنين، وقيل: عشر.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بـن زينـي دحـلان (١/ ١٧٥). وانظـر: «السيـرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٣١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٠)، ولم نقف على الخبر المذكور من رواية عائشة ـ رضـي الله عنهـا ـ، وإنمـا أورده ابـن هشـام فـي «السيـرة النبوية» (٣/ ٢٠٢)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبيـر» (٢٢/ ٤٢٧) كلاهمـا عن ابن إسحاق من قوله.

«إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفِّف من عياله، تأخذ واحداً، وأنا واحداً»، . . . .

قال الدحلاني: وسبب إسلامه ـ رضي الله عنه ـ: أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة وهما يصليان، فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دين الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسلَه، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى»، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدِّث أبا طالب، وكره صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي! إذا لم تسلم، فاكتمْ هذا»، فمكث عليٌّ ليلته، ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم على يديه[1].

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ يخفي إسلامه خوفاً من أبيه إلى أن اطَّلع عليه، وأمره بالثبات عليه، فأظهره حينئذ.

ومما كتبه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ:

محمدٌ النبيُّ أخي وصِهْري ... وحمزةُ سيدُ الشهداء عَمّي

وجعفرٌ الذي يُضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة ابنُ أُمِّي

وبنتُ محمدٍ سَكَني وعِرْسي ... مَشوبٌ لحمُها بدمي ولحمي

وسِبْطا أحمدٍ ابناي منها ... فمن منكم له سهمٌ كسهمي

سبقتكمو إلى الإسلام طُرّاً ... صغيراً ما بلغتُ أوانَ حلمي[2]

---

(١) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ١٠١) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، والأبيات المذكورة رواها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٢١).

فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباسُ جعفرَ بنَ أبي طالب، وأخذ عليه الصلاة والسلام علياً[1]، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوّة وقد ناهز الاحتلام، فكان تابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله، ولم يتدنس بدَنَس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتّباع الهوى، وأجاب أيضاً: زيدُ بنُ حارثةَ بنِ شُرحبيلَ الكلبيُّ، مولاه عليه الصلاة والسلام، . . . . . .

قوله: (ولم يتدنس بدنس الجاهلية): في «القاموس»: الـدَّنَس ـ محركـة ـ: الوسخ، دَنِس الثوبُ والعِرض؛ كـ (فرح)، دَنَساً، ودَناسةً، فهو دَنِسٌ: اتَّسخ، وقوم أدناسٌ ومَدانيسُ، ودنَّس ثوبَه وعِرضَه تدنيساً: فعل به ما يَشينه. اهـ[2].

قوله: (وأجاب أيضاً زيدُ بنُ حارثة): قال الدحلاني: وهبته له خديجة ـ رضي الله عنها ـ لما تزوج بها، وكان اشتراه لها ابنُ أخيها حكيمُ بنُ حزامٍ من سوق عكاظ، وكان ممن سُبي في الجاهلية وعمره ثمان سنين.

قال السهيلي: خرجت به أمه تريد أهلها بني طَيّ، فأصابتها خيل فأخذته، فباعوه، فاشتراه حكيمٌ لعمته خديجةَ، ولما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها، أُعجب به، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبنَّاه قبل الوحي.

ثم جاء أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبا فداءه بمال يدفعونه، فقال: «ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء، وإن اختارني فوالله! ما أنا بالذي أختار على الذي اختارني فداءً».

ولما أتى زيد قال: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد، تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٦٣) من حديث مجاهد مرسلاً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: دنس).

وكان يُقال له: زيدُ بنُ محمد؛ لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنَّاه، وكان المتبنَّى معتبراً كابنٍ حقيقيّ يرث ويورث. وأجابت أيضاً أُمُّ أيمنَ حاضنتُه التي زوّجها لمولاه زيد[1].

وأول مَنْ أجابه من غير أهل بيته: أبو بكر بنُ أبي قُحافةَ بنِ عامرِ بنِ عمرِو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تَيْمِ بنِ مرّةَ التيميُّ القرشي، . . . .

وأهل بيتك؟! قال: نعم، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى، أخرجه إلى الحِجْر الذي هو محلُّ جلوس قريش، فقال: «إن زيداً ابني، أَرِثُه ويرثني»، فطابت أنفسهما، وانصرفا. اهـ[2].

وذكرني صنيعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتين كان أنشدنيهما بعض الأفاضل من سنين، فعلقا في ذاكرتي، وهما:

وأَدِّ زكاةَ الجاه واعلمْ بأنها[3] ... كمثلِ زكاةِ المال تمَّ نصابُها
وأحسنْ إلى الأحرار تملكْ رقابَهم ... فخيرُ تجاراتِ الكرام اكتسابُها[4]

قوله: (وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر. . .) إلخ: في الدحلانية: كان ـ رضي الله عنه ـ يتوقع ظهور نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لما سمعه من

---

(١) انظر: «المواهب اللدينة» للقسطلاني (١/ ١٣٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٥ ـ ١٨٦). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، والقصة المذكورة رواها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤٠ ـ ٤٢) عن محمد بن السائب الكلبي، وجميل بن مرثد الطائي.

(٣) في الأصل: «بأنه»، والمثبت من «ديوان الشافعي».

(٤) البيتان للإمام الشافعي. انظر: «ديوانه» (ص: ٢٧).

كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة، يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق، ولم يَعْهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرعَ بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي! أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنك رسول الله. . . . .

ورقة ومن غيره من الأحبار والرهبان والكهان، حتى إنه أولُ من بادر إلى التصديق به صلى الله عليه وسلم.

يروى: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يوماً عند حكيم بن حزام، إذ جاءت مولاة لحكيم فقالت: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبيٌّ مرسَل مثل موسى عليه السلام، فانسل أبو بكر حتى أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن خبره، فقصَّ عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحي له، وأخبره بأن الله أرسله، فقال: صدقتَ بأبي وأمي أنت، وأهلُ الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فسماه يومئذ: الصدِّيقَ بوحي من الله.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣]: أن الذي جاء بالصدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ[١].

وقال السهيلي في «الروض الأنف»: وكان من أسباب توفيق الله إياه فيما ذكر: رؤيا رآها قبل ذلك، وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة، ثم رآه قد تفرَّق على جميع منازل مكة وبيوتها، فدخل في كل بيت منه شعبة، ثم كأنه جمع في حجره، فقصها على بعض الكتابيين، فعبرها له بأن النبي المنتظر الذي قد أظل زمانُه تتبعه، وتكون أسعدَ الناس به، فلما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام لم يتوقَّف[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٧).

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٤٣١).

وكان ـ رضي الله عنه ـ صدراً معظّماً في قريش على سَعَة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعفّ الناس، سخيًّا، يبذل المال، محبباً في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كلِّه كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلها، وقال في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»[1].

وكانت الدعوة إلى الإسلام سرًّا حَذَراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا مَنْ يثق به.

ودعا أبو بكر إلى الإسلام مَنْ يثق به من رجال قريش، . . . .

قوله: (إلا كانت له كبوة): الذي في الحلبية والدحلاني (عنده) بدل (له)[2].

وفي «النهاية» جمع بينها، حيث أورد الحديث هكذا: «ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت عنده له كبوة غير أبي بكر؛ فإنه لم يتلعثم». اهـ[3].

قال صاحب «النهاية»: الكبوة: الوقفة؛ كوقفة العاثر، أو الوقفة عند الشيء يكرهه الإنسان. اهـ[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٠) عن محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الحصين التميمي. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٢)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ١٧٧).

(٣) والحديث أورده رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (٥/ ٥٨٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، دون قوله: «عنده». وانظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٤٥).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٤٦).

فأجابه جمع منهم: عثمانُ بنُ عفانَ بنِ أبي العاص بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسِ ابنِ عبدِ منافٍ الأمويُّ القرشيُّ، ولما علم عمه الحَكَمُ بإسلامه، أوثقه كتافاً، وقال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدَث؟ والله! لا أَحُلُّك حتى تدعَ ما أنت عليه، فقال عثمان: والله! لا أدعه ولا أُفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في الحق، تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره[1].

ومنهم: الزبيرُ بنُ العوّامِ بنِ خُوَيلدِ بنِ أسدِ بنِ عبد العزى بنِ قُصَيٍّ القرشيُّ، وأمه صفيةُ بنتُ عبد المطلب، وكان عمُّ الزبير . . . .

قوله: **(منهم عثمان بن عفان. . .)** إلخ: ذكر في الدحلاني سبب إسلامه ـ رضي الله عنه ـ، فقال: قال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أخبرتني خالتي سعدى ـ رضي الله عنها ـ: أن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وحثَّتني على اتباعه، وكان لي مجلس من الصديق ـ رضي الله عنه ـ، فجئته فأصبته وحده، وصرت متفكراً، فسألني عن سبب تفكري، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فحثني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ورغَّبني في الإسلام، قال: فما كان بأسرع من أن مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي ـ رضي الله عنه ـ يحمل له ثوباً، فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فسارَّ النبيُ صلى الله عليه وسلم، فقعد ثم أقبل عليَّ فقال: «أجب الله تعالى إلى جنته، فإني رسولُ الله إليك وإلى جميع خلقه»، قال: فما تمالكتُ حين سمعته أن قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم لم ألبث أن زوَّجني بنته رقيةَ ـ رضي الله عنها ـ[2].

قوله: **(وكان عم الزبير. . .)** إلخ: في «الإصابة» في ترجمة الزبير: كان

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٥) عن إبراهيم بن الحارث التيمي، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٧)، والحديث المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٣ ـ ٢٥).

يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه، فقوّاه الله بالثبات، وكان شابًّا لا يتجاوز سن الاحتلام[1].

ومنهم: عبد الرحمن بنُ عوفِ بنِ عبدِ عوفِ بنِ الحارثِ بنِ زهرةَ بنِ كلابٍ القرشيُّ الهاشميّ، وكان اسمه في الجاهلية: عبدَ عمرو، فسمّاه عليه الصلاة والسلام: عبدَ الرحمن[2].

عم الزبير، واسمه نوفل من خويلد، يعلقه في حصير، ويُدخِّن عليه ليرجع إلى الكفر، فيقول: لا أكفر أبداً[3].

قوله: (لم يتجاوز سن الاحتلام): في «الاستيعاب» لابن عبد البر: إنه أسلم وهو ابنُ ستَّ عشرةَ سنة، قال: وهو الأصح[4].

قوله: (ومنهم: عبد الرحمن بن عوف): قال الدحلاني: سبب إسلامه: ما أخرجه ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: سافرت إلى اليمن قبل بعثه صلى الله عليه وسلم، فنزلت على عسكلان الحِمْيري، وكان شيخاً كبيراً، وكنت أنزل عليه إذا جئت اليمن، فسألني مرة عن مكة والكعبة وزمزم، وقال: هل ظهر منكم أحد خالف دينكم؟ فقلت: لا.

ثم قدمت عليه بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم وقد ضَعُف وثَقُل سمعه،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٩) من حديث عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: كان اسمي عبدَ عمرو، فتسمَّيتُ حين أسلمت عبد الرحمن، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧).

(٣) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٥٥٤)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣٩) عن أبي الأسود.

(٤) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٥١١).

ومنهم: سعد بنُ أبي وقاص مالكِ بنِ أُهيبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زهرةَ بنِ كلابٍ الزهريُّ القرشيُّ. ولما علمت أمه حَمْنَةُ بنتُ أبي سفيان بنِ أمية بإسلامه، قالت له: يا سعد! بلغني أنك قد صبأت، فوالله! لا يُظلُّني سقف من الحر والبرد، وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد، . . . .

فنزلت عليه، فقال: يا أخا زهرة! ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة؟ قلت: بلى، قال: إن الله قد بعث في الشهر الأول من قومك نبيّاً، وارتضاه رسولاً صفيّاً، وأنزل عليه كتاباً، وجعل له ثواباً، ينهى عن الأصنام، ويدعو إلى الإسلام، ويأمر بالحق ويفعله، وينهى عن الباطل ويبطله، وهو من بني هاشم، امض ووازرْه، وحَمّلَه أبياتاً تفيد إسلامه.

قال عبد الرحمن: فحفظت الأبيات وانصرفت إلى مكة، فلقيت أبا بكر وأخبرته الخبر، فقال: هذا محمد قد بعثه الله، فأته، فلما أتيت بيتَ خديجة ـ رضي الله عنها ـ رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، وقال لي: «أرى وجهاً خليقاً أن أرجو له خيراً، فما وراءك؟» فقلت: وديعة، فقال: «أرسلك مرسل برسالة؟ هاتها»، فأخبرتُه وأسلمتُ، فقال: «أخو حِمْير مؤمنٌ مصدِّق بي وما شاهدني، أولئك من إخواني حقّاً». اهـ. ملخصاً[1].

قوله: (ومنهم: سعد بن أبي وقاص): قال الدحلاني: لقيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فدعاه إلى الإسلام ورغبه فيه، وحثه عليه، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وسأله عن أمره، فأخبره به، فأسلم، وكان عمره تسعَ عشرةَ سنة، وهو من بني زهرة، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليه سعد: «هذا خالي، فَلْيرِني امرؤ خاله»[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٣١ ـ ١٣٢، ١٨٨)، والحديث رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٢٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٨)، والحديث رواه =

وبقيتْ كذلك ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكا إليه أمر أمه، فنزل في ذلك تعليماً قولُ الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨][1].

وصَّاه جلَّ ذكره بوالديه، وأمره بالإحسان إليهما، مؤمنينِ كانا أو كافرين، أما إذا دعواه للإشراك، فالمعصية متحتمةٌ؛ لأن كل حق ـ وإن عظم ـ ساقط هنا، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مَنْ آمن منكم ومَنْ أشرك، فأُجازيكم حقّ جزائكم.

وفي ختام هذه الآية فائدتان: التنبيهُ على أن الجزاء إلى الله، فلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما، والحضُّ على الثبات في الدين؛ لئلا ينال شرّ الجزاء في الأخرى.

ومنهم: طلحةُ بنُ عبيدِالله بنِ عثمانَ بنِ عمرِو بنِ كعبٍ........

قوله: قوله تعالى: (﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾)؛ أي: بإلهيته[2]، عبر عن نفيها بنفي العلم بها؛ إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعُه، وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (ومنهم: طلحة بن عبيدالله)؛ أي: أحد المبشرين بالجنة، دعاه أبو

= البخاري (٣٧٥٢)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وقال: حديث حسن غريب.

(١) رواه مسلم (١٧٤٨/ ٤٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٧).

(٢) في الأصل: «بآلهته»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٩).

ابنِ سعدِ بنِ تيمِ بنِ مرّةَ التيميُّ القرشيُّ، وقد كان عَرَف من الرهبان ذكرَ الرسول صلى الله عليه وسلم وصفته، فلما دعاه أبو بكر، وسمع من رسول الله ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عمّا عليه العرب من المثالب، بادر إلى الإسلام[1].

بكر، ورغبه في الإسلام، فلما استجاب له، أخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم.

وقوله: (وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته): قال الدحلاني: وقد كان ذلك هو السبب الأول في إسلامه ـ رضي الله عنه ـ، قال: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهب في صومعة يقول: سلوا أهل هذا الموسم: هل ثم من أهل الحرم أحد؟ فقلت: نعم، أنا، قال: هل ظهر أحمد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى أرض ذات نخل وسباخ، فإياك أن تُسبَق إليه.

قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمدُ بنُ عبدالله الأمينُ يدعو إلى الله تعالى، وقد تبعه ابن أبي قحافة.

فخرجت حتى دخلت على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فأخبرته بما قال الراهب، فخرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، فسرَّ به، فأسلمتُ. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٩)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٥٨٦)، من حديث طلحة بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ.

ومن سبقوا إلى الإسلام: صُهَيبٌ الروميُّ، وكان من الموالي، وعمّارُ ابنُ ياسرٍ العنسيُّ، وقد قال ـ رضي الله عنه ـ: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر[1]، وكذلك أسلم أبوه ياسرٌ وأمه سُمَيَّة[2].

ومن السابقين الأولين: عبدالله بن مسعود، كان يرعى الغنم لبعض مُشرِكي قريش، ....

قوله: (ومن سبقوا إلى الإسلام: صهيب الرومي): قال الدحلاني: سبب إسلامه: أن أباه كان عاملاً لكسرى، فأغارت الروم عليهم، فسبت صهيباً وهو غلام صغير، فنشأ في الروم حتى كبر، ثم ابتاعه جماعة من العرب، وجاؤوا به إلى سوق عكاظ، فابتاعه منهم عبدُالله بنُ جدعان، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مر صهيب على دار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى عمارَ بنَ ياسر، فقال عمار بن ياسر: أين تريد يا صهيب؟ قال: أريد أن أدخل على محمد فأسمعَ كلامه وما يدعو إليه، قال عمار: وأنا أريد ذلك، فدخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهما بالجلوس، فجلسا، وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما من القرآن، فتشهَّدا، ثم مكثا عنده يومها حتى أمسيا، ثم خرجا مستخفيين، فدخل عمار على أمه وأبيه، فسألاه أين كان؟ فأخبرهما بإسلامه، وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن، فأعجبهما، فأسلما على يده، وكان صهيب وعمار تكملة بضع وثلاثين رجلاً. اهـ[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٠، ٣٨٥٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٥)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٥٨٦)، من حديث طلحة بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ.

فلما رأى الآيات الباهرة، وما يدعو إليه عليه السلام من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ـ رضي الله عنه ـ كثيرَ الدخول على الرسول لا يُحْجَب، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويُلبسهُ نعليه إذا قام، . . . .

قوله: (فلما رأى الآيات الباهرة): قال الدحلاني: سبب إسلامه: ما حدَّث به، قال: كنتُ في غنم لآل عقبةَ بنِ أبي مُعَيط، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل عندك من لبن؟» فقلت: نعم، ولكني مؤتمن، فقال: «هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل؟» قلت: نعم، فأتيته بشاة شصوص ـ وهي التي لا ضرع لها، وقيل: لا لبن لها ـ، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم مكان الضرع، فإذا ضرع حافل مملوء لبناً، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم بصخرة منقورة، فاحتلب النبي صلى الله عليه وسلم، فسقى أبا بكر وسقاني، ثم شرب، ثم قال للضرع: «اقلص»، فرجع كما كان، وإلى ذلك أشار السبكي في «تائيته» بقوله:

ورُبَّ عَناقٍ ما نزا الفحلُ فوقَها ... مسحتَ عليها باليمين فدرَّتِ[1]

فلما رأى ابن مسعود هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم، وقال: يا رسول الله! علمني، فمسح رأسه وقال: «بارك الله فيك؛ فإنك غلام معلَّم»[2].

قوله: (لا يحجب. . .) إلى آخره: قال الدحلاني: ولذلك كان مشهوراً عند الصحابة بأنه صاحبُ سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبشره بالجنة،

---

(١) انظر: «شرح تائية السبكي» لأحمد الترمانيني (ص: ١٠٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٠ ـ ١٥١)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٤)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

فإذا جلس، أدخلهما في ذراعيه[1].

ومن السابقين الأوّلين: أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ، وكان من أعراب البادية فصيحاً حلوَ الحديث، ولما بلغه مَبْعَثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لأخيه: اركبْ إلى هذا الوادي فاعلمْ لي علمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني.

فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قول الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردتُ.

وقال: «رضيتُ لأمتي ما رضي لها ابنُ أم عبد، وسخطتُ لها ما سخطه لها ابنُ أم عبد». اهـ[2].

قوله: (أبو ذر الغِفاري): ـ بكسر المعجمة ـ، واسمه: جُندبُ بن جُنادةَ ـ بضم الجيم فيهما ـ اهـ. حلبي[3].

قوله: (قال لأخيه): اسمُه أنيس.

قوله: (ويقول كلاماً ما هو بالشعر): في الحلبي والدحلاني بعد قوله: **(رأيته يأمر بمكارم الأخلاق):** قلتُ: فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، والله! إنه لصادق، وإنهم لكاذبون، فقلت: اكفني حتى أذهب

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩١)، والحديث رواه البزار في «مسنده» (١٩٨٦) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٠): وفي إسناد البزار محمد بن حميد الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله وثِّقوا.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠).

فتزوّدَ، وحمل قِربة له فيها ماء، حتى قَدِمَ مكةَ، فأتى المسجد، فالتمس النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكَرِه أن يسأل عنه؛ لما يعرفه من كراهة قريش لكل مَنْ يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أدركه الليل، رآه عليٌّ، فعرف أنه غريب، فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء، على قاعدة الضيافة عند العرب: لا يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث.

فلما أصبَحَ، احتمل قِربته وزادَه إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ، فقال: أما آنَ للرجل أن يعرف منزلَه الذي أُضيف به بالأمس؟ فأقامه، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليٌّ مثل ذلك.

ثم قال له علي: ألا تحدّثني ما الذي أقدمَكَ؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلتُ، ففعل فأخبره، قال: فإنه حقّ، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمتُ كأني أُريق الماء، . .

فأنظر، قال: نعم، وكن على حذرٍ من أهل مكة. اهـ[1].

قوله: (أما آن[2] للرجل. . .) إلخ؛ أي: أما حان، يقال: نال له؛ بمعنى: آن له، ويروى: أما آن[3]. اهـ. «فتح الباري»[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ١٩١).

(٢) في الأصل: «نال»، والتصويب من متن «نور اليقين».

(٣) وهي إحدى روايات صحيح مسلم (٢٤٧٤) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٧/ ٥١١).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ١٧٤).

فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخلَ مدخَلي، ففعل، فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، قال: والذي نفسي بيده! لأصرخنّ بها بين ظَهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباسُ فأكبَّ عليه وقال: ويلكم! أوَلَستمُ تعلمون أنه من غِفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه؟ فأنقذه منهم.

ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس عليه. رواه البخاري[1].

كان ـ رضي الله عنه ـ من أصدق الناس قولاً، وأزهدِهم في الدنيا.

قوله: (فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله...) إلخ: في الدحلاني: لما قال ذلك قالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فمال عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرة وعظم حتى خررتُ مغشياً عليَّ، فأكب عليَّ العباس، وقال: ويلكم...إلخ ما في المصنَّف[2].

قوله: (من أصدق الناس قولاً، وأزهدهم في الدنيا): قال الدحلاني: جاء أن أبا ذر أولُ من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: السلامُ عليك، التي هي تحية الإسلام، وبايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أن لا تأخذه في الله

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ومن السابقين: سعيد بنُ زيدٍ العَدَوِيُّ القرشيّ، وزَوجُه فاطمةُ بنتُ الخطاب أختُ عمر، وأُم الفضل لُبابةُ بنتُ الحارث الهلاليةُ، زوجُ العباس ابن عبد المطلب، . . . .

لومة لائم، وعلى أن يقول الحق ولو كان مرّاً، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أظلَّتِ الخضراءُ ـ أي: السماء ـ ولا أقلَّتِ الغبراءُ ـ أي: الأرض ـ أصدقَ من أبي ذر»، رضي الله عنه[1].

وقال صلى الله عليه وسلم في حقه: «أبو ذَرٍّ يمشي في الأرض على زهدِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام»[2].

وفي الحديث: «أبو ذر زاهد أمتي وأصدقها»[3].

ولما عاد إلى بلاده، أسلم أخوه وأمه، وأسلم نصفُ قومه، ولما جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم النصف الثاني[4].

قوله: (سعيد بن زيد): هو أحدُ العشرة المبشرين بالجنة.

وقوله: (وزوجه فاطمة): قال الدحلاني: هي ثانية النساء إسلاماً، وقيل:

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٠١) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وقال: حديث حسن.

(٢) روى الترمذي (٣٨٠٢) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شِبه عيسى ابن مريم عليه السلام»، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى بعضهم هذا الحديث، فقال: «أبو ذر يمشي في الأرض بزهد عيسى ابنِ مريم عليه السلام».

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث» للهيثمي (٩٦٥)، من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

وعُبيدة بنُ الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة عبدُالله بنُ عبدِ الأسد المخزوميُّ القرشيُّ ابنُ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجُه أم سلمةَ، وعثمان بنُ مظعون الجمحيُّ القرشيُّ، وأخواه: قُدامة، وعبدالله، والأرقم بنُ أبي الأرقم المخزوميُّ القرشيُّ.

ومن السابقين الأوّلين: خالد بنُ سعيد بنِ العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ الأمويُّ القرشيّ، كان أبوه سيدَ قريش، إذا اعتمَّ لم يعتمّ قرشيٌّ إجلالاً له، ....

الثانية أُم الفضل لبابةُ بنتُ الحارث الهلاليةُ[١].

قوله: (وعبيدة بن الحارث) هو المستشهد يوم بدر كما سيأتي.

قوله: (وأبو سلمة): هو زوجُ أم سلمة قبل النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أسلم بعد تسعة أنفس، وقيل: هو الحادي عشر. اهـ. دحلاني[٢].

قوله: (والأرقم بن أبي الأرقم) هو الذي ينسب إليه دار الأرقم.

قوله: (كان أبوه سيد قريش. . .) إلخ: يقال لأبيه: أبو أُحيحة.

وقوله: (لم يعتم قريشي إجلالاً له): قال الدحلاني: ومن ثم قال فيه القائل:

أبا أُحيحةَ من يعتمُّ عِمَّتَهُ ... يوماً وإن كان ذا مالٍ وذا عددِ[٣]

وفي الحلبي: (يضرَبْ) بدل (يوماً)[٤].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٤)، وانظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٣٥)، ولم يعزه لأحد.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٤).

وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية، . . . .

قوله: (سيقع في هاوية. . .) إلخ: قال الدحلاني: سبب إسلامه: أنه رأى في النوم النار، ورأى فظاعتها وأهوالها أمراً مهولاً، ورأى أنه على شفيرها، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بحجزته[1] يمنعه من الوقوع فيها.

فقام من نومه فزعاً، وعلم أن نجاته من النار تكون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ، فذكر ذلك، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أُريد بك خير، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعْه، فأتاه فقال: يا محمد! ما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع»، فأسلم خالد[2].

ثم قال: عند إسلامه أرسل والده في طلبه، فانتهره وضربه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، ثم قال: اتبعتَ محمداً وأنت ترى خلافه لقومه، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم؟! فقال: والله! تبعته على ما جاء به، فغضب أبوه وقال: اذهب يا لكع[3] حيث شئت، وقال: والله! لأمنعنك القوتَ، قال: إن منعتني فالله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه، وقال لبنيه ولم يكونوا أسلموا: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثلَه.

فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمه ويعيش معه

---

(١) في هامش الأصل: «الحجزة ـ بضم الحاء وسكون الجيم وفتح الزاي ـ: مَعْقِد الإزار، ومن السراويل: موضع التكة. اهـ. قاموس».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٣) في هامش الأصل: «اللكع: اللئيم والعبد والأحمق. اهـ منه».

فأدركه رسول الله، وخلّصه منها، فجاء إليه وقال: إلامَ تـدعو يـا محمـد؟ قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنـت عليـه مـن عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، والإحسان إلى والـديك، وأن لا تقتل ولدَك خشيةَ الفقر، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها ومـا بطـن، وأن لا تقتل نفساً حرّم الله إلا بالحق، وأن لا تقـرب مـال اليتـيم إلا بـالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو حكمتَ على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت»، فأسلم ـ رضي الله عنه ـ، وحينئـذٍ غضـب عليـه أبـوه وآذاه حتـى منعـه القـوت، فانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمـه ويعـيش معـه، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة، وأسلم بعده أخوه عمرو بنُ سعيد[1].

وهكذا دخل هؤلاء الأشرافُ في دين الإسلام، . . . .

ويغيب عن أبيه في نواحي مكة حتى خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فكان خالد أول من خرج إليها. اهـ[2].

قوله: (وأسلم بعده أخـوه عمـرو بـن سـعيد): قـال الـدحلاني: سـبب إسلامه: أنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت منه نخيل المدينة حتـى رأى البُسـرَ فيها، فقص رؤياه، فقيل له: هذه بئر بني عبد المطلب، وهذا النور منهم يكون، فكان سبباً لإسلامه. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٤)، والخبـر المـذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٩٤ ـ ٩٥) عن محمد بن عبدالله بـن عمـرو بـن عثمان.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٤).

ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغّب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، وذوي الثروة منهم، ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه الصلاة والسلام؛ كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتّبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقّات مع اتّباع الرسول، بحيث لو اتبعوا سادتهم، لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالاً، وأنعم عيشة، اللهمّ ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوعِ أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة، وما عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الهدى.

قوله: (ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم. . .) إلخ: قال الإمام الماوردي في «أعلام النبوة»: فإن قيل: مجيء الأنبياء موضوع لمصالح العالم، وهم مأمورون بالرأفة والرحمة، ومحمد جاء بالسيف وسفك الدماء وقتل النفوس، فصار منافياً لما جاء به موسى وعيسى، فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الله تعالى بعث كل نبي بحسب زمانه، فمنهم من بعثه بالسيف؛ لأن السيف أنجعُ، ومنهم من بعثه باللطف؛ لأن اللطف أنفع، كما خالف بين معجزاتهم بحسب أزمانهم، فبعث موسى بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطبّ، وبعث محمداً بالقرآن في زمان الفصاحة؛ لأن الناس في بدء أمرهم يتعاطفون مع القلة، ثم يتنافرون ويتحاسدون مع الكثرة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نجا أولُ هذه الأمة باليقين، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل»[1].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٢٠) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

مضت كل هذه المدة والنبي عليه الصلاة والسلام لا يُظهر الدعوة. . .

والجواب الثاني: أن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيراً، واللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شرّاً؛ لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية، والحقوق الدينية والأخلاقية، ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود؛ ليستقر به الخير، وينتفي به الشر؛ لأن النفوسَ الأَشِرَةَ لا يكفيها إلا الرهبةُ، فكان القهر لها أبلغَ في انقيادها من الرغبة، وكانت العرب أكثر الناس شرّاً وعتوّاً؛ لكثرة عددهم، وقوة شجاعتهم، فلذلك كان السيف فيهم أنفعَ من اللطف.

والجواب الثالث: أنه لم يكن في جهاده بالسيف بدعاً من الرسل، ولا أولَ مَنْ أثخن في أعداء الله تعالى، وقبل هذا إبراهيمُ عليه السلام جاهدَ الملوك الأربعة الذين أتوا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها، وحاربهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه.

وهذا يوشعُ بنُ نون قتل نيفاً وثلاثين ملكاً من ملوك الشام، وأباد من مدنها ما لم يبق له أثر من غير أن يدعوهم إلى دين، أو يطلب منهم أتاوة، وساق الغنائم.

وغزا داود من بلاد الشام، فلم يدع فيها رجلاً ولا امرأة إلا قتلهم، وهو موجود في كتبهم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء، وحارب بعد الإباء، وتمامه فيه[1].

الجهر بالتبليغ

قوله: (مضت كل هذه المدة): لم يذكر المصنف تلك المدة التي مضت.

---

(١) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ٢١٤ ـ ٢١٥).

في مجامع قريش العمومية، ولم يكن المسلمون يتمكّنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش، فكان كلُّ من أراد العبادة ذهب إلى شِعاب مكة يصلّي مستخفياً، ولمّا دخل في الدين ما يربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماعُ الرسول صلى الله عليه وسلم بهم ليرشدهم ويعلّمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وهو ممّن ذكرنا إسلامهم ـ . . . .

قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: كان صلى الله عليه وسلم يدعو الناس خفية بعد نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ثلاث سنين[1].

وقال قبل ذلك نقلاً عن الإمام الزهري: إن الجهر بالدعوة كان في سنة أربع من النبوة، وقيل: في سنة خمس[2].

قوله: (يصلي مستخفياً): قال الدحلاني: فبينما سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعْب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدٌ رجلاً منهم بلَحْيِ بعيرٍ فشجَّه، فهو أول دم أهريق في الإسلام[3].

قوله: (ما يربو على الثلاثين): كانوا تسعة وثلاثين، وخرجوا بعد أن كملوا أربعين بإسلام عمرَ وحمزةَ ـ رضي الله عنهما ـ. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (اختار لذلك دار الأرقم): هي المعروفة الآن بدار الخيزران؛ لأن المنصور لما اشترى الدار المذكورة وهبها لولده المهدي، فوهبها المهدي لجاريته

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦)، والخبر المذكور أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

ومكث عليه الصلاة والسلام يدعو سرّاً حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحِجـر: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤]**، فبـدّل بالـدعوة سرًّا الدعوة جهراً ممتثلاً أمر ربه، واثقاً بوعده ونصره، فصعد علـى الصـفا، فجعل ينادي: يا بني فِهر! يا بني عَديٍّ! لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لـم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بنُ عبد المطلب وقريشٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، . . . .**

الخيزران، فوقفتها مسجداً. اهـ. دحلاني[١].

قوله: قولـه تعـالى: (**﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾**)؛ أي: فـاجهر بـه؛ مـن صـدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً، أو فافرقْ به بين الحق والباطـل، وأصـله: الإبانـة والتمييز، و(ما) مصدرية أو موصولة، والراجع محذوف؛ أي: بما تؤمر بـه مـن الشرائع.

وقوله تعالى: (**﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾**)؛ أي: فلا تلتفت إلى مـا يقولـون. اهـ. بيضاوي[٢].

وفي «المصباح»: الصدع: مأخوذ من الشق؛ أي: شُقَّ جماعاتهم بالتوحيد، وقيل: افرق بين الحق والباطل، وقيل: أظهر ذلك، وصدعتُ بالحق: تكلمـتُ به جهاراً[٣].

قوله: (فصعد على الصفا)؛ أي: وذلك بعد نزول قولـه تعـالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] أيضاً كما صرح به الحلبي في أوائل باب استخفائه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٣٨٢).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: صدع).

قال: «فإنِّي نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في شأنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ . . . .

صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم[1].

وفي الخازن في تفسير سورة ﴿تَبَّتْ﴾ رامزاً إلى الصحيحين: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى: «يا بني فهر! يا بني عدي! . . .» إلخ ما ذكره المصنف هنا[2].

فقوله بعد ذلك: (**ثم نزل عليه في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ . . .**) إلخ: فيه ما فيه؛ لأنه يفيد أن نزولها كان بعد الاجتماع الأول، وما نقلناه صريح في أن نزولها كان قبله.

قوله: قوله تعالى: (**﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾**): معنى ﴿تَبَّتْ﴾: خابت وخسرت، والتباب: هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد: صاحُبها وجملةُ بدنه، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله جميعه.

وقيل: إنه رمى النبي صلى الله عليه وسلم بحجر فأدمى عقبه، فلهذا ذكرت اليد، وإن كان المراد جملة البدن، فهو كقوله: خسرت يده، وكسبت يده، فأضيفت الأفعال إلى اليد.

وقوله: (**﴿وَتَبَّ﴾**): قيل: الأول أخرج مخرج الدعاء، والثاني أخرج مخرج الخبر، كما يقال: أهلكه الله، وقد هلك. اهـ. الخازن[3].

قوله: قوله تعالى: (**﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾**): في الخازن:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤)، والحديث رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤).

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[المسد: ١ ـ ٥].

والقصد من حمل الحطب: المشيُ بالنميمة؛ لأنها كانت تقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكاذيبَ في نوادي النساء.

قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرباءه إلى الله تعالى؛ قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقّاً؛ فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾؛ أي: أي شيء يغني عنه ماله؛ أي: ما يدفع عنه عذابَ الله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ يعني: من المال[1].

قوله تعالى: (﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾): قال النسفي: نصبَ عاصمٌ ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ على الشتم، والتقدير: أعني: حمالةَ الحطب، وغيرُه رفعُ ﴿حَمَّالَةُ الحطب﴾ على أنها خبر.

قيل: كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس.

وقوله تعالى: (﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾): حال، أو خبر آخر، والمسد: الذي فُتل من الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرِهما.

والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون؛ تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات، لتجزع من ذلك، ويجزع بعلُها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة. اهـ[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٦٢).

ثم نزل عليه في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾[الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٦]؛ أي: العشيرة والأقربون، ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ٢١٦]، فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم: «إن الرائد لا يكذِب أهلَه، والله! لو كذبتُ الناس جميعاً، ما كَذَبتكم، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو! إني لرسولُ الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله! لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحَاسبنّ بما تعملون، ولتُجزونّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنّها لجنّة أبداً، أو لنار أبداً».

فتكلم القوم كلاماً ليّناً غيرَ عمه أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً؛ فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، . . . .

قوله: (فجمعهم عليه السلام)؛ أي: بعد أن مكث أياماً، ونزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره بإمضاء أمر الله تعالى.

قوله: (إن الرائد لا يكذب أهله): أصل الرائد: الذي يتقدم القومَ يبصر لهم الكلأ ومساقطَ الغيث، وقد راد يرود رياداً. اهـ. «نهاية»[1].

قوله: (أو لنار أبداً): تتمة الحديث كما في الدحلاني: «يا بني عبد المطلب! ما أعلم شابّاً جاء قومه بأفضلَ مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»، فتكلم القوم. . . إلخ. اهـ[2].

قوله: (خذوا على يديه)؛ أي: اقبضوه وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٨)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

فإن أسلمتموه إذاً ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم، فقال أبو طالب: والله! لنمنعنَّه ما بقينا، ثم انصرف الجمع[1].

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة، سَخِرت منه قريش، واستهزؤوا به في مجالسهم، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يُكلم من السماء، لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم، ....

غيره. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فإن أسلمتموه): في «المصباح»: أسلمتُه: بمعنى: خذلتُه[3].

وفي «القاموس»: أسلم العدو: خذله[4].

وقوله: (وإن منعتموه)؛ أي: نصرتموه.

في «القاموس»: يقال: هو في عزٍّ ومنعة ـ محركة ويسكن ـ؛ أي: معه من يمنعه من عشيرته. اهـ[5].

قوله: (فقال أبو طالب...) إلخ: قال أبو طالب ذلك بعد أن قالت صفية عمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبة أخاها أبا لهب: أي أخي! أيحسن بك خذلانُ ابن أخيك، فوالله! ما زال العلماء يخبرون أنه من ضئضئ ـ أي: أصل ـ عبد المطلب نبي، فهو هو.

قال: هذا ـ والله ـ الباطلُ والأماني، وكلام النساء في الحجال، إذا قامت

---

(١) رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٥٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٨).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سلم).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سلم).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: منع).

وسَفَّهَ عقولهم، وقال لهم: «والله يا قوم! لقد خالفتم دينَ أبيكم إبراهيم»[1]، ثارت في رؤوسهم حميةُ الجاهلية غَيْرَةً على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيدِ بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه، فطلبوا منه أن يُخلي بينهم وبينه، أو يكفّه عمّا يقول، فردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريده، لا يصده عن مراده شيء، فتزايد الأمر، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحث بعضهم بعضاً على ذلك.

ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، وقالوا له: إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة منّا، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهى ابنَ أخيك، فلم تَنْهَهُ عنّا، وإنّا ـ والله ـ لا نصبر على هذا؛ من شتمِ آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعيب آلهتنا؛ فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقاليد في استمرارهم على عدم اتّباع الحق، ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له. . . . .

بطون قريش، وقامت معها العرب، فما قوتنا بهم؟! فوالله! ما نحن عندهم إلا أكلة رأس، فقال أبو طالب: والله! لنمنعنه ما بقينا. اهـ. حلبي[2].

قوله: (لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم): في الحلبي: قال لهم ذلك لما مر عليهم يوماً وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام، فقال: «يا معشر قريش! والله! لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم»، فقالوا: إنما نعبد الأصنام حبًّا إلى الله لتقربنا إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][3].

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٥٠) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦١).

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، وقال في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤]، وقال في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[لقمان: ٢١]، وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، ولما شبّههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدّالة على التعصب والعناد قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الزخرف: ٢٤]، . . . . . .

قوله: (﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾): الواو للحال أو العطف، والهمزة للرد والتعجب، وجواب (لو) محذوف؛ أي: لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين، ولا يهتدون إلى الحق، لاتبعوهم. اهـ. بيضاوي[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾): أي: على دين مجتمع، اهـ. نهاية[2].

قوله: قوله تعالى: (﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ﴾)؛ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بهدي أهدى من دين آبائكم؟.

وقوله: (﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾)؛ أي: وإن كان أهدى، فإنا بما أرسلتم به كافرون.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٤٧).

(٢) لم نقف عليه باللفظ المذكور، ولكن ذكر ابن الأثير معناه في مادة (أمم). انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٥٨).

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم، جرَّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية، فهاج ذلك أضغانَهم، وقالوا لأبي طالب: إما أن تكفَّهُ، أو ننازله وإيَّاك في ذلك حتى يَهْلِكَ أحد الفريقين، ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه، ولم يَطِبْ نفساً بخذلان ابن أخيه، فقال له: يا ابن أخي! إن القوم جاؤوني فقالوا لي كذا، فأبقِ على نفسك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول أن عَمَّه خاذِلُهُ، فقال: «والله! يا عمِّ! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت، حتى يُظهِره الله، أو أهلك دونه»، ثم بكى وولى. فقال أبو طالب: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه، فقال: اذهب، فقلْ ما أحببتَ، والله! لا أُسلمك[1].

قوله: (وقالوا لأبي طالب) هذا تتمة كلامهم لما مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى واقع بعد قولهم: وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا.

قوله: (فأبق على نفسك): العبارة في الحلبي: فأبق عليَّ وعلى نفسك[2].

قوله: (والله يا عم... إلخ) هذا مثال عظيم من أمثلة الثبات والصبر والحزم، وفي هذا فليقتد المقتدون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قوله: (والله! لا أسلمك)؛ أي: لا أخذلك، وأنشد أبو طالب حينئذ أبياتاً منها:

والله لن يصلوا إليكَ بجمعهم ... حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دفينا
فأصدعْ بأمرك ما عليكَ غضاضةٌ ... وابشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونا

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣٥) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٢).

. . . .

ودعــوتني وزعمــت أنــك ناصــحي ولقــد صــدقتَ وكنــتَ ثَــمَّ أمينــا

وعرضــــتَ دينـــاً لا محالـــةَ أنـــه مـــن خيـــر أديـــانِ البريـــة دينـــا

لـــولا الملامـــةُ أو حـــذاري سُـــبَّةً[1] لوجـــدتني ســـمحاً بـــذاك مبينـــا[2]

قال الحلبي: ولما عرفت قريش أن أبا طالب قـد أبـى خـذلان رسـول الله صلى الله عليه وسلم؛ مشوا إليه بعمارة بـن الوليـد بـن المغيـرة، فقـالوا لـه: يـا أبـا طالب! هذا عمارة بن الوليد أنهدُ ـ أي: أشدُّ وأقوى ـ فتًى فـي قـريش وأجملُـه، فخذه لك ولداً ـ أي: بأن تتبناه ـ، وأسلمْ إلينا ابنَ أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعةَ قومك، وسَفَّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجـل كرجـل، فقال لهم أبو طالب: والله! لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا ـ والله ـ لا يكون أبداً، أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها.

قال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فمـا أراك تريـد أن تقبل منهم شيئاً، فقال أبو طالـب: والله! ما أنصفوني، ولكن قد أجمعتَ ـ أي: قصدتَ ـ خذلاني، ومظاهرةَ القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك.

فعند عدم قبول أبي طالب ما أرادوه اشتد الأمر.

ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى، دعا بني هاشم وبني المطلـب إلـى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيـام دونـه، فأجـابوه إلـى ذلك غير أبي لهب، فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الأصل: «حذار مسبَّة» بدل «حذاري سبة»، والمثبت من «ديوان أبي طالب».

(٢) أورده مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٣٤٢) بنحوه، وانظر: «ديوان أبي طالـب» (ص: ٩١).

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين كثير الأذى، وعظيمَ الشدّة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذًى لرسول الله: جماعةٌ سُمّوا ـ لكثرة أذاهم ـ بالمستهزئين.

فأوّلهم وأشدّهم: أبو جهل عمرُو بنُ هشام بنِ المغيرة المخزوميُّ القرشيّ، قال يوماً: يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم، وشتم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، وسبّ آبائكم، إني أُعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته، رضَختُ به رأسه، فأَسْلِمُوني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح، أخذ حجراً كما وصف، . . . .

ولكل من آمن به، وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من معه. اهـ[1].

الإيذاء

قوله: (بحجر) الباء للمصاحبة على حد قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ[2] بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: ٤٨].

قوله: (رضخت به رأسه): في «القاموس»: رضخَ الحصى؛ كمنع وضرب: كسرها[3].

قوله: (ما بدا لهم): في الحلبي بعد هذه العبارة: فقالوا: والله! لا نسلمك

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٣)، والخبر المذكور أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣٣).

(٢) في الأصل: «اهبطوا»، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رضخ).

ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعِل، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونُه من الفزع، ورمى حجره من يده. فقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما لكَ يا أبا الحَكَم؟ قال: قمت إليه لأفعلَ ما قلت لكم، فلما دنوت منه، عرض لي فَحْلٌ من الإبل، . . . .

لشيء أبداً، فامض لما تريد، فلما أصبح . . . إلخ[١].

قوله: (منهزماً منتقعاً لونه)؛ أي: متغيراً بالصفرة مع الكدرة من[٢] الفزع، وقد يبست يداه على حجره حتى قذفه من يده بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدروا. اهـ. حلبي[٣].

وقال بعد ذلك: وذُكِر في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[يسٓ: ٨]؛ أي: إنا جعلنا أيديهم متصلة بأعناقهم، واصلة إلى أذقانهم، ملصقة بها، رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، من أقمح البعير: رفع رأسه.

إن الآية نزلت في أبي جهل، لما حمل الحجر يرضخ به رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه؛ أثبتت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه، أخبرهم، فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد. اهـ[٤].

قوله: (فحل من الإبل): الفحل: الذكر من كل حيوان. قاموس[٥].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) في الأصل: «مع»، والمثبت من «السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٥).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: فحل).

والله! ما رأيت مثله قط هَمَّ بي أن يأكلني، فلما ذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ذاك جبريل، ولو دنا لأخذه»[1].

وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسولَ عن صلاته في البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القول وهدده، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة اقرأ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ . . . .

قوله: قوله تعالى: (﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ . . .﴾) إلخ الآية: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمرِه بعبادة الأصنام.

(﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾)؛ أي: لنأخذن بناصيته، فلنجرنه إلى النار، يقال: سفعت بالشيء: إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً، والسفع: الضرب، والناصية: شعر مقدم الرأس.

وقوله: (﴿نَاصِيَةٍ﴾): بدل من (الناصية)؛ لأنها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها حقيقة، أي: صاحبها كاذب خاطئ.

وقوله: (﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾): لما نهى أبو جهل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، أَغْلَظَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القولَ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً[2]؟!

ومعنى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾؛ أي: عشيرته وقومه، فلينتصرْ بهم، وأصل النادي: المجلس الذي يجمع الناس، ولا يسمى نادياً ما لم يكن فيه أهل.

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٨١) عن شيخ من أهل مكة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٠٤٥) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق: ١٥ ـ ١٩][1].

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم: ما حكاه عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من رواية البخاري قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجلٌ يقوم إلى فَرْثِ جزورِ بني فلان، فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبةُ بنُ أبي مُعَيط بنِ أبي عمرِو بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمس، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه؛ لضعفهم عن مقاومة عدوهم، . . . .

(﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾): يعني: الملائكة الغلاظ الشداد، يريد: زبانية جهنم، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يدفعون أهل النار إليها بشدة، مأخوذ من الزبْن، وهو الدفع.

وقوله: (﴿كَلَّا﴾) ردعٌ لأبي جهل، وإعلامٌ له أن الأمر ليس ما هو عليه.

وقوله: (﴿لَا تُطِعْهُ﴾)؛ أي: في ترك الصلاة، واثبت على ما أنت عليه من عصيانه.

وقوله: (﴿وَٱسْجُدْ﴾)؛ أي: صلِّ لله.

وقوله: (﴿وَٱقْتَرِب﴾)؛ أي: من الله. اهـ. نسفي وخازن[2].

قوله: (إلى فرث جزور بني فلان) الفرث: الروث الذي في الكرش.

قوله: (فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد)؛ أي: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك، قال ابن مسعود: فهبنا أن نلقيه عنه صلى الله عليه وسلم، وفي لفظ: وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٤٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٤٩).

ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمةُ بنتُه، فأخذت القذر ورمته، فلما قام، دعا على مَنْ صنع هذا الصنع القبيح، فقال: «اللهمّ عليك بالملأ من قريش»، وسمّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر[1].

لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ؛ أي: بعد أن ذهب إليها إنسان، وأخبرها بذلك، واستمر صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عنه.

واستمراره في الصلاة عند فقهائنا لعدم علمه بنجاسة ما أُلقي عليه، ولما ألقته، أقبلتْ عليهم تشتمهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (عليكَ بالملأ من قريش): الملأ: أشراف الناس ورؤسائهم ومقدموهم الذين يُرجَع إلى قولهم، وجمعه: أملاء. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (وسمى أقواماً): في رواية: فلما قضى صلاته، رفع يديه ثم دعا ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش»، فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك، وهابوا دعوته، ثم قال: «عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبةَ ابن ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، والوليدِ بن عتبةَ، وعقبةَ بنِ أبي معيط، وعمارةَ بنِ الوليد، وأميةَ بنِ خلف»[4].

قوله: (فرأيتهم قُتلوا يوم بدر)؛ أي: أكثرهم؛ لأن عمارة مات بالحبشة

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٩)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤)، من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٣٥١).

(٤) رواه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

ومما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي جهل: أن هـذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له: الإراشي، فمطله بأثمانهـا، فجـاء الرجـل مجمعَ قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله، . . . .

كافراً، وعقبة لم يقتل ببدر، وإنما أخذ أسيراً منها، وقتل بعرق الظبية.

قوله: (الإراشي): هو ـ بكسر الهمزة ـ نسبة إلى إراشة، بطنٍ مـن خـثعم. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (فجاء الرجل مجمـع قريش): تفصيل القصة كمـا فـي الـدحلاني: أن أبا جهل لما مطل الإراشي بأثمان إبله، دلته قريش على النبي صـلى الله عليـه وسـلم لينصفه من أبي جهل؛ استهزاء منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لـزعمهم أنـه لا قدرة له على أبي جهل، وكان ذلك بعد أن وقف على ناديهم وقال: يـا معشـر قريش! من يعينني على أبي الحكم بن هشام؛ فإني غريب وابنُ سبيل، وقد غلبني على حقي، فقالوا له: أترى ذلك الرجل ـ يعنون: رسول الله صلى الله عليه وسـلم ـ؟ اذهب إليه، فهو يعينك عليه.

فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له حاله مـع أبـي جهـل، فقال مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم: يا عبدالله! إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قِبلَه، وأنا غريب وابن سبيل، وقد سـألت هـؤلاء القـوم عـن رجـل يأخذ لي بحقي منه، فأشاروا إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله.

فقام النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبـي جهـل، وضـرب عليـه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «محمد»، فخرج إليه وقد انتقع لونه، فقـال: «أعـط هذا حقه»، فقال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل وأخرج مـا هـو لـذلك الرجل، فدفع إليه.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٤).

فدلّوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُنصفه من أبي جهل استهزاء؛ لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول صلى الله عليه وسلم، فتوجه الرجل إليه، وطلب منه المساعدة على أبي جهل، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه، فقال: مَنْ هذا؟ قال: «محمد»، فخرج منتقعاً لونُه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعطِ هذا حقَّه»، فقال أبو جهل: لا تبرحْ حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دَيْنه، فقالت قريش: ويلك يا أبا الحكم! ما رأينا مثل ما صنعت؟! قال: ويحكم! والله! ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي حتى سمعت صوته، فمُلئت منه رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله[1].

قال: ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على أهل ذلك المجلس الذي بعثوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء فقال: جزاه الله خيراً ـ يعني: النبيَّ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد ـ والله ـ أخذ لي بحقي.

وكانوا قد أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: انظر ماذا يصنع، فلما رجع الرجل، قالوا له: ماذا رأيت؟ فقال: رأيت عجباً من أعجب العجب، والله! ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه فزعاً مرعوباً، وكأنه ليس معه روحه، فقال: «أعط هذا حقه»، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه، فعند ذلك قالوا لأبي جهل: ما رأينا مثل ما صنعت! فقال: ويحكم! والله! ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته، فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله قط، لو أبيت أو تأخرت، لأكلني. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥) =

ومن جماعة المستهزئين: أبو لهب بنُ عبد المطلب، عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أشدّ عليه من الأباعد، فكان يرمي القذر على بابه؛ لأنه كان جاراً له، . . . .

قوله: (على بابه): في الدحلانية: قال صلى الله عليه وسلم: «كنت بين شر جارين؛ أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتياني بالفروث، فيطرحانها على بابي». اهـ[1].

وقال فيه: إن هذه الأذايا ليست منقصة له صلى الله عليه وسلم، بل هي مما تزيده رفعة، وهي دليل على فخامة قدره، وعلو مرتبته، وعظم رفعته ومكانته عند ربه؛ لكثرة صبره واحتماله، مع علمه باستجابة دعائه، ونفوذ كلمته عند الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء»[2]، وذلك سُنة من سنن النبيين السابقين، وإلى هذا أشار صاحب «الهمزية» بقوله:

لا تَخَلْ جانبَ النبيِّ مُضاما ... حين مَسَّتْه منهمُ الأسواءُ

كلُّ أمر نابَ النبيين فالشِّدَّ ... ةُ فيه محمودةٌ والرخاءُ

لو يمسُّ النُّضارَ هونٌ من النا ... ر لما اختير للنضار الصِّلاءُ[3]

= عن عبد الملك بن عبدالله بن أبي سفيان الثقفي.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٦)، والحديث المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٠١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٦٩) من حديث فاطمة بنت اليمان ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٩٢): وإسناد أحمد حسن.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٠). وانظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٤٦).

فكان الرسول يطرحه ويقول: «يا بني عبد مناف! أيُّ جوار هذا؟»، وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجُه أُمّ جميل بنتُ حربِ بنِ أمية، فكانت كثيراً ما تسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب[1].

ومن المستهزئين: عُقبة بن أبي مُعيط، كان الجارَ الثانيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل معه كأبي لهب، صنع مرة وليمة، ودعا لها كبراء قريش، وفيهم رسولُ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «والله! لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله»، فتشهَّد، فبلغ ذلك أُبيَّ بنَ خلف الجُمحيَّ القرشيّ، وكان صديقاً له، فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يَطعم، فشهدت له، قال أُبيّ: وجهي من وجهك حرام إن لقيتَ محمداً فلم تطأ عنقَه، وتبزق في وجهه، وتلطم عينه، فلما رأى عقبةُ رسولَ الله، . .

قال الحلبي: أي: لو كان يمس الذهبَ هوانٌ من إدخاله النار، لما اختير له العرض على النار، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالذهب، والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يعرض عليها الذهب؛ فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسناً، فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة. اهـ[2].

قال الضحاك: لما بزق عقبة، لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وصلت إلى وجهه كشهاب نار، فاحترق مكانها، وكان أثر الحرق

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٠١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٤٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٥).

فعل به ذلك، فأنزل الله فيه في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩][1].

في وجهه إلى الموت. اهـ[2].

قوله: (فعل به ذلك)؛ أي: في دار الندوة، وكان صلى الله عليه وسلم ساجداً، فقال له: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر، فأمر علياً فقتله، وطعن أبيّاً بأُحد في المبارزة، فرجع إلى مكة ومات. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ . . .﴾) إلخ: قال البيضاوي: عضُّ اليدين وأكلُ البنان وحرقُ الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفهما.

وقوله: (﴿سَبِيلًا﴾)؛ أي: طريقاً إلى النجاة.

وقوله: (﴿لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾) يعني: من أضلَّه، و﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الأعلام.

وقوله: (﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾)؛ أي: ذكرِ الله، أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة.

وقوله: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾) يعني: الخليل المضل، أو إبليس؛ لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كل من تشيطن من جن أو إنس.

وقوله: (﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾) يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٣٠)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٠٨).

(٣) في الأصل زيادة: «وقال الدحلاني ١/ ٢٢٤/ ٧»، وانظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

ومن أشدِّ ما صنعه ذلك الشقيُّ برسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رواه البخاري في «صحيحه»، قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حِجْر الكعبة؛ إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[غافر: ٢٨].

ومن جماعة المستهزئين: العاصُ بنُ وائلٍ السهميُّ القرشيّ والدُ عمرِو بنِ العاص، كان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: غرَّ محمدٌ أصحابَه أن يحيوا بعد الموت، . . . .

ولا ينفعه. اهـ. بيضاوي[١].

قوله: **(ما رواه البخاري في صحيحه)**؛ أي: عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. . . إلخ[٢].

قال الحلبي: ولعل أشديةَ ذلك باعتبار ما بلغ عبدَالله بنَ عمرو ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أو ما رآه. اهـ[٣].

قوله: **(فأقبل أبو بكر. . . إلخ)**: دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الحرج يفيدك صدقَ الصحبة، وحقيقةَ الأخوة، وأن جلائل الأخطار في الأخطار.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٣).

والله! ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله رداً عليه في دعواه في سورة الجاثيـة: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤]**، وكان عليه دين لخبَّاب بن الأرتّ أحدِ رجال المسـلمين، فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟ قال خبَّاب: بلى، قال: فأنظرني إلى هذا اليوم، فسأوتى مالاً وولداً، فأقضيك دينـك، فأنزل الله في سـورة مـريم: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ . . . .**

قوله: (وكان عليه دين لخباب): كان الدَّين ثمنَ سيوف؛ لأن خباباً كـان قيناً بمكة؛ أي: حداداً يعمل السيوف.

قولـه: قولـه تعـالى: (﴿**أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا . . .**﴾) إلـخ: قـال البيضاوي: لما كانت الرؤية أقوى سند الإخبار، استعمل (أرأيت) بمعنـى الإخبـار، والفاء على أصلها، والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك.

وقوله: (﴿**أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا**﴾)؛ أي: قد[(١)] بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عالم الغيب الذي توحد به الواحد القهار حتى ادعـى أن يـؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أو اتخذ من علام الغيوب عهداً بذلك؟! فإنه لا يتوصل إلـى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

وقوله: (﴿**كَلَّاۚ**﴾) ردعٌ وتنبيه على أنه مخطئ فيما تصوره لنفسه.

(﴿**سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ**﴾) سنظهر له أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:

إذا مـا انتسـبنا لـم تلـدني لئيمـةٌ[(٢)]

---

(١) في «تفسير البيضاوي»: «أقد».

(٢) صدر بيت لزائد بن صعصعة، وعجزه: =

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾[مريم: ٧٧ ـ ٨٠][1].

ومن جماعة المستهزئين: الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، الزهريُّ، القرشيّ، من بني زُهرة، أخوالِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض؛ استهزاءً بهم؛ لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثّة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم سخرية: . . . .

أي: تبين أني لم تلدني لئيمة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة[2] لا تتأخر عن القول؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[قٓ: ١٨].

وقوله: (﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾): ونطول له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعف له؛ لكفره وافترائه واستهزائه على الله.

(﴿وَنَرِثُهُۥ﴾) بموته (﴿مَا يَقُولُ﴾) يعني: المال والولد (﴿وَيَأۡتِينَا﴾) يوم القيامة (﴿فَرۡدٗا﴾) لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثمة زائداً. اهـ[3].

وقوله: (قد جاءكم ملوك الأرض) زاد الحلبي والدحلاني: الذين يرثون كسرى وقيصر[4].

= ولـم تجـدي مـن أن تُقِـرِّي بهـا بُـدّا

انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٥/ ٢٥٦).

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٠ ـ ٥١١).

(٢) في الأصل: «الكتبة»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١١)، و«السيرة النبوية» =

أما كُلِّمْتَ اليوم من السماء؟![1].

ومنهم: الأسودُ بنُ عبد المطلب الأسديُّ، ابنُ عم خديجةَ، كان هو وشيعتُه إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل في سورة المطفِّفِيْن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ....

قوله: (يتغامزون)؛ أي: ويصفرون إذا رأوهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: قوله تعالى: (﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ**﴾)؛ أي: أشركوا؛ يعني: كفار قريش: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأصحابهم من مترفي مكة.

(﴿**كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾)؛ أي: من عمارٍ وخبابٍ وصُهيبٍ وبلالٍ وأصحابِهم من فقراء المؤمنين.

(﴿**يَضْحَكُونَ**﴾)؛ أي: منهم، ويستهزئون بهم.

(﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ**﴾): يعني: مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء.

(﴿**يَتَغَامَزُونَ**﴾) يعني: يتغامز الكفار، والغمز: الإشارة بالجفن والحاجب؛ أي: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء بهم.

(﴿**وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ**﴾)؛ أي: معجبين بما هم فيه، وقيل: ينقلبون بذكرهم كأنهم يتفكهون بحديثهم.

(﴿**وَإِذَا رَأَوْهُمْ**﴾): يعني: رأوا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم.

= لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣٠).

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٢).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢][1].

ومنهم: الوليد بن المغيرة، عمُّ أبي جهل، كان من عظماء قريش، وفي سَعَة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لقومه بني مخزوم: والله! لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنَّ له لحلاوة، . . . .

(﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾)؛ أي: هم في ضلال، يأتون محمداً ويرون أنهم على شيء. اهـ. خازن[2].

قوله: (الوليد بن المغيرة)؛ أي: ابن عبدالله بن عمرو بن مخزوم والدُ خالد ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (وفي سعة من العيش): قال الدحلاني: كان يطعم الناس أيام منى حيساً، وينهى أن توقد نار لأجل طعام غير ناره[3]، وينفق على الحاج أيام الموسم نفقة واسعة، وكانت الأعراب تثني عليه، وكانت له البساتين من مكة إلى الطائف، وكان من جملتها بستان لا ينقطع نفعه شتاءً ولا صيفاً، ثم إنه أصابته الجوائح والآفات في أمواله حتى ذهبت بأسرها، ولم يبق له في أيام الحج ذكر.

وكان هو المقدم في قريش فصاحة، وكان يقال له: ريحانة قريش، ويقال له: الوحيد؛ أي: في الشرف والسؤدد والجاه والرياسة، وإياه عنى سبحانه بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . . .﴾ الآيات في سورة المدثر [١١ ـ ٣٠]. اهـ[4].

قوله: (سمع القرآن مرةً) قال الخازن في تفسير سورة المدثر: إن الله تعالى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٠٦).

(٣) في الأصل: «غيره» بدل «غير ناره»، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن زيني دحلان.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣١).

وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه يعلو وما يُعلى، فقالت قريش: صبأ ـ والله ـ الوليد، لتصبأنَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه.

فتوجه وقعد إليه حزيناً، وكلّمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، ....

لما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾[غافر: ١ ـ ٣]؛ قام للنبي صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: «والله! لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً...» إلخ ما في كلام المصنف[(١)].

قوله: (وإن عليه لطلاوة): الطلاوة: ـ بالضم، والفتح لغة ـ، وعليه طلاوة؛ أي: بهجة. اهـ. مصباح[(٢)].

قوله: (وإن أسفله لمغدق): يقال: أغدق المطر يُغدِق إغداقاً فهو مغدِق، والغَدَق ـ بفتح الدال ـ: المطر الكبار. اهـ. «نهاية»[(٣)].

قوله: (فكلمه بما أحماه): قال في الخازن في تفسير سورة المدثر: انطلق أبو جهل حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: طلي).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٣٤٥).

فهل رأيتموه يُهوِّس؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ وتزعمون أنه كذَّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهمّ لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكَّر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتجّ النادي فرحاً، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدّثر مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم: . . . .

أني من أكثرهم مالاً وولداً؟! وهل يشبع محمد وأصحابه حتى يكون لهم فضل طعام؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون. . . إلخ ما في المصنف[1].

قوله: (يهوس): الهَوَس: طرفٌ من الجنون، وهو مهوَّس. اهـ. قاموس[2].

قوله: (إنه كاهن): الكاهن: هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كهنة؛ مثل: شِقّ وسَطِيح، وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن، ورَئِيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدِّماتٍ وأسبابٍ يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله [أو] حاله، وهذا يخصُّونه باسم العراف؛ كالذي يدعي معرفة الشيء المسروق، ومكانَ الضَّالَّة، ونحوهما. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (اللهم لا): تستعمل (اللهم) على ثلاثة أوجه:

١ ـ النداء المحض.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هوس).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، وما بين معكوفتين منه.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦﴾ . . . .

٢ ـ أن يذكرها المجيب تمكيناً للجواب في ذهن السامع؛ نحو: اللهم نعم، في جواب: أزيد قائم؟ وهو المراد هنا.

٣ ـ أن تستعمل دليلاً على الندرة وقلة الوقوع أو بُعده؛ نحو: أنا أزورك اللهم إذا لم تدعني، إذ الزيارة مع عدم الطلب قليلة، ومنه قول المؤلفين: اللهم إلا أن يقال كذا، [قيل]: وهي على هذين موقوفة لا معربة ولا مبنية؛ لخروجها عن النداء، فهي غير مركبة. اهـ. «حاشية الخضري على ابن عقيل»، وتمامه فيها[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾): ﴿وَحِيدٗا﴾ حال من الياء؛ أي: ذرني وحدي معه؛ فإني أكفيكه، أو من التاء؛ أي: ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو من العائد المحذوف؛ أي: ومن خلقته فريداً لا مال له ولا ولد.

وقوله تعالى: (﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾)؛ أي: مبسوطاً كثيراً، أو ممداً بالنماء.

وقوله: (﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾)؛ أي: حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته.

قيل: كان له عشرة بنين أو أكثر، كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام.

وقوله: (﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾)؛ أي: وبسطت له الرياسة والجاه العريض.

(﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾): على ما أوتيه.

(﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾): ردعٌ له عن الطمع، وتعليلٌ للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة النافعة عن الزيادة، قيل:

---

(١) انظر: «شرح الخضري على ابن عقيل» (٢/ ٧٦)، وما بين معكوفتين منه.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦][١].

ما زال بعد نزول الآية في نقصان حاله حتى هلك.

(﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾): سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهو مَثَل لما يلقى من الشدائد.

(﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾): فكر فيما تخيل طعناً في القرآن، وقدر في نفسه ما يقول فيه.

(﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾): تعجيب من تقديره استهزاءً به.

(﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾): تكرير للمبالغة.

(﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾)؛ أي: في أمر القرآن مرة أخرى.

(﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾): قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً[٢]، ولم يدر ما يقول.

(﴿وَبَسَرَ﴾) زاد في التقطيب والكلوح.

(﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾) [عن] الحقِّ أو الرسول.

(﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾) عن اتباعه.

(﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾): يروى ويُتعلَّم.

(﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾): كالتأكيد للجملة الأولى، ولذلك لم يعطف عليها.

(﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾) بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. اهـ. بيضاوي ببعض اختصار[٣].

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٧٢ ـ ٧٣)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٢) في الأصل: «طعناً»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤١٢ ـ ٤١٤).

وأنزل فيه أيضاً في سورة نٓ : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ : كثير الحلف، وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾ : حقير، وأراد به الكذاب؛ لأنه حقير في نفسه ﴿هَمَّازٍ﴾ : عيّاب طعان ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ : بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف بَعدَ ذَلك ﴿زَنِيمٍ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه، . . . .

قوله: قوله تعالى: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾)؛ أي: يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح.

(﴿مُعْتَدٍ﴾): مجاوز في الظلم.

(﴿أَثِيمٍ﴾): كثير الإثم.

(﴿زَنِيمٍ﴾): دخيل، قيل: هو الوليد بن المغيرة، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده.

وقيل: الأخنس بن شريق، أصله في ثقيف، وعداده في زهرة.

وقوله: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾) قرئ على الخبر، ومعناه: فلا تطع كل حلاف مهين؛ لأن كان ذا مال وبنين؛ أي: لا تطعه لماله وبنيه، وقرئ: ﴿أأن كان﴾ بالاستفهام، ومعناه: ألأن كان ذا مال وبنين؟

(﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾).

قوله: (﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾)؛ أي: أباطيل وترهات، واحدها: أُسطورة وإسطارة، ويقال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ : ما سطره الأولون من الكتب.

قوله: (﴿سَنَسِمُهُۥ﴾): كناية عن الإذلال والتحقير، وقيل: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ بالكي ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ : الأنف، وقد أصاب أنفَ الوليد جراحة يوم بدر، فبقي أثرها. اهـ.

ولذلك اشتقوا منه كلَّ ما يدل على العظمة، كالأنفة وهي: الحمية. فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

ومن المستهزئين: النضرُ بن الحارث العبدريُّ، من بني عبد الدار بن قصيّ. كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً للناس يحدّثهم، ويذكرهم ما أصاب مَنْ قبلهم، قال النضر: هلمّوا يا معشرَ قريش؛ فإني أَحْسَنُ منه حديثاً، ثم يحدِّث عن ملوك فارس، وكان يعلَم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأوّلين، وفيه نزل في سورة لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[لقمان: ٦ ـ ٧]، وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال الله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ . . . .

بيضاوي[(١)].

قوله: قوله تعالى: (﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾)؛ أي: لأنه كان ذهب إلى الحيرة، واشترى منها أحاديث الأعاجم، ثم قدم بها مكة، فكان يحدث بها ويقول: هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود وغيرهم[(٢)].

وقيل: نزلت في شراء المغنيات[(٣)].

قوله: (﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . . .﴾) إلخ: الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٠١، ٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ١٨ ـ ١٩).

(٣) رواه الترمذي (١٢٨٢)، من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، وقال: وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن يزيد، وضعَّفه، وهو شامي.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الحجر: ٩٥ ـ ٩٦][1].

وقد وضع الله جلَّ ذكره الوعد في صورة الماضي؛ للتحقق من وقوعه؛ لأن الآية مكية، وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة، فمنهم من قُتل كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وعقبةَ بن أبي مُعَيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة، فهلك منها؛ كأبي لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة.

به، فأهلكهم الله، وهم:

الوليد بن المغيرة؛ مرَّ بنبَّال، فتعلق بثوبه[2] سهم، فأصاب عرقاً في عقبه، فقطعه، فمات.

والعاص بن وائل؛ دخل أخمصيه شوكة، فانتفخت رجله، فمات.

والأسود بن عبد المطلب؛ عَمِيَ.

والأسود بن عبد يغوث؛ جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات.

والحارث بن قيس؛ امتخط قيحاً ومات. اهـ. نسفي[3]، وكذا في الخازن[4].

وفي البيضاوي: عدي بن قيس بدل الحارث[5].

وصنيع المؤلف يفيد أنها شاملة لأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب، وليس كذلك؛ لما نقلناه عن النسفي وغيره في أنها نزلت في هؤلاء الخمسة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٧).

(٢) في الأصل: «به»، والمثبت من «تفسير النسفي».

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٤٨).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٦٤ ـ ٦٥).

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٣٨٣).

إسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمّه حمزةَ بنِ عبد المطلب، فقد أدركته الحميّةُ عندما عيّرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقي، وغاضبه وسبّه، . . . .

إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ

قوله: (عندما عيرته بعض الجواري): في الدحلانية: أن أبا جهل مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا ـ وقيل: عند الحجون ـ، فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكرهه، فلم يكلِّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهناك مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك وتبصر، ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً بسيفه راجعاً من قنصه، فمر على تلك المولاة، فأخبرته الخبر، وقالت له: لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده هاهنا جالساً، فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه، ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل لينصروا أبا جهل، فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه أنه رسولُ الله؛ والذي يقول حق، والله! لا أفزع، فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني ـ والله ـ لقد أسمعتُ ابن أخيه شيئاً[1].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٢)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩) عن رجل من أسلم.

وقال: كيف تسبّ محمداً وأنا على دينه؟ ثُمَّ أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً، وأشدّهم غيرة على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي: أسدَ الله[1].

وكما أُوذي الرسول عليه الصلاة والسلام، أُوذي أصحابه؛ لاتّباعهم له، خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه، وتردّ كيدَ عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضاء الله، . . . .

قوله: (ثم أنار الله بصيرته): هذا تلميح لما عرض له بعد ذلك من الوسوسة، ففي الدحلانية: أن حمزة لما رجع إلى بيته قال لنفسه: أنت سيد قريش اتبعتَ هذا الصابئ، وتركتَ دين آبائك، الموت خير لك مما صنعت، ثم قال: اللهم إن كان رشداً، فاجعل تصديقي في قلبي، وإلا، فاجعل لي مما وقعت مخرجاً.

فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه بأمره، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكَّره ووعظه، وخوَّفه وبشَّره، فألقى الله في قلبه الإيمان، فقال: أشهد إنك لصادق، فأظهرْ يا ابن أخي دينك، وسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلام حمزة سروراً كثيراً؛ لأنه كان أعز فتًى في قريش[2].

قوله: (وأقواهم شكيمة)؛ أي: أعظمهم في عزَّة النفس وشهامتها. اهـ. دحلاني[3].

قال في «القاموس»: الشَّكيمة: الأنفة، والانتصار من الظلم، وفلان شديد الشَّكيمة: أَنِفٌ أبيٌّ لا ينقاد[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شكم).

فلم يفتنوا عن دينهم، بل ثبتهم الله حتى أتمّ أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص: ٥]، وقد حقق ما أراد.

ومن الذين أُوذوا في الله: بلال بن رباح، كان مملوكاً لأميّةَ بن خلف الجمحيِّ القرشيّ، فكان يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، لم يَشْغَلْهُ ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء ـ وهي الرمل الشديد الحرارة، لو وضعت عليه قطعة لحم لَنَضِجَتْ ـ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفرَ بمحمد وتعبدَ اللات والعزّى، فيقول: أحد أحد، مرَّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أمية! . . . .

قوله: (فلم يفتنوا عن دينهم)؛ أي: إلا نفر قليل، منهم: الحارث بن ربيعة ابن الأسود، وأبو القيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص ابن منبه بن الحجاج، وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم بدر. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾): المراد بهم: بنو إسرائيل حين أخرجهم فرعون من مصر حيث تفضل الله عليهم بإنقاذهم من بأس فرعون.

وقوله تعالى: (﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾)؛ أي: مقدمين في الدارين.

(﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾) لما كان في ملك فرعون وقومه.

قوله: (كان يخرج به وقت الظهيرة)؛ أي: بعد أن يجيعه ويعطشه يوماً وليلة. اهـ. دحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١).

أما تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته، فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه وأعتقه، فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾: أميةُ بنُ خلف ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾: الصدِّيق ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ . . . .

قوله: (فاشتراه منه): قال له: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به؟ قال: قبلتُ، هو لك، فأعطاه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه. اهـ. دحلاني[1].

ويروى: أنه لما ساوم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أميةَ بن خلف. . . إلخ ما هو على هامش نسخته نقلاً عن الدحلانية[2].

قوله: (﴿تَلَظَّىٰ﴾): تتلهب.

(﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾): لا يلزمها مقاسياً شدَّتها.

قوله: (﴿يَتَزَكَّىٰ﴾)؛ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياءً ولا سُمعة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٣)، والخبر المشار إليه: لما ساوم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أمية بن خلف في بلال؛ قال أمية لأصحابه: لألعبن بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد، ثم تضاحك وقال له: أعطني عبدك قسطاس، فقال أبو بكر: إن فعلتُ تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تعطيني معه امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تعطيني ابنته مع امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تزيدني مئتي دينار، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنت رجل لا تستحي من الكذب، قال: واللات والعزى لئن أعطيتني لأفعلن، فقال: هي لك، فأخذه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١] **بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله. وقد نبّه الله جلّ ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصدّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وقد أعتق غيرَ بلال جماعةً من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليهم[١].**

ومنهم: حَمَامَةُ أُم بلال، وعامرُ بن فُهَيرة، كان يعذب حتى لا يدري ما يقول، وأبو فُكَيهة، كان عبداً لصفوانَ بنِ أمية بن خلف[٢].

ومنهم: امرأة تسمى: زنيرة، عذّبت في الله حتى عميت، . . . .

قوله: قوله تعالى: (﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ . . .﴾) إلخ: قال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ . . .﴾ إلخ الآية[٣].

قوله: (وأبو فكيهة): أسلم أبو فكيهة حين أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فمر به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد أخذه صفوان في شدة الحر مقيداً بالرمضاء، فوضع على بطنه صخرة، فأخرج لسانه، وأبيُّ بنُ خلف عم صفوان يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمداً فيخلصه بسحره، فاشتراه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فأعتقه. اهـ. دحلاني[٤].

قوله: (زنيرة): زِنِّيرة؛ كـ (سِكِّينة): مملوكة رومية صحابية. اهـ. قاموس[٥].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٨ ـ ٤٨١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٢).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٤).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زنر).

فلم يزدها ذلك إلا إيماناً، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما أتى به محمد خيراً، ما سبقونا إليه، أفتسبقنا زِنِّيرةُ إلى رشد؟ فأنزل الله في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف: ١١].

وممن أعتق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد شرائه: أم عبيس، وكانت أمةً لبني زهرة، وكان يعذبها الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ[(١)].

وهي في اللغة: الحصاة الصغيرة.

ولما اشتد الضرب والعذاب على زنيرة، عميت وذهب بصرُها، فقال المشركون: ما أصاب بصرَها إلا اللاتُ والعزى.

وجاءها أبو جهل ـ لعنه الله ـ، وقال لها: إنما فعل بك ما ترين اللات والعزى، وتبعه كفار قريش على ذلك، فقالت لهم: والله! ما هو كذلك، وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يرد عليَّ بصري، فردَّ الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فأعتقها. اهـ. دحلاني[(٢)].

قوله: (في سورة الأحقاف): جمع (حِقْف)، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن.

قوله: قوله تعالى: (**﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ﴾**): ظرف لمحذوف مثل ظهر عنادهم.

وقوله: (﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾): مسبب عنه؛ أي: كذب متقادم، وهو كقولهم: أساطير الأولين.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥).

وممّن عُذب في الله: عمار بن ياسر، وأخوه، وأبوه، وأمه، كانوا يعذبون بالنار، فمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «صبراً آلَ ياسر، فموعدُكم الجنة، اللهمّ اغفر لآل ياسر وقد فعلت»[1].

أما أبو عمار وأمه، فماتا تحت العذاب ـ رحمهما الله ـ، وأما هو، فثقل عليه العذاب، فقال بلسانه كلمةَ الكفر؛ فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف، ويلبسه إيّاها، فقال المسلمون: كفر عمار، فقال عليه الصلاة والسلام: «عمارٌ ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه»، وأنزل الله في شأنه استثناءً في حكم المرتد، فقال جلّ ذكره في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل: ١٠٦][2].

قوله: قوله تعالى: (﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ . . .﴾) إلخ: ﴿مَن﴾ شرط مبتدأ حذف جوابه؛ لأن جواب ﴿مَّن شَرَحَ﴾ دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب. اهـ. نسفي[3].

قال البيضاوي: روي: أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسميةَ على الارتداد، فربطوا سميةَ بين بعيرين، ووجئ بحربة في قُبلها، وقالوا: إنك

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٦٢)، من حديث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وروى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٠) الجزء الأول من الحديث عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٧٢).

وممّن أوذي في الله: خبَّاب بنُ الأرَتِّ، سُبي في الجاهلية، فاشترته أُم أنمار، وكان حداداً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يألفه قبل النبوّة، فلما شرّفه الله بها، أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار، فتأتي بالحديدة المحمّاة، فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً.

وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. . . . .

أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً، فقيل: يا رسول الله! إن عماراً كفر، فقال: «كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمارٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه، فقال: «ما لك؟ إن عادوا لك، فعُد لهم بما قلت». اهـ[1].

قوله: (فتجعلها على ظهره): الصواب: على رأسه، وتتمة القصة كما في الدحلانية: فشكى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم انصر خباباً»، فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكانت تأمر خباباً فيأخذ الحديدة، فيكوي بها رأسها. اهـ[2].

وفيها: وعن خباب أيضاً يحكي عن نفسه قال: لقدر رأيتني يوماً وقد أوقد لي نار، ووضعوها على ظهري، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهري؛ أي: دهنه[3].

قوله: (وجاء خباب. . .) إلخ الحديث: قال الحلبي: رواه الإمام البخاري

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٢٢)، والحديث المذكور رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٥) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١)، والخبر المذكور أورده ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ١٤٢) عن أبي صالح.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١)، والأثر رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٤).

وهو متوسدٌ بُرْدَةً في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه الصلاة والسلام محمرّاً وجهُه فقال: «إنه كان مَنْ قبلكم ليمشط أحدُهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشقّ، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموتَ لا يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه».

قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها أعقل العقلاء، وأنبل النبلاء، قوة منتظرة، أو سعادة مستقبلة، اللهمّ إلا أن ذلك وحي يوحى إليه، ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ . . .

عن خباب بن الأرت، وفيه زيادة: وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، بعد قوله: في ظل الكعبة، وزيادة: «ما يصرفه ذلك عن دينه» بعد قوله: «من لحم وعصب»[1].

قوله: (اللهم إلا أن): الصواب أن يقول: اللهم إن ذلك إلا وحي يوحى إليه، ويظهر أن السهو من الطبع.

قوله: قوله تعالى: (﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾): في الخازن: عن ابن عباس: أراد بالناس: الذين آمنوا بمكة: سلمةَ بنَ هشام، وعياشَ بنَ [أبي] ربيعة، والوليدَ بنَ الوليد، وعمار بن ياسر، وغيرهم[2].

وقوله تعالى: (﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾)؛ أي: بل يمتحنهم بمشاق التكاليف؛ كالمهاجرة، والمجاهدة، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣)، والحديث رواه البخاري (٣٨٥٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٧٥).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وممَّن أُوذي في الله: أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، ولما اشتد عليه الأذى، أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى برْكَ الغِماد، فلقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها: القَارَةُ ـ، فقالَ: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبدَ ربي، فقال ابن الدغنة: مِثْلُك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتَصِل الرَحم، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل ابن الدغنة معه، وطاف في أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لا يُخْرَجُ مثلُه، أتخرِجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، . . .

المضطرب فيه. وتمامه في البيضاوي[1].

وقوله تعالى: (﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا . . .﴾) إلخ: المعنى: أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه. اهـ. منه[2].

قوله: (الدغنة): ـ بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون ـ واسمه الحارث.

و**(القارة)**: قبيلة مشهورة كان يضرب بهم المثل في قوة الرمي، ومن ثم قيل لهم: رماة الحَدق، لا سيما ابن الدغنة.

والقارة: أكمة سوداء نزلوا عندها، فسُمُّوا بها.

قوله: (إنك تكسب المعدوم. . .) إلخ: قال الحلبي: تأمل فيما وصف به ابنُ الدغنة أبا بكر بين أشراف قريش بتلك الأوصاف الجليلة المساوية لما وصفت به خديجةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولم يطعنوا فيها، مع ما هم متلبسون به من

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٧).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٨).

ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق؟

فلم تُكذِّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن، فإِنَّا نخشى أن يفتِن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بِفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان رجلاً بكّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشرافَ قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، ....

عظيم بغضه ومعاداته بسبب إسلامه، وإن هذا منهم اعتراف؛ أي: اعتراف بأن أبا بكر كان مشهوراً بينهم بتلك الأوصاف شهرة تامة، بحيث لا يمكن لأحد أن ينازع فيها، ولا أن يجحد شيئاً منها، وإلا لبادر إلى جحدها بكل طريق أمكنهم؛ لما تحلوا به من قبيح العداوة له بسبب ما كانوا يرون منه من صدق موالاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعظيم محبته له[1].

قوله: (فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة)؛ أي: لم يردوا جواره.

ورُوي: فيتقذف ـ بالتاء الفوقية ـ؛ أي: يتدافعون على أبي بكر، فيقذف بعضهم بعضاً فيتساقطون، ورُوي: فيتقصف؛ أي: يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر، قال الخطابي: وهو المحفوظ. اهـ. «شرح مختصر البخاري» للشرقاوي[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٥).

(٢) انظر: «فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوي (٣/ ١٠٣). وانظر: «أعلام الحديث» للخطابي (٣/ ١٦٩٠).

فقالوا: إنَّا كنَّا قد أجَرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره، فعل، وإن أبى إلّا أن يعلن ذلك، فَسَلْه أن يردّ إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَكَ، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان.

فأتى ابنُ الدغنة أبا بكر، فقال: لقد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرْجع إليَّ ذمتي؛ فإني لا أُحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردُّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله. رواه البخاري[١].

وكان ذلك سبباً لإيصال أَذًى عظيمٍ إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (أن نخفرك): في «المصباح»: خفرتُ بالرجل من باب ضرب: غدرتُ به، وأخفرتُه ـ بالألف ـ: نقضتُ عهده[٢].

قوله: (عقدت له): في الدحلانية زيادة: (ذمَّةً) بعد قوله: عقدت له[٣].

قوله: (وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر...) إلخ: قال الحلبي: ولما رد جوار ابن الدغنة، لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ألا ترى ما صنع هذا السفيه؟ فقال له: أنت فعلت بنفسك، فصار أبو بكر يقول: ربِّ ما أحلمك! قال ذلك ثلاثاً. اهـ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٧، ٣٩٠٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: خفر).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٥).

وبالجملة: فلم يخل أحد من المسلمين من أَذِيّةٍ لحقَتْه، ولكن كل ذلك ضاع سدًى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم؛ فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله، فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان، فرأوا كل شيء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجْدِهم نفعاً، بل كلما زادوا المسلمين أذًى، ازداد يقينُهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعةَ العبشميُّ من بني عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان سيداً مطاعاً في قومه ـ: يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد فأُكلِّمُه وأعرضُ عليه أموراً علَّه يقبل بعضَها، فنعطيه إياها، ويكفَّ عنّا؟ فقالوا: يا أبا الوليد! فقمْ إليه فكلِّمْه، فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد، . . . .

قوله: (اجتمعوا للشورى): كان ذلك حين أسلم حمزة ـ رضي الله عنه ـ، ورأوا أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، وتفصيل القصة في تفسير الخازن في سورة فصلت نقلاً عن البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ[1].

قوله: (ألا أقوم لمحمد)؛ أي: وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد وحده. حلبي[2].

ثم قال: وفي رواية: إن نفراً من قريش اجتمعوا وقالوا: ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيه، فقالوا: انظروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل، فقالوا: لا نعلم أحداً غير عتبة[3].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٨٤ ـ ٨٥). وانظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١١٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦).

وقال: يا بن أخي! إنك منّا حيث قد علمتَ من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ أحلامهم، وعِبتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: «قل يا أبا الوليد أسمع».

فقال: يا بن أخي! إن كنتَ تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تُريد شرفاً؛ سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونك، وإن كنتَ تُريد مُلكاً؛ مَلَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك؛ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد فرغتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصِّلت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ . . . .

قوله: (وكفرت من مضى من آبائهم): ذكر الحلبي بعد هذا أن من جملة ما قاله عتبة للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد منا إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى، فاسمع مني. . . إلخ ما ذكره المصنف هنا[1].

قوله: (﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾): ميزت، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد وغيرِ ذلك.

وقوله: (﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾)؛ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ....

الآيات المفصَّلة المبينة بلسانهم العربي.

وقوله: (﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾)؛ أي: لا يقبلون.

وقوله: (﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾): أغطية، جمع كِنان، وهو الغطاء.

وقوله: (﴿حِجَابٌ﴾)؛ أي: ستر، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده.

وقوله: (﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾)؛ أي: فاعمل على دينك وفي إبطال أمرنا، إننا عاملون على ديننا وفي إبطال أمرك[1].

وقوله: (﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾) لست ملكاً ولا جنيًّا لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبو الأسماع والعقول عنه، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل.

وقوله: (﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾)؛ أي: في أفعالكم متوجهين له، أو فاستووا لله بالتوحيد والإخلاص في العمل[2].

وقوله: (﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾) استفهام بمعنى الإنكار، وذكر عنهم شيئين: الكفر، وإثبات الشركاء، والمعنى: كيف نجوز جعل هذه الأصنام أنداداً

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٨٣).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٠٦).

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ . . . .

مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين الأحد والإثنين[1].

وقوله: (﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾): في تتمة أربعة أيام؛ كقولك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر؛ أي: تتمة خمسة عشر، ولا بد من هذا التقدير، وإلا تكون الأيام ثمانية.

وقوله: (﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾) معناه: سواء لمن سأل عن ذلك؛ أي: فهذا الأمر سواء لا زيادة فيه ولا نقصان جواباً لمن سأل: في كم خلقت الأرض؟

وقوله: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾)؛ أي: قصد نحوها، من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي[2] على غيره.

وقوله: (﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾)؛ أي: فأحكم خلقهن، وأتقنَ أمرهن.

وقوله: (﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾) قيل: خلق السماوات يوم الخميس، والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة.

قوله: (﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾)؛ أي: ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات ونحو ذلك.

وقوله: (﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾)؛ أي: وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً، وقيل: مفعول على المعنى؛ كأنه قال: وخصصنا سماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً.

---

(١) في الأصل: «والخميس»، والتصويب من «تفسير النسفي» (٤/ ٨٤).

(٢) في النسختين: «يكون»، والتصويب من «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٠٨).

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٤].

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يَكُفَّ عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله! لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطُّ، والله! ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر، يا معشر قريش! أطيعوني فاجعلوها لي،....

وقوله: (﴿صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾): أصل الصاعقة: رعد معه نار، والمراد بها: عذاب شديدُ الوقع كأنه صاعقة عاد وثمود.

وقوله: (﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾)؛ أي: أتوهم من كل جانب، وعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض.

وقوله: (﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾) مفعولُ ﴿شَآءَ﴾ محذوف؛ أي: لو شاء إرسالَ الرسل.

وقوله: (﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾)؛ أي: زعمكم.

وقوله: (﴿كَٰفِرُونَ﴾)؛ أي: إنا لن نؤمن بكم إذ أنتم بشر ولستم بملائكة.

قوله: (أن يكف عن ذلك) قال الحلبي: ثم انتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك»[1].

قوله: (فلما رجع عتبة): قال الحلبي: لما قام عتبة إلى أصحابه، قال بعضهم لبعض يحلف: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧)، والحديث المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨) من حديث محمد بن كعب مرسلاً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧).

خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله! ليكونَنَّ لكلامه الذي سمعت نبأ، فَإِنْ تُصِبْهُ العرب، فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فعزُّه عزُّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيي[1].

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم، ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ . . . .

قوله: (فعزه عزكم) قبلَها: فملكُه ملككم، وبعدها: وكنتم أسعدَ الناس به[2].

قوله: (عرضوا عليه أن يشاركهم في عبادتهم...) إلخ: قالوا له: تعبد آلهتنا اللاتَ والعزى سنة، ونعبد إلهك سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبده خيراً مما نعبد، كنت أخذتَ منه بحظك، وإن كان الذي نعبده خيراً مما تعبد، كنا قد أخذنا منه بحظنا، فقال لهم: «حتى أنظر ما يأتي من ربي»، فجاء الوحي بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولما نزلت، غدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم، فأيسوا[3].

قوله: (﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾): ﴿لَآ﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال؛ كما أن، ﴿مَآ﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.

قوله: (﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾) ذكر بلفظ ﴿مَآ﴾ ليتقابل اللفظان، أو

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣١)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وسعيد بن مينا مولى البختري.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون: ١ ـ ٦].

فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله، فأيسوا منه، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فيأتي بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيَ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾[يونس: ١٥][1].

المراد به الصفة؛ أي: لا أعبد الباطلَ، ولا تعبدون الحق[2].

وقوله: (﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾)؛ أي: لكم كفرُكم، ولي إخلاصي وتوحيدي، والمقصود منه: التهديدُ، فهو كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[فصلت: ٤٠]، وهذه الآية منسوخة بآية القتال[3].

قوله تعالى: (﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيَ . . .﴾) إلخ الآية: أول الآية: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ . . .﴾ إلخ.

قال البيضاوي: أي: ائتِ بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا، ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيلزموه.

وقوله: (﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيَ﴾)؛ أي: ما يصح لي (﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾): من قِبل نفسي، وإنما اكتُفي بالجواب عن التبديل؛ لاستلزام امتناعه امتناعَ الإتيان بقرآن آخر[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٦١).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٨٦).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٨٩).

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كُبراء قريش وأشرافهم يتألفهم، ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين، إذ أقبل عليه عبدالله ابنُ أم مكتوم الأعمى ـ وهو ممّن أسلموا قديماً ـ والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بالقول، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم، فقال له عبدالله: يا رسول الله! علِّمني مما علّمك الله، وأكثرَ عليه القولَ، فشقّ ذلك على الرسول، وكره قطعه لكلامه، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف، فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله أوَّلَ سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ ....

قوله: (والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بالقوم): قال الخازن: هم عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأُبي بن خلف، وأخوه أمية. اهـ[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾) ذكر الأعمى؛ للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقوم، والدلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق.

وقوله: (﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾)؛ أي: يتطهر من الآثام بما يتلقف منك، وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

وقوله: (﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾)؛ أي: أو يتعظ فتنفعه موعظتك.

وقوله: (﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾): تتعرض بالإقبال عليه، وأصله تتصدى.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٤).

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠].

فما عبس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها في وجه الفقير، وكان إذا كان أقبل عليه عبدالله بنُ أم مكتوم يقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»[١].

ولمّا رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تُقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا في باب آخر، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا، وقالوا: يا محمد! إن كنت صادقاً، فأرِنا آيةً نطلبها منك، وهي أن تشقّ لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشقَّ القمر فرقتين، فقال رسول الله: «اشهدوا».

وقوله: (﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾)؛ أي: وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه عن الإعراض عمن أسلم، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله: (﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾): يسرع طالباً للخير (﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾) اللهَ، أو أذيةَ الكفار (﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾): تتشاغل. اهـ. بيضاوي[٢].

قال الخازن: واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين، وكان من المهاجرين الأولين، وقيل: قتل شهيداً بالقادسية، قال أنس: رأيته يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء. اهـ[٣].

قوله: (وانشق القمر فرقتين. . .) إلخ: في البخاري: بينما نحن مع

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ١٣١). وأورده الديلمي في «الفردوس» (٦٥١٠) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩٠).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٤)، وقول أنس ـ رضي الله عنه ـ رواه عبد الرزاق الصنعاني في «تفسيره» (٣/ ٣٤٨).

. . . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى، إذا انفلق القمر فلقتين: فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشهدوا»[1].

وعن جبير بن مطعم: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم. أخرجه الترمذي[2]، وزاد غيره: فكانوا يتلقَّون الركبان[3]، فيخبرونهم بأنهم قد رأوه، فيكذبونهم. اهـ. خازن[4].

قال الحلبي: وفي لفظ: فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه، فأخبروهم أنهم رأوه منشقاً، فعند ذلك قالوا: هذا سحر مستمر؛ أي: مُطَّرد، وفي لفظ: قالوا: هذا سحر أسحر السحرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾[القمر: ١ ـ ٢]، وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقاً أهل مكة، بل جميع أهل الآفاق.

وبه يرد قول بعض الملاحدة: لو وقع انشقاق القمر لاشترك أهل الأرض كلهم بمعرفته، ولم يختص بها أهل مكة.

ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة خاصة، فاختصت رؤيته ممن اقترح وقوعه، ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض، ولا بقول بعضهم: إن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦٩، ٤٨٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٢٨٠٠)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٨٩).

(٣) في النسختين: «الركاب»، والمثبت من «تفسير الخازن»، و«جامع الأصول».

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢١٧)، والزيادة المذكورة أوردها رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (١١/ ٣٩٨).

وهذه القصة رواها عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو من السابقين الأوّلين، رُويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه[1] ـ وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر. وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾. فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى، قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢].

طائفة في جنح ليلة ومعظمُ الناس نيام[2].

قوله: (حتى صار الحديث كالمتواتر...) إلخ: في كتاب «المتناثر في الحديث المتواتر» لنزيل دمشق الشام ومحدثها الآن السيد الشيخ محمد الكتاني ـ حفظه الله وأطال بقاءه ـ ما ملخصه: إن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق. ورواه من الصحابة: علي، وابن مسعود، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس.

وقال القرطبي: رواه العدد الكثير من الصحابة، ونقله عنهم الجم الغفير من التابعين فمن بعدهم[3].

وفي «الشفا»: أما انشقاق القمر، فالقرآنُ نص بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلافُ أخرقَ منحلِّ عرى الدين، ولا يُلتفَت إلى سخافة مبتدع

---

(١) رواه البخاري (٤٨٦٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

(٣) انظر: «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» لمحمد الكتاني (ص: ٢١١ ـ ٢١٢). وانظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبي (٧/ ٤٠٣).

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا العنت والعناد، فمنها: أن قالوا كما في سورة الإسراء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾[الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]**، ولم يجبهم الله إلا بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾** [الإسراء: ٩٣]**؛ لأن الله علم ما تُكِنُّه جوانحُهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات؛ كما قال جلّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[الأنعام: ١٠٩]**، . . . .**

يلقي الشك في قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه. اهـ[1].

قوله: (﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ . . .﴾) إلخ: يعنون قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[سبأ: ٩]، و﴿كِسَفًا﴾ ـ بفتح السين ـ؛ أي: قطعاً.

وقوله: (﴿قَبِيلًا﴾)؛ أي: كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته.

وقوله: (﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾)؛ أي: من ذهب.

وقوله: (﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾): فيه تصديقك، وأمرنا فيه باتباعك.

وقوله: (﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾)؛ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليَّ، إنما هو إلى الله. اهـ. نسفي[2].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥٥).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٣٠٠).

وكيف يرجى الخير ممّن قالوا كما في سورة الأنفال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. **ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إليه، وهذه سنَّة من سُنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً، لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحلّ بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾**[الإسراء: ٥٩].

قوله: (﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا . . .﴾) إلخ الآية: روي: أن النضر بن الحارث لما قال: إن هذا إلا أساطير الأولين؛ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ويلك! إنه كلام الله»، فقال: ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ . . .﴾ إلخ الآية[1].

والمراد منه: التهكم، وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً.

قوله: قوله تعالى: (﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ . . .﴾) إلخ: المراد بالآيات: التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى، وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا، وسنةُ الله في الأمم أن من اقترح منهم آية، فأجيب إليها ثم لم يؤمن: أن يعاجَل بعذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا، وقد قضينا أن لا نستأصلهم؛ لأن فيهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

وقد ذكر من تلك الآيات ـ التي اقترحها الأولون، ثم كذبوا بها لما أُرسلت، فأُهلكوا ـ واحدةً، وهي ناقة صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾[الإسراء: ٣]؛ أي: جحدوا أنها من عند الله، فعاجلناهم بالعقوبة،

---

(١) أورده البيضاوي في «تفسيره» (٣/ ١٠٤) باللفظ المذكور. وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٢) عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: أن الآية المذكورة نزلت في النضر بن الحارث.

وقد حصل للمسيح عليه السلام: أنه لمّا وقفَ أمام هيرودس، طلب منه آية، فلم يُجِبْهُ إلى طلبه، فلما رأى ذلك، سخر منه، وردّه إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه، ويتمنى لقاءه، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

هذا، ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه . . . .

وآثارُ هلاكهم قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. اهـ. نسفي وخازن وبيضاوي[1].

قوله: (وقد حصل للمسيح عيسى عليه السلام. . .) إلخ: خلاصة القصة: أن الكهنة والكتبة جاؤوا بعيسى إلى بيلاطس، وابتدؤوا يشتكون عليه قائلين: إنا وجدنا هذا يفسد الأمة، فقال بيلاطس لهم: إني لا أجد علةً في هذا الإنسان، فقالوا: إنه يهيج الشعب، وهو يُعَلِّم في اليهود مبتدئاً من الجليل إلى هنا، فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل: هل الرجل جليلي؟ وحين علم أنه من سلطنة هيرودس، أرسله إليه إذ كان تلك الأيام في القدس.

وأما هيرودس، فإنه لما رأى يسوع، فرح جدّاً؛ لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه، وترجى أن يرى آية تُصْنَع منه، وسأله بكلام كثير، فلم يجبه بشيء، فرده حينئذ إلى بيلاطس. اهـ.

والقصد من سياق القصة: أن يبين أنه قد سئل غيرُ نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً من الآيات فلم يجب؛ لأن ظهور الآيات راجع لمشيئة الله تعالى، لا لما طلبه المتعنتون.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٩١)، و«تفسير الخازن» (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٥٣).

حيث قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾[الأنبياء: ٦٨] كما في سورة الأنبياء. أما هؤلاء، فازدادوا بالأذى على كل مَن أسلم رجاء صدّهم عن اتّباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يتركوا باباً إلا ولجوه، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تفرقوا في الأرض؛ فإن الله سيجمعكم»، فسألوه عن الوجه، فأشار إلى الحبشة[1].

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهزَ ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه الصلاة والسلام، وهذه هي أول هجرة من مكة، . . . .

قوله تعالى: (﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾)؛ أي: الانتقام لها.

هجرة الحبشة الأولى

قال الدحلاني: روى ابن إسحاق: أن سبب الهجرة إلى الحبشة: أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين يؤذون أصحابه، ولا يستطيع أن يكفهم عنهم، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرجوا إليها مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة[2].

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص: ٥٠) من حديث عروة بن الزبير مرسلاً، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٢٥٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩١ ـ ٤٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٦٤).

وعدّة أصحابها عشرةُ رجال، وخمسُ نسوة، وهم: عثمان بن عفان وزوجه رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة وزوجه أُم سلمة، وأخوه لأمه أبو سَبْرة بنُ أبي رُهْم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سُهَيل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسُهَيْل بن البيضاء، والزبير بن العوّام، وجُلّهم من قريش، وكان عليهم ـ فيما روى ابن هشام ـ عثمانُ بن مظعون، فساروا على بركة الله، ولما انتهوا إلى البحر، استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذًى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا القليل[1].

إسلام عمر

وفي ذلك الوقت أسلم الشهمُ الهمام عمرُ بنُ الخطاب العدويُّ القرشيُّ بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم.

ثم قال: وخرجوا مشاة متسللين سرّاً، ثم استأجروا سفينة بنصف دينار، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا إلى البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً.

ولما وصلوا الحبشة، أكرمهم النجاشي، وأقاموا عنده آمنين، وقالوا: جاورنا بها خير جار على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه[2].

إسلام عمر رضي الله عنه

قوله: (وفي ذلك الوقت)؛ أي: بعد خروج من خرج مِنْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

قالت ليلى ـ إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها ـ : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أُريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة، إذا أنا به، فقال لي : إلى أين يا أُم عبدالله؟ فقلت : قد آذيتمونا في ديننا، نذهبُ في أرض الله حيث لا نؤذى، فقال : صحبكم الله، فلما جاء زوجي عامر، أخبرته بما رأيت من رِقَّةِ عمر، فقال : ترجين أن يُسْلم؟! والله! لا يسلم حتى يسلم حمارُ الخطاب[1].

وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قال قبيل إسلامه : «اللهم أعِزّ الإسلام بعمر»[2].

وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها. وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام؛ فقد قال عبدالله بنُ مسعود من رواية البخاري : . . . .

قال ابن إسحاق : أسلم عمر ـ رضي الله عنه ـ سنة ست من المبعث، وقيل : سنة خمس، وكان المسلمون تسعة وثلاثين رجلاً، فكمل الله به الأربعين[3].

قوله : (وقد كان إسلامه بدار الأرقم) : قال الدحلاني في سبب إسلامه ما خلاصته : كان عمر يحدث عن إسلامه، قال : لقيني رجل من قريش فقال :

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥/ ٢٩) عن ليلى بنت أبي حثمة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٥٦) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٦٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر : «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٥٦).

تزعم أنك هذا ـ أي: أنك الصلب القوي في دينك ـ وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، وهذه أختك قد صبأت ـ وكانت تحت سعيد بن زيد، واسمها فاطمة ـ، فذهب إلى بيتها، فقال لها: يا عدوةَ نفسها! بلغني أنك صبأتِ، ثم ضربها فقالت: أتضربني يا عدو الله على أن أوحد الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك، فما كنت فاعلاً فافعل.

فاستحييتُ حين رأيت الدم، فقمت وجلست على السرير وأنا مغضَب، فإذا كتاب في ناحية البيت، فأخذت الصحيفة، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وفي رواية: فيها: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] ـ ويُجمع بين الروايتين تعددُ الصحف ـ، ولما وصلتُ إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]؛ فعظمت في صدري، وقلت: من هذا فرت قريش، ولما بلغ إلى قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، قال: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره، دلوني على محمد صلى الله عليه وسلم، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم وأسلمت[1].

وسبب تسميته بالفاروق ـ كما ذكره الطبري في «الرياض النضرة» ـ: عن ابن عباس قال: سألت عمر: لأي شيء سُمِّيت الفاروق؟ فقال: أسلم حمزةُ قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام، فقلت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، فما في الأرض نسمة هي أحبُّ إلي من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أين رسول الله؟ قالت أختي: هو في دار الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار، وحمزةُ في أصحابه جلوس في الدار، ورسولُ الله في البيت، فضربت

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، والخبر المذكور رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٤١٠ ـ ٣٤١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٩ ـ ٣٠).

«ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر»[1]؛ فإنه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد، ففعل، وقد أدرك الكفارَ كآبةٌ شديدة حينما رأوا عمر أسلم، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه، فجاء العاص ابن وائل السَّهْمي وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر، وعليه حُلَّة حِبَرَة، ....

الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثوبه، ثم نتره نترة، فما تمالك أن وقع على ركبتيه، فقال: «ما أنت بمنتهٍ يا عمر؟» قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، قال: فقلت: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده! إنكم على الحق إن متم وإن حييتم»، قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق! لنخرجن، فأخرجناه صلى الله عليه وسلم في صفين: حمزةُ في أحدهما، وأنا في الآخر، ولي كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليَّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلُها، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: الفاروق، فرَّق الله بي بين الحق والباطل[2].

قوله: (حبرة): على وزن (عِنَبة): ثوب يماني من قطن أو كتان مخطَّط، يقال له: بردٌ حِبَرَةٌ على الوصف، وبردُ حِبَرةٍ على الإضافة. اهـ. مصباح[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٤).

(٢) انظر: «الرياض النضرة» لمحب الدين الطبري (٢/ ٢٧٢)، والحديث رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٤٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٠ـ ٣١).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: حبر).

وقميص مكفوف بحرير، فقال لعمر: ما بالُكَ؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إنْ أسلمتُ، قال: لا سبيل إليك، فأنا لك جار، فأمِنَ عمر، وخرج العاص، فوجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابنَ الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه، فرجع الناس من حيث أتوا[1].

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها؛ لأنهم قليلو العدد ـ وفي الكثرة بعضُ الأُنس ـ وأَضِف إلى ذلك: أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة.

وقد أُولع بعض المؤرخين بحكاية . . . .

وقوله: (وقميص مكفوف): قال في «القاموس»: كفَّ الثوب كفّاً: خاط حاشيته، وهو الخياطة الثانية بعد الشَّلِّ. اهـ[2].

قوله: (فرجع الناس من حيث أتوا): قال الدحلاني بعد هذه العبارة: ثم رد عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى العاص جواره، قال: فما زلت أضرب وأُضرب حتى أعزَّ الله الإسلام. اهـ[3].

رجوع مهاجري الحبشة

---

(1) رواه البخاري (٣٨٦٤) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤).

(2) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كفف).

(3) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٠)، والخبر المذكور رواه البزار في «مسنده» (٢٧٩).

يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلامُ قومهم حينما قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم سورة النجم، وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[النجم: ١٩ ـ ٢٠]**: تلك الغرانيق ـ جمع غرنوق: وهي الطيور، ويراد بها: الملائكة ـ، العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً**[(١)]**.**

قوله: (﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾): ﴿ٱللَّٰتَ﴾: اسم لصنم كانت لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعيدها قريش.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: قيل: شجرة، وقيل: صنم وضعه سعدُ بنُ ظالم الغطفاني في نخلة، وهو موضع على ليلة من مكة، وكانت العزى لقريش وجميعِ بني كنانة.

(﴿وَمَنَوٰةَ﴾): هي صنم للأوس والخزرج ومَنْ دان دينهم.

وسيأتي زيادة بيان لهذه الأصنام بعد فتح مكة.

ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حقَّ الرؤية، وإذا رأيتموها، علمتم أنها لا تصلح للعبادة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع.

قوله: (﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾): صيغتان للتأكيد؛ كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقيل: ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ نعتٌ لـ (مناة)، و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ للثلاثة.

وقيل: هي صفة ذم، كأنه تعالى قال: ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة.

قوله: (جمع غُرنُوق): هو طير طويل العنق، وهو الكركي أو يشبهه، وهذه الطيور تعلو وترتفع في السماء، فشبهت الأصنام بها في علو القدر وارتفاعه. اهـ. حلبي[(٢)].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٤٧ ـ ١٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦).

وهـذا ممـا لا تجـوز روايتُـه إلا من قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صـحته، وهـا نحـن أُولاء نسـوق لـك أدلـة النقـل والعقل على بطلان ما ذكر.

أما الحديث، فسندُه ومتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضي عياض في «الشفا»: «لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سـليم»، وأمـا المتن، فليس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا المشـركون مجـانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم، ويجوز ذلك عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[النجم: ٢٣]. فـالكلام غير مُنْتَظم، ولو كان ذلك قد حصل، لاتَّخذه الكفار عليه حجة يحاجّونه بهـا وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، . . . . .

قوله: (نسوق إليك أدلة النقل والعقل. . .) إلخ: قال الحلبي: هـذه القصـة طعن في صحتها جمع، وقالوا: إنها باطلة وضعها الزنادقـة، ومـن ثـم أسـقطها القاضي البيضاوي، ومن جملة المنكرين لهـا القاضي عياض؛ فقـد قـال: هـــذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب.

وقال البيهقي: رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم.

وقال الإمام النووي نقلاً عنه: وأما ما يرويه الأخبـاريون والمفسـرون: أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جـرى علـى لسـانه [من الثناء][1] على آلهتهم، فباطل لا يصح منه شيء، لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إلهٍ غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله صـلى الله عليه وسلم.

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

فكيف بهذه؟ وليس ذلك القيل أقلَّ من تحويل القبلة إلى الكعبة، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سمَّاهم الله سفهاء، وأنزل فيهم في سورة البقرة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[البقرة: ١٤٢]. ولكن لم يُسمع عن أي واحد من رجالاتهم، والمتصدرين للعناد منهم أن قال: ما لك ذَممتَ آلهتنا بعدَ أن مدحتها؟ وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف، وبذلِ مُهج الرجال[1].

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة، ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة، يقولون أثناء كلامهم: إن الهجرة كانت في رجب، والرجوع كان في شوال، ونزول سورة النجم كان في رمضان، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد، والمتأمّل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإيابِ منها، . . . . . .

ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك، وإلا، يلزمُ عدمُ الوثوق بالوحي.

وقال الفخر الرازي: هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها، قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤]، والشيطان لا يجترئ أن ينطق بشيء من الوحي[2].

قوله: (وهذا قالوا فيه ما قالوا): قيل: نزلت في مشركي مكة، وذلك أنهم قالوا: قد تردد على محمد أمره، واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم، لعله يرجع إلى دينكم. اهـ. خازن[3].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٨ ـ ٩).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٨٦ ـ ٨٧).

لأنه لم يكن ـ إذ ذاك ـ مراكبُ بخارية تسهّل السير في البحر، ولا تلغـراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابةَ بعد ذلك إن قلنا: إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين، ولكن الحمد لله، فقد منَّ علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مُفتـرٍ كذاب؛ ففي السـورة نفسـها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] والـذي يلقيـه الشيطان من أقبح ما يروى، فكيف يقوله عليـه الصـلاة والسـلام، أو يجـري على لسانه مما يثبت الشكوك في الوحي؟ الأمر الذي يريـده السـفهاء، رد الله كيدهم في نحرهم.

والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السـجود: مـا رواه عبـدالله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي عليه الصلاة والسلام قـرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، فسجد، وسجد مَنْ كان معه، إلا رجلاً أخذ كفّاً مـن حصـى وضـعه علـى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته قُتِلَ بعدُ كافراً[١].

وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سـجدوا معـه هـم مشركون، بل الذي يفيده قوله: فرأيته قُتِل بعدُ كافراً: أنه كان مسلماً، ثـم رأيته ارتدّ، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلـوب الـذين لـم يتحملـوا الأذى فكفروا، منهم: علي بن أمية بن خلف.

هذا، ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة، لم يتمكن من الدخول إليها إلا مَنْ وجد له مُجيراً، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، . . . . .

قوله: (فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالـب): قـال الحلبـي: أبـو سلمة بن[٢] عبد الأسد، وهو ابن عمتـه صلى الله عليه وسلم، ولمـا أجـاره خاله

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٧)، ومسلم (٥٧٦).

(٢) في النسختين: «اسمه» بدل «أبو سلمة بن».

ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم يَرَ أن يكون مرتاحاً وإخوانه معذبون[١].

أبو طالب، مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا: يا أبا طالب! منعت منا ابن أختك، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا، فقال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وأنا إن لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب على أولئك الرجال وقال لهم: يا معشر قريش! لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره من قومه، والله! لتنتهن، أو لأقومن معه في كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد، قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. اهـ[٢].

قوله: (وقد رد عليه جواره...) إلخ: قال الحلبي: وممن دخل بجوارٍ: عثمان بن مظعون، دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى ما يفعل بالمسلمين من الأذى؛ قال: والله! إن غدوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهلُ ديني يلقون من الأذى في الله ما لا يصيبني، لنقصٌ كبير، فمشى إلى الوليد فقال: يا أبا عبد شمس! وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال له: يا بن أخي! لعله آذاك أحد من قومي وأنت في ذمتي فأكفيك ذلك؟ قال: لا، والله! ما اعترض لي أحد ولا آذاني، ولكن أرضى بجوار الله عز وجل، وأريد أن لا أستجير بغيره، قال: انطلق إلى المسجد، فاردد إليَّ جواري علانية كما أجرتك علانية.

فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردُّ عليَّ جواري، فقال عثمان: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكني لا أستجير بغير الله عز وجل، قد رددت عليه جواره، فقال الوليد: أشهدكم أني بريء من جواره إلا أن يشاء.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠ ـ ١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٢).

. . . .

ثم انصرف عثمان، ولَبيدُ بن ربيعة بن مالك في مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه، فجلس عثمان معهم، فقال لبيد:

ألا كــلُّ شــيء مــا خــلا الله باطــل

فقال عثمان: صدقت.

فقال لبيد:

وكــلُّ نعــيمٍ لا محالــةَ زائــلُ[١]

فقال عثمان: كذبتَ، نعيمُ الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش! ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل: إن هذا سفيه، فمن سفاهته فارق ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان، فقام ذلك الرجل فلطم عينه، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي! كانت عينك عما أصابها لغنيّة، ولقد كنتَ في ذمة منيعة، فخرجت منها، وكنتَ عن الذي لقيتَ غنيّاً، فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً، والله! إن عيني الصحيحة التي لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله عز وجل، ولي فيمن هو أحب إليَّ منكم أسوة، وإني لفي جوار من هو أعز منك[٢].

ثم قال: وأسلم بعد ذلك لَبيد، وحسن إسلامه، وعاش في الإسلام ستين سنة لم يقل فيها بيتَ شعر، فسأله عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته عن تركه للشعر، فقال: ما كنتُ لأقولَ شعراً بعد أن علمني الله تعالى البقرةَ وآلَ عمران، فزاده عمر في عطائه خمسَ مئة من أجل هذا القول، فكان عطاؤه ألفين وخمس مئة. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «شرح ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ٢٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠ ـ ١١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٢).

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيلُ بكفار قريش؛ عرضوا على بني عبد مناف الـذين منهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام دية مضاعفة، ويسلمونه، فأبوا علـيهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يُعطوه سيداً من شبانهم يتبناه، ويسلم إليهم ابنَ أخيه، فقال: عجباً لكم؛ تعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطـيكم ابني تقتلونه؟[1].

فلما رأوا ذلك، أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب وَلَدَيْ عبد مناف، وإخراجِهم من مكة، . . . .

كتابة الصحيفة

قوله: (ولما ضاقت الحيل بقريش)؛ أي: لِما رأته من عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه، وبإسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ، وعزة أصـحابه بالحبشـة، ونشوء الإسلام في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا النبي صلى الله عليـه وسـلم، وقالوا: قد أفسد أبناءنا ونساءنا.

قوله: (سيداً من شبانهم): هو عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي ذهب مع عمرو بن العاص إلى النجاشي بهدايا ـ كما سيأتي في الفصل الآتي ـ.

قوله: (على منابذة بني هاشم): قال في «أساس البلاغة»: انتبذ الرجـل: اعتزل ناحية[2].

وفي «القاموس»: الانتباذ: التنحي، وتحيز كل من الفريقين في الحـرب؛ كالمنابذة[3].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٠٢).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: نبذ).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نبذ).

والتضييقِ عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم ـ بسبب ذلك ـ في شِعْب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب، سواء في ذلك مسلمُهم وكافرهم، ما عدا أبا لهب؛ فإنه كان مع قريش، وانخذلَ عنهم بنو عَمَّيْهم: عبد شمس، ونوفل ابنَي عبد مناف، . . . .

قوله: (فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب): قال الدحلاني: لما بلغ ذلك أبا طالب، جمع بني هاشم وبني المطلب، فأمرهم فدخلوا شِعْبهم، وأدخلوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم معهم، ومنعوه ممن أراد قتله، وأجاب كل منهم لذلك؛ مؤمنُهم وكافرهم، وإنما فعلوا ذلك حميةً على عادة العرب في المناصرة[1].

قال الحلبي: والشعب: مكان كان خارجاً عن مكة، وكان دخولهم إليه هلال المحرم سنة سبع من النبوة، وكان سنه صلى الله عليه وسلم ستاً وأربعين سنة[2].

قال الدحلاني: أقاموا على ذلك سنتين ـ وقيل: ثلاث سنين، وجزم به موسى بنُ عقبة إمامُ المغازي ـ حتى جهدوا؛ لقطعهم عنهم الميرةَ والمادة، وكانوا لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً[3].

قوله: (وانخذل عنهم بنو عميهم: عبد شمس، ونوفل): قال الحلبي: ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته:

جزى الله عنا عبدَ شمس ونوفلاً ... عقوبةَ شرٍّ عاجلاً غيرَ آجلِ[4]

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٦٩).

فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب[1].

وقال في قصيدة أخرى:

جـزى الله عنـا عبـدَ شـمسٍ ونـوفلاً   وتَيْمـاً ومخزومـاً عُقوقـاً ومأثمـا[2]

قوله: (فجهد القوم...) إلخ: المدة قد طالت عليهم، حيث إنهم أقاموا على ذلك سنتين، وقيل: ثلاث سنين، وجزم به موسى بن عقبة إمامُ المغازي[3]، وكانوا لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً، ويخرجون من الموسم إلى الموسم لأجل الحج، فلا يمنعونهم من ذلك.

قوله: (يأكلون ورق الشجر): قال الدحلاني: وفي الصحيح: أنهم جهدوا في الشعب حتى كانوا يأكلون ورق الشجر. اهـ[4].

قال في «المصباح»: خبطتُ الورق من الشجر خبطاً من باب ضرب: أسقطته، فإذا سقط، فهو خَبَط ـ بفتحتين ـ[5].

(وفي مقدمة المانعين أبو لهب): قال الدحلاني: كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام ليقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول:

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٤٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٣، ٢/ ٣٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٦). وانظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٧٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤)، والحديث المشار إليه رواه البخاري (٦٤٥٣)، ومسلم (٢٩٦٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: خبط).

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول صلى الله عليه وسلم وقومِهِ الشِّعْبَ، أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتـراب، فهاجر معظمهم، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمـاني عشـرة امـرأة، وكان من الرجال: جعفر بـن أبـي طالـب وزوجُـه أسـماءُ بنـتُ عُمَـيْس، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود، وعبيدالله بن جحـش، وامرأتـه أم حبيبة بنتُ أبي سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن، وهـم الأشعريون: أبو موسى، وبنو عمه. . . . .

يا معشر قريش التجار! غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شـيئاً معكـم، فقد علمتم حالي، ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم ـ أي: السلعة ـ قيمتهـا أضـعافاً مضاعفة حتى يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، فيغدو التجار على أبي لهب بما كسد فـي أيـديهم، فيـربحهم، ويضعف لهم الثمن، وخروجُ أحدهم إلى السوق عند قدوم العير لا ينافي منعهم من الأسواق والمبايعة عموماً[(١)].

هجرة الحبشة الثانية

قوله: (عبيدالله بن جحش): هذا تنصر هناك، ثم مات علـى النصـرانية، وبقيت زوجته أم حبيبة على إسلامها، وتزوجها رسول الله صلى الله عليـه وسـلم كما سيأتي. اهـ. حلبي[(٢)].

قوله: (وهم الأشعريون: أبو موسى، وبنو عمه): قال الحلبي: رُوي عن أبي موسى: أنه بلغه مخرجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باليمن، فخرج هو

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧).

ولما رأتْ قريش ذلك، أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص، وعُمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليُسَلِّم المسلمين، فرجعا شَرَّ رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا به، . . . . .

ونحو خمسين رجلاً في سفينة مهاجرين إليه صلى الله عليه وسلم، فألقتهم السفينة إلى النجاشي بالحبشة، فوجدوا جعفراً وأصحابه، فأمرهم جعفر بالإقامة، واستمروا كذلك حتى قدموا عليه صلى الله عليه وسلم هم وجعفر عند فتح خيبر كما سيأتي[1].

قوله: (ليسلم المسلمين): قائلاً له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، فرغبوا عنا وعن آلهتنا، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم[2] أشرافَ قريش لنردهم.

فأرسل في طلبهم، فلما جاؤوا، قال جعفر لمن معه: أنا خطيبكم اليوم، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قال جعفر: نقول ما علمنا وما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ودع[3] يكون ما يكون.

وهنا ساق الحلبي الحديث الذي دار بينهم وبين النجاشي.

وأخيراً قال لهم[4]: انزلوا حيث شئتم سيوم بأرضي ـ أي: آمنون ـ، ثم أمر بهدية عمرو ورفيقه، فردَّت عليهما[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧)، والحديث المذكور رواه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢).

(٢) في النسختين: «فهم»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقط من الأصل: «وأخيراً قال لهم».

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

أما بنو هاشم، فمكثوا في الشِّعْب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء، لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية[1].

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش................

قوله: (لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية): قال الحلبي: كان ممن ينقل الطعام إليهم خفية: حكيمُ بن حزام، وهشام بن عمرو بن الحارث.

وبسط ثمةَ ما لحق كلَّ واحد منهما من الأذى بسبب ذلك[2].

نقض الصحيفة

قوله: (نقض الصحيفة): سببه ـ كما في الحلبي ـ: أن الله أطلع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أن الأَرَضَة أكلت ما في الصحيفة من عهد وميثاق ـ أي: الألفاظ المتضمنة للظلم وقطيعة الرحم ـ، ولم تدع منها اسماً للهِ تعالى إلا أثبتته فيها، فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فقال له عمه: والثواقبِ! ما كذبتني قط، وفي رواية أنه قال له: أربُّك أخبرك بهذا الخبر؟ قال: «نعم».

فانطلق في عصابة من بني هاشم وبني[3] عبد المطلب إلى المسجد، فتكلم معهم أبو طالب، وأعلمهم بما جرى على الصحيفة، ولما فتحوا الصحيفة، وجدوا الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا سحر ابنِ أخيك، وزادهم ذلك طغياناً وعدواناً، وحينما بان الأمر، مشى طائفة من قريش يطالبون بنقض الصحيفة... إلخ ما ذكره المؤلف هنا[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤).

(٣) في النسختين: «بن»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤ ـ ٣٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وهم: هشام بنُ عمرِو بنِ ربيعةَ بنِ الحارث العامريُّ، وهو أعظمُهم في ذلك بلاءً، وزهير بنُ أبي أميةَ المخزوميُّ ابنُ عمةِ الرسول عاتكةَ، والمُطْعِمُ بنُ عديّ النوفليُّ، وأبو البَخْتَرِيّ بنُ هشام الأسديّ، وزمْعَة بنُ الأسود الأسديّ، واتفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا، غدا زهير وعليه حُلّة، فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونَلْبَسُ الثياب، وبنو هاشم والمطلب هَلْكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟! والله! لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبتَ، فقال زَمْعة لأبي جهل: أنت ـ والله ـ أكذبُ، . . . .

قوله: (وهو أعظمهم في ذلك بلاء): فإنه أول من مشى إلى زهير، فقال: يا زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالُك حيث قد علمتَ؟ فقال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد، والله! لو كان معي رجل آخر، لقمتُ في نقضها، فقال: أنا معك، فقال: ابغنا ثالثاً، ومشيا إلى المطعم بن عدي، فقالا له: أرضيتَ أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد؟ فقال: إنما أنا واحد، فقالا: إنَّا معك، فقال: ابغنا رابعاً، فذهبوا إلى أبي البختري، فقال: ابغنا خامساً، فذهبوا إلى زمعة بن الأسود، فوافقهم على ذلك.

فقعدوا ليلاً بأعلى مكة، وتعاقدوا وتعاهدوا على نقض تلك الصحيفة، وإخراج بني هاشم من الشعب، وقال لهم زهير: أنا أبدؤكم، وأكونُ أول من يتكلم. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (أبو البختري) ـ بفتح الباء وبالخاء المعجمة، أو بالحاء المهملة ـ.

و**(زمعة)**: ـ بفتح وسكون الزاي والميم ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦).

ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم ابن عدي: صدقتما، وكذب من قال غيرَ ذلك، وصدّق على ما قيل هشامُ ابنُ عمرو، فقام إليها المطعمُ بن عديّ فشقّها، وكانت الأَرَضة قد أكلتها، فلم يبقَ فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة[1].

وفود نجران

وقد وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الخروج من الشِّعب وفدٌ من نصارى نجران بلغهم خبرُهُ من مهاجري الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته، مع ما ذكر منها في كتبهم، . . . .

قوله: (وصدق على ما قيل هشامُ بن عمرو): لما صدق على ذلك هشام، قال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، واضطرب الأمر بينهم، وكثر القيل والقال[2].

قوله: (فقام إليها المطعم بن عدي): قال الدحلاني: هذا مات كافراً، وأما أبو البختري وزمعة، فقتلا يوم بدر كافرين، وأما هشام وزهير، فإنهما أسلما بعد ذلك ـ رضي الله عنهما ـ، وقد قام هؤلاء الخمسة، ومعهم جماعة، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا. اهـ[3].

وفود نجران

قوله: (وفود نجران): قال الحلبي: نجران بلدة بين مكة واليمن على نحو

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥ ـ ٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

وكانوا عشرين رجلاً، أو قريباً من ذلك، فقرأ عليهم القرآن، فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمقَ منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فصبأتم! فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه، ولنا ما اخترناه، فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ . . . .

من سبع مراحل من مكة، كانت منزلاً للنصارى[1].

قوله: (فآمنوا كلهم)؛ أي: لأنهم عرفوا منه ما هو موصوف في كتابهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (فأنزل الله في ذلك): صنيع المؤلف يفيد الاتفاق على نزول هذه الآيات في وفد نجران، وليس كذلك، ففي البيضاوي: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل الإنجيل؛ اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر ـ أي: من الحبشة ـ، وثمانية من الشام[3].

وفي الخازن: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب: عبدِالله بن سلام وأصحابِه، وقيل: بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة، وآمنوا به صلى الله عليه وسلم، وهم أربعون.

وعن ابن عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب؛ أربعون من نجران، و(٣٢) من الحبشة، و(٨) من الشام. اهـ[4].

قوله: (﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾) الضمير للقرآن، وهو كالمستكن في قوله تعالى:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٩٧).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٦٧)، وأثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٢٦٦).

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥][1].

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر سول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة، رموه بالسحر مرة، وبالكذب أخرى، وبالجنون طوراً، وبالكهانة تارةً، كل ذلك شأن المعاجز المعاند الذي لا يستحي ـ لمزيد عناده ـ أن يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢][2].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ الآية.

قوله: (﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾)؛ أي: من قبل نزول القرآن أو تلاوته.

قوله: (﴿مَّرَّتَيْنِ﴾): مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن.

وقوله: (﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾)؛ أي: لا نطلب صحبتهم، ولا نريدها. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (وبالجنون طوراً): قال الحلبي: وفد ضماد الأزدي من أزد شنوءة على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي ـ وقد كان يرقي من الريح، ولعل المراد به: اللمسة من الجن ـ ، قال: فأتيته فقلت: يا محمد! إني أرقي من الريح؛ فإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال

---

(١) أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ

وبعد خروجه عليه الصلاة والسلام من الشِّعب بقليل، وقبل الهجرة بثلاث سنين، توفيت خديجة بنتُ خُوَيلد زوجُه ـ رضي الله عنها ـ، كان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يذكرها، ويترحم عليها، ولا غرابة، فهي أول نفس زكية صدَّقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه، . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»، فقال له ضماد: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي. اهـ[1].

وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ

قوله: (وفاة خديجة): كانت وفاتها في رمضان سنة تسع أو عشر من النبوة، وكان عمرها خمساً وستين سنة، وأقام معها صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة، وبعد قليل كانت وفاة عمه أبي طالب، وحزن عليها وعلى عمه حزناً شديداً حتى سمي: عامَ الحزن، وقالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله! كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ـ رضي الله عنها ـ، فقال: «أجل، أم العيال وربة البيت»[2]، ودفنت بالحَجُون، ونزل صلى الله عليه وسلم في حفرتها.

وفي «صحيح البخاري»: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما غِرتُ على

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩)، والحديث المذكور رواه مسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٥٧) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب.

وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم. فمنها: زينبُ، وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع، وأعقبَ منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها: رقيّة، وأُم كلثوم، تزوجهما عثمان؛ الأولى بمكة قبل الهجرة، وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أَنْ ماتت أختها، ومنها: فاطمة، وهي أصغر بناته، تزوجها علي بن أبي طالب، وقد جاءت خديجة بأولاد توفّوا صغاراً، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلّا فاطمة، عاشت بعده قليلاً.

ولما توفيت خديجة، حزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً؛ لما كانت عليه من الرقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاجزة الكفار عنه؛ لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد. ومنها: القاسم، وكان به يكنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وعبدالله الملقب بالطيب، والطاهر.

زواج سَوْدَة

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سَوْدةَ بنتِ زَمْعَة العامريةِ القرشيةِ بعد أن توفي عنها زوجُها. . . . .

أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يُقطِّعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد». اهـ[1].

زواج سودة

قوله: (على سودة بنت زمعة): في الدحلانية: عن خولة بنت حكيم ـ وهي

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٨). ورواه مسلم (٢٤٣٥) بنحوه.

وابنُ عمها السكرانُ بنُ عمرو، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله، وخالفت أقاربها وبني عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوفَ الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم بزوج رجل آمن به، ولو تركت لقومها، مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام، لفتنوها، وكرمُ نسبِها في قومها يمنعها من التزوّج برجل أقلَّ منها نسباً وشرفاً[1].

زوجة عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ قالت: دخلتُ على سودة بنت زمعة، فقلت لها: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك عليه، قالت: وددت ذلك، ادخلي على أبي، فاذكري ذلك له، وكان شيخاً كبيراً باقياً على دين قومه، لم يسلم، قالت: فدخلت عليه، وحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم، قال: فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودةَ، قال: كفء كريم، فما تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذلك، قال: ادعيها إليّ، فدعوتها، قال: أي بنية! إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك منه؟ قالت: نعم، فقال لخولة: ادعيه لي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوجه إياها. اهـ[2].

قال الحلبي: وأصدقَها أربعَ مئةِ درهم[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢).

زواج عائشة ـ رضي الله عنها ـ

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشةَ بنتِ صديقه أبـي بكـر ـ رضـي الله عنه ـ، وهي لا تتجاوز السابعةَ من عمرها، ولم يتزوج عليه الصـلاة والسـلام بكراً غيرَها، ودخل عليها بالمدينة، أما سَودةُ، فدخل عليها بمكة.

زواج عائشة ـ رضي الله عنها ـ

قوله: (عقد على عائشة): قال الحلبي: ذهبت خولة إلى أم رومـان أم عائشـة، فقالت لها: ماذا أدخل الله عليكم مـن الخيـر والبركـة؟! قـد أرسـلني رسـول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتـى يـأتي، فجـاء أبو بكر، فقالت له: يا أبا بكر! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركـة؟! قـال: وما ذاك؟ قلت: قد أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشـة، قال: وهل تصلح له ـ أي: تحل له ـ، إنما هي بنت أخيه؟!

فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـذكرت لـه ذلـك، فقـال: ارجعي إليه فقولي له: «أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي»؛ أي: تحل، فرجعت فذكرت ذلك له، قالت أم رومان ـ رضي الله عنها ـ: إن مطعـم ابن عدي قد كان ذكرها على ابنه جبير، ووعده، ووالله! ما وعد وعداً قـط فأخلفـه؛ تعني: أبا بكر.

فدخل أبو بكر على مطعم، وعنده امرأته أم ابنه المذكور، فكلمت أبا بكر بما أوجب ذهاب ما كان في نفسه من عدته لمطعم؛ فإن المطعم لما قال له أبو بكر: ما تقول في أمر هذه الجارية؛ أقبل المطعم على امرأته، وقال لها: ما تقـولين يـا هـذه؟ فأقبلت على أبي بكر وقالت له: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم، تصـيبه، وتُدخلـه في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكر على المطعم، وقال له: ماذا تقول أنـت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع.

فقام أبو بكر، وليس في نفسه من الوعد شيء، فرجع فقال لخولة: ادعي

. . . .

لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعته، فزوجه إياها. اهـ[1].

الحكمة في تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم

قال العلماء: لما كان الحر لفضله على العبد يستبيح من النسوة أكثر مما يستبيحه العبد، وجب أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة.

وحكى القرطبي في «تفسيره»: أنه أُحل لنبينا صلى الله عليه وسلم تسع وتسعون امرأة[2]، وفي ذلك فوائد:

(١) منها: نقل محاسنه الباطنة؛ فإنه صلى الله عليه وسلم مكمل الظاهر والباطن.

(٢) ومنها: نقل الشريعة التي لم يطلع عليها الرجال.

(٣) ومنها: تشريف القبائل بمصاهرته.

(٤) ومنها: شرح صدره بكثرتهن عما يقاسيه من أعدائه.

(٥) ومنها: زيادة التكليف في القيام بهن مع تحمل أعباء الرسالة، فيكون ذلك أعظم لمشاقه، وأكثر لأجره.

(٦) ومنها: أن النكاح في حقه عبادة، قالوا: وقد تزوج أم حبيبة، وأبوها في ذلك الوقت عدوُّه، وصفيةَ، وقد قتل أباها وعمها وزوجها، فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق؛ لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب.

(٢) نقله السيوطي عنه في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٤٢٧).

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر، توفي عمه أبو طالب، الذي كان يمنعه من أذى أعدائه، ومع أنه كان لا يُكَذِّب رسول الله فيما جاء به، بل يعتقد صدقه، لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته، وفيه نزل في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

آبائهن وقرابتهن.

وكان في كثرة النساء عنده بيان لمعجزاته وكماله باطناً كما عرفه الرجال منه ظاهراً صلى الله عليه وسلم. اهـ. من «الخصائص» للجلال السيوطي. طبع الهند[1].

قوله: (لم ينطق بالشهادتين. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقلُه، قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وفشا أمر محمد، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب يأخذ لنا على ابن أخيه ويعطه منا؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء ـ يعنون: القتلَ للنبي صلى الله عليه وسلم ـ، فتعيرنا العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه، تناولوه.

فمشى إليه أشراف قريش، فأخبروه بما جاؤوا له، فبعث أبو طالب إليه صلى الله عليه وسلم، وقال له: يا بن أخي! هؤلاء أشراف قومِك، وقد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك، أعطِ سادات قومك ما سألوك؛ فقد أنصفوك: أن تكف عن شتم آلهتهم، ويدعوك وإلهَك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيتكم إن أعطيتكم ما سألتم، هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» فقال أبو جهل: لنعطيكها وعشراً معها، فما هي؟ قال: «تقولوا: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»، فصفقوا بأيديهم وقالوا: يا محمد! أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن أمرك لعجيب!.

---

(١) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٤٢٧).

وفي رواية قالوا: يسع لحاجاتنا جميعاً إله واحد، سلنا غير هذه الكلمة، وقال أبو طالب: يا بن أخي! هل من كلمة غير هذه الكلمة؛ فإن قومك قد كرهوها؟ قال: «يا عم! ما أنا بالذي يقول غيرها»، ثم قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرَها»، فقال لهم أبو طالب عند ذلك: والله يا بن أخي! ما رأيتك سألتهم شحَطاً ـ أي: أمراً بعيداً ـ، فلما قال ذلك، طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فجعل يقول: «أي عم! فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة».

فلما رأى حرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: والله يا بن أخي! لولا مخافةُ السب عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت؛ لأقررتُ بها عينك؛ لما أرى من شدة وجدك، لكني أموت على ملة الأشياخ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية[١].

وقال الدحلاني قبل ذلك: وألف عليُّ بنُ حمزةَ البصريُّ الرافضيُّ جزءاً جمع فيه شعر أبي طالب، وقال: إنه كان مسلماً، وإنه مات على الإسلام، وإن الحشوية تزعم أنه مات كافراً، وأنهم بذلك يستجيزون لعنه، ثم بالغ في سبهم والرد عليهم.

قال الحافظ ابن حجر: قد أكثر في هذا الجزء من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب، ولا يثبت شيء من ذلك، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٣ ـ ٩٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٤٦)، كلاهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٤٩٦، ٧/ ١٩٥).

ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نرجو أن يُخفف عنه، وعدمُ إسلامه هو وغالب أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم فيه من الحكمة ما لا يخفى؛ فإنهم لو بادروا باتباعه، لقيل: قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم، فجاؤوا بهذا الأمر المفترى، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه، الذين ليسوا من عشيرته، بل من أعدائها أحياناً؛ كعثمان بن عفان من بني أمية، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها، اللهم! إلا دعاويهم الكذابة التي كانوا يتمسكون بها حين تصدَعُهم الحجة من قولهم: ساحر يُفرِّق بين المرء وزوجه، وكاهن يتكهن بالغيب.

والحاصل: أن مذهب أهل السنة من المذاهب الأربعة عدمُ إسلامه وانقياده على حسب ما نطق به القرآن، وجاءت به السنة، وإن كان عنده تصديق قلبيّ بنبوته؛ فإن ذلك غيرُ نافع بدون انقياد ظاهري، وأطال الكلام في أخباره وأحاديث إسلامه[1].

قوله: (نرجو أن يخفف عنه): في صحيح البخاري ومسلم: عن العباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاح». اهـ. دحلاني[2].

والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض.

قوله: (وعدم إسلامه. . .) إلخ: في «السيرة الحلبية» نقلاً عن «الهدي»: وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٠ ـ ٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٢)، والحديث رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العام الـذي فقـد فيـه زوجَه وعمَّه: عامَ الحزن.

ولما مات أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنهـا نيلُـه في حياة أبي طالب، واشتد الأمر عليه، حتى كانوا ينثرون التراب على رأسـه وهو سائر، ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته، وتعلقت به كفـار قـريش مرة يتجاذبونه ويقولون له: . . . .

التي تبدو لمن تأملها[١].

وكذلك أقرباؤه وبنو عمه، تأخر إسلام من أسلم منهم، ولـو أسـلم أبـو طالب، وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به، لقيل: قـوم أرادوا الفخـر برجـل منهم، وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد، وقاتلوا على حبه من كان منهم، حتى إن الشخص منهم يقتل أباه وأخاه؛ عُلم أن ذلك إنمـا هـو عـن بصـيرة صـادقة، ويقين ثابت. اهـ[٢].

قوله: (حتى كانوا ينثرون التراب علـى رأسـه): فـي الحلبيـة: أن بعـض سفهاء قريش نثر على رأس النبي صلى الله عليه وسلم التراب بعد موت أبي طالـب، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليـه بعـض بناتـه، وجعلـت تزيلـه عن رأسـه وتبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول لهـا: «لا تبكي، لا تبكي يا بنية؛ فإن الله تعالى مانعٌ أباك». اهـ[٣].

قوله: (نالـت قريـش من رسول الله . . .) إلخ: قـال في الحلبيـة: كـان

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٥٠)، والحـديث المـذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٠) من حديث عبـدالله بـن جعفـر ـ رضـي الله عنهما ـ.

أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم؛ لما هم عليه من الضعف، إلا أبو بكر، فإنه تقدم، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر: ٢٨][1].

صلى الله عليه وسلم يقول: «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه ـ أي: أشدَّ الكراهة ـ حتى مات أبو طالب»[2]، ولما رأى قريشاً تهجموا عليه قال: «يا عم! ما أسرع ما وجدتُ فقدَكَ!»[3].

ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام أبو لهب بنصرته أياماً، وقال له: يا محمد! امض لما أردتَ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حيّاً فاصنعه، لا واللات والعزى! لا يوصَل إليك حتى أموت.

واتفق أن ابن العيطلة ـ وهو أحد المستهزئين ـ سب النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليه أبو لهب، ونال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش! صبأ أبو عتبة، فأقبلت قريش على أبي لهب، وقالوا له: فارقتَ دين عبد المطلب؟ قال: ما فارقت، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل وعقبة بن أبي مُعيط إلى أبي لهب، فقالا له: أخبرك ابنُ أخيك أين مدخل أبيك؟

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٠) من حديث عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨١٨) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٥): ابن سعيد الرازي؛ قال الدارقطني: ليس بذاك، وعيسى بن عبد السلام لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به، أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف، يرجو منهم نُصرته على قومه، ومساعدته حتى يتمّم أمر ربه؛ لأنهم أقرب الناس إلى مكة، وله فيهم خؤولة؛ فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكةَ السلميةَ من بني سُلَيم بن منصور، وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم، ومعه مولاه زيد بنُ حارثة، قابل رؤساءهم، وكانوا ثلاثةً: ....

يزعم أنه في النار، فقال له أبو لهب: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار»، فقال أبو لهب: لا برحت لك عدوًّا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتد عليه هو وسائر قريش. اهـ[1].

هجرة الطائف

قوله: (هجرة الطائف): كان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف سنة عشر من النبوة، ومن ثم ـ أي: من أجل أنه خرج إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره ـ جعل الله الطائف مستأنساً لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة، فهي راحة الأمة، وتنفس كل ذي ضيق وغمه. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (سُلَيم بن منصور) ـ بالتصغير ـ، وهو أبو قبيلة من قيس عيلان.

قوله: (ومعه مولاه زيد بن حارثة)، وقيل: لم يكن معه، بل كان وحده.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠ ـ ٥١)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢١٠ ـ ٢١١) عن حكيم بن حزام، وعبدالله ابن ثعلبة بن صُعَير ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٠).

عبد يالِيْل، ومسعود وحَبيب أولاد عمرِو بنِ عميرٍ الثقفيّ، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردّوا عليه ردًّا قبيحاً، ولم يرَ منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم أن لا يُشيعوا ذلك عنه؛ كيلا تعلم قريش، فيشتدّ أذاهم؛ لأنه استعان عليهم بأعدائهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه الصلاة والسلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق، ويرمونه بالحجارة، . . . .

قوله: (عبد ياليلَ): في «القاموس»: ياليل كـ (هابيل): رجل وصنم[1].

وقال في (مادة: ك ل ل): عبد يا ليل بن عبد كُلال؛ كـ (غراب)، عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عليه، فلم يجبه إلى ما أراد. اهـ[2].

قال الحلبي: واسمه: كنانة، لم يُعرَف له إسلام، وأخوه مسعود، وهو عبد كلال، لم يعرف له إسلام أيضاً، وأما حبيب، ففي صحبته نظر[3].

قوله: (فردوا عليه ردًّا قبيحاً): قال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة ـ أي يقطعها وينتفها ـ إن كان الله أرسلك، وقال آخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟! وقال له الثالث: والله! لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولَ الله كما تقول، لأنت أعظمُ خطراً ـ أي: قدراً ـ من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد أيس من خير ثقيف، وقال لهم: «اكتموا عليّ»، وكره صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومَه ذلك، فيشتد أمرُهم عليه. اهـ[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: يلل).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كلل).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢).

(٤) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦٧) ـ عن محمد بن كعب القرظي.

حتى أَدْمَوا عَقِبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرْم، واستظلّ بها، وكانت بجوار بستان لعُتبة وشَيبة ابنَي ربيعة، وهما من أعدائه، وكانا في البستان، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهما، فدعا اللهَ قائلاً: «اللهمّ إني أشكو إليكَ ضعفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، . . .

قوله: (وكان زيد بن حارثة. . .) إلخ؛ أي: بناءً على أنه كان معه صلى الله عليه وسلم. اهـ. حلبي[1].

قوله: (وكانت بجوار بستان): عبارة الحلبي: فلما خلص منهم، ورجلاه تسيلان دماً، عمد إلى حائط من حوائطهم ـ أي: بستان من بساتينهم ـ، فاستظل في حَبَلة ـ بفتح الباء ـ: شجرة كرم[2].

وهي تفيد أن الشجرة كانت داخل البستان، لا بجواره كما تفيده عبارة المؤلف.

قوله: (كره مكانهما)؛ أي: رؤيتهما.

قال الحلبي: لِما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله[3].

قوله: (اللهم إني أشكو إليك. . .) إلخ: في السيرة الدحلانية: يروى أنه صلى الله عليه وسلم لما تخلص من ثقيف، واطمأن في ظل الحبَلة، دعا بالدعاء المشهور بدعاء الطائف، وهو: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني؟! إلى عدو بعيد يتجهمني، أم إلى صديق قريب

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣).

إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، [ولكن عافيتك هي أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»][1].

فلما رآه ابنا ربيعة، رَقَّا له وأرسلا إليه بِقِطْفٍ من العنب مع مولًى لهما نصراني اسمُه: ....

ملكته أمري؟! إن لم تكن غضباناً عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبُك، أو يحل عليَّ سخطُك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»، رواه الطبراني في كتاب «الدعاء» عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب. اهـ[2].

وقوله: (يتجهمني)؛ أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

و**(العتبى)**: الرجوع عن الذنوب.

قوله: (رقا له): عبارة الحلبي: ولما رأيا ما لقي من سفهاء أهل الطائف، تحركت له رحمُهما[3].

وهي أولى من عبارة المؤلف؛ لبيانها سببَ الرقة.

قوله: (قِطْف): ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ.

---

(١) ما بين معكوفتين من «نور اليقين» (ط: دار الإيمان).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، والحديث رواه الطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦) من حديث عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣).

عَدَّاس. فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال عَدَّاس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟»، فقال: نصراني من نِيْنَوى، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من قرية الرجل الصالح يُونُسَ بنِ متَّى؟» قال: وما علمُك بيونس؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس، فلما سمع ذلك عداس، أسلم.

وقوله: (عداس)[1]: ـ بتشديد الدال؛ كـ (شداد) ـ كما في «القاموس»[2].

قوله: (وما علمك بيونس): تتمة العبارة كما في الحلبي: فإني ـ والله ـ لقد خرجت منها ـ يعني: نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما متَّى، فمن أين عرفت ابن متى وأنت أمِّي، وفي أمة أمِّيَّة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيٌّ أميٌّ»[3]، وفي رواية: «أنا رسول الله، والله أخبرني خبره، وما وقع له مع قومه». اهـ[4].

قوله: (أسلم): قال الدحلاني: لما سمع عداس ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، أكبَّ على يديه ورأسه ورجليه يقبلها، وأسلم ـ رضي الله عنه ـ، وفي رواية أنه قال: أشهدُ أنك عبدالله ورسوله، ونظر إليه ابنا ربيعة، فقال أحدهما للآخر: أما غلامُك، فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي! ما في الأرض شيء خير من هذا، فقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك

---

(١) في النسختين: «كعداس».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عدس).

(٣) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٦) عن محمد بن كعب القرظي، دون لفظ: «أمي».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٤).

وأتى جبريل برسالة من الله جلّ ذكره، وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لِما صنعوه معك، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، فقال جبريل: صدقَ من سمّاك: الرؤوف الرحيم[1].

ولما كان بنَخْلَة، وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن، وهم ممّن ينتمون إلى موسى صلواتُ الله عليه، فلما سمعوه، أنصتوا له، ورجعوا إلى قومهم منذرين، وأبلغوهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم نزل في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ . . . .

يا عداس! لا يصرفك عن دينك؛ فإنه خير من دينه[2].

قوله: (اللهم اهد قومي . . .) إلخ: الذي في الحلبي: «أرجو أن يخرج الله تعالى ـ وفي رواية: أستأني فيهم لعل الله أن يخرج ـ من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً»[3].

قوله: (بنخلة): هو محل بين مكة والطائف.

قوله: (﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾)؛ أي: أَمَلْنا إليك.

قوله: (﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾): النفر: ما دون العشرة، وجمعه أنفار، وهم من جن نصيبين بلد بالجزيرة، قيل: كان عددهم سبعة، وقيل: تسعة، وقيل: إنهم كانوا من اليهود فأسلموا.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧ ـ ١٦١)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨)، والحديث المذكور رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، أما رواية: «أستأني بهم. . .»، فأوردها ابن كثير في «السيرة النبوية» (٣/ ٦٦٦).

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ . . . .

وقد كان سماعهم منه حينما كان يصلي في جوف الليل، وبقي صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم إلى الفجر(١).

قال أبو البقاء في «الكليات»: حدُّ الجن أنه حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة، وجمهورُ أرباب الملل المصدقين بالأنبياء قد اعترفوا بوجوده، واعترف به جمع من قدماء الفلاسفة(٢).

وفي «المواقف»: إنها تقدر أن تلج في بواطن الحيوانات، وتنفذ في منافذها الضيقة نفوذَ الهواء المستنشَق. اهـ. ملخصاً(٣).

وفي «الرسالة الحميدية»: وبعد النظر في أعمال الرياح التي تقلع الأشجار العظيمة، وأعمال قوة الكهربائية التي تجر الأثقال التي تعجز عنها ألوف الرجال، فلا غرابة في أعمال الملائكة والجن، لا سيما أن الذي يقدرهم [على ذلك](٤) هو الله تعالى الذي لا يعد ذلك بالنسبة إلى عظمة قدرته شيئاً صعباً، والله تعالى قادر على إعطاء اللطيف قوة في الصلب الكثيف. اهـ. ملخصاً(٥).

وفي الرسالة المذكورة كلام نفيس على الملائكة والجن، فارجع إليه إن أردت المزيد.

قوله: (﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾)؛ يعني: الكتب الإلهية.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص: ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٣) انظر: «المواقف» للإيجي (٢/ ٦٩٩).

(٤) ما بين معكوفتين من «الرسالة الحميدية».

(٥) انظر: «الرسالة الحميدية» لحسين الجسر (ص: ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

وقد قصّ الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢][1].

الاحتماء بالمُطْعِم بن عَدِي

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا، . . . .

وقوله: (﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾): هو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾)؛ أي: لا ينجيه منه مهرب.

(﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾) يمنعونه منه.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾)؛ حيث أعرضوا عن إجابة مَنْ هذا شأنُه. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (﴿عَجَبًا﴾)؛ أي: بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن نظمه، ورقة معناه.

وقوله: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾) على ما نطقت به الدلائل القاطعة على التوحيد[3].

الاحتماء بالمطعم بن عدي

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٦٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩ ـ ٦١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٩٧).

لم يتمكن من دخوله مكة؛ لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصرُ بأهليها عليهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى المُطْعِم بن عديٍّ بنِ نوفلِ بنِ عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره، فأجاب إلى ذلك، وتسلح هو وبنوه، وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أَمُجِيرٌ أنت أم تابع؟ فقال: بل مجير، قالوا: إذاً لا تُخْفَرُ ذِمَّتُكَ[1].

وفد دَوْس

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة الطُّفَيْلُ. . . . . .

قوله: (فأرسل عليه السلام إلى المطعم بن عدي): أرسل عليه السلام قبل ذلك إلى الأخنس بن شريق الثقفي، ثم إلى سهيل بن عمرو العامري، فاعتذرا، ولم يجيراه.

قال في الدحلانية: ولهذا المعروف الذي فعله المطعمُ بن عدي قال صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر: «لو كان المطعم حيّاً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتُهم له»، وأسلم جبير بن المطعم بين الحديبية وفتح مكة، ومات المطعم قبل وقعة بدر، وله تسعون سنة، ورثاه حسان بن ثابت بقصيدة منها:

فلو كان مجدٌ يخلد الدهرَ واحداً من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مطعِما[2]

قوله: (فقال له بعض المشركين): هو أبو سفيان.

وفد دوس

قوله: (وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيلُ. . .) إلخ: قال الدحلاني:

---

(١) أورده الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٥) بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١ ـ ٦٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٤). وانظر: «ديوان حسان ابن ثابت» (ص: ٢٦٠).

ابنُ عمرٍو الدَّوسيُّ، من قبيلة دَوْس، عشيرةِ أبـي هريـرةَ الصـحابيِّ الشـهير، وكان الطفيل شريفاً في قومه، شاعراً نبيلاً، فلما قرأ عليه القـرآن، أسـلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب إلى قومـك فـادعُهم إلـى الإسلام»، . . . .

لما قدم مكة، مشى إليه رجال من قريش، فقالوا: يا أبا الطفيـل ـ كنـوه باسـمه تعظيمـاً له ـ إنك قد قدمت بلادنا، وهذا الرجل بين أظهُرنا، وقد أعضل أمـره بنـا ـ أي: اشتد ـ ، وفرق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيـه، وبـين الرجـل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمـه، ولا تسـمع منه.

قال الطفيل: فـوالله! ما زالـوا بي حتى أَجمعتُ على أن لا أسـمع منـه شـيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُـفاً ـ أي: قطنـاً ـ ؛ فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله، فغدوت إلى المسجد، فـإذا برسـول الله صـلى الله عليه وسلم قائماً يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فـأبى الله إلا أن أسـمع بعـض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: أنا ما يخفى عليّ الحسن من القبـيح، فما يمنعني أن أعلم من هذا الرجل ما يقول؟!

فمكثتُ حتى انصرف إلـى بيتـه، فقلـت: يـا محمـد! اعـرض علـيّ أمـرك، فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فلما سمعه قال: والله! ما سـمعت قـط قولاً أحسنَ من هذا، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ[1].

قوله: (فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب إلى قومك فـادعهم إلى الإسلام. . .») إلخ: العبارة في الدحلاني والحلبي تفيد أنه الطالب لـذلك، ونصّ عبارة الدحلاني: قلت: يا نبي الله! إني امرؤ مطاع في قومي، وأنـا راجـع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يكون عوناً عليهم، فقال: «اللهم اجعل

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٥).

ودعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهمّ اهـدِ دَوْسـاً»، فتوجـه إليهم الطفيلُ، ودعاهم، فآمن بدعوته كثير منهم.

وستأتي وِفَادَتُهُ على الرسول صلى الله عليه وسلم مرة ثانية بقومه في المدينة[1].

له آية»، قال: فخرجت حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر ـ هم الحاضرون المقيمون على الماء لا يرحلون عنه ـ وكان ذلك في ليلة مظلمة، وقع نور بـين عينـي مثل المصباح، فقلت: في غير وجهي؛ فإني أخشى أن يظنوا أنـه مُثلـة، فتحـول في رأس سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور كالقنديل المعلوم[2].

قوله: (ودعا لهم رسول الله. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أتى قومَه دعـا أباه وزوجه إلى الإسلام فأجابوا، قال: ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فـأبطؤوا علـيَّ، ثم جئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله! قد غلبتني دوس، قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً وأتِ بهـم»[3]، قال: فرجعت، فلم أزل بأرض قومي أدعوهم إلـى الإسـلام حتـى هـاجر النبـي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، فأسلموا، فقدمت بمن أسلم من قومي عليه وهو بخيبر مع سبعين أو ثمانين بيتاً مـن دوس، ومـنهم أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، فأسهم لنا مع المسلمين[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦). وانظـر: «السيـرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٦). وخبر الطفيل ـ رضـي الله عنه ـ رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨).

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، أما الإسراء، فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإِيْلياء، ورجوعُه من ليلته، وأما المعراج، فهو صعوده إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنّة: إن ذلك كان بجسمه الشريف.

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تمنع رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّه، وتقول: من قال: إن محمداً رأى ربه، فقد أعظمَ الفِريةَ على الله[1].

والإسراء مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا . . . .

الإسراء والمعراج

قوله: (أما الإسراء): كان الإسراء سنة إحدى عشرة من البعثة، وقيل: قبل الهجرة بسنة، وقيل: في شهر ربيع الأول، وقيل: في رمضان، وقيل: في شهر رجب، وهو المشهور، وعليه عملُ الناس، وكان ليلة الاثنين كبقية أطواره صلى الله عليه وسلم من الولادة والهجرة والوفاة. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فقد أعظم الفرية): أجيب بأنه لا يصلح للاحتجاج؛ إذ لم تحدث به عن مشاهدة؛ إذ لم تكن وقت المعراج زوجة، ولا في سن الضبط، بل لعلها لم تولد بعد بناءً على ما قيل: إن المعراج كان قبل البعثة.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٦٨) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٧).

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١][1].

وأما المعراج، فقد ورد في صحيح السنّة، وأصحُّ أحاديثه ما رواه الشيخان، ونقله القاضي عياض في «شفائه» عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُتيتُ بالبُراق، وهو دابّة فوق الحمار ودونَ البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفه»، قال: «فركبته حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

قوله تعالى: (﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾) ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء من لَدُنْ موسى عليه السلام، ومحفوفٌ بالأنهار والأشجار.

(﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾)؛ كذهابه في برهة من الليل مسيرةَ شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له، ووقوفه على مقاماتهم[2].

قوله: (أتيت البراق): قيل: سمي به؛ لشدة صفائه وتلألئه وبريقه، وقيل: لكونه أبيض.

وقال القاضي عياض: يحتمل أنه سمي بذلك؛ لكونه ذا لونين، يقال: شاة بَرْقاء: إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقاتٌ سود. اهـ. نووي[3].

قوله: (التي تربط بها الأنبياء): قال النووي: في ربط البراق الأخذُ

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٤٩٣)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٣١).

(٣) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٢١٠ ـ ٢١١). وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (١/ ٤٩٩).

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالة يحيى وعيسى ابنِ مريم، فرحبا بي، ودَعَوَا لي بخير.

ثم عُرَج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا، وإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٧].

ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

بالاحتياط في الأمور، وتعاطي الأسباب، وذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى[1].

---

(١) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٢١١).

ثمَّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقُها كآذان الفِيَلَة، وإذا ثمرُها كالقلال، فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم»، قال: «فرجعت إلى ربي وقلت له: يا ربي! خفف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى، فقلت: حطَّ عني خمسة، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف»، قال: «فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه: يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً، . . . .

قوله: (ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة): (هم)؛ أي: قصد الفعل راجحاً، فبالأولى العزم الذي فيه الحزم، ثم إن اطلاع الكرام الكاتبين على الهم والعزم يكون بطريق الكشف، أو بإعلام من الله، أو بريح تظهر من القلب طيبة للحسن، وخبيثة للخبيث، وإنما كتب الهم حسنة؛ لأنه سبب لعمل الخير، وسببُ الخير خير.

والهم بالسيئة، وإن كان شرًّا، فإنه يدفع بكف النفس، وهو حسنة، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤]. اهـ. «شرح الأربعين النووية».

قوله: (كتبت له عشراً)؛ لأنه أخرجها من الهم إلى العمل، فكتبت له بها حسنة، ثم ضوعفت فصارت عشراً، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهذا أقل ما وعد به من التضعيف، وقد تضاعف إلى سبع مئة

ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب لـه شـيئاً، ومـن هـمَّ بسـيئة فعملهـا، كتبت له سيئة واحدة». قال: «فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرتـه، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربـي حتـى استحييت منه»[1].

ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته، فلما أصبح، غدا إلى نـادي قريش، فجاء إليه أبو جهل بنُ هشام، فحدَّثه رسول الله صلى الله عليه وسـلم بما جرى له، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي! هلمّـوا، فأقبـل عليـه كفار قريش، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم الخبـر، فصـاروا بـين مصفق، وواضعٍ يدَه على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتدَّ ناس ممن كـان آمـن به من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبي بكـر، فقـال: إن كـان قـال ذلك، لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟! قـال: إنـي لأصـدقُه علـى أبعدَ من ذلك، فسُمِّي من ذلك اليوم: صدِّيقاً.

ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه نَعْـتَ بيت المقدس، وفيهم رجال رأوه، أما رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم؛ فلم يكن رآه قبل ذلك، فجلاَّه الله له، فصار يصفه لهم باباً باباً، . . . .

ضعف، إلى أضعاف كثيرة كما ورد في الحديث.

قوله: (فلم يعملها)؛ أي: خوفاً من الله، وأما لتعطيل أسبابها، فلا يكتب له ولا عليه شيء. اهـ. منه.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ. ورواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٥٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

وموضعاً موضعاً، فقالوا: أما النعت، فقد أصاب، فأخبرْنا عن عيرنا، وكانت لهم عير قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: «تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس، يَقدُمها جمل أورقُ»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه ـ والله ـ الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه ـ والله ـ العيرُ قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، فلم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، حتى قالوا: هذا سحر مبين[1].

قوله: (تقدم) هو ـ بفتح الدال ـ.

وقوله: (يقدُمها) هو ـ بضمها ـ؛ أي: يتقدمها.

وقوله: (أورق): الأَوْرَق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً، لا سيراً وعملاً. اهـ. قاموس[2].

*** تتمة لهذا البحث:**

إن آية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ . . .﴾ إلخ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن المعراج كان في اليقظة بالجسد، أما دلالة الأحاديث، فالحديث المذكور هنا في غاية الظهور.

وأما دلالة الآية، فلأن لفظ العبد يطلق على مجموع الجسد والروح، وقال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٠]، وقال أيضاً في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، ولا شك أن المراد في الموضعين من العبد: مجموعُ الروح والجسد، فكذا المراد بالعبد هنا.

ولأن الكفار استبعدوا هذا المعراج وأنكروه، وارتد بسماعه ضعفاء

---

(١) رواه أبو يعلى في «معجمه» (١٠) من حديث أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ورق).

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل، وعلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة وأوقاتها، فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر، وأربع ركعات إذا زالت الشمس، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء، وثلاثاً إذا غربت، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه الصلاة والسلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً، ومثلهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام[1].

المسلمين، وافتتنوا به، فلو لم يكن المعراج بالجسد وفي اليقظة، لما كان سبباً لاستبعاد الكفار وإنكارهم، وارتداد ضعفاء المسلمين؛ إذ مثلُ هذا في المنامات لا يعد من المحال، ولا يستبعد ولا ينكر، ألا ترى أن أحداً لو ادعى أنه سار في نومه مرة في المشرق، ومرة في المغرب، وهو لم يتحول عن مكانه، ولم تتبدل حاله، لم ينكره أحد، ولم يستبعد؟

ولا استحالة فيه عقلاً ونقلاً. أما عقلاً، فلأن الخالق العالم القادر على كل الممكنات، وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن، فوجب كونه تعالى قادراً عليه، وغايةُ ما في الباب أنه خلاف العادة، والمعجزات كلها تكون كذلك.

وأما نقلاً، فلأن صعود الجسم العنصري إلى الأفلاك ليس بممتنع عند أهل الكتاب؛ فإن المسيحيين مسلِّمون بعروج عيسى إلى السماء، وأنه دخل بجسده في ملكوت السماء. اهـ. «إظهار الحق»، وتتمته فيه[2].

ثم إن قطع المسافات الطويلة في وقت يسير من الأمور الممكنة، وقد حصل ذلك معجزةً لسليمان عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: ١٢].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ١٨٨).

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١٠٢٣).

. . . .

قال البيضاوي في تفسير آية الإسراء: ثبت في الهندسة: أن ما بين طرفَي قرص الشمس ضعفُ ما بين طرفي كرة الأرض مئة ونيفاً وستين مرة، ثم طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض، وأن الله قادر على كل الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي صلى الله عليه وسلم، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. اهـ[1].

وفيما نشاهده من سير القطار ذلك السير السريع بواسطة البخار، وصعود الطيارات وسيرها في الفضاء، وقطعها المسافات البعيدة بوقت قريب دليلٌ ناصع على إمكان المعراج وحصوله، مع أن هذه الأشياء من صنع عبد مخلوق، وأين ذلك من قدرة الإله الخالق القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء.

وفي «شرح العقائد النسفية»: إن ادعاء استحالة المعراج إنما يبتنى على أصول الفلاسفة، وإلا فالخرقُ والالتئام على السماوات جائز، والأجسام متماثلة، يصح على كلٍّ ما صح على الآخر، والله قادر على الممكنات كلها. اهـ[2].

أقول: ويجاب عما يورده علماء الطبيعة من أن الجسم الإنساني إنما يمكنه الصعود مسافة مخصوصة، وقد قدروها بنحو سبع كيلو مترات، وبعد ذلك لا يمكنه الصعود، بل يموت إما من كثرة الهواء، أو من شدة حرارته.

بأنكم قد اكتشفتم على أشياء إذا تناولها أو استعملها الإنسان يمكنه أن يقاوم الحر العظيم، والبردَ الشديد؛ كما يفعله الذاهبون إلى استكشاف القطب الشمالي أو الجنوبي، وبهذه الواسطة قد تمكن هؤلاء من الوصول إلى الدرجة الخامسة والثمانين أو أزيدَ من خطوط الطول، والله تعالى قادر أن يجعل في

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٣١).

(٢) انظر: «شرح العقيدة النسفية» للتفتازاني (ص: ١١٠).

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش مَنَعَةً من تأدية الرسالة، وتَسَلُّطَ الكبر والعظمة على قلوبهم، أراد الله أن يُظهر أمرَ الـدين على أيدي غيرهم من العرب، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج في المواسم العربية ـ وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة ـ ويعـرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه، . . . .

جسمه صلى الله عليه وسلم خاصية تقاوم ما هناك من الحرارة والبرودة، وحينئـذ يتمكن من الصعود إلى مسافة بعيـدة لا يعلـم منتهاهـا، ولا يـدرَك مـداها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

العرض على القبائل

قوله: (فكان صلى الله عليه وسلم يخرج في المواسم العربية):

قال في الدحلانيـة: أخفـى صلى الله عليه وسلم رسالته فـي أول أمـره بـأمر من الله تعالى، ثم أعلن بها في السنة الرابعة من النبوة، ودعا إلى الإسلام عشر سـنين يوافي المواسمَ كلَّ عام، يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقـف، يسـأل عـن القبائل قبيلة قبيلة، ويسأل عن منازلهم، ويأتي إليهم في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز[1].

قال الحلبي: وكانت العرب إذا أتت للحج، تقيم بعكاظ شهر شوال، ثـم تجيء إلى سوق مَجَنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سـوق ذي المجـاز فتقـيم فيه إلى أيام الحج[2].

قوله: (ليحموه): قال في الدحلانية نقلاً عن الهشامية: عن بعضهم قال:

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٣).

فكان بعضهم يردُّ ردًّا جميلاً، وآخرون ردًّا قبيحاً. وكان من أقبح القبائل ردًّا: بنو حنيفةَ رهطُ مُسَيْلِمَة الكذاب، وطلب منه بنو عامر. . . . .

إني غلام شاب مع أبي بمنى، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقف في منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان! إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنبئ عن الله ما بعثني به»، وخلفَه رجل أحولُ له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، قال ذلك الرجل: يا بني فلان! إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، فقلت لأبي: من هذا الرجل الذي يتبعه يرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ـ يعني: أبا لهب ـ. اهـ[1].

قوله: (وآخرون ردًّا قبيحاً):

روى الواقدي: أنه صلى الله عليه وسلم أتى بني عبس، وبني سليم، وبني محارب، وبني فزارة، ومرة، وبني النضر، وعذرة، والحضارمة، فردوا عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد، وقالوا: أسرتك وعشيرتك أعلمُ بك حيث لم يتبعوك. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (وطلب منه بنو عامر. . .) إلخ: قال في الدحلانية: قال له رجل

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٠)، والحديث المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٦٠) من طريق الواقدي عن عاصم بن عمر ابن قتادة، ويزيد بن رومان، وغيرهما.

ـ إنْ هم آمنوا به ـ أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: «الأمرُ لله يضعه حيث يشاء»[1].

وكان من الذين يحجّون البيت عربُ يثربَ، وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان: إحداهما من ولد الأوس، والثانية من ولد الخزرج، وهما أَخَوان، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود، . . . .

منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظفرك الله على مَنْ خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: فقال له: أنقاتل العرب دونك؟ وفي رواية: أنهدف نحورنا للعرب دونك؟ أي: نجعل نحورنا هدفاً لنبلهم، فإذا أظفرك الله، كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، وأبوا عليه، وتمامه فيها[2].

قوله: (عرب يثرب): قال في «المصباح»: ثَرَبَ عليه يثرِب، من باب ضرب: عَتَبَ ولامَ، وبالمضارع بياء الغائب سمِّي رجل من العمالقة، وهو الذي بنى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فسميت المدينة باسمه. قاله السهيلي. اهـ[3].

قوله: (لا تضع أوزارها): كناية عن الانقضاء، والمعنى: حتى يضع أهل الحرب أثقالهم، فأسند الفعل إلى الحرب مجازاً. اهـ. مصباح[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٢) ـ عن الزهري، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٢) ـ عن الزهري.

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: ثرب).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: وزر).

وهم: بنو قَينُقاع، وبنو قُرَيظة، وبنو النَّضيرِ، وكان لهم الغَلَبة على يثربَ أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة، وكان اليهود إذا خذلوا، يستفتحون على أعدائهم باسم نبيّ يُبعَث قد قرب زمانُه.

ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم، وشُقَّت عصا الألفة، . . . . .

قوله: (قينقاع . . .) إلخ: ـ بفتح القاف وتثليث النون ـ: شعب من اليهود كانوا بالمدينة.

و**(قُرَيظة)**؛ كـ (جُهَينة): قبيلة من يهود خيبر.

و**(النَّضِير)**: على وزن أَمير: حيّ من يهود خيبر، والنسبة نَضَريّ. اهـ. قاموس[1].

وفي تاريخ المدينة المسمى بـ «وفاء الوفا» للعلامة السمهودي فصل طويل في سبب نزول اليهود بالمدينة، وذكر في ذلك أقوالاً متعددة، منها: ما روي عن بعض أهل السير عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بلغني أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر عليهم، وفرقتهم وذلتهم، تفرقوا، وكانوا يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم منعوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل، ولما خرجوا من أرض الشام، كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب، فينزل بها طائفة منهم، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه، حتى نزل من بني هارون ممن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه جاءٍ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء، فأدركه من أدركه من أبنائهم، فكفروا به وهم يعرفونه حسداً من الأنصار، فسبقوهم إليه[2].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نضر).

(٢) انظر: «وفاء الوفا» للسمهودي (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤١٦).

حالفوا اليهود على أنفسهم، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وآخر الأيام بينهم يومُ بُعاث، قُتل فيه أكثر رؤسائهم، ولم يبق إلا عبدُالله بنُ أُبَيّ ابنُ سلولَ من الخزرج، وأبو عامرٍ الراهبُ من الأوس، ولذلك كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج، فأرسلوا إياسَ بنَ معاذ، وأبا الحَيسر أنسَ بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش، فلما جاؤوا مكة، جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده، . . . .

قوله: (يوم بُعاث): بعاث: ـ بضم الموحدة ـ، وهو مكان قريب من المدينة على ليلتين منها عند بني قريظة، ويقال: إنه حصن للأوس، كان به القتال قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بخمس سنين بين الأوس والخزرج، وكان النصر فيها أولاً للخزرج، ثم صار للأوس.

والأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت بينهما الحروب، فمكثوا على المحاربة والمقاتلة نحو مئة وعشرين سنة. اهـ. حلبي، وبسط ثمة سبب يوم بعاث بما يطول ذكره[2].

قوله: (وكانت عائشة تقول: كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي: أن هذه الأمور كانت سبباً لمجيء الأوس ثم الخزرج إلى مكة حتى اجتمع هذان الوفدان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ودعاهما إلى الإسلام، فهذه الحرب قد مهدت السبيل أمام الدعوة.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٩).

ولا تشركوا به شيئاً، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة»، ثم تلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: يا قوم! هذا ـ والله ـ خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر، وقال له: دعنا منك، لقد جئنا لغير هذا، فسكت[1].

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم، تعَرَّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر منهم يبلُغون السِّتَّةَ، وكلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بنُ مالك من بني زريق، وقُطْبة بن عامر من بني سَلِمة، وعقبة بن عامر من بني حَرَام، وجابر بن عبدالله من بني عبيد ابن عديّ، ودعاهم إلى الإسلام، وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، . . . .

قوله: (فسكت): قال الحلبي بعد قوله: (فسكت): وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، فلما دنا موت إياس، صار يحمد الله ويسبحه ويهلله ويكبره حتى مات، ثم انصرف أولئك الرهط من الخزرج راجعين إلى بلادهم[2].

بدء إسلام الأنصار

قوله: (يبلغون الستة): وقيل: كانوا ثمانية، هؤلاء الستة، وعبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن التيهان، وقد لقيهم عند العقبة التي تضاف إليها الجمرة، فيقال: جمرة العقبة، وهي على يسار القاصد منى من مكة، وبها الآن مسجد يقال له: مسجد البيعة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (سَلِمة): ـ بفتح السين وكسر اللام ـ.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٥) عن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٦١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٦١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٧).

فقال بعضهم لبعض: إنه للنبيُّ الذي كانت تَعِدُكم به يهودُ، فلا يَسْبِقُنَّكُمْ إليه، فآمنوا به وصدّقوه، وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعْهم الله عليك، فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل، وهذا هو بَدء الإسلام لعرب يثرب(1).

العقبة الأولى

فلما كان العام المقبل، قدم اثنا عشر رجلاً، منهم: عَشَرة من الخزرج، . . . .

قوله: (وهذا هو بدء الإسلام): قال ابن هشام: لما رجع هؤلاء إلى المدينة، دَعَوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم(2).

العقبة الأولى

قوله: (العقبة الأولى): صوابه: الثانية؛ لأن إسلام الستة أو الثمانية من الأنصار الذين تقدم ذكرهم كان عند العقبة التي تضاف إليها الجمرة، فيقال: جمرة العقبة.

قوله: (قدم اثنا عشر رجلاً): قال الدحلاني: وهي العقبة الثانية(3).

قوله: (من الخزرج): قال في القاموس: الخزرج ريح، أو الجنوب، والأسد، وقبيلة من الأنصار(4).

---

(1) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٧) ـ عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(2) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٨).

(3) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٨).

(4) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خزرج).

واثنان من الأوس، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعُبادة بن الصامت، ويزيد ابن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان، وعُوَيمُ بن ساعدة وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة، وأسلموا، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تفترض الحرب ـ: على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، . . . .

و(**الأوس**): الإعطاء، والتعويض من الشيء، والذئب، وبلا لام: أبو قبيلة. اهـ[١].

والأوس والخزرج ابنا قَيْلَة، وهي أمهما، نسبا إليها، وهما أبناء حارثة من اليمن. اهـ. من هامش القاموس نقلاً عن شارحه[٢].

قوله: (على بيعة النساء): آية مبايعة النساء في سورة الممتحنة، وقد كانت المبايعة لهن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة.

قوله: (ولا يأتوا ببهتان. . .) إلخ الآية؛ أي: لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم.

قال النسفي: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تُلحِقه بزوجها كذباً؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: أوس).

(٢) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: خزرج).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٤٠).

ولا يعصونه في معروف، فإن وَفَوا، فلهم الجنة، وإن غَشُوا من ذلك شيئاً، فأمرُهم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب، وهذه هي العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعبَ بنَ عُمير العبدريَّ، وعبدالله ابنَ أُم مكتوم ـ وهو ابنُ خالة خديجة ـ يُقرئانهم القرآن، ويفقهانهم في الدين، ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أُمامةَ أسعدَ بنِ زرارة، وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام. وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة، إذ قال سعد بن معاذ ـ رئيس قبيلة الأوس ـ لأُسَيْد بن حُضير ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسَفِّهان ضعفاءنا لتزجرهما؟ فقام لهما أسيد بحربته، فلما رآه أسعد، قال لمصعب: هذا سيد قومه، . .

قوله: (في معروف): في الدحلانية بعد قوله: (في معروف): ونعطيه السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمرَ أهلَه، وأن نقول بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم. اهـ[1].

قوله: (وهذه هي العقبة الأولى): قدمنا أنها الثانية.

قوله: (مصعب): ـ بضم الميم وسكون الصاد وفتح العين ـ.

قوله: (وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام): قال الدحلاني: وأسلم خلق كثير من الأنصار على يده بعد أن اشتد عليهم أمره في أول مجيئه، وكادوا يقتلونه، ثم هداهم الله به[2].

قوله: (لأُسَيد) ـ بالتصغير ـ، وكذا حُضَير.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٨)، والحديث رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٩).

وقد جاءك، فاصدُقِ الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تُسَفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

فقرأ عليه مصعب القرآن، فاستحسن دينَ الإسلام، وهداه الله له، فتشهَّدَ، ورجع إلى سعد، فسأله عمّا فعل، فقال: والله! ما رأيتُ بالرجلين بأساً، فغضب سعد، وقام لهما متغيظاً، ففعل معه مصعب كسابقه، فهداه الله للإسلام.

قوله: (ما تكره) قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليها.

قوله: (فاستحسن دين الإسلام): حيث قال: ما أحسنَ هذا وأجملَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك، وتشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين، ففعل ذلك، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أَحلفُ بالله لقد جاءكم أُسيدُ بنُ حُضَير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله! ما رأيت بها بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعلُ ما أحببتَ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه.

فقام سعد مغضَباً، وقال: ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثم خرج إليهما، ولما أقبل سعد، قال أسعدُ لمصعب: لقد جاءك سيدٌ من ورائه قومُه، إن يتبعْك لا يتخلفْ عنك منهم اثنان، فلما رآهما مطمئنين، عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متبسماً وجرى بينه وبينهما كما جرى بين أسيد بن حضير وبينهما، ولما أسلم رجع إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا إلا قليلاً، وقد

ورجع لرجال بني عبد الأشهل، وهم بطن من الأوس، فقال لهم: ما تعدُّونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، قال: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تُسلموا، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام في دور يثربَ حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام[1].

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج، وبينهم كثير من مُشركيهم، ولما قابل وفدُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة، فأمرهم أن لا يُنبِّهوا في ذلك الوقت نائماً، ولا ينتظروا غائباً؛ لأن كل هذه الأعمال كانت خفيةً من قريش كيلا يطّلعوا على الأمر، فيسعَوا في نقض ما أبرم، . . .

بسط ذلك السيد الدحلاني ـ رحمه الله ـ[2].

العقبة الثانية

قوله: (العقبة الثانية) صوابه: الثالثة؛ لما قدمنا.

قوله: (قدم مكة كثيرون منهم)؛ أي: ومعهم مصعب بن عمير، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمن أسلم، سُرَّ بذلك. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (عند العقبة)؛ أي: أن يوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة؛ حيث المسجدُ اليوم الذي يقال له: مسجد العقبة، ومسجد البيعة.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦) عن عبيدالله ابن المغيرة بن معيقيب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول أمره.

ولما فرغ الأنصار من حجهم، توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمّن معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول، فكانوا يتسللون الرجل والرجلان حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان، وهما: نُسَيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سَلِمة، ووافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه؛ ليكونَ متوثقاً له، فلما اجتمعوا، عرَّفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في مَنَعة من قومه؛ حيث لم يمكِّنوا منه أحداً ممّن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة، ثم قال لهم: إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، . . . . . .

اهـ. دحلاني[1].

قوله: (عمن معهم من المشركين): قال الدحلاني: قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان معنا من جملة المشركين أبو جابر عبدُالله بن حرام سيدٌ من ساداتنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر! إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه للإسلام، فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشهد معنا العقبة. اهـ[2].

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٢)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

وإلا، فدعوه بين عشيرته؛ فإنه لبمكان عظيم.

فقال كبيرهم المتكلمُ عنهم البَراءُ بن معرور: والله! لو كان لنا في أنفسنا غيرُ ما ننطق به، لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذلَ مُهَجنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال: «أشترط لربي: أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ عليكم».

فقال له أبو الهيثم بن التَّيِّهانِ: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال عهوداً، وإنّا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، . . . .

قوله: (فإنهم لبمكان عظيم): قال الدحلاني: وفي رواية أن العباس قال: قد أبى محمد الناسَ كلهم غيرَكم، فإن كنتم أهل قوة وجلَد وبصيرة في الحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبةً ترميكم عن قوس واحد؛ فأروا[1] رأيكم، وائتمروا بينكم، ولا تفرقوا إلا عن ملأ واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه. اهـ[2].

قوله: (متى قدمت عليكم): قال الدحلاني: فقال له ابن رواحة: فإذا فعلنا فما لنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكم الجنة»، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. اهـ[3].

قوله: (وبين الرجال) يعني: أي اليهود.

---

(١) في «الطبقات الكبرى»: «فارتؤوا».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٣)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٣)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥) عن محمد بن كعب القرظي.

ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ فتبسم عليه الصلاة والسلام، وقال: «بل الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدْمَ»؛ أي: إن طالبتم بدم طالبتُ به، وإن أهدرتموه أهدرته.

وحينذاك ابتدأت المبايعة، وهي العقبة الثانية، فبايعه الرجال على ما طلب، وأولُ من بايع: أسعدُ بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور، ثم تخير منهم اثني عشر نقيباً، لكل عشيرة منهم واحد: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وهم: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وأسعد بن زرارة، وأسيد ابن حُضير، والبراء بن معرور، ورافع بن مالك، وسعد بن خيثمة، وسعد ابن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبدالله بن رواحة، وعبدالله بن عمرو، وعبادة ابن الصامت، والمنذر بن عمرو، . . . .

قوله: (والهدم الهدم) يروى بسكون الدال وفتحها، فالهدَم ـ بالتحريك ـ: القبر؛ يعني: أني أقبر حيث تقبرون، وبالسكون وبالفتح أيضاً هو إهدار دم القتيل، يقال: دماؤهم بينهم هدم؛ أي: مهدرة، والمعنى: إن طُلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أُهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا، وهو قول معروف للعرب، يقولون: دمي دمك، وهدمي هدمك، وذلك عند المعاهدة والنصرة. اهـ. «نهاية»[1].

قوله: (فبايعه الرجال على ما طلب): قال الدحلاني: وكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر؛ أي: العرب والعجم، ولما انتهت المبايعة، قال لهم العباس: عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم، وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم، لتجدّن في نصرته وتشدَّن أزره؟ قالوا جميعاً: نعم، قال العباس: اللهم إنك سامع شاهد، وإن ابن أخي

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٢٥٠).

ثم قال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي».

ولأمر ما أراده الله بَلَغَ خبرُ هذه البيعة مشركي قريش، فجاؤوا ودخلوا شِعْبَ الأنصار، وقالوا: يا معشر الخزرج! بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا، وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يَحْصُل منهم شيء في ليلتهم، وعبدالله بن أُبَيّ كبيرُ الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بشيء من ذلك[1].

قد استرعاهم ذمته، واستحفظهم نفسه، اللهم كن لابن أخي شهيداً. اهـ[2].

قوله: (وأنا كفيل على قومي)؛ يعني: المهاجرين.

قوله: (ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بشيء من ذلك): ثم قال: ولو كنت بيثرب، ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني. اهـ[3].

أي: فأوجب هذا الكلام اطمئنان قلوب قريش، فرجعت من عندهم.

قال الدحلاني: ثم نفر الناس من منى، وبحثت قريش عن خبر الأنصار، فوجدوه حقًّا، فلما تحققوا الخبر، اقتفَوا آثارهم، فلم يدركوا إلا سعدَ بن عبادة، والمنذر بن سعد، فأما سعد، فمسك وعذب في الله، وأما المنذر، فأفلت، ثم

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٣) عن عدد من الصحابة، دخل حديث بعضهم في بعض. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٤)، والخبر المذكور رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠٤) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٦).

هجرة المسلمين إلى المدينة

ولما رجع الأنصار إلى المدينة، ظهر بينهم الإسلام أكثرَ من المرة الأولى، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه، فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم، فأمر عليه الصلاة والسلام جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسلَّلون خيفة قريش أن تمنعهم.

أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين. اهـ[1].

وفي «القاموس»: افتأت عليّ الباطل: اختلقه[2].

الهجرة إلى المدينة

قوله: (فازداد عليهم أذى المشركين...) إلخ: لأن قريشاً لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم أوى إلى قوم أهل حرب ونجدة؛ ضيقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذَّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد، وشكوا إليه صلى الله عليه وسلم، واستأذنوه في الهجرة، فمكث أياماً لا يأذن، ثم أذن لهم بالهجرة إلى المدينة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فصاروا يتسللون خيفة قريش...) إلخ: عن علي قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مستخفياً إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى أسهماً في يديه، واختصر عنزته، ومشى قِبَلَ الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: فأت).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٧).

وأول من خرج: أبو سلمةَ المخزوميُّ زوجُ أم سلمة، ومعه زوجُـه، وكان قومها منعوها منه، ولكنهم أطلقوها بعدُ، فَلحقت به.

وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبـادة الله الـذي امتـزج حبّه بلحمهم ودمهم، . . . .

ثم وقـف على الحلـق واحـدةً واحـدةً، ثم قال: شاهت الوجـوه، لا يرغـم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه ـ أي: تفقده ـ وترمل زوجته، ويوتم ولـدُه، فَلْيلْقَني وراء هذا الوادي، قـال علـي: فمـا تبعـه أحـد، ثـم مضـى لوجهـه. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (ومنعوها منه)؛ أي: وأخذ منها ولدها، أخذه قوم أبيه.

قال الدحلاني: فكانت تخرج كل غداة إلـى الأبطـح تبكـي حتـى مضـت سنة، فمر بها رجل من بني عمها، فرحمها، وقـال لقومهـا: أمـا ترحمـون هـذه المسكينة؟! فرَّقتم بينها وبين ولدها وزوجها، فقالوا لها: الحقي زوجـك، فلمـا بلغ ذلك قوم أبي سلمة، ردُّوا عليها ولدها، فركبت بعيراً، وجعلـت ولـدها فـي حجرها، وخرجت تريد المدينة، وما معها أحد مـن خلـق الله تعـالى، حتـى إذا كانت بالتنعيم، لقيت عثمان بن طلحة الحجبي، وكان مشركاً يومئذ، فشيعها إلى المدينة، حتى إذا وافى على قباء، قال لها: هذا زوجك.

وكانت أم سلمة تقول: ما رأيت صاحباً أكرمَ من عثمان بـن طلحـة، فإنـه لما رآني قال: إلى أين؟ قلت: إلى زوجي، قال: أوما معك أحـد؟ قلـت: لا، ما معي إلا الله تعالى، وابني هذا، فقال: والله! لا أتركك، ثم أخـذ بخطـام البعيـر، وسار معي، فكان إذا وصلنا المنزل، أناخ بي، ثم استأخر، حتى إذا نزلت، جاء وأخذ البعير، فحط عنه، ثم قيده في شجرة، ثم أتى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٩)، والخبـر المـذكور رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ١٦٤).

حتى صاروا لا يعبؤون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم ما دام في ذلك رضا الله ورسوله، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعليّ وصهيب وزيدُ بن حارثة، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكِّنهم حالُهم من الهجرة.

دنا الرواح، قام إلى بعيري فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت، أخذ بخطامه. اهـ[1].

قوله: (وصهيب) قال الدحلاني: لما أراد صهيب الهجرة، وكانت هجرته بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، ثم تريد أن تخرج بمالك، لا ـ والله ـ لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي، أتخلوا سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلتها لكم، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ربح صهيب»، وفيه نزل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٠٧][2].

قال: فلما قدمتُ المدينة وجدتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر جالسين، فلما رآني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، قام فبشرني بالآية التي نزلت فيَّ. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩)، ورواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦) ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢٧) عن أبي عثمان النهدي، و(٣/ ٢٢٨) عن سعيد بن المسيب.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠١)، والخبر رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣٠٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٥٢)، من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٦٤): رواه الطبراني، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك.

وقد أراد أبو بكر الهجرة، فقال لـه عليـه الصـلاة والسـلام: «علـى رِسْلك؛ فإني أرجو أن يؤذَن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجـو ذلـك بـأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه علـى رسـول الله ليصـحبه، وعلـف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر استعداداً لذلك[١].

دار الندوة

أما قريش، فكانوا كأنهم أُصيبوا بمَسِّ الشيطان حينما طـرق مسـامعهم مبايعة الأنصار له على الذَّود عنه حتى الموت، فـاجتمع رؤسـاؤهم وقـادتهم في دار الندوة ـ وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضـي أمـراً إلا فيها ـ يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه، . . . .

قوله: (وعلف راحلتين): قال الدحلاني: علفهما أربعة أشهر[٢].

و**(السمر)** ـ بفتح السين وضم الميم ـ: واحـده سمرة، ويقال لـه: الخَبَط ـ بفتحتين ـ.

قال في «النهاية»: وهو ضرب من شجر الطلح[٣].

دار الندوة

قوله: (دار الندوة): دار الندوة هي دار قصي بن كلاب، وهـي مـن جهـة الحجر عند مقام الحنفي الآن، وكان لها بـاب إلـى المسـجد أُحـدث للاجتمـاع والمشورة، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، وكانوا لا يُدخلون فيها غيرَ قرشي

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٧) من حديث عائشة ـ رضـي الله عنهـا ـ، وانظـر: «السـيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٣٩٩).

فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كي نستريح منه، فرُفِض هـذا الـرأي؛ لأنهم قالوا: إذا خرج، اجتمعت حوله الجمـوع؛ لمـا يرونـه مـن حـلاوة منطقه، وعذوبة لفظه.

وقال آخر: نُوْثقه ونحبسه حتـى يدركـه مـا أدرك الشـعراء قبلـه مـن الموت، فرُفِض هذا الرأي كسابقه، لأنهم قالوا: إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره، ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه؛ حيث يُفَضِّلونه على الآبـاء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك، جاؤوا لتخليصه، وربما جرّ هـذا مـن الحـرب علينا ما نحن في غِنًى عنه.

وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنعَ بنـي أبيـه مـن الأخـذ بثـأره، نأخذ من كل قبيلة شابًّا جَلْداً يجتمعـون أمـام داره، فـإذا خـرج، ضـربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبـد منـاف علـى حرب قريش كلهم، بل يرضون بالدية، فأقرّوا هذا الرأي[1].

إلا إن بلغ الأربعين سنة؛ بخلاف القرشي، وقد أدخلـوا أبـا جهـل ولـم تتكامـل لحيته. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فقال قائل منهم...) إلخ: هو الأسود بن ربيعة.

وقوله: (وقال آخر): هو أبو البختري بن هشام.

قوله: (وقال لهم طاغيتهم) هو أبو جهل ـ لعنه الله ـ.

قوله: (فأقروا هذا الرأي...) إلخ: ولما كان الليل، اجتمعوا على بابـه

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦ ـ ٨) ـ عن عبدالله بـن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ١٨٩ ـ ١٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

هذا مكرُهم، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. فأعلم نبيَّه بما دبره الأعداء في سرّهم، وأمره باللحاق بدار هجرته، بدار فيها ينشر الإسلام، . . . .

يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه، وكانوا مئة.

وقيل: أحدقوا ببابه وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهراً، فيذهب دمه في جميع القبائل بمشاهدة بني هاشم، فلا يتم لهم أخذ ثأره.

قوله: (فأعلم نبيه . . .) إلخ: قال الحلبي: فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا تبتْ هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه، وأخبره بمكرهم[1].

قال الدحلاني: فأمر عليه الصلاة والسلام عليًّا فنام مكانه، وغُطي ببردٍ له صلى الله عليه وسلم بقوله صلى الله عليه وسلم: «اتشح ببردي هذا الحضرميّ الأخضر فنم فيه؛ فإنه لن يخلُص إليك شيء تكرهه منهم»، وكان صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام، فكان عليٌّ أولَ من شرى نفسه ابتغاء مرضاته، ووقى بنفسه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم[2].

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب عليهم، وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٩١).

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٩) ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزةُ والمنعة.

وهذا من الحكمة بمكان عظيم؛ فإنه لو انتشر الإسلام بمكة، لقال المبغضون: إن قريشاً أرادوا مُلْكَ العرب، فعمَدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أنْ يدَّعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم، ولكنهم كانوا له أعداء ألدَّاء، آذَوْه شديدَ الأذى حتى اختار الله له مفارقةَ بلادهم والبعدَ عنهم.

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فتوجه من ساعته إلى صديقه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وأعلمَه أن الله قد أذِنَ له في الهجرة، فسأله أبو بكر الصحبةَ، فقال: «نعم»، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدَّتين لذلك، فجهزهما أحثّ الجهاز، . . . .

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

قوله: (هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ: كان خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة أول يوم من ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وكانت مدة مقامه بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة. اهـ. دحلاني[1].

قال الحلبي: إن بين ابتداء هجرة الصحابة، وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين ونصف[2].

قوله: (فجهزاهما أحث الجهاز. . .) إلخ: الذي في الحلبي والدحلاني: قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، فيكون المجهز: أبو بكر وعائشة وأسماء؛ خلافاً لما يفيده ظاهر العبارة هنا من أن المجهز هو النبي صلى الله عليه وسلم،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٩).

وصُنعت لهما سُفْرَة في جِرَاب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ نِطاقها، وربطت به على فم الجراب، واستأجرا عبدَ الله بنَ أُرَيقط من بني الدِّيل بنِ بكر، وكان هادياً ماهراً، وهو على دين كفار قريش، فأمِنَاه، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليالٍ.

ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر، وواعده المقابلةَ ليلاً خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرّوا عليه، فاجتمعوا حول باب الدار، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم داخله، فلما جاء ميعاد الخروج، أمر ابنَ عمه علياً ـ رضي الله عنه ـ بالمبيت مكانه؛ كي لا يقع الشك في وجوده أثناء الليل؛ . . . .

وأبو بكر.

وأحثُّ الجهاز: أسرعُه[1].

قوله: (سفرة)؛ أي: زاداً في جراب؛ لأن السفرة في الأصل: الزادُ الذي يصنع للمسافر، ثم استعمل في وعاء الزاد، وكان في السفرة شاة مطبوخة.

قوله: (واستأجرا عبدالله بن أريقط. . .) إلخ: في رواية: أنهما أرسلا أسماء بعد ثلاث إلى علي، فاستأجر لهما عبدالله، وأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث. اهـ. حلبي[2].

قوله: (فأمناه) ـ بفتح الهمزة وكسر الميم ـ؛ أي: ائتمناه. اهـ. «شرح الشرقاوي على مختصر الزبيدي» للبخاري.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ٣٠٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجودَه، ثم سَجَّى عليّاً ببُرده، وخرج على القوم وهو يقرأ: «﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩]»، فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائراً حتى تقابل مع الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، وسارا حتى بلغا غارَ ثور، فاختفيا فيه[(١)].

أما المشركون، فلما علموا بفساد مكرهم، وأنهم إنما باتوا يحرسون عليَّ بنَ أبي طالب، لا محمدَ بنَ عبدالله، هاجت عواطفهم، فأرسلوا الطلب من كل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد، أو يدلُّ عليه، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طِلْبَتُهم؛ بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه، لنظرهما، حتى أبكى ذلك أبا بكر، فقال له عليه الصلاة والسلام: «﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]»[(٢)].

قوله: (من شقوق الباب... إلخ)، وإنما لم يتسوروا الجدار مع قصره؛ لأن ذلك كان عاراً عند العرب.

قوله: (فألقى الله النوم عليهم): قدمنا أنه نثر على رؤوسهم التراب، فأخذ الله على أبصارهم فلم يروه.

قوله: (فأرسلوا الطلب): جمع طالب، وهو ـ بفتح الطاء واللام، وبضم الطاء وتشديد اللام ـ.

قوله: (﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾): يروى: أن أبا بكر لما رأى القافة، اشتد حزنه وبكى، وقال: إن قتلتُ فإنما أنا رجل واحد لا تهلك الأمة بقتلي،

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٨) ـ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٤١٢) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يَحِنْ لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار، بل صار أعدى الأعداء أميةُ بنُ خلف يبعِّد لهم اختفاءَ المطلوبين في مثل هذا الغار[1].

فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب. وكان يبيتُ عندهم عبدالله ابن أبي بكر، وهو شابٌّ ثَقِفٌ ولَقِنٌ، فَيُدْلِج من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فُهَيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعةٌ من العشاء، ويغدو بها عليهما، . . . .

فلا يفوتُهم نفع، ولا يلحقهم ضرر، وإن هلكتَ أنتَ، هلكت الأمةُ بهلاك الدين، فعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾»[2].

قوله: (وهو شاب ثَقِفٌ) كحِبْر وككَتِف؛ أي: حاذق خفيف.

واللقن ـ بفتح اللام وكسر القاف ـ: السريع الفهم.

وقوله: (فيدلج): ـ بالتشديد ـ؛ لأنه بالتشديد: السيرُ في آخر الليل، وبالتخفيف: السير في أوله. اهـ. قاموس وهامشه[3].

قوله: (يُكتادان): وفي رواية: يُكادان به[4] ـ؛ أي: يطلب لهما فيه المكروه.

قوله: (وكان عامر بن فهيرة): في الدحلاني: هو مولى أبي بكر رضي الله عنه، وكان أميناً مؤتمناً حسن الإسلام، وكان ممن يعذب في الله، فاشتراه أبو بكر

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) أوردها السهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٣١٧).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: دلج).

(٤) رواه البخاري (٥٨٠٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فإذا خرج من عندهما عبدُالله، تَبع أثرَه عامرٌ بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثـر. ولما انقطع الطلب، خرجا بعد أن جاءهما الدليلُ بالراحلتين صبحَ ثلاث، وسارا متبعين طريق الساحل.

وفي الطريق لحقهم طالباً سُراقةُ بن مالك المُدْلِجيُّ، وكـان قـد رأى رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكـر ـ رضي الله عنه ـ دية كل واحد منهما مئة ناقة لمن قتلـه، أو أسـره. فبينمـا هو في مجلس من مجالس قومه بني مُدلِج، إذ أقبل رجل منهم حتـى قـام عليهم وهم جلوس فقال: يا سُراقة! إني رأيت آنفاً أَسْوِدَةً بالسـاحل أراهـا محمداً وأصحابه، فعرف سراقةُ أنهم هم، ولكنه أراد أن يثني عزم مُخبـره عن طلبهم، فقال: إنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننـا يبتغـون ضَـالَّةً لهم، ثم لبث في المجلس ساعة، وقام وركب فرسه، ثم سار، حتـى دنـا من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، فعثرت به فرسُه، فخرّ عنها، ثـم ركبها ثانياً، وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى، وهـو لا يلتفـت، وأبـو بكر يُكثِر الالتفات، . . . .

وأعتقه، واستشهد ببئر معونة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم[1].

قوله: (دية) هي مئة ناقة.

وقوله: (بني مدلج)؛ أي: بقديد، وهو محل قريب من رابغ.

وقوله: (أسودة)؛ أي: أشخاصاً.

وقوله: (بأعيننا)؛ أي: بمعرفتنا.

قوله: (وأبو بكر يكثر الالتفات): قال الدحلاني: فلما دنا منا، وكان بيننا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٤).

فساخت قائمتا فرس سراقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخرّ عنها، ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تُخرج يديها حتى سَطَع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فعلِمَ سراقة أن عمله ضائع سُدًى، وداخلَه رعبٌ عظيم، فناداهما بالأمان، فوقف عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه حتى جاءهم، ويقول سُراقة: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أَنْ سيظهر أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرَهما بما يريد بهما الناس، وعرض عليهما الزاد والمتاع، فلم يأخذا منه شيئاً، بل قالا له: أخفِ عنّا، فسأله سراقة أن يكتب له كتابَ أمنٍ، . .

وبينه رمحان أو ثلاثة، قلت: هذا الطلب قد لحقنا، وبكيتُ، قال صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك؟» قلت: أما والله! ما على نفسي أبكي، ولكن عليك، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اكفناه بما شئت»، فساخت قوائم فرسه حتى بلغت الركبتين[1].

وقوله: (ساخت)؛ أي: غابت.

قوله: (فناداهما بالأمان): قال الدحلاني: روي في بعض التفاسير: أنه عاهد الله سبع مرات، ثم ينكث العهد، وكلما ينكث العهد، تغوص قوائم فرسه في الأرض. اهـ[2].

قوله: (فلم يأخذا منه شيئاً): قال الدحلاني: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا سراقة! إذا لم ترغب في دين الإسلام؛ فإني لا أرغب في إبلك ومواشيك»[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢) من حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٩)، والخبر المذكور =

فأمر أبا بكر فكتب[1].

وبذلك انقضت هـذه المشكلـة التي أظهـر الله فيهـا عنايتـه برسـوله صلى الله عليه وسلم.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقدومه عليهم، يخرجون إلى الحَرَّة حتى يردّهم حرُّ الظهيرة، فـانقلبوا يومـاً بعد أن طال انتظارُهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود. . . . . . .

قوله: (فأمر أبا بكر فكتب): صـوابه: فـأمر عـامرَ بـنَ فهيـرة ـ كمـا فـي الدحلاني ـ[2]، أو لعله رواية أخرى.

قوله: (وبذلك انقضت هذه المشكلة): قال الدحلاني: وجاء فـي الحـديث من تمام القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة: «كيف بك إذا لبسـتَ سوارَيْ كسرى؟»، وفي رواية: «إذا تسوَّرت بسواري كسرى؟» قال: كسـرى بـن هرمز؟ قال: «نعم»، فعجب من ذلك، وقد حصل ذلك في خلافة عمر ـ رضـي الله عنه ـ كما بسطه الدحلاني[3].

قوله: (أوفى)؛ أي: أشرفَ.

= أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٢١٨).

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦) عن سراقة بن جعشم ـ رضي الله عنه ـ، ولكن فيه: فـأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم. وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٧٥ ـ ١٧٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢١٧ ـ ٢٢٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٩)، وكذا عنـد البخـاري (٣٩٠٦) من حديث سراقة بن جعشم ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحـلان (١/ ٣١٩)، والخبـر المـذكور أورده ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٣٩٧) من حديث الحسن البصري.

على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبَصُر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يزول بهم السراب، يُظهرهم تارة، ويُخفيهم أخرى، فقال اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جَدُّكُم ـ أي: حظكم ـ الذي تنتظرون، فثاروا إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحَرَّة[1].

النزول بقُباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء[2].

والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي: أن ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، وهذا أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاثَ عشرةَ سنة، وهو مُضَيَّق عليه من مشركي قريش، . . . .

وقوله: (أطم): ـ بضم الهمزة وسكون الطاء، وبضمها ـ.

قوله: (يظهرهم تارة . . . إلخ) تفسير لقوله: يزول بهم السراب.

قوله: (فتلقوا رسول الله): كان المستقبلون له صلى الله عليه وسلم يزيدون على خمس مئة من الأنصار. اهـ. دحلاني[3].

النزول بقباء

قوله: (النزول بقباء): قال في «معجم البلدان»: قبا أصلُه: اسم بئر هناك عُرفت القريةُ بها، وهو يُمَدّ ويقصر، ويصرف ولا يصرف، وهي على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، وهي مساكن بني عمرو بن عوف، بها أثر بنيان

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٢).

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ممنوع من الجهر بعبادة ربه، أما الآن، فقد آواه الله هو وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس[1].

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمّت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سُنَّةُ إخوانه من الأنبياء من قَبله، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشأته، فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء، وخليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم ـ على عظيم درجاتهم، ورفعة مقامهم ـ أهينوا من عشائرهم، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متّبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله.

فَسَلْ مصر وتاريخها تُنبْئكَ عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه: أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بَنِيها ترحيباً بهم، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته، ولما مضت سنون، نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضلَه عليهم، فاضطَهدوا بني إسرائيل وآذَوْهم، خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته، . . . .

كثير، وهناك مسجد التقوى، قدَّامه رصيف وفضاء حسن، وآبار ومياه عذبة. اهـ[2].

والميلان: ساعة.

هجرة الأنبياء

قوله: (إلا نبت به): في «القاموس»: نبا به منزله: لم يوافقه[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٢).

(٢) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٤/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نبو).

وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذَّبوه، فأرادوا الفتكَ بـه، حتـى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه: طوبى للمطرودين من أجل البـر، لأن لهـم ملكوت السموات ثم قـال بعـد: افرحـوا وتهلّلـوا؛ لأن أجـركم عظـيم فـي السماوات، فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

وسَل القرى التي حلّت بها نقمةُ الله بكفرِ أهلها؛ كـديار لـوط وعـاد وثمود، تنبئْكَ عن مُهَاجَرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة، فلا غرابة أنْ هـاجر عليه الصلاة والسلام من بلاد منعه أهلُها من تتميم ما أراده الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٦٢].

قوله: (كديار لوط): وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[الحجر: ٦٥]، فأخرج الله لوطاً إلى الشام.

وقوله: (وعاد): هم قوم هود؛ فإنه لما أهلك الله قومه بالريح، اعتزل مع مَنْ آمن به، وأتى من الأحقاف إلى حضرموت، ومات بها، وقيل: بالحجر بمكة.

وقوله: (وثمود): هم قوم صالح، وما إن أهلكهم الله بالصيحة لما عقروا الناقة، وأصبحوا في ديارهم جاثمين، سار صالح من بلادهم إلى الشـام، ونـزل فلسطين، ثم انتقل إلى مكة فمات بها.

قوله: (فلا غرابة أن هاجر عليه السلام...) إلخ: يعجبني هنا مـا أنشـده الصفدي في شرح لامية العجم من قصيدة لأبي الغنائم، أولها:

سِـــرْ طالبـــاً غاياتهـــا إمَّـــا تُـــرى ... فــوق الثُّريـا أو تُـرى تحـت الثـرى

لا تُخلـــدنَّ إلـــى المُقـــام فإنمـــا ... سـيرُ الهـلال قضـى لـه أن يُقمِـرا[1]

---

(١) انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» (قسم شعراء العـراق) للعمـاد الأصـبهاني (٦/ ٤٣٣)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» لنور الدين اليوسي (١/ ٣٤٩).

ومنها:

لو ينتجُ الوطن العلا ما سار عن ... غمدانَ سيدُ حِمْيَرٍ مستنصِرا

ولو استتمَّ بمكةٍ لمحمدٍ ... ما رام لم ينصِبْ بيثرِبَ مِنبرا

والليثُ لو وجدَ الفريسة رابضاً ... أو ناهضاً في خِيسه[١] ما أَصْحَرا

لا عارَ في بيع النفوس على الرَّدى ... عندي إذا كان العلاءُ المُشتَرى[٢]

وقول ابن منير الطرابلسي المدفون في جبل الجوشن بحلب في مطلع قصيدة:

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَه ... في منزلٍ[٣] فالحزمُ أن يترحَّلا

كالبدرِ لما أنْ تضاءل جَدَّ في ... طلب الكمال فحازه متنقّلا

سَفَهاً لحلمِكَ إن رضيتَ بمشربٍ ... رنقٍ ورزقُ الله قد ملأ المَلا

ساهَمْتَ عِيسَكَ مُرَّ عيشِك قاعداً ... أفلا فليتَ[٤] بهنَّ ناصية الفلا

فارقْ تَرُقْ كالسيفِ سُلَّ فبان في ... مَتْنَيْهِ ما أخفى القِراب وأخملا

للقفر لا للفقر هبها إنما ... مغناك ما أغناك أن تتوسَّلا[٥]

---

(١) في هامش الأصل: «الخيس: موضع الأسد».

(٢) انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» (قسم شعراء العراق) للعماد الأصبهاني (٦/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٣) في «ديوان ابن منير الطرابلسي»: «بلدة»، والمثبت موافق لما في «صبح الأعشى» (١/ ٢٢٢).

(٤) في هامش الأصل: «فليت: خربت».

(٥) انظر: «ديوان ابن منير الطرابلسي» (ص: ١٠٢ ـ ١٠٣).

أعمال مكة

هذا، ولْنبيّنْ لك مجملَ ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة من أصول الدين، وذلك أمران:

الأول: الاعتقاد بوحدانية الله، وأن لا يُشرَك معه في العبادة غيرُه، سواء كان ذلك الغير صنماً؛ كما يفعل مُشرِكو مكة، أو أباً أو زوجةً أو بنتاً؛ كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى، ولولا الاعتقاد بوحدانية الله، ما كَلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق، بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس.

الثاني: الاعتقاد بالبعث والنشور، . . . .

أعمال مكة

قوله: (ولولا الاعتقاد): هذا لا يصلح علة لقبول التكاليف، والذي أراه علة ذلك: هو خوف العذاب والعقاب، ورجاء الحصول على الجزاء والثواب، إلا كل العارفين بالله تعالى.

ويعجبني[١] هنا قول أبي العلاء المعرِّي:

وأعبدُ الله لا أرجو مثابَتَهُ   لكنْ تعبد إجلال وإعظام[٢]

وقول رابعة العدوية في بعض مناجاتها بما معناه: إلهي! ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن عبدتك لأنك تستحق العبادة لعظمتك وجلالك[٣].

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) انظر: «نكث الهميان» للصفدي (ص: ٨٥)، وفيه: «إكرام وإجلال» بدل «إجلال وإعظام».

(٣) أورده الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٢٥٠) بنحوه.

وأن هناك يوماً ثانياً للإنسان يُجازى فيه على ما صنعه في الـدنيا، إن خيـراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكيّة، فقلّما نرى سورة من سـور مكـة إلا مشـحونة بالاسـتدلال عليهمـا، وتـوبيخ مـن تركهما، وكل ذلك بأساليبَ تأخذ بالعقل، وبراهينَ لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته ممّا يضيع الوقت سدًى.

ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من القرآن معظمُـه، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه، وهي: البقرة، آل عمـران، النسـاء، المائدة، الأنفـال، التوبـة، الحـج، النـور، الأحـزاب، القتـال، الفـتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنـة، الصـف، الجمعـة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، هذه كلها مدنيـة، وبـاقي القرآن مكّي.

ولما نزل عليه الصلاة والسلام بقُباء، نزل على شيخ بني عمرو كُلثومِ ابن الهدم، وكان يجلس للناس، ويتحدث لهم في بيت سعد بن خَيثمة؛ . . .

قوله: (التغابن): هو يوم القيامة؛ لأن أهل الجنة تغبن فيه أهل النار.

قوله: (كلثوم): كلثم لحم الوجـه كلثمـة: اجتمع بلا جهومـة، والكلثوم ـ بضم الكاف ـ: الكثير لحم الخدين والوجه، وسمي الهدم ـ بفتح الهاء وسكون الدال ـ.

قال الدحلاني: وكان كلثوم يومئذ مشركـاً، ثم أسلم، وقيـل: أسلم قبـل وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعند وصوله صلى الله عليـه وسـلم نـادى كلثوم: يا نجيح! لغلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكـر ـ رضـي الله عنه ـ: «أنجحت يا أبا بكر». اهـ[1].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٢)، والخبر المذكور =

لأَنَه كان عزباً. ونزل أبو بكر بالسُّنْح (محلة بالمدينة) على خارجةَ بنِ زيد من بني الحارث من الخزرج[1].

مسجد قُباء

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ليالي أسّس فيها مسجد قباء. .

قوله: (بالسنح): ـ بضم السين وسكون النون ـ.

مسجد قباء

قوله: (لياليَ): قال الحلبي: قال بعضهم: كانت أربع ليال، بقية يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة، وقيل: لبث بضع عشرة ليلة، وهو المنقول عن البخاري[2].

وفي «صحيح مسلم» أنه أقام أربعة عشر يوماً. اهـ[3].

قوله: (أسس فيها مسجد قباء) قال الحلبي: كان محل قباء مِرْبَداً ـ أي: محلًّا يُجفف فيه التمر ـ لكلثومِ بنِ الهدم، وهو أولُ مسجد بني في الإسلام لعموم المسلمين[4].

ثم قال: وجاء: أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد بناءه قال: «يا أهل قباء!

= رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥/ ٢٣٩١) من حديث عبد الرحمن بن يزيد ابن جارية.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٢).

(٢) روى البخاري (٣٩٣٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ نزل في علو المدينة في حيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٦)، والخبر المذكور رواه مسلم (٥٣٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٦).

الذي وصفه الله بأنه مسجد أُسس على التقوى من أول يوم، وصلَّى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين، وهم آمنون مطمئنون، وكانت المساجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غاية من البساطة، ليس فيها شيء مما اعتاده بُناة المساجد في القرون الأخيرة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكن جُلُّ همّهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب، وتنظيفها من حظ الشيطان، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة، وفوقه مِظلةٌ يُتَّقى بها حرّ الشمس[١].

الوصول إلى المدينة

ثم تحوَّل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة. . . . .

إيتوني بأحجار من الحَرَّة»، فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخط القبلة، وأخذ حجراً فوضعه، ثم قال: «يا أبا بكر! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجري»، ثم قال: «يا عمر! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر»، ثم قال: «يا عثمان! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر»[٢].

قال بعضهم: كأنه صلى الله عليه وسلم أشار إلى ترتيب الخلافة[٣].

قوله: (الذي وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى).

الوصول إلى المدينة

قوله: (ثم تحول عليه السلام إلى المدينة): قال الدحلاني: ولما ركب

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ٢٧٠).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٥٣)، من حديث سفينةَ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه زيادة: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هؤلاء الخلفاء من بعدي».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٧).

والأنصارُ محيطون به متقلدي سيوفهم، وهنا حدّثْ ولا حَرَجَ عن سرور أهل المدينة، فكان يومُ تحوله إليهم يوماً سعيداً لم يُروا فرحين بشيء فرحَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البَدرُ علينا ... من ثَنِيَّاتِ الوداع

صلى الله عليه وسلم وخرج من قباء، سار الناس معه ما بين ماش وراكب، ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة حرصاً على كرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً له، حتى دخل المدينة الشريفة، وقال بنو عمرو بن عوف له حين أراد الخروج من قباء: يا رسول الله! أخرجْتَ ملالاً لنا، أو تريد داراً خيراً من ديارنا؟ قال: «إني أُمرت بقرية تأكل القرى[1] ـ أي: تغلبها وتقهرها، والمراد هنا: أن أهلها يفتحون القرى ـ، فخلُّوا سبيلَها»[2].

قوله: (وخرج النساء والصبيان): قال الحلبي: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أضاء منها كل شيء[3].

وصعِدت ذواتُ الخدر على الأجاجير ـ أي: الأسطحة ـ عند قدومه صلى الله عليه وسلم يُعْلِنَّ: طلع البدر علينا، ولعبت الحبشةُ بحرابها فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم[4].

قوله: (من ثنيات الوداع): الثنية: العقبة، وتجمع على ثنيات، وثنيات

---

(١) روى البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤)، والخبر المذكور رواه البيهقي (٢/ ٤٩٧ ـ ٥٠١) عن موسى بن عقبة.

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٨)، وقال: حديث غريب صحيح.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٤، ٢٤٠).

وجـــب الشـــكر علينـــا مـــــا دعـــــا لله داع

أيُّهـــا المبعـــوثُ فينـــا جئـــتَ بـــالأمرِ المُطـــاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمامَ ناقته، كلٌّ يريد أن يكون نزيله[1].

أول جمعة

وأدركته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلاّها، وهذه أولُ جمعة له عليه الصلاة والسلام، وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حَمِدَ الله، وأثنى عليه، . . . .

الوداع: هي من جهة الشام، إلا أنه صلى الله عليه وسلم جاء من جهتها في دخوله للمدينة عند خروجه من قباء.

وقيل لها: ثنية الوداع؛ لأن المودِّع يمشي مع المسافر من المدينة إليها، وهو اسم قديم جاهلي، وقيل: إسلامي، سمي ذلك المحل لذلك، وقيل غيرُ ذلك. اهـ. حلبي[2].

أول جمعة

(في بني سالم بن عوف): قال الدحلاني: ثم أدركته صلاة الجمعة في مسجد بني عوف، وهو المسجد الذي في بطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويسمى: مسجد الجمعة، فصلاها بمن معه من المسلمين، وكانوا مئة. اهـ[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤).

ثم قال: «أما بعد: أيها الناس! فقدموا لأنفسكم، تَعْلُمنَّ ـ والله ـ ليُصْعَقَنَّ أحدُكم، ثم ليَدَعَنَّ غَنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولَنَّ له ربه ـ ليس له تَرجمان ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً، وأفضَلتُ عليك؟ فما قدَّمْتَ لنفسك؟ فَلَينظُرنَّ يميناً وشِمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ليَنظُرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يَقِيَ وجهه من النار ولو بشِقِّ تمرة فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإنّ بها تُجْزَى الحسنةُ عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١].

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا، وكلما مرّوا على دار من دور الأنصار، يتضرّعُ إليه أهلها بأن ينزل عندهم، ويأخذون بزمام الناقة، فيقول: «دعوها فإنها مأمورة»، . . .

قوله: (ليصعقن أحدكم): الصعق: أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه، وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً. اهـ. «نهاية»[٢].

النزول على أبي أيوب

قوله: (يتضرع إليه)؛ أي: فبعضهم كان يقول له: يا رسول الله! هلُمَّ إلى القوة والمنعة، وبعضهم يقول: أقم عندنا في العز والثروة والمنعة، وبعضهم يقول: انزل فينا؛ فإن فينا العدد والعدد والحلقة ـ أي: السلاح ـ ونحن أصحاب للحلائف والدرك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم وهو مبتسم: «بارك الله فيكم، خلوا سبيلها ـ أي: الناقة ـ فإنها مأمورة»[٣].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٤) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٤٢).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٠١) عن موسى بن عقبة بنحوه، =

ولم تَزَل سائرةً حتى أتت بِفنَاء بني عَدِيٍّ بنِ النجار ـ وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشمٌ جدُّه ـ ، فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوبَ الأنصاريِّ، واسمه: خالدُ بنُ زيد، وذلك مَحلُّ مسجده الشريف، فقال عليه الصلاة والسلام: «هاهنا المنزل إن شاء الله، ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]»[١].

وفي ذلك حكمة بالغة هي أن يكون تخصيصه عليه السلام لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب فيها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحدهم شيئاً. اهـ. دحلاني[٢].

قوله: (بفناء بني عدي بن النجار): قال الدحلاني: لما وصلت إليهم، قالوا له صلى الله عليه وسلم: نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والعزة مع القرابة، لا تجاوزنا لغيرنا يا رسول الله، ليس أحد من قومك أولى بك منا لقرابتنا، فأجابهم بمثل ما تقدم، وبأنها مأمورة، فانطلقت حتى بركت بمحلة من محلاتهم. اهـ[٣].

وقال بعد ذلك: وجاء في رواية: أن ناقته صلى الله عليه وسلم حين بركت في دار بني النجار جاء رجل من بني سلمة، وهو جبار بن صخر ـ رضي الله عنه ـ، وكان من صالحي المسلمين، فجعل ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل في دار سلمة، فلم تفعل. اهـ[٤].

= و(٢/ ٥٠٨) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(١) رواه مسلم (٢٢١٩/ ٩٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «هذا المنزل إن شاء الله»، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٣/ ٢٧٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٧).

فاحتمل أبو أيوب رَحْله، ووضعه في منزله، وجاء أسعدُ بنُ زرارةَ فأخذ بزمام ناقته، فكانت عنده، وخرجت ولائدُ بني النجار يقلن:

نَحْنُ جَوارٍ من بني النَّجَّارِ   يا حبّذا محمدٌ مِنْ جَارِ

فخرج إليهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أتحببنني؟» فقلن: نعم، فقال: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»[1].

واختار عليه الصلاة والسلام النزول في الدَّوْرِ الأسفل من دار أبي أيوب؛ ليكون أريحَ لزائريه، ولكن لم يرضَ ـ رضي الله عنه ـ ذلك كرامة لرسول الله؛ لما يمكن أن يصيبه من التراب الذي يُحدِثه وطء الأقدام، أو الماء الذي يهراق، فقد اتفق أن كُسرت من زوجته جرّةُ ماء بالليل، فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لهما غيرُها، يمسحان الماء خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم يَزَلْ أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العُلْو، وكانت تأتيه الجِفَانُ كل ليلة من سرَاة الأنصار؛ كسعد بن عبادة، وأسعدَ بن زرارة، وأُم زيد بن ثَابت، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد[2].

قوله: (في الدور الأسفل): قال الدحلاني: قال أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ: لما نزل صلى الله عليه وسلم في بيتي، نزل في السُّفْل، وكنت أنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي! إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت وكن في العلو، وننزل نحن ونكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب! إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٠٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٤ ـ ١٨٦).

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلبُ المهاجرين، تنافسَ فيهم الأنصـار، فحكَّموا القرعةَ بينهم، فما نزل مُهاجريٌّ على أنصاري إلا بقُرعة[1].

أُخُوَّةُ الإسلام

ومن يتأملْ إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتـأثير بشـر، بـل بفضل من الله ورحمته، يفهمْ كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهلِ الكتاب مع قلّة العَدد والعُدد.

فلما خلوت إلى أم أيوب، قلت لها: رسول الله أحقُّ بالعلو منا، تنزل عليه الملائكة، وينزل عليه الوحي، فما بـت تلك الليلـة لا أنـا ولا أم أيـوب بحالـة هنيئة، بل بشرٍّ ليلةٍ لتلك الفكرة، فلما أصبحت قلت: يا رسول الله! ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب، والذي بعثك بالحق! لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً، فلـم يـزل يتضرع إليه حتى تحول إلى العُلْو. اهـ[2].

باختصار قليل: ومكث صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب سبعة أشهر إلى أن بنى المسجد وبعض مساكنه. اهـ. منه[3].

نزول المهاجرين

قوله: (فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة)؛ أي: وكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم. اهـ. دحلاني[4].

أخوة الإسلام

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨).

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى في سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

قوله تعالى: (﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ...﴾) إلخ: قال الواحدي في «أسباب النزول»: سبب نزول الآية: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله! اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، فقال: «لا، ولكنهم يكفونكم المؤونة، وتقاسمونهم الثمرة، والأرضُ أرضكم»، قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى الآية. اهـ[١].

قال البيضاوي: والمراد: أنهم لزموا المدينة والإيمان، وقيل: المعنى تبوؤوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحذف المضاف إليه من الأول، والمضاف من الثاني، أو تبوؤوا الدار، وأخلصوا الإيمان؛ كقوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[٢]

قوله تعالى: (﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾)؛ أي: ما يحمل عليه الحاجة كالطلب والحزازة والحسد والغيظ.

وقوله: (﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾)؛ أي: يقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٨٠)، والخبر المذكور رواه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٠٦) عن يزيد بن الأصم.

(٢) البيت من الرجز، وهو لذي الرُّمَّة. انظر: «ديوانه» (ص: ٦٢٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢٠).

وهذا أعلى درجات الأخوة، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُمَكِّنَ بينهم الإخاء، آخى بين المهاجرين والأنصار، فكان كل أنصاري ونزيلُه أخوين في الله[1].

قوله: (آخى بين المهاجرين والأنصار): كان ذلك بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينةَ بخمسة أشهر، وإنما فعل ذلك؛ لتذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، وكان جملة الذين آخى بينهم تسعين رجلاً؛ خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ولما عز الإسلام، واجتمع الشمل، أبطلَ المواريثَ بين المتواخين، وجعل المؤمنين كلهم أخوة، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبذل الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ جهدَهم في ذلك. اهـ. دحلاني[2].

ومن جملة من آخى بينهما: سعدُ بن الربيع وعبدُ الرحمن بن عوف، فقال سعد له: إني من أكثر الأنصار مالاً، فأنا مقاسمك، وعندي امرأتان، فأنا مطلِّق إحداهما، فإذا انقضت عدتها فتزوجْها، فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك. اهـ. منه[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٧٨١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

وفي هامش الأصل: «هنا ننقل ما في «وفاء الوفا» للسمهودي (تاريخ المدينة) (ص: ١٩١) من قوله: وأخرج الحاكم... إلخ».

والنص المشار إليه هو ما قاله السمهودي في «وفاء الوفا» (١/ ٢٠٨): «وأخرج =

ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضّح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية، بل نَكِلُ ذلك للإحساس الإسلامي؛ فإنه أفصحُ منطقاً من القلم. وعلى الإجمال، فتلك قلوب أَلَّفَ الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة، وعسى الله أن يوفّق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين: «تآخيا في الله أَخَوين أخوين»[1].

ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٦].

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة، أرسل زيدَ بنَ حارثة وأبا رافع إلى مكةَ ليأتيا بمن تخلّف من أهله، . . . .

قوله: **(ومن العبث)**: العبث: هو عملُ ما لا فائدة فيه. اهـ. مصباح[2].

هجرة أهل البيت

= الحاكم وابن عبد البر بسند حسن: أنه صلَّى الله عليه وسلَّم آخى بين الزبير وابن مسعود، وهما من المهاجرين».

رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٧٢) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٥١١).

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ١٨٣٠) من حديث عبد الرحمن بن عويم ابن ساعدة الأنصاري، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عبث).

وأرسل معهما عبدَالله بن أُرَيقط يدلهما على الطريـق، فقَـدِما بفاطمـةَ وأُم كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام، وسَـودةَ زوجِـه، وأُمِّ أيمـنَ زوجِ زيـدٍ، وابنهما أسامة، وأما زينبُ فمنعها زوجُها أبو العاص بن الربيع، وخرج مع الجميع عبدُالله بن أبي بكر بأُمّ رومان، زوجِ أبيه، وعائشة أختِـه، وأسـماءَ زوجِ الزبير بن العـوّام، وكانـت حـاملاً بابنهـا عبـدِالله، وهـو أولُ مولـود للمهاجرين بالمدينة[1].

حُمَّى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهـاجرين مـن أهـل مكـة، فأصاب كثيراً منهم الحُمَّى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يعُـودهم، فلما شَكَوا إليه الأمر، قال: «اللهمّ حبب إلينا المدينة كما حببتَ إلينا مكـةَ وأشدَّ، وبارك لنا في مُدِّها وفي صـاعها، وانقـل وباءهـا إلـى الجُحْفَـة». فاستجاب الله جَلَّ وعلا دعوته، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام[2].

قوله: (فمنعها زوجها) دام ذلك إلى أن أُسر ببدر، فلما منَّ عليه، أرسلها إلى المدينة.

قوله: (وعائشة)، وبنى بها صلى الله عليه وسلم على رأس تسعة أشهر من الهجرة في شوال.

حُمّى المدينة

قوله: (موافقاً للمهاجرين): قال الدحلاني: لمـا قـدم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم المدينة، وُعِكَ أبو بكر وبلال ـ رضي الله عنهما ـ بالحمى.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبي (٢/ ٢٨٣).

. . . .

وروى النسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وهي أوبأ أرض الله، أصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، وأصابت الحمى أبا بكر وبلالاً وعامر بن فهيرة، فاستأذنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم، وذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب، فأذن لي، فدخلت عليهم وهم في بيت واحد، فقلت: يا أبت! كيف تجدك؟ وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إذا أخذته الحمى يقول إذا قيل له: كيف تجدك:

كل امرئ مصبح في أهله والموتُ أدنى من شِراكِ نعلِه

قالت: فقلت: إنا لله، إن أبي يهذي، وما يدري ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطَوْقه كالثور يحمي أنفَه برَوْقه

فقلت: هذا ـ والله ـ ما يدري ما يقول، أي: لأنها سألتهم عن حالهم، فأجابوها بما لا تعلق له.

والطوق: الطاقة.

والروق: القَرْن، يضرب مثلاً في الحث على حفظ الحرم.

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يقول: ـ وفي ابن هشام: رفع عقيرته فقال[1] ـ:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ

وهل أردَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣٢).

. . . .

والمراد بالوادي: وادي مكة، والإذخر والجليل: نباتان، وشامة وطفيل: ماءان بقرب مكة.

اللهم العنْ عتبةَ بنَ ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، وأميةَ بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فجئت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، وقلت: يا رسول الله! إنهم ليهذون وما يفعلون من شدة الحمى، فنظر إلى السماء وقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا لمكة أو أشدَّ، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدِّنا، وصَحِّحْها لنا، وانقلْ حُماها إلى الجُحْفَة»(١)، فاستجاب الله له، فطيب هواءها وترابها، وسُكناها والعيشَ بها، حتى إن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها. اهـ(٢).

قال الحلبي: ودعاؤه صلى الله عليه وسلم أن يحبب إليهم المدينة إنما هو لِما جبلت عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه، ومن ثم جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رجلاً بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له: كيف تركت مكة، فذكر من أوصافها الحسنة ما اغرورقت(٣) عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لا تشوقْنا يا فلان»(٤)، وفي رواية قال له: «دع القلوب تقر». اهـ(٥).

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٤٩٥). ورواه البخاري (١٨٨٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٣) في «السيرة الحلبية»: «غرغرت منه».

(٤) أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ١٣٧).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٣)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «دع القلوب تقر» رواه أبو الفتح الأزدي في «المخزون في علم الحديث» =

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة، وحبسوهم وعذبوهم، منهم: الوليد بن الوليد، وعيَّاش بن [أبي] ربيعة، وهشام بن العاص، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته[1].

روي عن الأصمعي قال: سمعت أعرابيًّا يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل، فانظر كيف محبتُه إلى أوطانه، وشوقُه إلى إخواته.

قال المؤلف في الذيل: والجُحْفَةُ: قرية على اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وهي ميقات أهل الشام.

قال الحلبي: وهي قريبة من رابغ محل إحرام من يجيء من جهة مصر حاجًّا، وكان سكانها إذا ذاك يهوداً. اهـ[2].

منع المستضعفين من الهجرة[3]

قوله: (وعياش بن [أبي][4] ربيعة) قال الدحلاني: إن أبا جهل وأخاه

= (ص: ٤٧) من حديث بديح بن سدرة السلمي. وانظر: «الإصابة» لابن حجر (١/ ٩٢).

(١) رواه البخاري (٨٠٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرفع رأسه يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم، فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٣).

(٣) سقط من الأصل: «منع المستضعفين من الهجرة».

(٤) ما بين معكوفتين من «نور اليقين» (ط دار الإيمان)، وقد تم التصويب في المتن المثبت أعلى الصفحة.

وهذا أصل القنوت، وقد حصل في أوقات مختلفة، وَمحالَّ في الصلاة مختلفة، فكان في وتر العشاء، وصلاة الصبح بعدَ الركوع وقبلَه، فروى كل صحابي ما رآه، وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت[1].

الحارث بن هشام ـ هذا أسلم بعد ذلك ـ قدما المدينة، فكلما عياشاً ـ وكان أخاهما لأمهما وابنَ عمهما ـ فقالا له: إن أمك نذرت أن لا تغسل رأسها، ولا يمسَّ رأسها مشط، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، وأنت في دين منه البر للوالدين، فارجع إلى أمك، واعبد ربك كما تعبد في المدينة، فرقت نفسه وصدقهما، وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء.

ونصحه عمر ـ رضي الله عنه ـ، وشاطره ماله، فأبى، ولما خرج راجعاً معهما، كتفاه وجلداه نحواً من مئة جلدة، ودخلا به مكة موثقاً، وقالا: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهائكم، ولما جيء به مكة، أُلقي في الشمس، وحلفت أمه أنه لا يخلى عنه حتى يرجع عما هو عليه، ثم حُبس بمكة مع هشام بن العاص وغيره، وجُعل كل منهما في قيد، وكان ذلك قبل هجرته صلى الله عليه وسلم، ولما أتى المدينة، صار يدعو لهم في قنوت الصبح.

والوليد هو أخو خالد، وكان مع كفار قريش يوم بدر، فأُسر مع من أُسر، وافتكه أخواه خالدٌ وهشام بن الوليد، وذهبا به إلى مكة، فأسلم وأراد الهجرة، فحبس، وقيل له: هلا أسلمت قبل أن تفتدى، فقال: كرهت اليسار، ثم نجا وتوصل إلى المدينة، ثم رجع إلى مكة مستخفياً، وخلص عيَّاشاً وهشاماً، وجاء بهما المدينة، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وشكر صنيعه. اهـ. ملخصاً[2].

❒ ❒ ❒

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٠).




السَّنة الأولى

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مَبْرك ناقته أمام محلّة بني مالك بن النجار، وكان محله مِرْبَداً للتمر يملكه غلامان يتيمان في حِجر أسعدَ بنِ زرارة، فدعا الغلامين، وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة، بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبورٌ للمشركين، وبعضُ حفر ونخل، فأمر بالقبور فنُبشتْ، وبالحفر فَسُوِّيَت، وبالنَّخل فقُطع، . . . .

السنة الأولى

بناء المسجد

قوله: (ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده) كان ابتداء شروعه في بنائه من شهر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، وذلك اثنا عشر شهراً.

قوله: (في حجر أسعد بن زرارة) وقيل: كانا في حجر معاذ بن عفراء، وقيل: في حجر أبي أيوب الأنصاري، قال بعضهم: والظاهر أن الكل كانوا يتكلمون لليتيمين؛ لأنهم بنو عمٍّ، فنسبا إلى حجر كلٍّ. اهـ. حلبي[1].

قوله: (بل ابتاعه منهما) ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك، ويكون وصفهما باليتم باعتبار ما كان. اهـ. حلبي[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٢).

ثم أمر باتخاذ اللبِـن فاتُّخِذ، وشرعوا في البناء به، وجعلوا عِضادَتي الباب من الحجارة، وسقفوه بالجريد، وجُعلت عمدُه من جـذوع النخـل، ولا يزيـد ارتفـاعـه عن القامة إلا قليلاً، وقد عمل فيـه رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم بنفسه؛ ليرغِّـب المسلمين في العمل، وصاروا يرتجزون، وهو يقول معهم:

«اللهـمَّ لا خيـرَ إلا خيـرُ الآخِـرَهْ

قوله: (وسقفوه بالجريد) الجريد: سَعَف النخل، الواحدة: جريـدة فَعيلـة، بمعنى مفعولة، وإنما تسمى جريدة إذا جُرِّد عنها خُوصُها.

والسعف: أغصان النخل ما دامـت بـالخُوص، فـإن زال الخُـوص منهـا، قيل: جريد، الواحدة سَعَفَة؛ مثل قَصَب وقَصَبة.

والخُوص: ورق النخل، واحده: خُوصة.

والجذع: ساق النخلة، والجمع جذوع وأجذاع. اهـ. مصباح[1].

قوله: (يرتجزون)؛ أي: ينشدون شعراً من بحر الرجز، ووزنه مسـتفعلن ست مرات، والأرجوزة: القصيدة من هذا البحر.

قـولـه: (الله لا خيـر. . .) إلـخ: وفـي روايـة: «اللهـم إن الأجـر أجـر الآخرهْ»[2].

وهذا القول لامرأة من الأنصار، وتمامه:

وعـافهم مـن حـرِّ نـار سـاعرهْ فإنهـا لكـافر وكـافرهْ

اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جرد، سعف، خوص، جذع).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٥).

فــارحَمِ الأنصــارَ والمُهــاجِرَهْ»[1]

وجُعلت قبلةُ المسجد في شماله إلى بيت المقدس، وجُعل له ثلاثـة أبواب، ثم حُصِبت أرضه؛ لأن المطر كان قد أثَّر فيه، فـأمر عليـه الصـلاة والسلام بحَصْبه، ولم يزين المسجد بِفُرُشٍ، حتى ولا بالحُصر، وبُني بجانبه حجرتان، إحداهما لسَودةَ بنتِ زمعة، والأخرى لعائشة، ولم يكـن عليـه الصلاة والسلام متزوجاً غيرَهمـا إذ ذاك، وكانـت الحجرتـان متجـاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، . . . .

قوله: **(ثم حصبت أرضه)**: سببه أن المطر جاء ذات ليلة، فأصبحت الأرض مبتلة، فجعل الرجل يأتي بالحصا في ثوبه، فيبسطه تحته ليصلي عليـه، فلمـا قضـى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: «ما أحسنَ هذا!». اهـ. حلبي[2].

قوله: **(على شكل بنائه)**؛ أي: أنهما كانا من لبن، وجعـل سقفهمـا مـن جذوع النخل والجريد. اهـ[3].

قال الحلبي: وعند شروعه في بناء المسجد، قدم رجل مـن أهـل اليمامـة يقال له: طَلْق، من بني حنيفة، فرأى النبيَّ صلى الله عليـه وسـلم يبنـي مسـجده والمسلمون يعملون معه فيه، قال: وكنت صاحب علاج الطين، فأخذت المسحاة، وخلطت بها الطين، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله امْرَأً أحسـن صنعته»، وقال لي: «الزم أنت هذا الشغل، فإني أراك تحسنه»[4].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) عن الزهري.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، والخبـر المـذكور رواه أبو داود (٤٥٨) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧٣)، والحديث المذكور =

وصارت الحُجُرات تُبنى كلما جاءت زوج[1].

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العليّ الأعلى، فيتبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة؛ . . . .

بدء الأذان

قوله: (بدء الأذان)؛ أي: والإقامة، وكلٌّ منهما من خصائص هذه الأمة.

قوله: (أوجب الله . . . إلخ) المراد بالوجوب في كلامه: الواجب اللغوي، وهو الثبوت؛ أي: جعل الله الصلاة على المسلمين ثابتة مستحقة.

قوله: (﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾) والفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع.

وعن أنس: كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوُصف لرسول صلى الله عليه وسلم حالُه، فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً»، فلم يلبث أن تاب، وحَسُن إسلامه. اهـ[2]. «نزهة الناظرين».

= أورده رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (١١/ ١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥١).

(٢) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٩٧): «قال الحافظ ابن حجر: لم أجده، قال الولي العراقي: لم أقف عليه». =

ليذاكر المسلمون بعضُهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم، ويقوّوا روابط الألفة والاتحاد بينهم، ومتى حان وقت الصلاة، فلا بدّ من عمل ينبه الغافل، ويذكّر الساهي حتى يكون الاجتماع عامّاً، فائتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك؛ لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، فلم يُقبل أيضاً، وأشار آخرون ببوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقُبِل هذا الرأي.

وكان أحد المنادين عبدالله بن زيد الأنصاري، . . . .

قوله: (فلم يقبل أيضاً)؛ أي: وقال: ذلك للمجوس.

قوله: (وينادي بها)، وكان اللفظ الذي ينادي به: الصلاة جامعة، كما رواه ابن سعد. اهـ. حلبي[1].

= وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما يقول». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): رجاله رجال الصحيح.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٧)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٦) عن نافع بن جبير، وعروة بن الزبير، وزيد ابن أسلم، وسعيد بن المسيب.

فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهَّد مرتين، ثم قل: حيَّ على الصلاة مرتين، ثـم قـل: حـيَّ علـى الفـلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل: لا إله إلا الله. فلما اسـتيقظ، توجـه إلـى النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبره خبر رؤياه، فقال: «إنها لرؤيا حـق»، ثـم قال له: «لقِّنْ ذلك بلالاً؛ فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بـلال يـؤذن إذ جـاء عمرُ يجر رداءه، فقال: والله! لقد رأيتُ مثلَه يا رسول الله[1].

وكان بلال أحدَ مؤذنيه بالمدينة، والآخرُ عبدُالله ابنُ أُم مكتـوم، وكـان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح: الصلاةُ خيرٌ مـن النـوم، مرتين، وأقرّه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك[2].

قوله: (يجر رداءه)؛ أي: عَجِلاً.

قوله: (وأقره الرسول على ذلك) قال المقريزي في «خطـط مصـر»: أول من قال في الأذان بالليل: محمدٌ وعليٌّ خيرُ البشـر: الحسـينُ المعـروف بـأمير، وكان أول تأذينه بذلك في أيام سيف الدولة بن حمدان في سنة سبع وأربعين وثـلاث مئة، ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه: حيَّ على خير العمل، ومحمدٌ وعليٌّ خيـرُ البشر إلى أيام نور الدين محمود؛ فإنه لما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاويـة؛ استدعى أبا الحسن البلخي إليها، فجاء ومعـه جماعـة مـن الفقهـاء، وألقـى بهـا الدروس، فلما سمع الأذان، أمر الفقهاء أن يصعدوا المنارة وقـت الأذان، وقال

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، من حديث عبدالله بن زيد ـ رضـي الله عنه ـ.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨) من حديث بلال ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لـي رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تثوبن في شيء من الصلوات إلا في صلاة الفجر».

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين: أولُهما يوقَظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور، والثاني للصلاة[1].

وأما الأذان للجمعة، فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان، وكثر الناس، زاد نداءً آخرَ على الزوراء. رواه البخاري[2].

لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع، ومن امتنع، كبوه على رأسه، فصعدوا، وفعلوا ما أمرهم به، واستمر الأمر على ذلك[3].

قوله: (بأذانين)؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم»؛ فإنه يؤذن وقد حل [وقت] الصلاة[4]. اهـ. الجواهر المدنية.

قوله: (الزوراء): ع[5] في المدينة قرب المسجد. اهـ. قاموس[6].

---

(١) رواه البخاري (٦١٧) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٢) رواه البخاري (٩١٢) من حديث السائب بن يزيد ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٣) انظر: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزي (٤/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٤) رواه البخاري (٦١٧)، ومسلم (١٠٩٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، ولفظ البخاري: «إن بلالاً يؤذِّن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابنُ أمِّ مكتوم»، ثم قال: وكان رجلاً أعمى، لا ينادي حتى يقال له: أصبحتَ أصبحتَ.

(٥) في النسختين: «عين»، والصواب المثبت، وهو اختصار لـ: موضع.

(٦) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زور).

ولما تولى هشامُ بنُ عبد الملك، أخذ الأذانَ الذي زاده عثمان بالزوراء، وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه.

فعُلم بذلك: أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان؛ لأنه هو نداء إلى الصلاة، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه، ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد. ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في «المدخل».

قال الحافظ في «فتح الباري»: وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض، واتباعُ السلف الصالح أولى[1]. اهـ.

فعُلم من ذلك كله: أن سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذّن مؤذنُه على المنار، فإذا انتهت الخطبة، أُقيمت الصلاة، وما عدا ذلك فكلُّه ابتداع.

وقال صاحب «المدخل»: هو موضع بالسوق[2].

قوله: (بين يديه): قال في «المدخل» بعد أن ذكر ما ذكره المؤلف هنا عن هشام بن عبد الملك: وسنة النبي صلى الله عليه وسلم أولى أن تتبع. اهـ[3].

قوله: (فكله ابتداع): قال في «المدخل»: قسم العلماء البدعة إلى خمسة أقسام:

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٣٩٤).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٠٨).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٠٨).

أما الإقامة، وهي الدعوة للصلاة في المسجد، فقد اختلفت الروايات في نصها، فرواها محمدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ مفردةً إلّا لفظ: (قد قامت الصلاة)، فمَثْنَى، ورواها مالك بن أنس مفردةً كلها، ورواها أبو حنيفة النعمان مَثْنَى كلها[1].

يهود المدينة

هذا، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمُشركي قريش، ابتلاهم في المدينة بيهودها، وهم: بنو قينقاع، وقريظة، والنضير؛ . . . .

بدعة واجبة: مثل كَتْبِ العلم؛ فإنه لم يكن من فعلِ مَنْ مضى؛ لأن العلم كان في صدورهم، وشَكْلِ المصحفِ ونَقْطِه.

وبدعة مستحبة: قالوا: مثل بناء القناطر، وتنظيف الطرق لسلوكها، وتهييءِ الجسور، وبناء المدارس والرُّبط، وما أشبه ذلك.

وبدعة مباحة: كالمنخل.

وبدعة مكروهة: مثل الأكل على الخوان، وما أشبهه.

وبدعة محرمة: وهي أكثر من أن تنحصر. اهـ[2].

يهود المدينة

قوله: (ابتلاهم الله بيهودها) قال الدحلاني: عند ظهور الإسلام وقوته

---

(١) حديث إفراد الإقامة رواه البخاري (٦٠٧) من حديث إسماعيل بن إبراهيم، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: أُمر بلالٌ أن يشفع الأذان، وأن يوتر الإقامة، قال إسماعيل: فذكرت لأيوب، فقال: إلا الإقامة.
وحديث شفع الإقامة رواه الترمذي (١٩٤) من حديث عبدالله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ. وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٨٣ ـ ٨٥).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٥٧).

فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وكانوا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتحون على المشركين من العرب ـ إذا شبّت الحرب بين الفريقين ـ بنبيٍّ يُبعث قد قَرُب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا، استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة في ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغياً، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأتِ إلّا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين، مبيّناً ما أفسده التأويل منها، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

ومما عابوه على الإسلام: نسخُ الأحكام، وما دَرَوا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم، فإنه ميال بطبعه للترقّي، . . . .

بالمدينة قامت نفوس أحبار اليهود، ونصبوا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً؛ لما خُصَّ به العرب، وأنزل الله فيهم: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] الآيات.

فمن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته: حُيَيٌّ، وأبو ياسر، وجُدَيّ بنو أخطبَ، وسلام بن مِشْكَم ـ كمنبر ـ، وكنانة بن الربيع، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن صوريا، وابن صلوبا، ومخيريق، ثم أسلم، وصحبَ ـ رضي الله عنه ـ، وكان له سبع حوائط، فأوصى بها للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان نصبُهم له العداوة عند مشروعية الأذان، والإعلانِ بالشهادة له صلى الله عليه وسلم. اهـ[1].

قوله: (ومما عابوه على الإسلام: نسخُ الأحكام): قال ابن ملك في شرح المنار: أنكر اليهود وبعض الروافض النسخ؛ متمسكين بأن الأمر يدل على حسن المأمور به، والنسخ يوجب الجهل بعواقب الأمور، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٥).

والرسول عليه الصلاة والسلام وجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أُميين، ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج، لأنه لو حرَّم الله عليهم شرب الخمر وأكلَ الربا، وأمرَهم بالصلاة والزكاة، وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي، لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبُهم، المختلفة أهواؤهم، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوِّضت عقولُهم، وهُذِّبت نفوسُهم، وكانت الأحكام لا يُنزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها، ليكون التأثير في النفوس أشدَّ، ولكن اليهود أرادوا غَلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون، وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البُعد عن الحق، فقال في سورة البقرة: . . . .

وجوابه: أن الفعل قد يكون مصلحة في وقت دونَ وقت؛ كشرب الأدوية، فلا يلزم الجهل.

والنسخ فيه جهتان: ففي حق الله تعالى بيان محض لانتهاء الحكم الأول ليس فيه معنى التبديل؛ لأنه كان معلوماً عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا بالناسخ، فكان الناسخ بالنسبة إلى علمه تعالى مبيناً للمدة لا رافعاً، وهو في حق البشر تبديل؛ لأنه زال ما كان ظاهر الثبوت، وخلفَه شيء آخر. اهـ[1].

قال في «إظهار الحق»: ثم إن النسخ في اللغة: الإزالة، وفي اصطلاح أهل الإسلام: بيان مدة انتهاء الحكم العملي الجامع للشروط؛ لأن النسخ لا يطرأ عندنا على القصص، ولا على الأمور القطعية العقلية؛ مثل أن صانع العالم موجود، ولا على الأمور الحسية؛ مثل ضوء النهار وظلمة الليل، ولا على الأدعية، ولا على

---

(١) انظر: «شرح منار الأنوار» لابن ملك (ص: ٢٤٢).

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٩٤]، ....

الأحكام التي تكون واجبةً نظراً إلى ذاتها؛ مثل: آمنوا ولا تشركوا، ولا على الأحكام المؤبَّدة؛ مثل: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾[النور: ٤]، [ولا على الأحكام المؤقتة قبل وقتها المعين؛ مثل: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[البقرة: ١٠٩]]، بل يطرأ على الأحكام التي تكون عمليةً محتملة للوجود والعدم، غيرَ مؤبدة، [وغير مؤقتة]، وتسمى: الأحكام المطلقة، وتمامه فيه[١].

ثم قال بعد ورقة: والنسخ ليس بمختص بشريعتنا، بل وجد في الشرائع السابقة بكثرة، وأورد ثمة أمثلة؛ **منها**: أن يعقوب جمع بين الأختين ليا وراحيل، وهذا الجمع حرام في الشريعة الموسوية.

ومنها: أن أبا موسى تزوج عمَّته، وهذا النكاح حرام فيها أيضاً لما جاء: لا تكشف عورة عمتك؛ لأنها قرابة أبيك[٢].

أي: وإذا كان النسخ واقعاً في شريعتهم بكثرة، فلا وجه لانتقادهم ذلك على الإسلام.

قوله: (**﴿خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾**)؛ أي: خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾[البقرة: ١١١].

(**﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾**) سائرهم، أو المسلمين، (**﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾**)؛ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة، اشتاقها، وأحبَّ التخلص إليها كما قال [عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ]: لا أبالي سقطتُ على الموت أو سقط الموتُ

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٣/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٣/ ٦٥٠ ـ ٦٥١).

ثم حتَّم جلّ ذكره عدمَ إجابتهم بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٩٥].

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق، لما تأخروا عمّا طُلب منهم مع سهولته، وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك، ولو نُطْقاً باللسان.

وقد تبيّن الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع، وهو عبدالله بن سَلام، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدّونه من رؤسائهم، عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه، . . . .

عليَّ[1].

وقال عمار بصفّين: الآن ألاقي الأحبة، محمداً ثم حزبه[2].

وقال حذيفة حين احتُضِر:

وجاء حبيبٌ على فاقة ... فلا أفلح اليوم من قد ندم[3]

قوله: (﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ﴾)؛ أي: من موجبات النار[4]؛ كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وتحريف التوراة. اهـ. بيضاوي[5].

قوله: (وأسلم): قال: لما أسلمت كتمت إسلامي، ثم جئته صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب، وقلت له: لقد علمتِ اليهودُ أني سيدُهم وابن سيدهم،

---

(١) أورده البيضاوي في «تفسيره» (١/ ٣٦٤)، ولم نقف عليه مسنداً.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٥٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٢٠٣).

(٤) في الأصل: «الكفار».

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٣٦٤).

فـ ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]، **ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام، صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره:** ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

المنافقون

وأعلمُهم وابن أعلمهم، فأخبئني يا رسول الله قبل أن يدخلوا عليك، فادعُهم واسألهم عني؛ فإنهم قوم بُهُت، وإنهم إن يعلموا أني أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، وخذ عليهم ميثاقاً إني إن اتبعتك وآمنت بك أن يؤمنوا بك وبكتابك.

ولما دخل عليه اليهود، دعاهم مراراً إلى الإسلام فأبوا، فقال لهم: «أي رجل فيكم ابن سلام؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفرأيتم إن شهد أني رسول الله، وآمن بالكتاب أن تؤمنوا؟» قالوا: نعم، فخرج عليهم وشهد له صلى الله عليه وسلم بالرسالة، فقالوا: كذبتَ، أنت أشرُّنا وابنُ أشرِّنا، قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. اهـ. دحلاني ملخصاً[١].

وكان قبل أن يسلم اسمه الحصين، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله[٢]، وكان من ولد يوسفَ الصدِّيق[٣].

المنافقون

قوله: (المنافقون): قال الدحلاني: هم جماعة من الأوس والخزرج دخلوا في دين الإسلام تقيةً من القتل لما قهرهم الإسلام بظهوره، واجتماعِ قومهم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٤٠)، والحديث رواه البخاري (٤٤٨٠) من حديث عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤٩) عن سعيد بن عبد العزيز.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٢٤).

وكان يُساعِدُهُم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم، فأخفَوا كفرهم خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبدُالله بنُ أبيّ ابنُ سَلولَ الخزرجيُّ، الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شكَّ أن ضررَ المنافقين أشدُّ على المسلمين من ضرر الكفار؛ لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً.

عليه، وكانوا على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، فكان هواهم مع اليهود في السِّرِّ، وفي الظاهر مع المسلمين، وكان عددهم ثلاث مئة[1].

قوله: (عبدالله بن أبيّ) هو رأس المنافقين، ولاشتهاره بالنفاق لم يُعد في الصحابة، وكان من أعظم أشراف أهل المدينة، وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملِّكوه عليهم؛ لأن الأنصار من آل قحطان، ولم يتوج من العرب إلا قحطان، فلما جاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، انصرف عنه قومه إلى الإسلام، فضغن ـ أي: أضمر العداوة ـ؛ لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكاً عظيماً[2].

قوله: (يدخلون بين المسلمين): قال الحلبي: من المنافقين الذين كانوا ينقلون الحديث: نَبْتَل ـ بنون مفتوحة وباء ساكنة وتاء مفتوحة ـ ابنُ الحارث، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحارث»[3]، كان يجلس إليه صلى الله عليه وسلم، ثم ينقل حديثه للمنافقين،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٣٩).

(٣) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٥٥).

والأساس الـذي كـان عليـه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل مـا ظهر، ويترك لله مـا بطن، ولكنـه عليـه الصلاة والسلام مـع ذلك كـان لا يأمنهم في عمل ما، فكثيراً ما كان يتغيب عـن المدينـة، ويـولي عليهـا بعض الأنصار، ولكن لم يُعْهَد أنه وَلَّى رجلاً ممّن عُهِدَ عليه النفاق؛ لأنـه عليه الصلاة والسلام يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عمـلاً؛ فـإنهم بـلا شـك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درس مهم لرؤسـاء الإسـلام، يعلِّمهم ألّا يثقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهةُ النفاق، أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

معاهدة اليهود

هذا، وقد علمتَ أنه كان يضادُّ المسلمين في المدينة فئتان: اليهود، والمنافقون، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قَبِلَ من هؤلاء ظـواهرهم، وعقـد مـع أولئك عهـداً مقتضاه: تركُ الحـرب والأذى، فـلا يُحَـارِبهم، ولا يؤذيهم، ولا يُعينون عليه أحداً، . . . .

وجاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يجلـس إليـك رجـل معـك صفته كذا نقَّال الذي تحدِّث به، كبدُه أغلظُ من كبد الحمار، ينقل حـديثك إلـى المنافقين[1].

معاهدة اليهود

قوله: (فئتان: اليهود، والمنافقون): قال ابن القيم في «زاد المعاد»: لمـا قدم النبي صلى الله عليه وسلم، صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبـي (٢/ ٣٣٨)، والخبـر المـذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠١٧) عن الزبير بن بكَّار.

وإن دهمه بالمدينة عدو، ينصرونه، وأقرّهم على دينهم[1].

مشروعية القتال

قد عُلم مما تقدم: أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار، . . . .

قسم صالحهم ووادَعَهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وهم يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وبادر حبرُهم وعالمُهم عبدُالله بن سلام، فدخل في الإسلام، وأبى عامتُهم إلا الكفر.

وقسم حاربوه، ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمرُ أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصارَه في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارَهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن؛ ليأمن الفريقين، وهؤلاء المنافقون، فعامل كل طائفة بما أمره به تعالى، وتمامه فيه[2].

مشروعية القتال

قوله: (مشروعية القتال)؛ أي: الإذن فيه.

قال في «زاد المعاد»: روى الحاكم في «مستدركه» عن ابن عباس: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ . . .﴾

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩١).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٢٦).

وكان الله سبحانه يُنزل عليه من الآي ما يقوّيه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش، ومن ذلك: قوله في سورة الأحقاف: . . . .

[الحج: ٣٩] إلخ[١].

وقال الحلبي في أوائل باب المغازي: ثم أُذِن له في القتال ـ أي أُبيح الابتداء به ـ حتى لمن لم يقاتل؛ أي: لكن في غير الأشهر الحرم التي هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ٥] الآية[٢]، ثم أمر به وجوباً في السنة الثانية[٣].

فخرج فيها غازياً لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر صفر حتى بلغ ودَّان ـ كما سيأتي ـ.

قوله: (ما يقويه على الصبر): قال الدحلاني: قد نُهي صلى الله عليه وسلم عن القتال في نيف وسبعين آية غالبُها بمكة، كلها يأمره فيها هو ومن معه بالصبر على الأذى، ثم أنجز الله وعده؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر: ٥١][٤].

وقال في أوائل باب المغازي: وحكمةُ تأخير الإذن له بالقتال: أنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر الله المسلمين وهم قليل بالقتال، لشق عليهم، فلما بغى المشركون، وأخرجوه من مكة، وهمُّوا بقتله، واستقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة، واجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقاموا بنصره،

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٧١)، والحديث رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٣٧٦).

(٢) في هامش الأصل: «أقول: ويؤيد ذلك: أن السريتين الآتيتين قريباً كانتا في رمضان وشوال».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥١).

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وصارت المدينة دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه؛ شرع الله جهاد الأعداء. اهـ[١].

قال الحلبي: أُذن له في القتال؛ أي: أبيح قتال من قاتل، ثم أبيح قتال من لم يبدأ به في غير الأشهر الحرم، ثم أُمر به مطلقاً؛ أي: لمن قاتل ومن لم يقاتل في كل زمن؛ أي: في الأشهر الحرم وغيرها. اهـ[٢].

قوله: (﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾) عن ابن عباس وقتادة: أن أولي العزم هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى أصحابُ الشرائع، فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة[٣]، وقد ذكرهم الله تعالى على التخصيص في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وروى البغوي بسنده عن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة! إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة! إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها، والصبر على محبوبها[٤]، ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وإني ـ والله ـ لا بد لي من طاعته، والله! لأصبرن كما صبروا، ولأجهدن [كما جهدوا]، ولا قوة إلا بالله». اهـ. خازن[٥].

قوله: (﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾)؛ أي: لا تستعجل بنزول العذاب عليهم؛ فإنه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٥٤) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٠١) عن قتادة.

(٤) في «تفسير البغوي»: «مجهودها».

(٥) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٨)، والخبر المذكور رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٦).

وكان كثيراً ما يقصّ الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله؛ ليثبت به فؤاده، ولما ازداد طغيان أهل مكة، ألجؤوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله، فكانوا هم البادئين بالعِداء على المسلمين؛ حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فبعد الهجرة أَذِن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾[الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].

نازل بهم لا محالة. اهـ. منه(١).

قوله: (﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾)؛ أي: بالابتداء بالقتال.

وقوله: (﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾)؛ أي: المحنة بالإخراج من الوطن أصعبُ من القتل؛ لدوام تعبها، وقيل: شركُهم في الحرم أشدُّ من القتل. اهـ. بيضاوي(٢).

قوله: (﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾)؛ أي: شرك.

وقوله: (﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾)؛ أي: فلا تعتدوا على المنتهين؛ إذ لا يحسن أن يُظلَم إلا من ظَلَم. اهـ. بيضاوي(٣).

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٨).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٧٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٧٧).

وبذلك لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب، فلما تمالأ على المسلمين غيرُ أهل مكة من مشركي العرب، واتحدوا عليهم مع الأعداء، أَمر الله بقتال المشركين كافة، بقوله في سورة التوبة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[التوبة: ٣٦]، وبذلك صار الجهاد عامّاً لكل مَنْ ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءَهُم وأموالهم إلا بحق الإسلامِ، وحسابُهم على الله»[١].

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود؛ حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ . . . .

قوله: (إلا بحقها): قيل: وما حقها؟ قال: «زِناً بعد إحصان، وكفرٌ بعد إسلام، أو قتلُ نفس. اهـ. حلبي[٢].

قوله: (خيانة للعهود) أولُ من خان العهود من اليهود: بنو قينقاع، وذلك بعد وقعة بدر في السنة الثانية، ثم نقض العهدَ بنو النضير، وذلك في السنة الرابعة، ثم بنو قريظة في السنة الخامسة ـ كما سيأتي تفصيله في هذه السنين ـ.

قوله: (﴿مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾)؛ أي: نقضاً للعهد بما يظهر لك من آثار الغدر.

وقوله: (﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾)؛ أي: فاطرح إليهم عهدَهم، وارمِ به إليهم.

(﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾) يعني: على طريق ظاهر مستوٍ؛ يعني: أَعلِمْهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[الأنفال: ٥٨] **وقتالُهم واجب حتى يدينوا، أو يُعطوا الجزيةَ عن يد وهم صاغرون؛ ليأمن المسلمون جانبهم، وصار قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعداء على هذه المبادىء الآتية:**

١ ـ اعتبار مُشرِكي قريش محاربين؛ لأنهم بدؤوا بالعدوان، فصار للمسلمين قتالُهم ومصادرةُ تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة، أو تعقد هدنة وَقتيةٌ بين الطرفين.

٢ ـ متى رُئِيَ من اليهود خيانةٌ وتحيّزٌ للمشركين، قوتلوا حتى يؤمَنَ جانبُهم بالنفي أو القتل.

٣ ـ متى تعدّت قبيلة من العرب على المسلمين، أو ساعدت قريشاً، قوتلت حتى تدين بالإسلام.

٤ ـ كلُّ من بادأ بعداوة من أهل الكتاب، كالنصارى، قوتل حتى يُذعن بالإسلام، أو يعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر.

٥ ـ كلُّ من أسلم، فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلامُ يقطع ما قبلَه.

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي. . . . .

سواء، فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم. اهـ. خازن[1].

وقوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾) تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (حتى يدينوا)؛ أي: يوحدوا.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٧).

تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء، وتبعيداً عن الفرار من الزحف، فقال في الموضوع الأول في سورة النساء: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٤]. **وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾**[الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

قوله تعالى: (﴿**فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**...﴾) إلخ: قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾[النساء: ٧٢] إلخ؛ أي: إن أبطأ هؤلاء عن القتال، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسَهم في طلب الآخرة. اهـ. بيضاوي[1].

وقوله: (﴿**ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا**﴾)؛ أي: يبيعون، يقال: شريتُ بمعنى: بعتُ، والمعنى: فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم في الدنيا بثواب الآخرة. اهـ. خازن[2].

قوله: (﴿**زَحْفًا**﴾)؛ أي: مجتمعين متزاحفين، وأصل الزحف: مشي مع جَرّ الرجل؛ كانبعاث الصبي قبل أن يمشي، وقيل: الزحف: المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء.

وقوله: (﴿**إِلَّا مُتَحَرِّفًا**﴾)؛ أي: إلّا من يُظهر الانهزام وقصدُه الكرُّ عليه بعد الفَرّ، وهذا من خِدع الحرب.

وقوله: (﴿**أَوْ مُتَحَيِّزًا**﴾)؛ أي: منضمًّا إلى فئة أخرى من المسلمين

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣٩٨).

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهَب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع، ويُسمى الركبُ السائر بهذه التجارة: عِيْراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسَرَاتِهم، ولا بد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُصادِرَ تجارتهم ذاهبةً وآيبة؛ ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة، حتى تضعف قوتهم المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بدّ أن يكون؛ لأن قريشاً لم تكن لتسكتَ عمّن سفَّه أحلامهم، وعاب عبادتهم، خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين.

سرية [حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ]

ليستعين بهم[1].

بدء القتال

قوله: (عيراً) العِير ـ بالكسر ـ: الإبل تحمل المِيرَةَ، ثم غلب على كل قافلةٍ، اهـ. مصباح[2].

قوله: (ليكون [في] ذلك عقاب لمشركي مكة)؛ أي: وليكون ذلك سبباً لافتتاح القتال، ولتقوى قلوب أصحابه على القتال شيئاً فشيئاً، وينتفعوا بما يحصل لهم من الغنائم التي يغنمونها من تلك العير، فيستعينوا بها. اهـ. دحلاني[3].

سرية

قوله: (سرية): السرية ـ كما ذكر المصنف في الذيل ـ: قطعة من الجيش، ونريد بها: كلَّ غزاة لم يكن فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، والتي كان فيها

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٩٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عير).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

ففي شهر رمضان أرسل عمَّه حمزةَ بنَ عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد لهم لواء أبيضَ حمله أبو مَرْثَدٍ حليفُ حمزة؛ ليعترض عِيراً لقريش آيبةً من الشام، فيها أبو جهل، وثلاثُ مئةٍ من أصحابه المشركين، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العِيص، فصادف العير هناك، فلما تصافُّوا للقتال، حجز بين الفريقين مَجدِيُّ بنُ عمرٍو الجُهنيُّ، فأطاعوه وانصرفوا، وشكر عليه الصلاة والسلام مجدِيّاً على عمله؛ لما كان من قلة عدد المسلمين، وكثرةِ عدوِّهم[1].

تسمى: غزوة. اهـ.

وجملةُ سراياه صلى الله عليه وسلم: سبعة وأربعون، وجملةُ غزواته: تسعة وعشرون.

قوله: (ففي شهر رمضان): قال الدحلاني: وقيل: في ربيع الأول[2].

قوله: (وثلاث مئة من أصحابه): قال الدحلاني: وقيل: كانوا في مئة وثلاثين[3].

قوله: (من ناحية العيص) فسرها المصنف بعرض من أعراض المدينة؛ أي: ناحية منها، والعرض: ـ بضم العين وبكسرها، وبسكون الراء ـ.

قوله: (وشكر عليه الصلاة والسلام مجديًّا): حيث قال: «إنه ميمون النقيبة، مبارك الأمر»، أو قال: «رشيد الأمر»[4]، ولما قدم رهط مجديٍّ على

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٤) أورده الصالحي الشامي في «سبل الهدى والرشاد» (٦/ ١١)، وعزاه لمحمد بن عمر.

سرية [عبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ]

وفي شوال أَرسلَ عُبيدةَ بن الحارث ابنَ عم حمزة في ثمانين راكباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله مِسْطَحُ بنُ أُثَاثة . . . .

النبي صلى الله عليه وسلم، كساهم، ومجديٌّ هذا لم يُعلَم له إسلام، ولم يذكره أحد من الصحابة[١].

وقوله في الحديث: إنه ميمون النقيبة[٢]؛ أي: مُنَجَّح الفِعال، مظفَّر المطالب، والنقيبة: النفس، وقيل: الطبيعة والخليقة. اهـ. «نهاية»[٣].

سرية [عبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ]

قوله: (في ثلاثين من المهاجرين): قال الدحلاني: وإنما بعث النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين، ولم يبعث معهم أحداً من الأنصار، بل أبقاهم حتى غزا بهم بدراً؛ لأنهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم، ولم يذكر لهم وقت البيعة أنهم يخرجون من دارهم حتى جاء الأمر بالتدريج، ورضوا به، وطابت نفوسهم، فقاتلوا معه خارج المدينة. اهـ[٤].

قوله: (أرسل عبيدة): قال ابن هشام: سرية عبيدة هي أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام، وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً، فاشتبه ذلك على الناس، فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا، فعبيدة بن

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٧٥) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً، ذلك في ذكره لمناقب خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ١٠١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٥).

ليعترض عيراً لقريش، فيها مِئَتا رجل، فوافوا العير ببطن رابغ، فكان بينهما الرميُ بالنبل، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين، فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقدادُ بنُ الأسود، وعتبةُ بنُ غَزْوان، وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين[1].

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمانُ بنُ مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع، أسلم قديماً، . . . .

الحارث أول من عقد له. اهـ[2].

قوله: (فكان بينهم الرمي بالنبل): الرامي بالنبل هو سعد بن أبي وقاص لا غير، فكان أول سهم رمي به في الإسلام، وقيل: إنه نثر كنانته، وتقدم في أصحابه، فرمى بما في كنانته، وكان فيها عشرون سهماً، ما منها سهم إلا ويجرح إنساناً أو دابة. اهـ. دحلاني[3].

وفيات

قوله: (أسلم قديماً): قال ابن حجر في «الإصابة»: أسلم عثمان بن مظعون بعد ثلاثةَ عشرَ رجلاً، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائبُ الهجرةَ الأولى في جماعة، فلما بلغهم أن قريشاً أسلمت، رجعوا، فرجع معهم.

وروى ابن شاهين بسنده إلى عثمان بن مظعون قال: قلت: يا رسول الله! إني رجل تشق عليَّ العزبةُ في المغازي، فتأذن لي في الخَصْي فأختصي؟ فقال:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٣٦)، وفيه: ستون راكباً.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٥).

وهاجر الهجرتين، ولما دفن، أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُرَشَّ قبرُه بالماء، ووضعَ على قبره حجراً، وقال: «أَتَعَلَّمُ به قبرَ أخي، وأَدفنُ إليه من مات من أهلي»[1].

وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور، وتصويرها بصور تُرَى في عين الناظر كالأصنام، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالاتٍ كثيرة، تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم، ومن العبث فعلُ شيء لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بأمور الآخرة.

«لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصوم»[2].

ثم قال: وهو أولُ من مات بالمدينة من المهاجرين، وأولُ من دفن بالبقيع منهم.

وروى الترمذي عن عائشة قالت: قبَّل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عثمانَ بنَ مظعون وهو ميت، وهو يبكي وعيناه تذرفان[3].

ولما توفي إبراهيمُ ابنُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «الحَقْ بسلفنا الصالح عثمانَ بنِ مظعون»[4].

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٠٦) من حديث المطلب بن عبدالله بن حنطب، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٢) لم نقف عليه في المطبوع من مصنفات ابن شاهين، ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٠).

(٣) رواه الترمذي (٩٨٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٧) من حديث الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٠٢): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

ومات من الأنصار أسعدُ بن زُرارة أحدُ النقباء الاثني عشرَ، كان ـ رضي الله عنه ـ نقيبَ بني النجار، ولما مات، اختار رسولُ الله نفسَه للنقابة عليهم؛ لأن ابنَ أخت القوم منهم[1]، . . . .

وقالت امرأة ترثيه:

يا عينُ جودي بدمعٍ غيرِ ممنونِ	على رزيةِ عثمانَ بنِ مظعونِ

اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (أسعد بن زرارة): قال في «الإصابة»: هو قديم الإسلام، شهد العقبتين، وكان نقيباً على قبيلته، ولم يكن في النقباء أصغر سناً منه، ويقال: إنه أول من بايع ليلة العقبة.

وروى أبو داود قال: كان أسعد أولَ من جمَّع بنا بالمدينة قبل مقدم النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حَرَّةِ بني بَياضة[3].

وذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة[4].

وروى أيضاً: أن أول من دفن بالبقيع أسعدُ بنُ زرارة[5]، هذا قول الأنصار.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٢٨)، ومسلم (١٠٥٩)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٩٠).

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٦١).

(٣) رواه أبو داود (١٠٦٩) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٥٧) من طريق الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الرجال.

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٥٧) من طريق الواقدي عن عبدالله بن أبي بكر ابن عمرو بن حزم.

ومات أيضاً البراءُ بنُ معرورٍ أحدُ النقباء، وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية.

ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليدُ بن المغيرة، ولما احتُضر، جزع، فقال له أبو جهل: ما جزعُك يا عم؟ فقال: والله! ما بي من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهر دينُ ابنِ أبي كبشةَ بمكةَ، فقال أبو سفيان: لا تخفْ، إني ضامنٌ ألّا يظهر[1].

وأما المهاجرون، فقالوا: أولُ من دفن به عثمانُ بنُ مظعون. اهـ. ملخصاً[2].

قال في «نزهة الناظرين»: قال ابن سيرين: جمّع أهل المدينة قبل قدومه عليه الصلاة والسلام المدينةَ، وقبل أن تنزل الجمعة، وقالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل أسبوع، وللنصارى يوم، فلنجعلْ لنا يوماً نجتمعُ فيه نذكر الله تعالى، ونصلي له، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى بهم ركعتين، وذكَّرَهم، فسموه: يوم الجمعة. اهـ[3].

قوله: (البراء بن معرور): قال في «الإصابة»: كان من النفر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة، وهو أول من بايع في قول ابن إسحاق، وأولُ من استقبل القبلة، وأول من أوصى بثلث ماله.

وكان قد أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبل وصيته، ثم ردَّها على ولده، وصلى على قبره[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٩٢) عن الشعبي.

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (١/ ٥٤ ـ ٥٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥١٤٤).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٨٤) من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

وفيها أيضاً مات العاصُ بنُ وائلٍ السهميُّ.

وقد كفى الله المسلمين شرَّ هذين الشقيّين[1].

وقال ابن إسحاق: مات البراء بن معرور قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بشهر. اهـ[2].

أقول: فتكون صلاته على قبره بعد مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة.

❒❒❒

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٩٩).

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (١/ ٢٨٢).




السنَّة الثانية

غزوة وَدَّان

ولاثنتي عشرة ليلة خَلَت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ـ بعد أن استخلف عليها سعدَ بنَ عبادة ـ؛ ليعترض عيراً لقريش، فسار حتى بلغ وَدّان، وكان يحمل لواءه عمّه حمزةُ، ولم يلقَ هناك حرباً؛ لأن العير كانت قد سبقته، وفي هذه الغزوة صالحَ بني ضمرةَ. . . . .

السنة الثانية

غزوة وَدَّان

قوله: (خلت من السنة الثانية): عبارته تفيد أن خروجه صلى الله عليه وسلم كان لاثنتي عشرة ليلة مضت من محرم، والصواب: أن خروجه كان لاثنتي عشرة ليلة مضت من صفر من السنة الثانية من الهجرة؛ أي: مكث في المدينة باقي الشهر الذي قدم فيه، وهو شهر ربيع الأول، وباقي ذلك العام كله إلى صفر من السنة الثانية من الهجرة ـ كما في الحلبي ـ[1].

قوله: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي: وكان معه ستون من المهاجرين، وقيل: سبعون.

قوله: (وَدَّان) ـ بفتح الواو وتشديد الدال ـ: قرية بين مكة والمدينة، بينها وبين الأبواء ستة أميال.

قوله: (صالحَ بني ضمرة) وسيدُهم مجديُّ بنُ عمرٍو.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

على أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصرُ على مَن رامَهم، وأن عليهم نُصْرَةَ المسلمين إذا دُعوا، ثم رجع إلى المدينة بعد مضيِّ خمسَ عشرةَ ليلة[1].

غزوة بُواط

ولم يمض على رجوعِه غيرُ قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آيبـةٌ مـن الشام، فيها أميةُ بنُ خلف ومئةٌ من قريش، وألفان وخمس مئة بعير، فسار إليها في مئتين من المهاجرين، وذلك في ربيع الأول، وكان يحمـل لـواءه سعدُ بنُ أبي وقاص، . . . .

قوله: (على مَنْ رامهم)؛ أي: قصدهم، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلَّ بحرٌ صُوفة؛ أي: ما بقي فيه ما يبلُّ الصوفة. اهـ. حلبي[2].

غزوة بواط

قوله: (بواط): ـ بضم الباء وفتحها، وفتح الواو ـ.

قوله: (في ربيع الأول)، وقيل: في ربيع الثاني.

قوله: (وكان يحمل لواءه سعد. . .) إلخ: كان اللواء أبيض، وهو كذلك في الغزوة التي قبلها.

قال الحلبي: اللواء: هو العلم الذي [يحمل] في الحرب، يعرف بـه موضـعُ أمير الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يجعله في مقدم الجيش.

وأولُ من عقد الألويةَ إبراهيمُ الخليل، بلغه أن قوماً أغاروا على لوط عليه السلام، فعقد لواءً، وسار إليهم بعبيده ومواليه. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٨).

فسار حتى بلغ بُواط، فوجد العير قد فاتته، فرجع ولم يلقَ كيداً، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم، والاجتهادِ في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة[1].

غزوة العُشَيرة

وأعقبَ رجوعَه عليه الصلاة والسلام خروجُ قريش بأعظم عيرٍ لها؛ فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشيٌّ أو قرشيةٌ لها مثقالٌ فصاعداً إلا بعث به في تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بنُ حرب، ومعه بضعة وعشرون رجلاً، فخرج لها الرسول في جمادى الأولى، ومعه مئة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمَةَ بنَ عبدِ الأسد، وحمل لواءه عمُّه حمزةُ، ولم يزل سائراً حتى بلغ العُشَيْرةَ، فوجد العيرَ قد مضتْ.

وحالفَ عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة بني مُدلِج وحلفاءهم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع[2].

غزوة العشيرة

قوله: **(العشيرة)**: ـ بضم العين المهملة مصغراً، وبالشين أو بالسين ـ.

قوله: **(لها مثقال فصاعداً)** يقال: إن فيها خمسين ألفَ دينار، وألفَ بعير.

قوله: **(بضعة وعشرون رجلاً)** منهم: مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: **(ينتظر هذه العير حينما ترجع)**: وهي العير التي خرج إليها حين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٩).

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام بقليل، جاء كُرْزُ بنُ جابرٍ الفِهريُّ، وأغار على سَرْح المدينة، وهربَ، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في طلبه، واستخلف على المدينة زيدَ بنَ حارثةَ الأنصاريَّ، وحمل لواءه عليُّ بن أبي طالب، فسار حتى بلغ سَفَوان، وفاته كُرزٌ فلم يلقَ حرباً، وتُسمى هذه الغزوة: بدراً الأولى[1].

سرية [عبدالله بن جحش إلى نخلة لرصد قريش]

وفي رجب من هذه السنة أَرسل سريةً عدّتُها ثمانيةُ رجال، يرأسها عبدُالله بنُ جحش، . . . .

رجعت من الشام، وكان بسببها وقعة بدر. اهـ. دحلاني[2].

غزوة بدر الأولى

قوله: (على سَرْح المدينة)؛ أي: الإبل والمواشي التي تسرح للمرعى بالغداة، وكان كرزٌ من رؤساء المشركين، ثم أسلمَ وصحبَ ـ رضي الله عنه ـ، وأُمِّر على سريةٍ، واستُشهد في فتح مكة.

قوله: (سفوان) ـ بفتح السين والفاء، وقيل: الفاء ساكنة ـ، وهو وادٍ من ناحية بدر، ولذا قيل لها: غزوة بدر الأولى.

سرية [عبدالله بن جحش إلى نخلة لرصد قريش]

قوله: (عبدالله بن جحش) هو أحد السابقين إلى الإسلام، وهو ابنُ عمته

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٧).

وأعطاه كتاباً مختوماً لا يَفُضُّه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه، فسار عبدُالله يومين، ثم فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرتَ كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نَخْلَةَ، فترصُدَ بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

وإنما لم يخبرهم عليه الصلاة والسلام بمقصدهم وهم بالمدينة؛ . . . . .

صلى الله عليه وسلم، واستُشهد بأحد.

قال الدحلاني: روى البغوي عن سعد بن أبي وقاص قال: بعثنا صلى الله عليه وسلم في سرية قال: «لأبعثنَّ عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش»، فبعث علينا عبدَالله بنَ جحش ـ رضي الله عنه ـ، وسماه صلى الله عليه وسلم: أمير المؤمنين، فهو أول من تسمَّى به في الإسلام؛ أي: في عصره صلى الله عليه وسلم، فلا ينافي ذلك القول بأن عمر ـ رضي الله عنه ـ أولُ من تسمى بأمير المؤمنين؛ لأن المراد: أولُ من تسمَّى به من الخلفاء[1].

قوله: (لا يفضّه): يقال: فضضْتُ الختمَ فضّاً، من باب قتل: كسرتُه. اهـ. مصباح[2].

قوله: (حتى تنزل نخلة): هو موضع على ليلة من مكة بين مكة والطائف. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وتعلم لنا من أخبارهم): قال الدحلاني: وأخبر أصحابه أنه نهاه [أن] يستكره أحداً منهم، ولم يتخلف منهم أحد[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٧ـ٣٥٨)، والخبر المذكور رواه البغوي في «معجم الصحابة» (٣/ ٥٢٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: فضض).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨)، وما بين معكوفتين منه.

حذراً من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحدُ الأعداء من المنافقين أو اليهـود، فترصد لهم قريش. ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة، ثم سار عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، وفي أثناء السير تخلَّف سعدُ بنُ أبـي وقّـاص، وعُتبة بن غَزوان؛ لأنهما أضلاَّ بعيرَهما الذي كانا يعتقبانه، وسـار البـاقون حتى وصلوا نخلة، فمرّت بهم عِير قرشية تريد مكة، فيها عمرو بن الحَضرميّ، وعثمانُ بنُ عبدالله بنِ المغيرة، وأخوه نوفلٌ، والحَكَمُ بن كَيسان، فأجمـع المسلمون أمرَهم على أن يحملوا عليهم، ويأخذوا ما معهم، فحملوا علـيهم في آخر يوم من رجب، فقتلوا عمرَو بنَ الحضرميِّ، وأسروا عثمانَ والحكـمَ، وهرب نوفلٌ، واستاقوا العِير، وهي أولُ غنيمة غنمها المسلمون من أعـدائهم قريش، ثم رجعوا، ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم.

قوله: (عير قرشية): كانت تلك العير تحمل زبيباً وأَدَماً ـ أي: جلوداً ـ من تجارات قريش. اهـ. دحلاني[1].

و(أدم) بفتحتين: وقيل: بضمتين، وهو القياس؛ مثل: بَريـد وبُـرُد. اهـ. مصباح[2].

قوله: (فأجمع المسلمون أمرهم): لما نزل الركب، نزل عبدُالله ومن معه قربهم، فهابوهم، فأرشدهم عبدُالله بن جحش إلى ما يزيل رعبهم، فحَلَق بعضُ أصحابه رأسه، وأشرف عليهم، فلما رأوهم، أمنوا، وقالوا: عُمَّـار ـ أي: معتمرون ـ لا بأس عليكم منهم، فقيدوا ركابهم، وسرحوها، وصنعوا طعاماً، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، أو في أول يوم من شعبان ـ أي: شكوا فـي اليوم: أهو من الشهر الحرام أم لا ـ؟ فإن قاتلناهم، هتكنا حرمة الشهر الحرام،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: أدم).

فلما قدموا المدينة، وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، وعابتهم قريشٌ واليهودُ بذلك، عَنَّفَهم المسلمون، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتُكم بقتال في الأشهر الحُرم»، فندموا، فأنزل الله في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ . . . .

وإن تركناهم، دخلوا حرم مكة، فامتنعوا به، ثم شجعوا أنفسهم، وأجمعوا على قتالهم. اهـ. دحلاني[1].

قوله تعالى: (﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾): قيل: السائلون هم المسلمون، وكانوا يعلمون أن القتال في الحرم لا يحل، فلما كتب عليهم القتال، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال في الشهر الحرام.

وقيل: هم المشركون، وإنما سألوه على وجه العيب على المسلمين.

وقوله: (﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾) بدلُ اشتمالٍ من ﴿ٱلْحَرَامِ﴾.

وقوله: (﴿كَبِيرٌ﴾)؛ أي: عظيمٌ مستنكَر.

وقوله: (﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾) هذا ابتداء كلام.

وقوله: (﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾) معطوف عليه.

وقوله: (﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾) عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وذلك على حد قوله:

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا[2]

وقوله: (﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾)؛ أي: أهل المسجد، وهم: رسولُ الله وأصحابه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٢) البيت لأبي دؤاد جارية بن الحجاج. انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٦٦).

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فَسُرِّيَ عنهم[(١)].

وقد طلب المشركون فداءَ أسيريهما، فقال عليه الصلاة والسلام: «حتى يرجعَ سعدٌ وعتبةُ»، فلما رجعا، قَبِلَ عليه الصلاة والسلام الفديةَ في الأسيرين[(٢)].

فأما الحَكَمُ بنُ كيسانَ، فأسلمَ، وحَسُنَ إسلامُه، وبقي مع المسلمين، وأما عثمان، فلحق بمكةَ كافراً[(٣)].

حين آذوهم، وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهلَه؛ لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين.

وقوله: (﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾)؛ أي: أعظمُ وِزْراً من القتال في الشهر الحرام؛ أي: من قتلِ ابنِ الحضرميّ.

وهذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وبقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] يعني: في الأشهر الحرم، وغيرها. اهـ. خازن وبيضاوي[(٤)].

قوله: (حتى يرجع سعد وعتبة): وقال لهم: فإن تقتلوهما، نقتلْ صاحبكم.

قوله: (وبقي مع المسلمين)؛ أي: إلى أن قُتل يومَ بئرِ معونةَ شهيداً. اهـ.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٨) عن عروة بن الزبير.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٤٠ ـ ١٤٢).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستةَ عشرَ شهراً يستقبل بيتَ المقدس في صلاته، . . . .

دحلاني[1]. وسيأتي ذكر السرية التي أرسلت إلى هذا المكان.

تحويل القبلة

قوله: (تحويل القبلة): حُوِّلت في شهر رجب من السنة المذكورة، وقيل: في نصف شعبان، وقيل: في جمادى الآخرة، والأكثرون على أن تحويلها كان في صلاة الظهر.

ففي الحديث: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً أم بِشْرِ بنِ البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه في مسجد هنالك، فلما صلى ركعتين، نزل جبريل، فأشار إليه أن صلِّ إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، واستدار النساءُ مكانَ الرجال، والرجالُ مكانَ النساء[2].

فيكون قد تحول من مقدم المسجد إلى مؤخره، وفيه: أن هذا يستدعي عملاً كثيراً في الصلاة، وهو مفسدٌ لها عندنا إذا توالى، وقد يقال: لا مانع من

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٢) من طريق الواقدي بإسناده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٢٠٧) من حديث تُويلة بنت أسلم ـ رضي الله عنها ـ. وخبرُ تحويل القبلة رواه البخاري (٧٢٥٢)، ومسلم (٥٢٥)، من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، وفي رواية البخاري: أن ذلك كان في صلاة العصر، ورواه مسلم (٥٢٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: أن ذلك كان في صلاة الفجر.

وكان يحبّ أن تكون قبلتُه الكعبةَ، ويقلِّبُ وجهه في السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو في صلاته، إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة، فتحوّل، وتحوَّلَ مَنْ وراءه، وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعُفت قلوبُهم، فارتدوا على أعقابهم. . . . .

الجواز أن يكون ذلك قبل تحريم العمل الكثير في الصلاة، أو أن هذا العمل لم يكن على التوالي. اهـ. حلبي[1].

قوله: (وكان يحب أن يكون قبلته الكعبة): قال الحلبي: كان صلى الله عليه وسلم يعجبه أن تكون قبلته الكعبة، سيما لما بلغه أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد، ويتَّبع قبلتنا، وقالوا للمسلمين: لو لم نكن على هدًى، ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها.

وكان يحب أن يستقبل الكعبة محبةً لموافقة إبراهيمَ وإسماعيل، وكراهةً لموافقة اليهود، ولقول كفار قريش: لمَ تقولون: نحن على ملة إبراهيم، وأنتم تتركون قبلته، وتصلون إلى قبلة اليهود؟! اهـ[2].

وقد وُصف صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة بأنه يصلي إلى القبلتين، وقد عرفت اليهود ذلك، ففي تحويلها تحقيقٌ لما وصف به، وحجةٌ على اليهود، وتحويلُها إلى الكعبة أَدعى لاستسلام مشركي العرب ودخولهم في الدين الإسلامي؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا عبادة الأوثان عندها، وهي معظمة لديهم، ويحجون إليها من حين بناء إبراهيم الخليل لها.

قوله: (وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين. . . إلخ): قال ابن القيم في «زاد المعاد»: في تحويل الصلاة إلى الكعبة حِكَم عظيمة، ومحنة

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٣).

وقد أكثر اليهودُ من التنديد على الإسلام بهـذا التحويـل، ومـا دَرَوا أن لله المشرقَ والمغرب، يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراط مستقيم[1].

للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين، فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾[آل عمران: ٧]، ولـم يكـن كبيـرة عليهم. وأمـا المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلةَ الأنبياء قبلَه، ولو كان نبيًّا، لكـان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجَّـه؛ إن كانت الأولى حقًّا، فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق، فقد كان على باطل.

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾[البقرة: ١٤٣]، وكانت محنة [من الله][2] امـتحن بهـا عباده؛ ليرى من يتبع الرسول ممَّن ينقلب على عقبيه[3].

ولعلمِ الله بما سيقوله هؤلاء عند تحويلها أخبـرَ نبيـه بـذلك قبـل وقوعـه، فأنزل عليه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ . . .﴾[البقرة: ١٤٢] إلخ الآية، وقد أقـام عليهم الحجـة بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢].

قال الخازن: يعني: أن له قُطْري المشرق والمغرب وما بينهما ملكاً، فـلا يستحق شيء أن يكون لذاته قبلة؛ لأن الجهاتِ كلَّها شـيء واحـد، وإنمـا تصـير قبلة لأن الله تعالى هو الذي جعلها قبلة، فلا اعتراض عليه[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، وانظـر: «السيـرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٥).

(٢) ما بين معكوفتين من «زاد المعاد».

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٧).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٨٧).

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صومَ شهر رمضانَ على الأمة الإسلامية، . . . .

قال في «زاد المعاد»: ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً، وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ، وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ، أو مثلِه[1].

قال الخازن: أما النسخ بالمثل؛ فكنسخ التوجه إلى بيت المقدس وصرفهِ إلى المسجد الحرام، واستواء الأمر في ذلك؛ لأن على المصلي التوجُّهَ إلى حيث أمره الله تعالى. اهـ[2].

صوم رمضان

قوله: (صوم رمضان): ليس الصوم من خصائص هذه الأمة، بل كانت الأمم قبلنا تصومه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣].

قال في «نزهة الناظرين»: قال سعيد بن جبير: كان صوم مَنْ قبلَنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام[3].

وقال جماعة من أهل العلم: أراد: أن صيام رمضان كان واجباً على النصارى كما فُرض علينا، فربما كان يقع في الحر الشديد، والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم، ويضرهم في معاشهم، فاجتمع رأيُ علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرةً كفارةً لما صنعوا، فصار أربعين.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٧).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٦٩).

(٣) أورده البغوي في «تفسيره» (١/ ١٤٨).

وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. والصيام من دعائم هذا الدين، والفرائض التي بها يتمّ النظام؛ فإن الإنسان مجبول على حبّ نفسه، والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلا بدّ من وازِعٍ يَزَعُه لحاجات قومٍ أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوقِ قوارصِ الجوعِ والعطش؛ إذ بهما تلين نفسه، ويتهذب خُلُقه، فيسهل عليه بذلُ الصدقات[1].

ثم إن ملكاً لهم اشتكى فمه، فجعل لله عليه إن برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً، فبرئ، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك، ووليهم ملك آخر، فقال: أتموه خمسين[2].

قوله: (ثلاثة أيام من كل شهر)؛ أي: وهي الأيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، قيل: وجوباً، وقيل: كان الواجب عليه قبل فرض رمضان صوم عاشوراء، ثم نسخ وجوبَه رمضان.

وعن عائشة: كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان صلى الله عليه وسلم يصومه موافقة لهم، ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه، فلما قدم المدينة، صامه، وأمر بصيامه[3].

لأنه لما قدمها، وجد اليهودَ تصومه وتعظِّمه، فسألهم عن ذلك، فقالوا: يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومَه من الغرق، وأغرق فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحقُّ بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري (٣٨٣١)، ومسلم (١١٢٥).

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشّارِع الحكيم عقبَ الصومِ زكاةَ الفطر، فترى الإنسان يبذلها بسخاءِ نفسٍ ومحبةٍ خالصة[1].

زكاة المال

وفي هذا العام فُرضت زكاة الأموال، وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدنانير عشرين، أو الدراهمُ مئتين، وحال عليها الحول، وجب عليك أن تؤدي ربعَ عُشرِها؛ أي: اثنين ونصفاً في كل مئة، وما زاد فبحسابه، وإذا بلغت الشياه أربعين، والبقر ثلاثين، والإبل خمساً، وحال عليها الحول، وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدَّده الشّارِع، . . . .

صدقة الفطر

قوله: (صدقة الفطر): فرضت قبل العيد بيومين، وكان صلى الله عليه وسلم يخطب قبل العيد بيومين يعلم الناس زكاةَ الفطر، وكان فرضها قبل فرض زكاة الأموال. اهـ. حلبي[2].

زكاة المال

قوله: (زكاة المال): قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

وقال عليه السلام لمعاذ: «ثم أعلمْهم: أن الله تعالى فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، وتُرَدُّ في فقرائهم»[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٦٤).

(٣) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٠)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ومثلُها عروض التجارة، ومحصولاتُ الزراعة، كل هذا يقبضه الإمام، ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين، وبقيةِ المذكورين في آية الصدقة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: ٦٠][(١)].

واللبيب العاقل البعيدُ عن التعصب يحكم لأول مرة نظره؛ . . . . . .

وسميت صدقة؛ لدلالتها على صدق العبد في العبودية. اهـ. «كفاية».

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ . . .﴾) إلخ: الفقير: هو: من له أدنى شيء، والمسكين: من لا شيء له، والعامل عليها: هو الساعي والعاشر، والمؤلفة قلوبهم: قوم أسلموا ونيتُهم ضعيفة فيه، فيستألف قلوبهم، أو أشرافٌ يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم.

قال البيضاوي: كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام، فلما أعزه الله، وأكثرَ أهلَه، سقط.

وقوله: (﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾)؛ أي: وللصرف في فَكِّ الرقاب؛ بأن يعاون المكاتَب بشيء على أداء النجوم، وقيل: بأن تبتاع الرقاب فتعتق.

وقوله: (﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾)؛ أي: المدينين لأنفسهم في غير معصية إذا لم يكن لهم وفاء.

وقوله: (﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة، وابتياع آلات الحرب.

وقوله: (﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾)؛ أي: المسافر المنقطع عن ماله.

وقوله: (﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾) مصدر لما دلت عليه الآية؛ أي: فرض لهم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٤).

أن هذا النظام ـ مع عدم إضراره بالأغنياء ـ مقللٌ لمصائب الفقر التي ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظامَ دولهم، ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعي الأمن كم يفعله الاشتراكيون وغيرهم.

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العِير العظيمة التي خرج لها عليه الصلاة والسلام وهي متوجهة إلى الشام، فلم يدركها، ولم يزل مترقباً رجوعَها، فلما سمع برجوعها، نَدَبَ إليها أصحابَهُ، وقال: «هذه عيرُ قريش، فاخرجوا إليها؛ لعلّ الله أن ينفلَكُموها»[1]، ....

الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكنّ في ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. اهـ. بيضاوي[2].

غزوة بدر الكبرى

قوله: (غزوة بدر الكبرى): ويقال: العظمى، ويوم وقعة بدر هو يوم الفرقان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: ٤١]؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وهو يوم البطشة الكبرى المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان: ١٦]. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (بتلك العير): أشار إلى ما تقدم في غزوة العشيرة.

قوله: (أن ينفلكموها)؛ أي: يجعلها لكم غنيمة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٢ ـ ١٨٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

فأجاب قوم، وثَقُلَ آخرون؛ لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يُرِدْ حرباً؛ فإنه لم يحتفل بها، بل قال: «من كان ظهره حاضراً، فليركبْ معنا».

ولم ينتظر من كان ظهرُه غائباً، فخرج لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد أن ولَّى على المدينة عبدَالله ابنَ أم مكتوم، وكان معه ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً: مئتان ونيفٌ وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان، وسبعون بعيراً يعتقبونها، ....

في «المصباح»: النفل: الغنيمة[1].

قال الشاعر:

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نفَلْ[2]

قوله: (ظهره)؛ أي: ما يركبه.

قوله: (من الأنصار): وكان عدد الخزرج مئة وسبعين، والباقون من الأوس، وإنما قلَّ عدد الأوس، وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبرَ عند اللقاء؛ لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتةً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً»، فاستأذنه رجال ظهورُهم كانت في عُلْو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى. اهـ. «زاد المعاد»[3].

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: نفل).

(٢) صدر بيت لبيد بن ربيعة، وعجزه:

وبإذنِ الله رَيثي وعَجَلْ

انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١٧٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٨٨)، والخبر المذكور رواه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

والحامل للواء مصعبُ بنُ عُمَير العَبْدريُّ. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم، استأجر راكباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر، فلما علموا بذلك، أدركتهم حميتُهم، وخافوا على تجارتهم، فنفروا سِراعاً، ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بنُ عبد المطلب؛ فإنه أرسل بدله العاصَ بنَ هشام بنِ المغيرة. وأراد أمية بنُ خلف أن يتخلَّف؛ لحديث حدَّثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل؛ . . . .

قوله: (استأجر راكباً): هو ضمضم بن عمرو الغفاريُّ.

قوله: (ويخبرهم الخبر): لما دخل مكة، صرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدعَ بعيرَه، وحوَّل رحلَه، وشقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش! اللطيمةَ اللطيمةَ؛ أي: أدركوا اللطيمة، وهي العير التي تحمل الطيب والبز، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، إن أصابها محمد، لم تفلحوا أبداً، الغوثَ الغوثَ[1].

فتجهز الناس سراعاً، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأعان قويُّهم ضعيفَهم، وقام أشرافُ قريش يحضُّون الناس على الخروج.

وقال سهيلُ بنُ عمرو: يا آل غالب! أتاركون أنتم محمداً والصُّباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم؟ من أراد مالاً، فهذا مالي، ومن أراد قوتاً، فهذا قوتي[2].

قوله: (ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بنُ عبد المطلب): سبب الخلفة: الرؤيا التي رأتها عاتكةُ بنتُ عبد المطلب أختُ أبي لهب، وهي مبسوطة في الدحلانية: وهي بمعنى ما حصل من ضمضم الغفاري حينما أتى مكة مستصرخاً

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٩ ـ ٣١) بنحوه عن عروة بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٢).

حيث قال ـ كما رواه البخاري ـ : سمعتُ من رسول الله يقول : «إنهم قاتلوك» ، قال : بمكة؟ قال : لا أدري. ففزع لـذلك ، وحلـف ألَّا يخـرج ، فعابـه أبـو جهل ، ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوعَ بعد قليل ، . . . .

أهلها[١] .

قوله : (كما رواه البخاري) : نص حديث فيه : انطلق سعدُ بنُ معاذ معتمراً ، قال : فنزل على أميةَ بنِ خلفٍ أبي صفوانَ ، وكان أميةُ إذا انطلق إلـى الشـام ، فمـر بالمدينة ، نزل على سعد ، فقال أمية لسعد : انتظر ، حتى إذا انتصف النهار ، وغفل الناس ، انطلقتُ فطفتُ ، فبينا سعدٌ يطوف ، إذا أبو جهل ، فقـال : مـن هـذا الـذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد : أنا سعد ، فقال أبو جهل : تطوف بالكعبـة آمنـاً ، وقـد آويتم محمداً وأصحابه؟! فقال : نعم ، فتلاحيا بينهما ، فقال أميـةُ لسـعد : لا ترفـع صوتك على أبي الحكم ؛ فإنه سيد أهل الوادي ، ثم قال سعد : والله! لـئن منعتنـي أن أطوف بالبيت ، لأقطعن متجرَك بالشام ، قال : فجعل أميةُ يقول لسعد : لا ترفـع صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعدٌ فقال : دعنا عنـك ؛ فـإني سـمعتُ محمـداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلُك ، قال : إياي؟ قال : نعم ، قال : والله! ما يكـذب محمدٌ إذا حدَّث .

فرجع إلى امرأته فقال : أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت : ومـا قـال؟ قال : زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي ، قالت : فوالله! ما يكذب محمد .

قال : فلمـا خرجـوا إلى بدر ، وجاء الصريخ ، قالت لـه امرأتـه : أما ذكـرتَ ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال : فأراد أن لا يخرج ، فقال له أبو جهل : إنـك مـن أشراف الوادي ، فسر يوماً أو يومين ، فسار معهم[٢] ، فقتله الله . اهـ[٣] .

---

(١) انظر : «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٢) .

(٢) في الأصل زيادة : «يومين» ، وليست هذه اللفظة عند البخاري .

(٣) رواه البخاري (٣٦٣٢) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ .

ولكن إرادة الله فوق كل إرادة؛ فإن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه وكـذلك عَزَمَ جماعةٌ من الأشراف على القعود، فَعِيبَ عليهم ذلك، وبهذا أجمعـتْ رجالُ قريش على الخروج، فخرجوا على الصعب والذلول، أمامهم القَيْناتُ يغنـــين بهجـــاء المســـلمين: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾[الأنفال: ٤٨]**. وقـد ضـرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم، . . . .**

قوله: (جماعة من الأشراف): منهم: أمية بن خلف، وعتبة بـن ربيعـة، وأخوه شيبة، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، فجاءهم أبو جهـل، وحـثهم على الخروج، وأعانه على ذلك عقبةُ بنُ أبي معيط، والنضرُ بـن الحـارث. اهـ. دحلاني[١].

قوله: (على الصعب والذلول)؛ أي: مسرعين.

قوله: (﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ . . .﴾) إلخ: قال البيضاوي فـي سورة الأنفال في تفسير هذه الآية: قيل: لما أجمعت قريش على المسير، ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة، وكاد[٢] ذلك يثنيهم، فتمثل لهـم إبلـيسُ بصـورة سُراقةَ بنِ مالكٍ الكنانيِّ، وقال: لا غالبَ لكم اليوم، وإني مجيركم من بنـي كنانـة، فلما رأى الملائكة تنزل، نكص، وكان يدُه في يد الحارث بن هشام، فقـال لـه: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقـال: إنـي أرى مـا لا تـرون، ودفـع فـي صـدر الحارث وانطلق، وانهزموا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم النـاس سـراقة، فبلغـه ذلك فقال: والله! ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا، علمـوا أنه من الشيطان. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «وكان»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٣).

فقال في سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الحشر: ١٦]، وهكذا كان عمله في هذه الواقعة: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٤٨]. وكان عِدَّةُ مَنْ خرج من المشركين تسع مئة وخمسين رجلاً، معهم مئة فرس، وسبع مئة بعير.

قوله: (﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾): قال البيضاوي: أي: مَثَلُ المنافقين في إغراء اليهود على القتال كَمَثَل الشيطان.

(﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾): أغراه على الكفر إغراءَ الآمر المأمور.

(﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾): تبرأ منه مخافةَ أن يشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك، كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الحشر: ١٦ ـ ١٧][1].

قوله: (﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾)؛ أي: تلاقى الفريقان.

وقوله: (﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾): رجع القهقرى؛ أي: بطل كيده، هذه الآية هي تتمة الآية الأولى، فالأولى أن تكون معها، وتؤخر قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ...﴾[الحشر: ١٦] إلخ.

(﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾): يجوز أن يكون من كلامه، وأن يكون مستأنفاً. اهـ. البيضاوي[2].

قوله: (تسع مئة وخمسين رجلاً): وقيل: كانوا ألفاً، وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد، ثم أسلم ـ رضي الله عنه ـ، وهو الجدُّ الخامس للإمام الشافعي

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٣ ـ ١١٤).

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فعسكر ببيوت السُّقْيا خارج المدينة، واستعرض الجيشَ، فردَّ مَنْ ليس له قدرة على الحرب، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير. ولما بلغ الرَّوْحاء، جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم، ....

ـ كما سيأتي ـ، وكان المطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً، كل واحد ينحر كل يوم عشر[ة] جزر، وفيهم نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾[الأنفال: ٣٦]. اهـ. دحلاني(١).

وعُلم عددُهم من الجمال التي كان ينحرونها ـ كما سيأتي ـ.

قوله: (ببيوت السُّقيا): قال الحلبي: هي عين بينها وبين المدينة يومان، كان يُستقى له صلى الله عليه وسلم الماءُ منها. اهـ(٢).

وفي «القاموس»: السُّقيا: عين بين المدينة ووادي الصفراء(٣).

قوله: (واستعرض الجيش): قال الدحلاني: ولما نظر إلى أصحابه، قال: «اللهم إنهم حُفاة فاحملْهم، وعُراة فاكسُهم، وجياع فأشبعْهم، وعالة فأغْنِهم من فضلك»، فما رجع منهم أحد إلا وله البعيرُ والبعيران، واكتسى من كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزواد قريش، وأصابوا فداء الأسارى، فاغتنى به كلُّ عائل. اهـ(٤).

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سقي).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٦)، والخبر المذكور رواه أبو داود (٢٧٤٧) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً، أو بعد غد، فجمع عليه الصلاة والسلام كبراء الجيش، وقال لهم: «أيّها الناس! إنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: العير، أو النفير»[1].

فتبين له عليه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غيرَ ذات الشوكة، وهي العير؛ ليستعينوا بما فيها من الأموال، . . . .

قوله: (فرد من ليس قدرة): كان ممن رده: أسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأُسَيد بن حُضَير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وردَّ عُميرَ ابن أبي وقاص، فبكى، فأجازه، وقُتل وعمرُه ستة عشر عاماً[2].

قوله: (ستصل بدراً غداً، أو بعد غد): لأن الرجلين مضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تل قريب من الماء، وأخذا يستقيان من الماء، فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها: إن أتاني العير غداً أو بعدَ غد، أعملْ لهم ـ أي: أخدمهم ـ ثم أقضيكِ الذي لك، فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه بما سمعا. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (أو النفير)؛ أي: القوم النافرين للحرب؛ يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم خيَّر أصحابه بين أن يذهبوا للعير، أو إلى محاربة النفير، وأخبرهم عن قريش بسيرهم.

قوله: (وهي العير): فقد قال بعضهم: يا رسول الله! عليك بالعير،

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٦١) من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢١٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٦).

فقد قالوا: هلاّ ذكرتَ لنا القتالَ فنستعدَّ؟ وجاء مصداقُ ذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٧].

ثم قام المقدادُ بنُ الأسود ـ رضي الله عنه ـ فقالَ: يا رسول الله! امضِ لما أَمرك الله، فو الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: . . . .

ودع العدوّ، فتغير وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو أيوب: وفي ذلك أنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][١].

قوله[٢]: سبب قولهم لموسى ذلك: أن الله وعد موسى أن يورثه الأرض المقدسة، فأرسل من قومه (١٢) رجلاً إلى مدينة أريحا، وهي مدينة الجبارين؛ ليتجسسوا الأخبار، ولما دخلوها، وجدوهم أمةً ذاتَ بأس شديد، فهالَهم أمرُهم، واتفقوا أن لا يخبروا بني إسرائيل بما رأوا، ويكتموا ذلك بينهم كي لا يفشلوا، وأخذ بعضُهم على بعض ميثاقاً، ثم إن هؤلاء نكثوا العهد، وأخبروا قومهم، إلا رجلين منهم، وهما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا.

ثم إن موسى أمر بني إسرائيل بالمسير، وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة: ٢١]، فإن الله سيفتحها عليكم، فقالوا له: يا موسى! إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، فكرر عليهم النصيحة، فلم يقبلوا قوله، وردوا عليه أمره، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤][٣].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٩) عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أي: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى.

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٢٧ ـ ٢٨).

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنَّا معكما مقاتلون، واللهِ! لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بخير، ثم قال عليه السلام: «أشيروا عليّ أيّها الناس»، وهو يريد الأنصار؛ لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تَجِب عليهم نصرتُه إلا ما دام بين أظهرهم، فإن فيها: يا رسول الله! إنَّا بُرآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلتَ إليها، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فقال سعد بن معاذ سيدُ الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل»، فقال سعد: قد آمنا بك وصدّقناك، وأعطيناك على ذلك عهودنا، فامضِ لما أمرك الله، . . . .

قوله: (برك الغماد): ـ بالكسر ويفتح ـ: موضع[1] باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض. اهـ. قاموس[2].

وفي الدحلانية: برك الغماد: مدينة بالحبشة[3].

وقوله: (لجالدنا معك)؛ أي: ضاربنا معك.

قوله: (فقال سعد)؛ أي: بعدما كرر النبي صلى الله عليه وسلم كلمة: «أشيروا عليَّ».

قوله: (فامض لما أمرك الله): في الدحلانية: ومما قاله سعد: ولعلك يا رسول الله خرجت لأمر، فأحدثَ الله غيرَه، فامض لما شئت، وصِلْ حبالَ من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطِنا ما شئت، وما أخذتَ منا كان أحبَّ إلينا مما تركت،

---

(١) في الأصل: «عين»، والتصويب من «القاموس المحيط».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: برك).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٧).

فو الذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخضتَه لنَخوضَنَّه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إنّا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعلّ الله يُريك منّا ما تقرّ به عَيْنُك، فسر على بركة الله. فأشرق وجهه عليه السلام، وسُرّ بذلك، وقال كما في رواية البخاري: «أبشروا، والله! كأني أنظر إلى مصارع القوم»[1].

فَعلم القومُ من هذه الجملة أن الحرب لا بدّ حاصلة، وحقيقةً حصلت؛ فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له، . . . .

ما أمرت به من أمر فأمرْنا نتبعْ أمرك. اهـ[2].

قوله: (إلى مصارع القوم): قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم ليرينا مصارعَ أهل بدر ويقول: «إن هذا مصرعُ فلان غداً ـ إن شاء الله تعالى ـ»، ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، فما ماط أحدهم ـ أي ما تنحى ـ عن موضع يده عليه الصلاة والسلام[3]، فهو معجزة ظاهرة.

قوله: (فإن أبا سفيان. . .) إلخ: قال الحلبي: إن أبا سفيان تقدم العير

---

(١) لم نقف عليه عند البخاري، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه، وروى مسلم (٢٨٧٣/ ٧٦) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان غداً ـ إن شاء الله ـ»، قال: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢١١)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٨)، والخبر المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٦٠) من حديث علقمة بن وقاص مرسلاً.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٣)، من حديث أنس بن مالك، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

ترك الطريق المسلوكة، وسار متّبعاً ساحل البحر فنجا، وأرسلَ إلى قريش يُعلِمهم بذلك، ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجعُ حتى نحضرَ بدراً، فنقيمَ فيه ثلاثاً: ننحر الجُزر، ونطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتسمع بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأخنسُ بنُ شريق الثقفيُّ لبني زهرة ـ وكان حليفاً لهم ـ: ارجعوا يا قوم؛ فقد نجّى الله أموالكم فرجعوا، ولم يشهد بدراً زهريٌّ ولا عدويّ، ثم سار الجيش حتى وصلوا واديَ بدر، فنزلوا عُدوَتَه القُصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين، فإنه لمّا قارب بدراً، أرسل عليه السلام عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بنَ العوّام ليعرفا الأخبار، فصادفا سُقاةً لقريش، فيهم غلام لبني الحجاج، وغلام لبني العاص السهميين، فأتيا بهما، والرسول عليه السلام قائم يصلي، ثم سألاهما عن أنفسهما، فقالا: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما؛ . . . .

حذراً حتى ورد الماء، فلقى رجلاً، فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنٍّ لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مناخَهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففتته، فإذا فيه النوى، فقال: والله! علائفُ يثربَ، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فصوب عيرَه عن الطريق، وترك بدراً بيسار الطريق، وانطلق حتى أسرع، فلما علم أنه قد أحرز عيرَه، أرسل إلى قريش ـ وكان قد بلغه مجيئُهم ليحرزوا العير، وكانوا حينئذ بالجحفة ـ: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيرَكم ورجالَكم وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل. . . إلخ[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٠).

لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان. فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان، فتركاهما. ولما أتمَّ الرسول عليه السلام صلاته، قال: «إذا صَدَقاكم، ضربتُموهما، وإذا كذباكم، تركتموهما؟ صدقا والله! إنهما لقريش». ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش؟» قالا: هم وراء هذا الكَثيب، فقال لهما: «كم هم؟» فقالا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟». قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال: «القوم ما بين التسع مئة والألف»، ثم سألهما عمّن في النفير من أشراف قريش، فذكرا له عدداً عظيماً، فقال عليه السلام لأصحابه: «هذه مكةُ قد ألقتْ إليكم أفلاذَ كبدها»[1].

ثم ساروا حتى نزلوا بعُدْوَةِ الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً؛ بعضهم جُنُب، وبعضهم مُحْدِث، فحدَّثهم الشيطان بوسوسته، ولولا فضلُ الله عليهم ورحمتُه لثُنيت عزائمُهم، ....

قوله: **(الكثيب)**: هو التل من الرمل.

قوله: **(فذكرا له عدداً عظيماً)**: قال الدحلاني: هم: عتبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وسهيل بن عمرو. اهـ[2].

قوله: **(أفلاذ)**: مفرده: فِلذَة.

قوله: **(سبخة)**: ـ محركةً ومسكنةً ـ: أرض ذات نزٍّ وملح.

قوله: **(فأصبح المسلمون عطاشاً... إلخ)**؛ أي: لأن المشركين سبقوهم إلى الماء.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٧) عن عروة بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٩).

فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذهِبَ قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله لهم الغيثَ حتى سال الوادي، فشربوا، واتخذوا الحِياض على عُدْوَةِ الوادي، واغتسلوا وتوضؤوا، وملؤوا الأسقية، ولبدت الأرض، حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين؛ فإنه وَحَّل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال. ومصداقُ هذا: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، . . . .

قوله: (فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون. . .) إلخ: قال الدحلاني: ووسوس الشيطان لبعضهم، وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبيُّ الله، وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عِطاش، وتصلُّون محدثين مجنبين، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذهب قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا؟[1].

قوله: (فإنه وَحَّل الأرض)؛ أي: لأنها كانت سهلة لينة.

قوله: (﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾): لطخه وما يدعو إليه من الكفر. اهـ. سجستاني[2].

وقوله: (﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾)؛ أي: بالصبر على مجالدة العدو، وبالوثوق على لطف الله، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمل. اهـ. دحلاني[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٠).

(٢) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٢٤٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٠).

وقد أرى الله رسولَه في منامه الأعداءَ كما أراهموه وقتَ اللقاء قليلي العدد؛ كيلا يفشل المسلمون، وليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[الأنفال: ٤٣ ـ ٤٤].

قوله: (﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ...﴾) إلخ: قال البيضاوي: مقدر بـ (اذكر)، أو بدلٌ ثان من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أو متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢] ـ أي: في آخر كلمة من الآية التي قبلها ـ؛ أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك، وهو أن تخبر به أصحابك ليكون تثبيتاً لهم، وتشجيعاً على عدوهم.

وقوله: (﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾)؛ أي: جَبُنتم.

وقوله: (﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾)؛ أي: أمر القتال، وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار[١].

قوله: (﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾): قال البيضاوي: وإنما قللهم حتى قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ لمن في جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة[٢]؛ تثبيتاً لهم، وتصديقاً لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: (﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾) حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم؛ لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة؛ فإن النصر وإن كان قد يرى الكثيرين قليلاً والقليل

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١١).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٦٧) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال لـه الحُبـاب ابن المنذر الأنصاريُّ، وكان مشهوراً بجـودة الـرأي: فقـال: يـا رسـول الله! أهذا منزل أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمَكِيدة؟ فقال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسـول الله! ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنـى مـاء مـن القـوم، فـإني أعرفُ غزارةَ مائه وكثرته، فننزله ونُغَوِّر مـا عـداه مـن الآبـار، ثـم نبنـي عليـه حوضاً، فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «لقد أشرت بالرأي»[(١)]، ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالآبـار التي خلفهم فَغُوِّرت لينقطع أملُ المشركين فـي الشـرب وراء المسـلمين، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه.

ثم قال له سعد بن معاذ سيدُ الأوس: يا نبي الله! ألا نبني لك عريشاً. . .

كثيراً؛ لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلـك بصـدِّ الله الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعض مع التساوي في الشروط[(٢)].

قوله: (فنشرب ولا يشربون)؛ أي: لأن القُلُب كلَّها حينئذ تصير خلف ذلـك القليب. اهـ. حلبي[(٣)].

قوله: (عريشاً): قال الحلبي: هو شيء كالخيمة من جريد يُستظل به[(٤)].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٧) عـن رجـال مـن بنـي سلمة، وانظر: «الشفا» للقاضي عيـاض (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«السـيرة الحلبيـة» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٣).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١١ ـ ١١٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله! ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولا أطوعَ لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك، إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أويقضي الله خيراً من ذلك»[1].

ثم بُني للرسول صلى الله عليه وسلم عريشٌ. . . . .

قوله: (ونعد عندك): هكذا في الحلبية[2]، ومعناه نُهيِّئ.

وفي الدحلانية: وندع[3]؛ أي: نترك.

قوله: (أو يقضي الله. . .) إلخ؛ أي: وهو نصرهم وظهورهم على عدوهم، و(أو) هنا بمعنى (بل).

قال في «المغني»: تأتي (أو) للإضراب، قال جرير:

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية　　　لولا رجاؤك قد قتلت أولادي[4]

وفي الدحلانية: بدون (أو)[5].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٨) بنحوه. وروى الجملة الأخيرة الواقدي في «المغازي» (١/ ٦١) من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٢).

(٤) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٩١).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٢).

فوق تل مشرف على ميدان الحرب، ولما اجتمعوا، عدَّل عليه الصلاة والسلام صفوفهم، مناكبهم متلاصقة، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص، ثم نظر لقريش فقال: «اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخُيلائها وفخرها تحادُّك وتُكذِّب رسولك. اللهم فنصرَكَ الذي وعدتني به»[1].

وفي هذا الوقت وقع خُلْفٌ بين رؤساء عسكر المشركين؛ فإن عتبة ابن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب، ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قُتل في سرية عبدالله بن جحش، ويحمل ما أُصيب من عيره ودعا الناس إلى ذلك، فلما بلغ أبا جهل الخبرُ، وَسَمَه بالجبن، وقال: والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

قوله: (بخيلائها)؛ أي: كِبْرها وعجبها.

وقوله: (تحادّك): المحادة: المعاداة والمخالفة والمنازعة. اهـ. «نهاية»[2].

قوله: (وفي هذا الوقت وقع خلاف...) إلخ: سببه كان في الحلبي: أن قريشاً لما اطمأنت أرسلوا عُمَير بنَ وهب الجمحيَّ رضي الله عنه ـ لأنه أسلم بعد ذلك ـ وقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، فأتى إليهم ثم رجع فقال: ثلاث مئة رجل يزيدون قليلاً، ولكني ـ يا معشر قريش ـ رأيت البلايا تنزل على قبر صاحبها، وهم لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم زرق العيون كأنهم الحصا تحت الحجف، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٨) بنحوه، انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٥).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٣٥٣).

وقبل أن تقوم الحرب على ساقها، خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبدالله المخزومي وقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، . . .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك، مشى في الناس، فأتى عتبةَ بن ربيعة، وأشار إليه أن يرجع بالناس، فقام عتبة خطيباً، وأشار على قريش بالرجوع، وأن يخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه، فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون، يا قوم! اعصبوها اليوم برأسي ـ أي: اجعلوا عارها لي ـ وقولوا: جَبُن عتبة، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم.

ثم قال حكيم بن حزام لعتبة: أرى أن تجير بين الناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، فوافق على ذلك، ثم قال لحكيم بن حزام: انطلق إلى أبي جهل، قال: فانطلقت إليه، فوجدته قد سل درعاً له من جرابها، فقال له: إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره ـ أي: رئته، كلمة تقال للجبان ـ.

وفي رواية: أنه أتى إليه بنفسه، فقال: أنت تقول هذا؟ والله! لو غيرك يقول هذا، لأعضضته ـ أي: قلت له: اعضض على بظر أمك ـ كلا والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وقال لحكيم: ما بعتبة ما قال، ولكن قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ـ أي: في قلة بحيث يكفيهم الجزور ـ وفيهم ابنه حذيفة، فقد تخوفكم عليه.

ثم قال: يا معشر قريش! إنما يشير عليكم عتبة بهذا؛ لأن ابنه مع محمد، ومحمد ابن عمه، فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه، فغضب عتبة، وسب وقال: سيعلم أينا أفسد لقومه[1].

قوله: (الأسود بن عبد الأسد المخزومي): قال الحلبي: كان رجلاً شرساً، شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أنه أولُ من يعطى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه، فخرج إليه حمزةُ بنُ عبد المطلب، وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه، فوقع على ظهره، فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه لِيَبَرَّ قسمه، فأتبعه فقتله.

ثم وقف عليه الصلاة والسلام يحرض الناس على الثبات والصبر، وكان فيما قال: «وإن الصبر في مواطن البأس مما يُفَرِّجُ الله به الهم، وينجي به من الغمِّ»[1].

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين ثلاثةُ نفر: عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فطلبوا أكفاءهم، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: لا حاجة لنا بكم، إنما نريد أكفاءنا من بني عمنا، فأخرج لهم عليه الصلاة والسلام عُبيدةَ بنَ الحارث بنِ عبد المطلب للأول، وحمزةَ بنَ عبد المطلب للثاني، وعليَّ بنَ أبي طالب للثالث. فأما حمزةُ وعليٌّ فقتلا صاحبيهما، وأما عبيدةُ وعتبة، فاختلفا بضربتين، كلاهما جرح صاحبه، فحمل رفيقا عبيدةَ على عتبةَ فأجهزا عليه، وحُمِل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مُخُّ ساقه، وأضجعوه إلى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم، فأفرشه صلى الله عليه وسلم قدمه الشريفة، فوضع خدَّه عليها، . . . .

كتابه بشماله، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه[2].

قوله: (ثلاثة من الأنصار): هم إخوة أشقاء: مُعاذ، ومُعَوَّذ، وعوف بنو عفراء.

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٧٠) عن عمر بن حسين. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٠)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «الأوائل» (٨٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً.

وبشره عليه الصلاة والسلام بالشهادة، فقال: وَدِدْت والله! أن أبا طالب كان حيّاً ليعلم أننا أحقُّ منه بقوله:

ونُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ونَذْهَلَ عَنْ أَبنائِنا والحَلائِلِ[1]

قوله: (وبشره عليه الصلاة والسلام بالشهادة)؛ أي: بعدما قال له عبيدة: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشهد أنك شهيد»، وتوفي بالصفراء، ودفن بها عند مرجع المسلمين إلى المدينة[2].

قوله: (ونسلمه. . .) إلخ: البيت قبله:

كذبتم وبيتِ الله نُبزى محمداً ولما نطاعِنْ دونَه ونناضلِ[3]

---

(١) هذا البيت من أبيات في قصيدة لأبي طالب، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، قالها لما تمالأت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم، ونفروا عنه من يريد الإسلام، وأولها:

ولمَّا رأيت القوم لا ودَّ عندهم وقد قَطَعوا كلَّ العرى والوسائل

وقد جاهرونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

أعبدَ منافٍ أنتُم خير قومكم فلا تشركوا في أمركم كلَّ واغلِ

فقد خفتُ إن لم يصلح الله أمركم تكونوا كما كانت أحاديث وائلِ

أعوذ بربِّ الناس من كل طاعن علينا بسوءٍ أو ملحٍّ بباطلِ

وثورٍ ومن أرسى ثبيراً مكانه وراقٍ لبر في حراءٍ ونازلِ

وبالبيت حق البيت في بطن مكة وتالله إن الله ليس بغافلِ

كذبتم وبيتِ الله نبزى محمداً ولمَّا نطاعنْ دونَه ونناضل

انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٣).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٢٥٩) عن محمد بن علي بن حسين ابن ربيعة، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠١).

(٣) انظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٦٦).

وبعد انقضاء هذه المبارزة، وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يعدِلها بقضيب في يده، فمرّ بسواد بن غَزِيَّةَ حليفِ بني النجار وهو خارج من الصف، فضربه بالقضيب في بطنه وقالَ: «استقم يا سواد»، فقال: أوجعتني يا رسول الله، وقد بُعثتَ بالحق والعدل، فَأَقِدْني من نفسك، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه، وقال: «استقِدْ يا سواد»، فاعتنقه سواد وقبَّل بطنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما حملك على ذلك؟» فقال: يا رسول الله! قد حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جلدَك، فدعا له بخير[1].

ثم ابتدأ عليه السلام يوصي الجيش فقال: «لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتَنَفكم القوم فانضحوهم بالنبل، . . . .

قوله: (غزية): ـ بفتح الغين وكسر الزاي وتشديد الياء ـ. اهـ. حلبي[2].

قوله: (أن يمس جلدي جلدك): قال الحلبي نقلاً عن «الخصائص الصغرى»: ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم: أنه ما التصق ببدنه مسلم وتمسه النار.

ومنها أيضاً: لا تأكل النار شيئاً من جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم. اهـ[3].

قوله: (وإن اكتنفكم القوم)؛ أي: دانَوْكم.

(فانضحوهم بالنبل)؛ أي: ادفعوا عنكم بالنبل.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٣) عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٣).

ولا تَسُلُّوا السيوف حتى يَغْشَوكم»[1].

ثم حضّهم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسُه سعدُ بن معاذ واقفٌ على باب العريش متوشحٌ سيفَه، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري: «اللهمّ أنشدك عهدَك ووعدَك، اللهمّ إن شئتَ لم تُعبد»، فقال أبو بكر: حَسْبُك؛ فإن الله سينجز لك وعده. فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥][2].

ثم قال عليه الصلاة والسلام يُحَرِّض الجيش: «والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غيرَ مدبر، إلا أدخله الله الجنة، ومن قتل قتيلاً فله سَلَبُه»، فقال عُمَير بن الحمام ـ وبيده تمراتٌ يأكلها ـ: بخ بخ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات، ....

قوله: (اللهم إن شئت لم تعبد): وفي الحلبي: وكان يقول أيضاً: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تُعبد»[3].

قوله: (محتسباً)؛ أي: طالباً وجهَ الله تعالى والأجرَ والثواب. اهـ. «نهاية»[4].

قوله: (بخ بخ): كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجبِ منه.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٦٤) من حديث أبي أسيد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٢٩١٥) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٥)، والخبر المذكور رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٣٨٢).

وأخذ سيفه وقاتل حتى قُتل[1].

واشتد القتال، وحمي الوطيس، وأيد الله المسلمين بالملائكة. . . .

قوله: (قاتل حتى قتل): قال الحلبي: وكان يقول:

ركضاً إلى الله بغير زادِ إلا التقى وعمل المعادِ

والصبر في الله على الجهاد وكلُّ زادٍ عرضةُ النفادِ

غيرَ التقى والبرِّ والرشاد[2]

قوله: (وحمي الوطيس): الوطيس: التنور، وهو كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب، ويقال: إن هذه الكلمة أول من قالها النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد البأس يومئذ؛ أي: يوم حنين، ولم تُسمع قبله، وهي من أحسن الاستعارات. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (وأيد الله المسلمين بالملائكة): قال الدحلاني: لما التحم القتال، وعجَّ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء، أنزل الله الملائكة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩]؛ أي: متتابعين، فكان مع جبريل خمس مئة، ومع ميكائيل خمس مئة، وجاء أن الله أيده بثلاثة آلاف: ألف مع جبريل، وألف مع ميكائيل، وألف مع إسرافيل[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٣) إلا قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، فقد رواه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «من قتل قتيلاً له عليه بينةٌ فله سلبه»، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١١).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٤٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

بُشرى لهم، ولتطمئن به قلوبهم، فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع، وولّوا الدُّبُرَ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل من المشركين نحوُ السبعين، منهم من قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، قُتلوا مبارزة أول القتال، وأبو البَخْتري بنُ هشام، . . . .

ثم قال: وجاء أن الملائكة كانوا على صور الرجال، فكان الملك يمشي أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم عليهم، ويظن المسلمون أنه منهم، وجاء أنهم يقولون للمسلمين: اثبتوا فإن عدوكم قليل[١].

قوله: (حتى هزم الجمع): في الحلبي: بعدما اشتد القتال، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب، ورمى بها قريشاً، ثم قال: «شاهت الوجوه»؛ أي: قبحت الوجوه، فلم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينه لا يدري أين يتوجه ليعالج التراب لينزعه من عينيه، فانهزموا، وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون[٢]، وفي رواية أن ذلك كان في غزوة أحد. اهـ. ملخصاً[٣].

قوله: (وأبو البختري بن هشام): هذا ممن نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن قتله؛ لأنه كان ممن نقض الصحيفة، فلقيه المُجذَّر ـ رضي الله عنه ـ فقال له: قد نُهينا عن قتلك، فقال: وزميلي ـ أي: رفيقي ـ؟ وكان معه زميل له خرج معه من مكة يقال له: جنادة بن مليحة، فقال له المجذر: لا والله! ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدَك، فقال: لا والله! إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٥) عن محمد بن قيس، ومحمد بن كعب القرظي.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٢).

والجراح والدُ أبي عبيدة، قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقُتل أُميةُ بن خلف، وابنُه علي، اشترك في قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمّار بن ياسر، وقد سعيا في ذلك؛ لما كان يفعله بهما أُمَيّةُ في مكة[1].

يقتل حرصاً على الحياة، فقتله المجذرُ بعد أن قاتله، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: والذي بعثك بالحق! لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقتلته. اهـ. حلبي[2].

قوله: (والجراح والد أبي عبيدة قتله ابنه): قال الحلبي: إن والد أبي عبيدة قصد أبا عبيدة ليقتله، فولى عنه لينكفَّ عنه، فلم ينكفَّ عنه، فرجع عليه وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢] الآية[3].

قوله: (وأمية بن خلف، وابنه علي): قال الحلبي: قال عبد الرحمن بن عوف: كان معي أدراع استلبتها، فأنا أحملها، فرآني أمية فقال لي: هل لك فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه علي وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، ثم قال لي: يا عبد الإله! من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

ثم خرجت أمشي بهما، فوالله! إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، فقال بلال: رأسُ الكفر أميةُ بن خلف، لا نجوتُ إن نجا، فقلتُ: أي بلال! أفبأسيريّ ـ أي

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٥).

ومن القتلى: حنظلة بنُ أبي سفيان، وأبو جهل بنُ هشام، أثخنه فَتيان صغيران من الأنصار، لما كانا يسمعانه من أنه كان شديدَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجهز عليه عبدُالله بن مسعود، . . . . . .

تفعل ذلك بهما ـ؟ قال: لا نجوتُ إن نجا، وكَرَّرت، وكررَ ذلك، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأسُ الكفر أمية بن خلف، فأحاطوا بنا، فأصلتَ بلالٌ السيفَ فضرب رجلَ ابنه فوقع، وصاح أمية[1] صيحة ما سمعت مثلها قط، فضربوهما بأسيافهم فهبروهما. اهـ.

فلما قُتلا صار يقول عبد الرحمن: يرحم الله بلالاً، فلا درعي، ولا أسيريَّ[2].

قوله: (وأبو جهل بن هشام): في البخاري: قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل، فقلت: يا بن أخي! وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، قال: فما سرّني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدوا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، هما ابنا عفراء. اهـ[3].

قال الحلبي: ثم رآه عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بآخر رمق، فعرفه، فوضع رجله على عنقه، ثم احتز رأسه، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الأصل تكرر: «أمية».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٣٠١) من حديث عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(٣) رواه البخاري (٣٩٨٨).

وقُتل نوفلُ بنُ خويلد، قتله علي بن أبي طالب، وقُتل عبيدة والعاصي ولدا أبي أُحَيْحَةَ: سعيدِ بنِ العاصِ بنِ أمية، وقُتِل كثيرون غيرُهم[١].

أما الأسرى، فكانوا سبعين أيضاً، قتلَ منهم عليه السلام وهو راجع عقبةَ بنَ أبي مُعَيط، والنضرَ بنَ الحارث اللذين كانا بمكة من أشدِّ المستهزئين[٢].

وقال له: هذا رأس عدوِّ الله أبي جهل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «آللهِ الذي لا إله غيره؟»[٣]، وردّدها ثلاثاً، وحمد الله تعالى، وسجد خمس سجدات شكراً[٤].

قوله: (ونوفل بن خويلد): قال الحلبي: لما التقى الصفان، نادى نوفل بصوت رفيع: يا معاشر قريش! اليوم يوم الرفعة والعلاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اكفني نوفلَ بنَ خُويلد»، فخرج إليه جبار بن صخر فأسره، فبينما هو يسوقه، رآه علي، فقال نوفل: يا أخا الأنصار! من هذا؟ واللات والعزى! إنه ليريدني، فقال: هذا علي بن أبي طالب، فعمد له علي ـ كرم الله وجهه ـ فقتله. اهـ[٥].

قوله: (والنضر بن الحارث): قال الحلبي: كان المقداد ـ رضي الله عنه ـ أسرَ النضرَ. . . إلخ، إلى قوله: «لو بلغني هذا الشعر قبل قتله، لمننت عليه»[٦].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣٧) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢٠).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٩٤ ـ ٩٥) عن الزهري بنحوه.

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤١)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٣٠٩).

وكانت هذه الواقعة في (١٧) رمضان، وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن، وبين التاريخين (١٤) سنة قمرية كاملة.

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فنُقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قليب بدر؛ لأنه عليه الصلاة السلام كان من سُننه في مغازيه إذا مرّ بجيفة إنسان، أمر بها فدُفنت، لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً، ولما ألقي عتبة والدُ أبي حذيفة أحدِ السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه، ففطن الرسول عليه السلام لذلك، فقال: «لعلّك دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: لا والله! ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه، أحزنني ذلك، فدعا له الرسول عليه السلام بخير[1]، ثم أمر عليه السلام براحِلته، فشُدَّ عليها حتى قام على شَفَةِ القليب الذي رُمي فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلان! . . . .

قوله: (فنقلوا من مصارعهم. . .) إلخ؛ أي: إلا أميةَ بنَ خلف؛ فإنه انتفخ في درعه فملأه، فذهبوا ليحركوه فتزايل ـ أي: تقطعت أوصاله ـ فأخروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. اهـ. حلبي[2].

(حزنني ذلك): صوابه: أحزنني، كما في الحلبي[3].

قوله: (فشد عليها)؛ أي: شد عليها رحلُها، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقائهم في القليب، وذلك ليلاً.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٩٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٠).

أيسرّكم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؟! فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟!»، فقال عمر: يا رسول الله! ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال: «والذي نفسُ محمد بيده! ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم»[1].

قوله: (أيسركم أنكم): ومما قاله لهم أيضاً: «كنتم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس»[2].

قوله: (ما أنتم بأسمع. . .) إلخ: وفي رواية: «لقد سمعوا ما قلتُ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً»[3].

وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: أحياهم الله حتى سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لهم، وتصغيراً ونقمة وحسرة[4].

قال الحلبي: أقول: والمراد بإحيائهم: شدةُ تعلق أرواحهم بأجسادهم حتى صاروا كالأحياء في الدنيا للغرض المذكور؛ لأن الروح بعد مفارقة جسدها يصير لها تعلق به، أو بما يبقى منه، ولو عجب الذنَب؛ فإنه لا يفنى وإن اضمحل الجسم بأكل التراب أو بأكل السباع أو الطير أو النار، وبواسطة ذلك التعلُّق يعرف الميت من يزوره ويأنس به، ويرد سلامه إذا سلم عليه؛ كما ثبت في الأحاديث، وتمامه فيه[5].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٦) من حديث أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٨٨) عن بعض أهل العلم.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٣) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) رواه البخاري (٣٩٧٦).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣١).

وتقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أَنَّ ما كنتُ أقول لهم حق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢]، . . . .

قوله: (وتقول عائشة. . .) إلخ: المقصود بإيراد ما قالته عائشة: إنكارُ ما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لعمر، وإن الذي قاله لعمر هو قوله: «إنهم الآن ليعلمون. . .» إلخ مستدلةً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ . . .﴾ [النمل: ٨٠] إلخ الآية، وقد ذكر الحديث هنا مختصراً، ولذلك لم يظهر المقصود منه تمام الظهور، والحديث كما في البخاري: ذُكر عند عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن ابن عمر رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يعذَّب في قبره ببكاء أهله، فقالت: إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن»، قالت: وذاك مثلُ قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على القليب، وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: إنهم ليسمعون ما أقول، إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، تقول: حين تبوؤوا مقاعدهم من النار. اهـ[١].

وروي عن ابن عمر قال: وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً»، ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول»، فذكر لعائشة، فقالت: إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[٢].

قال الحلبي: ويجاب بأنه لا مانع من إبقاء السمع هنا على حقيقته؛ لأنه

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٨، ٣٩٧٩) من حديث عروة بن الزبير.

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٠، ٣٩٨١).

يقول: «يعلمون ذلك حينما تبوّؤوا مقاعدهم من النار». رواه البخاري[1].

ثم أرسل عليه السلام المبشرين، فأرسل عبدَالله بنَ رواحةَ لأهل العالية، وأرسل زيدَ بنَ حارثةَ لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، . . . .

إذا قوي تعلقُ أرواح الكفار بأجسادهم، لا مانع من سماعهم بحاسة سمعهم؛ لبقاء محلِّ تلك الحاسة منهم، والسماعُ المنفيُّ في الآيتين بمعنى السماع النافع؛ لأنه تعالى شبه الكفار الأحياء بالأموات في القبور، فإنهم لا ينتفعون بالدعاء إلى الإسلام النافع. اهـ[2].

قوله: (وكان المنافقون...) إلخ: في الحلبي: قال رجل من المنافقين لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده أبداً، قد قُتل محمد وغالبُ أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب، قال أسامة: فجئت حتى خلوتُ بأبي لبابة، وسألته عما أسره له الرجل، فأخبرني بما أخبره به، فقلت: أحق ما تقول؟ قال: أي والله! حق ما أقول يا بني، فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجِفُ برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لنقدمنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم فتضرب عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه[3]، وكان هذا قبل أن يجتمع أسامة بأبيه زيد بن حارثة. اهـ[4].

قوله: (قد أرجفوا بالرسول[5] صلى الله عليه وسلم): في «القاموس»:

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٥).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣) عن الواقدي.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٧).

(٥) في الأصل: «بالمدينة»، والمثبت موافق لما في «نور اليقين» (ط الجامعة).

عادة الأعداء في إذاعة الضرّاء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهلَ المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقيةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجِ عثمان. ثم قفل رسول الله راجعاً[1].

وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم، فالشبان يقولون: باشرنا القتال، فهي لنا خالصة، والشيوخ يقولون: . . . .

أرجف القوم: خاضوا في أخبار الفتن ونحوها. اهـ[2].

قوله: (رُقَيَّة): ـ بضم الراء وفتح القاف وتشديد الياء؛ كسُمَيَّة ـ. اهـ. قاموس[3].

ولما عُزِّي فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، قال: «الحمد لله، دفنُ البنات من المَكْرمات»[4].

قوله: (في قسمة الغنائم): كانت الغنائم (١٥٠) من الإبل، وعشرة أفراس، ومتاعاً وسلاحاً، وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيرة حملها المشركون. اهـ[5].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٩ ـ ٢٢٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٧٤ ـ ٤٣٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رجف).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رقي).

(٤) رواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» للهيثمي (٧٩٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٣٥)، كلاهما من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إلا أن عند البزار: «موت» بدل «دفن»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٢): وفيه عثمان بن عطاء الخراساني، وهو ضعيف.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٧).

كنا ردءاً لكم فنشارككم. ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف، ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل، أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أولَ سورة الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، فسطع على أفئدتهم نور القرآن، فتألّفت بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء ـ كما حكم القرآن ـ فقسمها عليه الصلاة والسلام على السواء، الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل في الأسهام بعض مَنْ لم يحضر لأمر كُلف به، وهم: أبو لُبابة الأنصاري؛ لأنه كان مخلَّفاً على أهل المدينة، والحارث ابن حاطب؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقّق أمراً بلغه، والحارثُ بنُ الصمَّة، وخوَّات بنُ جُبير؛ لأنهما كُسِرا بالرَّوْحَاءِ، فلم يتمكنا من السير، وطلحةُ بنُ عبيدالله، وسعيدُ بن زيد؛ . . . .

قوله: (ردءاً): الردء: المعين.

قوله: (﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾)؛ أي: أمرها مختص بهما، يقسمهما الرسول على ما يأمره الله به.

وقوله: (﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾)؛ أي: في الاختلاف والمشاجرة.

وقوله: (﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾)؛ أي: الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم، وتسليم أمره إلى الله والرسول.

وقوله: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)؛ أي: كاملي الإيمان. اهـ. بيضاوي[١].

قال الحلبي: ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ . . .﴾ [الأنفال: ٤١] إلخ الآية[٢].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٨).

لأنهما أُرسِلا يتجسسان الأخبار، فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، وعثمان بن عفان؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلَّفه على ابنته رقيّة يمرضها، وعاصمُ بن عدي؛ لأنه خلفه على أهل قُباء والعالية، وكذلك أسهم لمن قتل ببدر، وهم أربعةَ عشرَ، منهم: عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذي جُرح في المبارزة الأولى، فإنه ـ رضي الله عنه ـ مات عند رجوع المسلمين من بدر، ودفن بالصَّفراء. ولما قارب عليه السلام المدينة، تلقته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيّها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المُطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، ....

قوله: (وهم أربعة عشر): قال في «زاد المعاد»: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس. اهـ[1].

أسرى بدر

قوله: (ولما دخلوا المدينة): قال الحلبي: لما قدمت الأسارى، فرقهم بين الصحابة وقال: «استوصوا بهم خيراً». اهـ[2].

وقوله: (استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه): حيث قال لهم: «ما ترون

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٨٨).

(٢) أورده ابن كثير في «السيرة النبوية» (٢/ ٤٧٥) عن نبيه بن وهب أخي بني عبد الدار.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك، فأرى أن تمكِّنني من فلان ـ لقريب له ـ فأضربَ عنقه، وتمكن حمزةَ من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عَقيل. وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودّة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبدالله بن رواحة، وقال أبو بكر: يا رسول الله! هؤلاء أهلك وقومك، . . . .

في هؤلاء الأسرى، إن الله قد مكنكم منهم»[١].

قوله: **(فقال عمر)**: كان المستشار أولاً أبا بكر، ثم عمر، على خلاف ما ذكره هنا.

قوله: **(ما أرى أن تكون لك أسرى)**؛ أي: أرى أن تقتلهم ولا تبقي على أحد منهم كما قال ابن[٢] أذينة الشاعر:

لا تقطعَنْ ذنَب الأفعى وترسلَها   إن كنت شهماً فأتبع رأسَها الذنبا[٣]

قوله: **(وعبد الله بن رواحة)**: هذا قال: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس ـ رضي الله عنه ـ وهو يسمع: ثكلتك رحمُك، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ولم يردَّ عليهم، فقال بعض الناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال بعض الناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ولم يقل قائل: يأخذ بقول عمر[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) في الأصل: «أبو»، والصواب المثبت.

(٣) ذكره أبو القاسم الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (١/ ٣٠١)، وعزاه لبعض الغسانيين يحرض الأسود بن المنذر على قتل أعدائه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود =

قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليُليِّن قلوب أقوام حتى تكونَ ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم: ٣٦]. . . . .

قوله: **(فقال عليه الصلاة والسلام)**؛ أي: خروجه من بيته.

قوله: **(ليشدد)**: الصواب: ليشدنَّ، كما في الحلبي[١]، أو يقول: ليشدُّ بالإدغام، وهو واجب هنا.

قوله: **(وإن مثلك يا أبا بكر)**: في الحلبي: «مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي . . .﴾[إبراهيم: ٣٦] إلخ الآية، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل نزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ . . .﴾[نوح: ٢٦] إلخ الآية، ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٨٨]»[٢].

= ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: «وقال ناس: يأخذ بقول عمر».

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]»[١]، ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين؛ لأن الوجهة واحدة، وهي إعزازُ الدين، وخذلانُ المشركين، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء»[٢].

وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الأسرى، فناحت على القتلى شهراً، ثم أشير عليهم من كبارهم ألّا يفعلوا؛ كيلا يبلغ محمداً وأصحابَه جزعُهم، فيشمتوا بهم، . . . .

قوله: (بفداء)؛ أي: أو قتلٍ كما في الحلبي[٣].

قوله: (عالة): العيلة: الفقر، ويجمع على عالة. اهـ. مصباح[٤].

قوله: (﴿دَيَّارًا﴾)؛ أي: أحداً، ولا يتكلم به إلا في الجحد، يقال: ما في الدار أحد ولا ديار. اهـ. سجستاني[٥].

قوله: (وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه. . .) إلخ: صوابه: أنهم أخذوا في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤ ـ ٤٥)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨). وأصله عند مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٨)، وفيه: «بفداء أو ضرب عنق». رواه الترمذي (٣٠٨٤) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عيل).

(٥) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٢٢١).

فسكتوا وصمّموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم، وتواصوا فيما بينهم ألّا يعجلوا في طلب الفداء؛ لئلا يتغالى المسلمون فيه[1].

الفداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطَّلب بنُ أبي وَدَاعة السهمي، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفيةً حتى أتى المدينة، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها، وكان أربعة آلاف درهم، ومن لم يكن معه فداء، وهو يحسن القراءة والكتابة، أعطوه عشرة من غلمان المدينة يُعلِّمهم، وكان ذلك فداءَه.

النوح من حين وصول الخبر لمكة بخبر الوقعة ومن قتل فيها، وكان أول من قدم بالخبر ابن عبد عمرو، فقال لهم: قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم وفلان وفلان، ثم قدم أبو سفيان بن الحارث فأخبر أبا لهب، وفشا الخبر حينئذ في الناس.

قوله: (وتواصوا فيما بينهم. . .) إلخ: صوابه: وتواصوا فيما بينهم على ذلك، وأن لا يعجلوا في طلب الفداء؛ لأن التواصي كان على الأمرين.

الفداء

قوله: (وفدى أباه): قال الحلبي: وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لما رأى أبا وداعة أسيراً: إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه، فكان أول أسير فُدي، واسم أبي وداعة: الحارث[2].

قوله: (وهو يحسن القراءة والكتابة): قال في «المطالع النصرية» للشيخ نصر الهوريني ما خلاصته: أن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام، وأن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥١).

. . . .

حروفه كلها كانت متصلة حتى الألف والراء، بعكس الحِمْيرية، إلى أن فصلها من بعضها ولداه: قيدار، والهميسع[1].

وقال الحلبي: الصحيح أن أول من كتب بالعربي من ولد إسماعيل نزارُ بنُ معدِّ بنِ عدنان[2].

وقال السيوطي في «المزهر»: المشهور عند أهل العلم أن أول من كتب بخطنا هذا، وهو الجزم ـ أي: القطع ـ مرامرُ بنُ مرة، وأسلمُ بنُ سدرة، وعامرُ بن جدرة، وهم من عرب طيئ، تعلموه من كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام، ثم علَّموه أهلَ الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق الحيرة وغيرها، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومةِ الجندل، وكان له صحبة بحرب بن أمية؛ لتجارته عندهم في بلاد العراق، فتعلم منه حرب الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب أختَ أبي سفيان، فتعلم منه جماعة من أهل مكة، فهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الإسلام، ولذلك قال رجل كِنْدي من أهل دومةِ الجندل يمُنُّ على قريش:

لا تجحدوا نعماءَ بشرٍ عليكمو ... فقد كان ميمونَ النقيبة أزهرا

أتاكم بخطِّ الجزمِ حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا

وأتقنتمو ما كان بالمال مهملاً ... وطامنتمو ما كان منه مبقرا

فأجريتم الأقلام عَوداً وبَدْأةً ... وضاهيتم كُتَّاب كسرى وقيصرا

وأغنيتم عن مسندِ الحي حِمْيراً ... وما زبرت في الصحف أقلامُ حميرا[3]

---

(١) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٨).

(٣) انظر: «المزهر» للسيوطي (٢/ ٢٩٧).

. . . .

إنما قال: (بالجزم)؛ لكونه جزم؛ أي: اقتطع ووُلِّد من المسند الحميري[١].

قال السيوطي: وقد قيل للمهاجرين من قريش: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الأنبار[٢].

ولذا قال ابن خلدون في «المقدمة»: إن القول بأن أهل الحجاز إنما لُقِّنوها ـ يعني: الكتابة ـ من الحيرة، [و] لقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو أليقُ الأقوال[٣].

وقد جاء الإسلام وعمرُ بن الخطاب ممن يكتب ويقرأ المكتوب كما يدل لذلك قصة إسلامه، واشتهر بالكتابة من عظماء الصحابة: عمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، وأبو عبيدة، وغيرهم، لكن معرفة شرذمة قليلة من قريش للكتابة لا تنفي عن العرب الأمية التي وصفهم الله بها.

هذا ما يتعلق بوجود الكتَّاب بمكة، وأما المدينة، فلم تكثر الكتابة العربية إلا بعد الهجرة بأكثر من سنة، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من قريش وغيرهم في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة؛ جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يُعلِّم الكتابة لعشرة من صبيان المدينة، فلا يطلقونه إلا بعد تعليمهم، فبذلك كثرت الكتابة فيها، وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته عليه السلام وبعده[٤].

هذا وقد كانت الكتابة في المصاحف العثمانية وغيرِها وكتبِ الحديث

---

(١) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٥٣).

(٢) انظر: «المزهر» للسيوطي (٢/ ٢٩٤).

(٣) انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٤١٨).

(٤) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٥٥ ـ ٥٦).

ومن الأسرى: عَمرو بن أبي سفيان، ولمَّا طُلب من أبيه فداؤه، أبى، وقال: والله! لا يجمع محمد بين ابني ومالي، دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم. فبينما أبو سفيان بمكة، إذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً، فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو، فمضى قوم سعد إلى رسول الله، وأخبروه، فأعطاهم عَمْراً ففكّوا به سعداً[1].

على صورة حروف الجزم التي سميت فيما بعد بالخط الكوفي، واستمرت على ذلك مدة ثلاثة قرون إلى أن جاء ابن مقلة الوزيرُ أو أخوه، وحولها أواخر القرن الثالث، فهو أولُ من نقل الكتابة من الخط الكوفي إلى هذه الطريقة، وأبرزها في هذه الصورة، ثم جاء بعده علي بن هلال البواب، فهذب طريقته ونقحها، وكساها طلاوة وبهجة[2].

قال ابن خلدون: وهكذا شأن الصناعات، تكون في أولها غير حسنة، ثم تتحسن شيئاً فشيئاً. اهـ[3].

قوله: (ومن الأسرى: عمرو بن أبي سفيان) هو أخو معاوية، أسره علي بن أبي طالب.

وقوله: (لا يجمع محمد بين ابني ومالي): العبارة في الحلبي هكذا: يجمع عليّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة ـ يعني: ابنه ـ وأفدي عمراً، دعوه... إلخ[4]، وهي أوضح مما هنا.

قال الحلبي: ولم يذكروا عَمراً هذا فيمن أسلم من الأسارى، والظاهر أنه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٢) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٦٤ ـ ٦٥).

(٣) نقله نصر الهوريني في «المطالع النصرية» (ص: ٦٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٢).

ومن الأسرى: أبو العاص بن الربيع زوجُ زينبَ بنتِ الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته؛ فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسولِ الله صلى الله عليه وسلم بمكة، طلبوا من أبي العاص أن يطلِّق زينبَ كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول، فامتنع وقال: والله! لا أفارق صاحبتي، وما أحبُّ أن لي بها امرأة من قريش، ولما أُسر، أرسلت زينبُ في فدائه قِلادةً لها كانت حلَّتها بها أمها خديجةُ ليلة عرسها. . . . .

مات على شركه. اهـ[1].

قوله: (أبو العاص): هذا كنيته، واسمه: لقيط، وقيل: مِقْسم ـ بكسر الميم ـ، وقيل: هُشَيم، وقد اشتهر بكنيته، وهو من بني عبد مناف. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته)؛ أي: في قيامه في حقوق المصاهرة، وهو امتناعُه من تطليقَ زينب، وقوله: لا أفارق صاحبتي. . . إلخ ما سيأتي؛ فإنه لما قال هذا القول، شكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وأثنى عليه بذلك خيراً؛ كما في الحلبي[3].

قال الدحلاني: ولم يكن في ذلك الوقت تزوجُ الكافر بالمسلمة محرماً، وإنما حرم ذلك بعدُ؛ لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (بابنتي الرسول): هما: رقية، وأم كلثوم. اهـ. حلبي[5].

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٣).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٣).

فلما رأى عليه الصلاة والسلام تلك القلادة، رَقَّ لها رقّةً شديدة، وقال لأصحابه: «إنْ رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرَها، وتردّوا لها قلادتها، فافعلوا»، فرضي الأصحابُ بذلك، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشرط أن يترك زينبَ تهاجر إلى المدينة. فلما وصل إلى مكة، أمرها باللحاق بأبيها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل لها من يأتي بها، فاحتملوها[١].

هذا، ولما أسلم أبو العاص بنُ الربيع قُبيل الفتح، ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول[٢].

ومن الأسرى: سُهيلُ بنُ عمرٍو، ....

قوله: (أرسل لها من يأتي بها): في الحلبي: أرسل لها زيدَ بنَ حارثة، ورجلاً من الأنصار[٣].

قوله: (بالنكاح الأول): قال الدحلاني: وقيل: عقد له عليها عقداً آخر[٤].

قوله: (سهيل بن عمرو): قال الحلبي: كان من أشراف قريش وخطبائها، فقد سئل سعيد بن المسيب عن خطباء قريش في الجاهلية، فقال: الأسود بن المطلب[٥]، وسهيل بن عمرو، وسئل عن خطبائهم في الإسلام، فقال: معاوية ابن أبي سفيان، وابنه يزيد، وسعيد بن العاص، وابنه عمرو، وعبدالله بن الزبير. اهـ[٦].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٩٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٢).

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٤).

(٥) في الأصل: «عبد المطلب»، والمثبت موافق لما في «السيرة الحلبية».

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥).

وكان من خطباء قريش وفصحائها، وطالما آذى المسلمين بلسانه، فقال عمر ابن الخطاب: دَعْني يا رسول الله أنزعْ ثنيتَي سهيل، يَدْلع لسانُهُ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أُمثِّل فيُمَثِّل الله بي، وإن كنت نبيّاً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه»[1]، وقدم بفدائه مكْرَزُ بنُ حفص، ولما ارتضى معهم على مقدارٍ، حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء. هذا، وقد حقّق الله خبر الرسول في سهيل؛ فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرُهم من الأعراب، . . . .

قوله: (ثنيتي سهيل): الثَّنِيَّة من الأضراس: الأربع التي في مقدم الفم: ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. اهـ. «قاموس»[2].

قوله: (يدلع): في «القاموس»: دلع لسانه؛ كمنع: أخرجه. اهـ[3].

قوله: (مكرز) ضبطه بـ «القاموس»: بضم الميم وفتح الراء[4].

قال شارحه الزبيدي: بكسر الميم؛ كمنبر[5].

قوله: (الارتداء): صوابه: الارتداد.

قال الحلبي: حتى خافهم أمير مكة عتابُ بنُ أسيد ـ رضي الله عنه ـ وتوارى، ولما خطب سهيل خطبته هذه، وتراجع الناس، ظهر عتاب بن أسيد[6].

و(أَسيد) على وزن كَريم، قال في «المصباح»: أسدٌ أسيدٌ؛ مثلُ كريم؛

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ثني).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: دلع).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كرز).

(٥) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: كرز).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

فقام سهيل هذا خطيباً، وقال بعدَ أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله: أيها الناس! مَنْ كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤]، ثم قال: والله! إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّنكم هذا ـ يريد: أبا سفيان ـ من أنفسكم؛ فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسدُ بني هاشم، وتوكلوا على ربّكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصِر من نصره، ومقوٍّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم ـ يريد: أبا بكر ـ وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتدَّ ضربنا عنقه. فتراجع الناس عمّا كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم(١).

ومن الأسرى: الوليد بن الوليد، افتكّه أخواه: خالدٌ، وهشام، فلما افْتُدِيَ، ورجع إلى مكة، أسلم فقيل له: هلاّ أسلمت قبل الفِداء؟ فقال: خفت أن يعدّوا إسلامي خوفاً. . . . .

أي: متأسِّد جريء، وبه سُمِّي، ومنه عتاب بن أسيد. اهـ(٢).

قوله: (﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾): يعني: أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل، وترجعون إلى دينكم الأول؟! يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه: رجع وراءه ونكص على عقبيه. اهـ. خازن(٣).

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: أسد).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣٠٤).

ولما أراد الهجرة، منعه أخواه، ففرّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء[1].

ومن الأسرى: السائب بن يزيد، وكان صاحبَ الراية في تلك الحرب، فدى نفسه. وهو الجدُّ الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي[2].

ومنهم: وَهب بنُ عُمَيْرٍ الجُمَحِيّ، كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش، كثيرَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مُصاب بدر، فقال عمير: والله! لولا دَيْنٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعِيالٌ أخشى عليهم الفقر بعدي، كنت آتي محمداً فأقتله؛ فإن ابني أسير في أيديهم، فقال صفوان: دَينُك عليَّ وعيالك مع عيالي، فأخذ عُمير سيفه، وشحذه وسَمَّه، . . . .

قوله: (ولما أراد الهجرة. . .) إلخ: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو له في القنوت[3].

قوله: (وكان صاحب الراية)؛ أي: التي كان يقال لها في الحرب: العُقاب، ويقال لها: راية الرؤساء، ولا يحملها في الحرب إلا رئيس القوم، وكانت لأبي سفيان، أو لرئيس مثلِه، ولغيبةِ أبي سفيان في العير حملها السائبُ لشرفه.

وولدُ السائب هو شافع، وإليه ينسب الإمام الشافعي، لقي النبي صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع، فأسلم. اهـ. حلبي[4].

قوله: (وشحذه)؛ أي: سَنَّه.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

(٣) رواه البخاري (٨٠٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

وانطلق حتى قَدِم المدينة، فبينا عمرُ مع نفر من المسلمين، إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدوُّ لله ما جاء إلا بشرٍّ، ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: «أدخلْه عليّ». فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخلَه. فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: «أطلقه يا عمر، ادنُ يا عمير» فدنا، وقال: أنعِموا صباحاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد أبدلَنا الله تحيةً خيراً من تحيتك، وهي: السلام»، ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، فقال: «فما بالُ السيف؟» قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: «اصدُقني ما الذي جئتَ له؟» قال: ما جئت إلا لذلك. قال عليه الصلاة والسلام: «كلا، بل قعدتَ أنت وصفوان في الحِجْرِ، وقلتما كيت وكيت»، فأسلم عُمير، وقال: كنّا نكذّبك بما تأتي به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، ....

قوله: (بحمائل سيفه) جمع حِمال ـ بالكسر ـ: العِلاقة.

قوله: (وأدخله): هنا قال عمر لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجلسوا عنده؛ فإن هذا الخبيث غيرُ مأمون[1].

قوله: (وهي السلام)؛ أي: وهو تحية أهل الجنة.

قوله: (كيت وكيت): ـ بالفتح فيها وبالكسر ـ؛ أي: ما كان من الأمر.

قوله: (إلا أنا وصفوان): ثم قال: فو الله! إني لأعلمُ ما أتاك به إلا الله

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢١٣) عن عروة بن الزبير.

فقال عليه الصلاة والسلام: «فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره»، فعاد عمير إلى مكة، وأظهر إسلامه[1].

تعالى، والحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. اهـ. حلبي[2].

قوله: (وأطلقوا أسيره): وبعد ذلك قال: يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله، فأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا، آذيتهم في دينهم كما كنتُ أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلحق بمكة، وأسلم ولدُه وهب.

وأما صفوان، فكان حين خرج عمير يقول: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، وأن لا ينفعه بنفع أبداً.

ولما قدم عمير مكة، لم يبدأ بصفوان، بل بدأ ببيته، وأظهرَ الإسلام، ودعا إليه، فبلغ ذلك صفوانَ فقال: قد عرفت حيث لم يبدأ بي قبل منزله أنه قد نكس وصبأ، ولا أكلمه أبداً، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة.

ثم إن عميراً وقف على صفوان وناداه: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له، أهذا دين؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فلم يجبه صفوان بكلمة، وعند فتح مكة هو الذي استأمنه صلى الله عليه وسلم لصفوان. اهـ. حلبي[3].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤) عن عروة ابن الزبير، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨).

ومن الأسرى: أبو عزيز بنُ عُمير، أخو مصعب بن عُمير. مرّ به أخـوه، فقال للذي أسره: شُدَّ يدك به؛ فإن أمه ذاتُ متاع لعلّها تفديه منك. فقـال له: يا أخي! هذه وصايتك بي؟ ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم[1].

ومن الأسرى: العباسُ بنُ عبد المطلب عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد خرج لهذه الحرب مُكْرَهاً، ولما وقع في الأسر، طُلب منه فداء نفسِه وابنِ أخيه عَقيلِ بن أبي طالب، فقال: علامَ ندفع، وقد استُكرهنا على الخروج؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد كنتَ في الظـاهر علينـا»، فأُخذت منه فديه نفسه وابن أخيه، ثم قال للرسول صلى الله عليه وسـلم: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، . . . .

قوله: **(ومن الأسارى: العباس)**: قال الحلبي: لما أُسر، شدُّوا وَثاقه، فأنَّ، فلم يأخذه صلى الله عليه وسلم نوم، فقيل: ما سهرك يا رسول الله؟ قال: «لأنينِ العباس»، فقام رجل وأرخى وثاقه، وفعل ذلك بالأسارى كلهم، والـذي أسـره أبـو اليسر كعبُ بن عمرو، وكان دميماً صغير الجثة، والعباس جسيماً طـويلاً، فقيـل للعباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لو أخذته بكفك لوسعَتْه كفُّك، فقال: ما هو إن لقيته فظهر في عيني كالخدمة: اسمُ جبلٍ من جبال مكة.

وفي رواية: أن العباس لما قيل له ما تقدم قال: والله! إن هذا مـا أسـرني، لقد أسرني رجل أبلجُ، من أحسن الناس وجهاً على فرسٍ أبلقَ، فما أراه في القـوم، فقال الذي جاء به: والله! أنا الذي أسرته يـا رسـول الله، فقـال: «اسـكتْ، فقـد أيدك الله بملَك كريم». اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨)، والرواية المذكورة رواهـا الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ١١٧) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

قال: «كيف وقد تركتَ لأُم الفضلِ أموالاً؟ وقلتَ لها: إن متُّ فقد تركتك غنيـة»، فقال العباس: والله! ما اطَّلع على ذلك أحـد. وهذا العمل غايـة ما يفعل من العدل والمساواة؛ فإنه عليه الصلاة والسلام لـم يُعـفِ عمَّـه، مع علمه بأنه إنما خرج مُكرَهاً، وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرُهم، فهكذا العدل، ولا غرابـة، فـذلك أدب قولـه تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء: ١٣٥][1].

ومن الأسرى: أبو عَزَّة الجُمَحِيُّ الشاعر، كان شديدَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فلما أُسر قال: يا محمد! إني فقيـر، وذو عيـال، وذو حاجة قد عرفتها، فامْنُنْ، فمنَّ عليه فضلاً منه[2].

قال الحلبي: وبعد دفعه الفداء أسلم سرّاً، ولم يُظهر النبي صلى الله عليـه وسلم إسلامَ العباس رفقاً به؛ لأن العباس كان له ديون متفرقة في قـريش، وكـان يخشى إن أظهرَ إسلامَه ضاعت عندهم، ولما كان يومُ فتح مكة، أظهرَ إسـلامه، وكـان كثيراً مـا يطلب الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكتـب لـه: «مقامُك بمكة خيرٌ لك»[3].

قوله: (﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾)؛ أي: مراعين للقسط، وهو العدل.

قوله: (فمن عليه فضلاً منه): ولما أطلقه، أخذ عليـه أن لا يُظـاهر عليـه أحداً، ولما وصل إلى مكة قال: سحرتُ محمداً، ولما كان يوم أحد، خرج مع

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٦٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٦٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٤٦١)، والخبـر المـذكور أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٨١٢).

ولما تَمَّ الفداءُ، أنـزل الله فـي شـأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ . . . .

المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره، فأُسر وقُتل صبراً، وحُملت رأسه إلى المدينة.

قال الدحلاني: لما أُسر، أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه، فقال: أعتقني وأطلقني، فإني تائب، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يُلدَغ المؤمن من جُحْر مرتين»[(١)]، فضُربت عنقه، وأنزل الله فيه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١][(٢)].

العتاب في الفداء

قوله: (﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ . . .﴾): الآية في سورة الأنفال، وهي الآية السابعة[(٣)] والستون.

وقوله: (﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾)؛ أي: يغلب على كثير من الأرض، ويبالغ في قتل أعدائه. اهـ. سجستاني[(٤)].

والإثخان: كثرة القتل والمبالغةُ فيه؛ من الثخانة، وهي الغِلَظ والكثافة؛ يعني: حتى يذلَّ الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزَّ الإسلام بالاستيلاء والقهر،

---

(١) المتن المذكور رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٨).

(٣) في الأصل: «الثامنة»، والصواب المثبت.

(٤) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٥٣٢).

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

ثم الأسر بعد ذلك. اهـ. نسفي[1].

وقوله: (﴿تُرِيدُونَ . . .﴾) إلخ: الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي: تريدون ـ أيها المؤمنون ـ عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين، وإنما سَمَّى منافعَ الدنيا عَرَضاً؛ لأنه لا ثبات لها ولا دوام، فكأنها تعرض ثم تزول.

وقوله: (﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾)؛ أي: يريد لكم ثواب الآخرة.

وقوله: (﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾)؛ أي: بقهر الأعداء.

(﴿حَكِيمٌ﴾): في عتاب الأولياء.

وقوله: (﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: حُكمٌ من الله سبق أن لا يعذب أحداً على العمل بالاجتهاد، وكان هذا اجتهاداً منهم؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وأن فداءهم يُتقوى به على الجهاد، وخفي عليهم أن قتلهم أعزُّ للإسلام، وأهيبُ لمن وراءهم.

وقوله: (﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾)؛ أي: من الفداء.

ورُوي: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرةٍ قريبة منه[2].

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل عذاب من السماء، لما نجا

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الـذين يصـدّون عن سبيل الله، ويمنعون دين الله مـن الانتشـار، وعـابَ بعـضَ المسـلمين على إرادة عَرَضِ الدنيا، وهو الفدية، ولولا حكمٌ سابق من الله ألا يُعَاقِـبَ مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً، لكان العـذاب، ثـم أَبـاح لهـم الأكلَ من تلك الفدية المبني أخذُها على النظر الصحيح.

وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبيّنا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به؛ لأنه لو كان من عنده، ما كان يعاتب نفسَه على عمل عملـه بنـاءً علـى رأي كثير من الصحابة. وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيـراً بأن يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، ويغفر لهـم، فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٧٠].

منه غيرُ عمرَ وسعدِ بنِ معاذ؛ لقوله: كان الإثخان في القتل أحـبَّ إلـيَّ»[(١)]. اهـ. نسفي، وخازن[(٢)].

قوله: (ثم أباح لهم الأكل من الفدية)؛ أي: في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٦٩].

قوله: (﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم . . .﴾) إلخ: نزلت في العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، وكان أحدَ العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الـذين خرجـوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من الـذهب لـيطعم بهـا إذا جاءت نوبته، فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم، فاقتتلوا، فلم يطعم شيئاً، وبقيـت العشرون أوقيـة معـه، فلمـا أسر أُخـذت منـه، فكلَّم

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٨) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٧٣)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨).

وهذه الغزوة هي التي أعزّ الله بها الإسلام، وقوّى أهلَه، ودمـغ فيـه الشرك، وخرّب محلَّه، مع قلّة المسلمين وكثرةِ عدوِّهم، فهي آيـة ظـاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله، مع ما كان عليه العدو من القوة بسـوابغ الحديد، والعُدّة الكاملة، والخيل المسـوَّمة، والخـيلاء الزائـدة، ولـذلك قـال الله ممتنـاً علـى عبـاده بهـذا النصـر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]؛ **أي: قليل عددكم، . . . .**

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقيةً من فدائه، فأبى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أما شيء خرجتَ به لتستعينَ به علينا، فلا أتركه لـك»، وكُلِّفَ فداءَ ابني أخيه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد! تتركني أتكفف قريشاً ما بقيتُ، فقال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: «فأين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث، فهذا لـك، ولعبـدالله، ولعبيـدالله، والفضل، وقثم؟»؛ يعني: بنيه، فقال العباس: ومـا يـدريك يـا ابـنَ أخـي؟ فقـال: أخبرني ربي، قال العباس: أشهد إنك لصادق، وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنـك عبده ورسوله، لم يطلع عليه أحد إلا الله[١].

قوله: (ودمغ فيه الشرك): قال الزمخشري في «أساس البلاغة»: دمـغ الحـقُّ الباطل: إذا علاه وقهره، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[الأنبياء: ١٨][٢].

قوله: (﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾): المسومة: المعلَّمة، مـن السـيماء: وهـي العلامة، وقيل: المسومة: المطهمة، والتطهيم: التحسين.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣) عـن الزهـري بنحـوه، وانظـر: «تفسير الخازن» (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: دمغ).

لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، فهي أعظم غزوات الإسلام؛ إذ بها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نورُه؛ فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألدّاء للإسلام، ودخل الرعبُ في قلوب العرب الآخرين، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش، ويهزمون الرجال، فلا جَرَمَ إن شَكَرْنا العليَّ الأعلى على هذه العناية، واتخذنا يوم النصر في بدر ـ وهو السابع عشر من شهر رمضان ـ عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين[1].

قوله: (﴿لَا جَرَمَ﴾) هي في الأصل بمعنى: لا بدَّ ولا مَحالةَ، ثم كثرت، فحولت إلى معنى القسم، وصارت بمعنى حقّاً، ولهذا تجاب باللام؛ نحو: لا جرم لأفعلن. اهـ. مصباح[2].

خاتمة في فضل أهل بدر

قال الدحلاني: وقد جاء في فضل أهل بدر أحاديثُ وآثار، فمنها: أن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: ما تَعدُّون أهلَ بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين»، أو كلمة نحوها، قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[3].

وفي رواية: إن للملائكة الذين شهدوا بدراً في السماء لفضلاً على من تخلَّف منهم[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جرم).

(٣) رواه البخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٤٣٥) من حديث رافع بن خديج =

هذا، وإذا كان للشخص عدوَّان، فانتصر على أحدهما، . . . .

وروى الطبراني بسند جيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم، أو: فقد وجبتْ لكم الجنة»[1]؛ أي: غفرتُ لكم ما مضى، وما سيقع من الذنوب مغفوراً، وقيل: إن ذلك كناية عن الحفظ من الوقوع في الذنوب في المستقبل[2].

ثم قال: وجاء عن كثير من العلماء أن تلاوة أسمائهم، والتوسلَ بها وكتابتها وحملَها وتعليقَها في الدور سببُ الحفظ والنصر والفتح، والسلامة من كيد الأعداء وظلم الظالمين، إلى غير ذلك من الفوائد والخواص، وقد أفردت التآليف تلك الخواص مع بقية مناقبهم، وكذلك غزوة بدر، وذكر ما فيها أُفردت بالتآليف[3].

أقول: وممن ترجم أهلَ بدر: العلامةُ طه بن مهنا الجبريني الحلبي المتوفى سنة (١١٧٨هـ)، يوجد نسخة بخط المؤلف عند خليل أفندي المرتيني بحلب، ونسخة أخرى بخطه أيضاً هي عندي، كانت ناقصة بعض أوراق، فأكملتها من نسخة في المكتبة الخسروية من كتب محمود أفندي الجزار.

غزوة بني قينقاع

قوله: (قينقاع) ـ بضم النون، وقيل: بكسرها، وقيل: بفتحها، والضم

= ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٦): وفيه جعفر بن مقلاص، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٦٠): إسناده حسن.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤١٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤١٤).

حَرَّك ذلك شجو الآخر، وهاج فؤاده، فتبدو بغضاؤه غيرَ مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر؛ فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنونَ ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وانتهكوا حرمةَ سيدةٍ من نساء الأنصار، . . . .

أشهر ـ، وهم قوم من اليهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادةَ بنِ الصامت ـ رضي الله عنه ـ، وعبدالله بن أبي ابن سلول. اهـ. حلبي[1].

قوله: (نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه): وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، هم وبنو قريظة وبنو النضير أن لا يحاربوه، وأن لا يُظاهروا عليه عدوه، وقيل: أن لا يكونوا معه ولا عليه، وقيل: أن ينصروه صلى الله عليه وسلم على من دهمه. اهـ. حلبي[2].

قوله: (وانتهكوا حرمة سيدة من الأنصار): تفصيل الحادثة: أن زوجةَ بعض الأنصار قدمت بجلب لها ـ أي: وهو ما يُجلب ليباع من إبل وغيرها ـ، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ منهم، فجعل جماعة منهم يراودونها عن كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقدَه إلى ظهرها، فلما قامت، انكشفت سوءتُها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون على بني قينقاع، ولما غضبوا عليهم، قال لهم صلى الله عليه وسلم: «ما على هذا أقررناهم»؛ تبرأ عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ من حلفهم وقال: يا رسول الله! أتولى اللهَ ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار، وتشبث به عبدُالله بنُ أبي ابن سلول ـ أي: لم يتبرأ ـ، فنزل فيه:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

وهذا ما يدعو المسلمين للتحرّز منهم، وعدمِ ائتمانهم في المستقبل إذا شبّت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[الأنفال: ٥٨]، فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم، وحذّرهم عاقبة البغيِ ونكثِ العهد، فقالوا: يا محمد! لا يغرنّك ما لقيتَ من قومك؛ فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لَتعلمَن أنّا نحن الناس، وكانوا أشجعَ يهود، فأنزل الله في سورة آل عمران: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ ....

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾[المائدة: ٥١][١].

قوله: (وحذرهم عاقبة البغي): حيث قال: «يا معشر يهود! احذروا من الله مثلَ ما أنزل بقريش من النقمة ببدر، وأسلِموا؛ فإنكم قد عرفتم أني مرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم»[٢].

قوله: (﴿ٱلْمِهَادُ﴾)؛ أي: الفراش، والمعنى: بئس ما مهد لهم في النار.

قوله: (﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾)؛ أي: يرى المشركون المؤمنين مثلَيْ عدد المشركين، وكان قريب ألف، أو مثلي عدد المسلمين، وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، وذلك كان بعدما قللهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم، كثروا في أعينهم حتى غلبوا مدداً من الله تعالى للمؤمنين. اهـ. بيضاوي[٣].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٥)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥) بمعناه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٢) عن ابن إسحاق.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

وعند ذلك تبرّأ من حلفهم عبادةُ بنُ الصامت، أحدُ رؤساء الخزرج، وتشبث بالحلف عبدُالله بنُ أُبي، وقال: إني رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعالى تعليماً للمسلمين في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ **[المائدة: ٥١ ـ ٥٢].**

قوله: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾) يعني: الذي ذكر من النصرة، وقيل: رؤية الجيش مثليهم. اهـ. خازن[1].

قوله في الآية: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾) إلخ؛ أي: لا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب، ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا النهي للتشديد في وجوب مجانبتهم، والله لا يهدي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، يسارعون في موالاتهم ومعاونتهم.

(﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾)؛ أي: ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار.

(﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾) لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه، وإظهار المسلمين.

(﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾) يقطع شأفةَ اليهود؛ من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم.

(﴿فَيُصْبِحُواْ﴾)؛ أي: هؤلاء المنافقون.

(﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾) على ما استبطنوه من الكفر والشك في

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٢٢٩).

وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة، وتحصنوا بحصونهم، سار إليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة، يحمل لواءه عمُّه حمزةُ، وخلَّف على المدينة أبا لبابةَ الأنصاريَّ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة[1].

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين، وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلِّي سبيلَهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساءُ والذريّة، وللمسلمين الأموال. فقَبِل ذلك عليه الصلاة والسلام، ووكَّل بجلائهم عبادةَ بنَ الصامت، وأمهلهم ثلاث ليالٍ، فذهبوا إلى أَذْرِعات، ولم يحل عليهم الحَوْل حتى هلكوا، . . . .

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (فحاصرهم خمس عشرة ليلة)، وكان عددهم أربعَ مئة حاسر، وثلاث مئة دارع.

جلاء بني قينقاع

قوله: (فلم يحل عليهم الحول. . .) إلخ: سببه: ما قيل: إنهم نزلوا على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بهم أن يكتفوا، فكتفوا، فأراد قتلهم، فكلمه فيهم عبدُالله بن أبي ابن سلول، وألح عليه، وفي آخر الأمر قال صلى الله عليه وسلم: «خلوهم، لعنهم الله ولعنه معهم»، وتركهم من القتل، وقال له: «خذهم،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥).

وخمَّس عليه الصلاة والسلام أموالهم، وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبدِ شمسٍ ونوفل، ولما سُئِل عن ذلك قال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا»، وشبك بين أصابعه(١).

لا بارك الله لك فيهم»، وذهبوا إلى أذرعات، ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعين بدعوته صلى الله عليه وسلم. اهـ. دحلاني ملخصاً(٢).

قوله: (ولما سئل عن ذلك): السائل له عثمانُ بنُ عفان من بني عبد شمس، وجبيرُ بنُ مطعم من بني نوفل، قال: يا رسول الله! هؤلاء إخواننا من بني هاشم، لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب؟ أعطيتهم وتركتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا»، وشبك أصابعه(٣).

زاد في رواية: «إنهم لم يفارقونا لا في جاهلية ولا في إسلام»(٤)؛ أي: لأن الصحيفة إنما كتبت على يد بني هاشم والمطلب؛ لأنهم هم الذين قاموا دونه صلى الله عليه وسلم ودخلوا الشعب. اهـ. حلبي ملخصاً(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣٥٠٢)، والنسائي (٤١٣٧)، من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣ ـ ١٤)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٤٩) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٣) رواه البخاري (٣٥٠٢)، والنسائي (٤١٣٧)، من حديث جبير بن مطعم.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٧٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٢٤٠)، من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٧).

غزوة السَّويق

كان أبو سفيان متهيجاً؛ لأنه لم يشهد بدراً التي قتل فيها ابنه وذوو قرباه، فحلف ألّا يمسّ رأسَه الماءُ حتى يغزو محمداً، وليبرّ بقسمه خرج بمئتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قارَبها، أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم، ويستعين بهم على حرب المسلمين، فأتى سيدَهم حُيَيَّ بنَ أَخْطَبَ، فلم يرضَ مقابلته، فأتى سَلاّمَ بنَ مِشْكم، فأذن له، واجتمع به، . . . . . .

غزوة السويق

قوله: (أن لا يمس رأسه الماء)؛ أي: لا يأتي النساء، ولعل هذه العبارة وقعت من بعض الصحابة، ومرادُه بها ما ذُكر، أو أن ذلك قاله أبو سفيان بناء على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة. اهـ. حلبي، وتمامه فيه[1].

قوله: (ولما قاربها)؛ أي: أصبح بينه وبين المدينة بريد، والبريدُ أربعة فراسخ.

قوله: (من بني النضير) هم حيّ من يهود خيبر، ينسبون إلى هارونَ أخي موسى عليهما السلام.

قوله: (حيي بن أخطب) هو أبو صفيةَ أُمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ.

وقوله: (فلم يرض مقابلته): لأنه خافه. اهـ. حلبي[2].

قوله: (سلام بن مشكم) مِشْكَم ـ كمنبر ـ، وكان صاحب كنزهم، يجمعون عنده المال الذي يدخرونه لنوائبهم وما يعرض لهم. اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

ثم خرج من عنده، وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة، فحرَّقوا في بعض نخلها، ووجدوا أنصاريًّا فقتلوه، ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج في أثرهم في مئتين من أصحابه، لخمسٍ خَلَونَ من ذي الحجة، بعد أن ولّى على المدينة بَشِيرَ بنَ عبد المنذر، ولكن لم يلحقهم؛ لأنهم هربوا، وجعلوا يخفّفون ما يحملونه ليكونوا أقدرَ على الإسراع، فألقوا ما معهم من جُرُبِ السَّوِيق، فأخذه المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق[1].

صلاة العيد

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الإسلامي سنّة عظيمة، . . . .

قوله: (ووجدوا أنصاريّاً) هو معبد بن عمرو.

قوله: (جرب السويق): الجُرُب ـ بضمتين ـ: جمع جِراب ـ بكسر الجيم ـ: الوعاء، والسويق قمح أو شعير يقلى ثم يطحن ليسف تارة بماء، وتارة بسمن، وتارة بعسل وسمن، وهو عامة أزوادهم، فيأخذه المسلمون، وكانت مدة هذه الغزوة خمسة أيام[2].

صلاة العيد

الأصل فيهما[3]: أن كل قوم لهم يوم يتجملون فيه، ويخرجون من بلادهم بزينتهم، وتلك عادة لا ينفكُّ عنها أحد من طوائف العرب والعجم، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينةَ ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟»

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٣)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٠).

(٣) أي: العيدين.

. . . .

قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال: «قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما؛ يومَ الأضحى، ويومَ الفطر»[1].

قيل: هما النيروز والمهرجان، وإنما بدلا؛ لأنه ما من عيد في الناس إلا وسببُ وجوده تنويهٌ بشعائر دين، أو موافقةُ أئمة مذهب، أو شيء مما يضاهي ذلك، فخشي النبي صلى الله عليه وسلم إن تركَهم وعادتَهم أن يكون هناك تنويهٌ بشعائر الجاهلية، أو ترويجٌ لسنة أسلافها، فأبدلهما بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية، وضَمَّ مع التجمُّل فيهما ذِكْرَ الله، وأبواباً من الطاعة؛ لئلا يكون اجتماع المسلمين بمحض اللعب، ولئلا يخلو اجتماع المسلمين منهم من إعلاء كلمة الله.

أحدهما: يوم فطر صيامهم، وأداء نوع من زكاتهم، فاجتمع الفرح الطبيعيُّ من قِبَل تفرغهم عما يشق عليهم، وأخذ الفقير الصدقات، والعقليُّ من قِبَل الابتهاج مما أنعم الله عليهم.

والثاني: يوم ذبح إبراهيم ولده إسماعيل عليهما السلام، وإنعام الله عليهما بأن فداه بذبح عظيم.

وهناك مقصد آخر من مقاصد الشريعة، وهو: أن كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم، وتعلم كثرتهم، ولذلك استحب خروج الجميع، حتى الصبيان، والنساء، وذوات الخدر، والحُيَّض، ويعتزلن المصلى، ويشهدن دعوة المسلمين، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يخالف في الطريقين ذهاباً وإياباً[2]؛ ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين. اهـ. من

(١) رواه أبو داود (١١٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٨٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم عيد خالف الطريق.

بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء، ويقووا عُروة الدين الوثقى، وهي الاجتماع في يومي عيدِ الفطر وعيد الأضحى. وكان عليه الصلاة والسلام يجمع المسلمين في صعيد واحد، ويصلي بهم ركعتين تضرعاً إلى الله أن لا يَفْصِم عُروتهم، وأن ينصرهم على عدوهم، ثم يخطبهم حاضّاً لهم على الائتلاف، ومذكِّراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم، ثم يصافح المسلمون بعضُهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين، حتّى يكون السرور عامّاً لجميع المسلمين، فبعد الفطر زكاته، وبعد الأضحى تضحيته[1]، نسأله تعالى أن يؤلّف بين قلوبنا، ويوفّقنا لأعمال سلفنا.

«حجة الله البالغة»، وتمامه فيه[2].

قوله: (وبعد ذلك)؛ أي: بعد أدائهم صلاة العيد.

(يخرجون...) إلخ: إن كان قصده بالصدقات ما يشمل زكاة الفطر، فيكون في العبارة تسامح؛ لأن أداة زكاة الفطر إنما هو قبل الصلاة، ففي البخاري عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة[3].

قال في «بداية المجتهد»: قال مالك في رواية ابن القاسم: تجب بطلوع الفجر من يوم الفطر، وروى عنه أشهب أنها تجب بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان، وبالأول قال أبو حنيفة، وبالثاني قال الشافعي، وسبب اختلافهم هل هي عبادة متعلقة بيوم العيد، أو بخروج شهر رمضان؛ لأن ليلة العيد ليست

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٤).

(٢) انظر: «حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (ص: ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٣) رواه البخاري (١٥٠٣).

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة بفاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنها خمسَ عشرةَ سنة، . . .

من شهر رمضان. اهـ[١].

ويؤيد أنها عبادة متعلقة بيوم العيد: ما أخرجه الدارقطني، وابن عدي، والحاكم في «علوم الحديث» عن ابن عمر بلفظ: «أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم»[٢].

زواج علي بفاطمة

قوله: (زواج علي بفاطمة) قال الدحلاني: عقد عليها في المحرم من السنة الثانية، وقيل: في صفر، وقيل: في رمضان، ودخل بها في ذي الحجة، وهي أفضل نساء الدنيا، قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا بنية! ألا ترضين أنك سيدةُ نساء العالَمين؟» قالت: يا أبت! فأين مريم؟ قال: «تلك سيدة نساء عالَمِها»[٣].

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً قطُّ أفضلَ من فاطمةَ غير أبيها[٤].

---

(١) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ٢٠٦).

(٢) رواه الدارقطني في «سننه» (٢/ ١٥٢)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٧/ ٥٥)، ولم نقف عليه عند الحاكم.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٤٢) من حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٧٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠١): رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح.

وكان منها عَقِبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بنوه: الحسن، والحسين، وزينب. وفيها دخل عليه الصلاة والسلام بعائشةَ بنتِ أبي بكر وسِنُّها إذ ذاك تسعُ سنوات[1].

نبهه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ لخطبتها، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: تزوجني فاطمة؟ قال: «أوعندك شيء؟» فقلت: فرسي وبدني ـ يعني: درعه ـ، قال: «أما فرسك، فلابد لك منها، وأما بدنك، فبعها[2]»، فباعها من عثمان بن عفان بأربع مئة وثمانين درهماً، ثم إن عثمان ـ رضي الله عنه ـ ردَّ الدرع إلى علي ـ رضي الله عنه ـ، ثم أتى عليٌّ بالدراهم فوضعها في حجر النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقبض قبضة، فقال لبلال: ابتع بها طيباً، وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سرير مشروط، ووسادة من أدم حشوها ليف... إلخ[3] أن قال الدحلاني: ثم دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد أيام عليّاً، وأمره أن يدعو أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، وعدةً من الأنصار، فلما اجتمعوا عنده، وأخذوا مجالسهم، خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبته المشهورة، ثم قال بعدها: «إن الله أمرني إن أزوج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته إياها على أربع مئة مثقال فضة»[4].

إلى أن قال: وكان جهاز فاطمة رضي الله عنها خميلة ـ أي: بساطاً له

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

(٢) في الأصل: «فبها»، والمثبت من «صحيح ابن حبان».

(٣) خبر زواج فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه ابن حبان (٦٩٤٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

. . . .

خَمَل ـ ، وقربة، ووسادة من أدم حشوها ليف، وسريراً مشروطاً، وكان فراشهما ليلة عرسهما جلد كبش[1] .

نتكلم هنا على الجهازات الحاضرة ومضارها .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : جاءت فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله! إني وابن عمي ما لنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه، ونعلق عليه ناضحنا بالنهار، فقال : «يا بنية! اصبري؛ فإن موسى بن عمران أقام مع امرأته عشر سنين ما لهما فراش إلا عباءة قطوانية»[2] .

ويجدر بنا أن نتكلم هنا على النظر إلى المرأة حين إرادة التزوج بها، وعلى المغالاة في المهور، وما في ذلك من المفاسد، فنقول :

قال حجة الإسلام الغزالي في كتاب آداب النكاح : وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، ولذلك استحب النظر، فقال : «إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة، فلينظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدمَ بينهما»[3]؛ أي : يؤلف بينهما، وقال : «إن في أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهنَّ، فلينظر إليهنَّ»[4] .

---

(١) انظر : «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨ ـ ٢١) .

(٢) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٤٧٣)، ولم نقف عليه مسنداً .

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٦٤) من حديث محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : «إذا ألقى الله في قلب امرئ خطبة امرأة، فلا بأس أن ينظر إليها»، وضعفه الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٨٣)، ورواه الترمذي (١٠٨٧) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ : أنه خطب امرأة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدمَ بينكما»، وقال : حديث حسن .

(٤) رواه مسلم (١٤٢٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : جاء رجل إلى =

. . . .

وكان بعض الورعين لا يُنكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغَرَر.

وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هَمّ وغَمّ[١].

نورد هنا حالة المسيحيين واليهود في زواجهم، وما في ذلك من المفاسد الكبرى.

وأما المغالاة في المهور، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «خير النساء أحسنُهن وجوهاً، وأرخصُهن مهوراً»[٢]، وتزوج صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه على عشرة دراهم، وأثاث بيت؛ وكان [الأثاث] رحى يدر، وجرة [ماء]، ووسادة من أدم حشوها ليف[٣].

وكان عمر ينهى عن المغالاة في الصداق، ويقول: ما تزوج صلى الله عليه وسلم، ولا زوَّج بناته بأكثر من أربع مئة درهم[٤].

= النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل نظرت إليها؟ فإن في عيون الأنصار شيئاً».

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه الشهاب في «مسنده» (١١٤٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً: «إن أعظم نساء أمتي بركة أصبحُهن وجهاً، وأقلهن مهراً».

(٣) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» للهيثمي (١٤٢٦)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم، قال البزار: لا نعلمه عن ثابت، عن أنس إلا من طريق الحكم، ورأيته في موضع آخر: تزوجها على متاع ورحًى قيمته أربعون درهماً.

(٤) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه الترمذي (١١١٤) =

. . . .

وقد تزوج بعض أصحابه على نواة من ذهب يقال قيمتها: خمسة دراهم[1].

نورد هنا حكاية تزويج سعيد بن المسيب بنته لتلميذه أبي وداعة التي ذكرها ابن خلكان في «تاريخه» في ترجمة سعيد ـ رضي الله عنه ـ[2]، ثم نذكر ما سبَّبه غلاء المهور في زماننا من المفاسد الأخلاقية والإسراف في الأموال إسرافاً أدى إلى فقر كثير من ذوي اليسار، ثم نتكلم على حال بعض الآباء إذا قصر أزواج بناتهن في شيء مما يطلبه بناتهم من المطالب التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم نتكلم على لزوم المرأة لبيتها، وتعلمها إصلاح شأنه وشأن أولادها، وأن تعلُّمَها ما فوق ذلك لا فائدة فيه، بل يعود عليها وعلى زوجها وأولادها بالضرر.

❐ ❐ ❐

= بلفظ: ما علمتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقية، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، والأوقية عند أهل العلم أربعون درهماً، وثنتا عشرة أوقية أربع مئة وثمانون درهماً.

(١) رواه البخاري (٥١٥٣)، ومسلم (١٤٢٧)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، ولفظ مسلم: أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب. وقال أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ١٩٠): وقد كان بعض الناس يحمل معنى هذا أنه أراد قدر نواة من ذهب كانت قيمتها خمسة دراهم، ولم يكن ثمَّ ذهب، إنما هي خمسة دراهم تُسمَّى نواةً، كما تُسمَّى الأربعون أوقيةً.

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٣٧٦).




السَّنة الثَّالِثَة

يا لله يُقضى على الشقي بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر، فيتخذ الغدر رداءً، والخيانة شعاراً، فلا ينجح معه إلا إراحة العالَم من شرّه. هذا كعب بنُ الأشرف اليهوديُّ عظيمُ بني النضير، أعمته عداوة المسلمين حتى خلعَ بُرقُع الحياء، وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويهجوه بالشعر، ويجتهد في إثارة الشحناء بين المسلمين، فكلما جبر عليه الصلاة والسلام كسراً، هاضه هذا الشقيُّ بما ينفثه من سموم لسانه.

السنة الثالثة

قوله: (هاضه): في «القاموس»: هاض العظم: كسره بعد الجبور[1].

قوله: (كعب بن الأشرف): قال الدحلاني: كان أبو كعب عربيًّا[2] من بني نبهان أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بني النضير، فشرف فيهم، وتزوج عقيلةَ بنتَ أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة، شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أحبار يهود، ويصلهم[3].

ثم قال: وكان قد عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يعين عليه أحداً، فنقض العهد، وسبه وسبَّ أصحابه، ولما قدم البشيران بقتل من قُتل ببدر، وأسرِ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هيض).

(٢) في «السيرة النبوية»: «أعرابيًّا».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣).

قتل كعب بن الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر، ورأى الأسرى مقرَّنينَ في الحبال، خرج إلى قريش يبكي قتلاهم، ويحرِّضُهُم على حرب المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لكعب بنِ الأشرف؛ فإنه قد آذى الله ورسوله؟»، فقال محمد بن مَسلمةَ الأنصاريُّ الأوسيّ: أتحِبُّ أن أقتله؟ قال: «نعم»، . . . .

من أسر، قال كعب: أحقٌّ هذا ترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله! لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطنُ الأرض خير من ظهرها[1].

قتل كعب بن الأشرف

قوله: (خرج إلى قريش)؛ أي: في مكة، ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده زوجته عاتكة بنتُ أسيد، فأنزلته وأكرمته.

قوله: (فقال عليه الصلاة والسلام: من لكعب؟)؛ أي: بعد أن بلغه تحريض كعب على النبي صلى الله عليه وسلم، وإنشاده الأشعار، ولما بلغه تحريضه، دعا حساناً، فهجا المطلبَ وزوجتَه ـ أسلما بعد ذلك ـ ، فلما بلغ ذلك عاتكةَ، ألقت رحله وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟! فخرج من عندها، وصار يتحول من قوم إلى قوم، فيفعل مثل ما فعل عند عاتكة، ويبلغ خبره النبي صلى الله عليه وسلم، فيذكره لحسان، فيهجوه، فيفعلون معه مثل ما فعلت عاتكة، ثم رجع إلى المدينة، فتغزل في نساء المسلمين، وذكرهن بسوء، فلما أبى أن ينزع عنه أذاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لنا بابن الأشرف»[2]؛ أي: من ينتدب لقتله؟

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

قال: أنا لك به، وائذنْ لي أن أقول شيئاً أتمكن به، فأذن له، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً، فقال له: إن هذا الرجل ـ يريد: رسولَ الله ـ قد سألنا صدقة، وإنه قد عَنَّانا، وإني قد أتيتُك أستسلفك، قال: وأيضاً؟ والله! لتملّنهُ، قال: إنا قد اتّبعناه، فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظر إلى أيّ شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسْلِفنا وَسْقاً أو وَسْقين. قال: نعم، ولكن ارْهَنُوني. قالوا: أيَّ شيء تُريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، . . . .

وتتمة في الدحلاني[1].

قوله: **(أنا لك به)**؛ أي: أنا أقدم نفسي فداء لك بقتل كعب.

قوله: **(أن أقول شيئاً)**؛ أي: من الكذب وإظهارِ غيرِ ما أُضمر.

وقوله: **(أتمكن به)**؛ أي: يكون سبباً للوصول إلى المقصود، وهو قتل كعب.

قوله: **(ومعه أربعة)**: ذكر أسماءهم.

قوله: **(وأنه قد عنانا)**؛ أي: حَمَّلنا العناءَ والمشقة بما كلفنا به من دفع الصدقة.

قوله: **(وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين)** لما قالوا له ذلك، قال لهم: وأين طعامكم، قالوا: أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه، قال: ألم يأنِ لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ اهـ. دحلاني[2].

والوسق: حِمْلُ البعير.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٣٢١) عن عبدالله بن المغيث ابن أبي بردة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

قالوا: كيف نَرْهَنُك نساءنا وأنت أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فَيُسَبُّ أحدُهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين؟ هذا عارٌ علينا، ولكن نرهنك اللأْمَةَ ـ يعني: السلاح ـ فرضي، فواعده ليلاً أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلةَ أخو كعبٍ من الرضاع، وعبَّادُ بن بِشر، والحارثُ بن أوس، وأبو عبس بنُ جَبْر ـ وكلهم أوسيّون ـ فناداه محمد بن مسلمة، فأراد أن ينزلَ، فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة وإنك امرؤ تُحارب؟ فقال: إنما هو ابن أخي محمدُ بنُ مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب. ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءني، فإني آخذ بشعره فأشَمُّهُ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فاضربوه، فنزل إليهم كعبٌ متوشِّحاً سيفَه، وهو يَنْفَحُ منه ريح المسك . . . .

قوله: (وأنت أجملُ العرب): جعلوه من العرب؛ لما قدمنا من أن أباه كان عربيًّا من بني نبهان.

قال الدحلاني: وفي رواية أنهم قالوا له: وأي امرأة تمتنع منك لجمالك[1]؟ وقولهم هذا له على سبيل التهكم، وإن كان هو في نفسه جميلاً[2].

قوله: (نرهنك اللأمة) قال الدحلاني: إنما قالوا ذلك؛ لئلا ينكر عليهم مجيئهم بالسلاح[3].

قوله: (وإنك امرؤ تحارب)؛ أي: وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة.

قوله: (وهو ينفَح منه ريح المسك)؛ أي: لأنه كان حديثَ عهد بعرس.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٣) عن الزهري.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب، أتأذن لي أن أَشمَّ رأسك؟ قال: نعم فشمَّه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه، ففعلوا، وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم، ثم أتوا النبيَّ فأخبروه، وكان قتلُ هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى من رئيس غدراً، ومقاصدَ سوء، ومحبةً لإثارة الحرب، أرسل له من يُريحه من شرّه، . . . .

قال الدحلاني: إن كعباً لما نزل إليهم، تحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك أن تمشي إلى شعب العجوز ـ وكانت الليلة المقمرة، وهو اسم موضع كان قريباً منهم ـ نتحدث به بقية ليلتنا؟ فقال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، وأمسكه من شعره، وقال: اضربوا عدوَّ الله.

وفي البخاري: إن ابن مسلمة قال لأصحابه: إذا ما جاء كعب، فإني قائل بشعره ـ أي: آخذ به ـ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفخ منه ريح المسك، فقال ابن مسلمة: ما رأيت كاليوم طيباً، فقال: عندي أعطرُ نساءِ العرب وأجملُهن، فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ فقال: نعم، فشمه، ثم أشم أصحابه، فلما تمكن أبو نائلة، أو محمد بن مسلمة من إمساكه، ضربوه بأسيافهم[١].

ثم جزوا رأسه، واحتملوه في مخلاة كانت معهم، ثم عادوا إلى المدينة، واجتمعت اليهود من كل ناحية، فأخذوا على غير الطريق، ففاتوهم[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٧) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦ ـ ٢٧).

وقد فعل كذلك مع أبي عَفَك اليهودي، وكان مثل كعب في الشر[1].

غزوة غَطَفان

بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن بني ثعلبةَ ومحارب من غَطَفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمُه دُعْثُور، يريدون الغارة على المدينة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يَغُلَّ أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء، . . . .

قوله: (وقد فعل ذلك مع أبي عفك): قال الدحلاني: كان قتل أبي عَفَك ـ بفتح المهملة والفاء ـ في شوال قبل غزوة قينقاع، وكان شيخاً كبيراً، وقد بلغ من السنين عشرين ومئة سنة، وكان يحرض الناس على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول فيه الشعر، فقال صلى الله عليه وسلم: «من لي بهذا الخبيث؟» فقال سالم بن عُمَير: عليَّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموتَ دونه، فأمهل يطلب له غرة ـ أي: غفلة ـ حتى كانت ليلة صائفة نام أبو عفك بفِناء منزله، وعلم به سالم، فأقبل إليه، ووضع سيفه على كبده، ثم اعتمد عليه حتى خش ـ أي: دخل في الفراش، فصاح عدوُّ الله، فثار إليه ناس ممن كانوا على موافقته في الكفر والتحريض، فأدخلوه منزله، فمات، فقبروه، ورجع سالمُ بنُ عمير ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فبشره بذلك، فدعا له بخير. اهـ[2].

غزوة غطفان

قوله: (دعثور) هو ـ بضم الدال ـ، وأبوه اسمُه: الحارث، وهو من بني غطفان.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥)، والخبر رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٦/ ٤٨) مختصراً.

فخرج إليهم من المدينة في أربع مئة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وخلف على المدينة عثمان بن عفان ولما سمعوا بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، هربوا إلى رؤوس الجبال، ولم يَزَل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يُسمى: ذا أَمَرَّ، فعسكروا به، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجفِّفه من مطر بلَّله، وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون، فأبصره دُعثور، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه، وقال: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟ فقال: «الله»، فأدركت الرجلَ هيبةٌ ورعبٌ أسقطا السيفَ من يده، فتناوله عليه الصلاة والسلام، وقال لدعثور: «مَنْ يمنعك مني»؟ قال: لا أحد، فعفا عنه، فأسلم الرجل، ودعا قومَه للإسلام، وحوّل الله قلبه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، . .

قوله: (فخرج إليهم من المدينة): لما خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة، أصاب أصحابُه رجلاً من بني ثعلبة يقال له: حِباب ـ بكسر الحاء المهملة وبالباء الموحدة ـ[1]، فأُدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره من خبرهم، وقال له: إنهم لن يلاقوك، ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم، وضمه صلى الله عليه وسلم إلى بلال، وأخذ به ذلك الرجل طريقاً، وهبط به عليهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (ذا أمر) هو ـ بتشديد الراء ـ. اهـ. حلبي[3].

قوله: (فأسلم الرجل، ودعا قومه للإسلام): قال الحلبي: وبذلك نزلت

---

(١) في الأصل: «الباء» بدل «الحاء المهملة وبالباء الموحدة».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١).

وَجمْعِ الناس لحربه إلى محبته، وجمعِ الناس له[1].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾[المائدة: ٥٤]، وهـذا مـا ينتجـه حسـنُ المعاملة، والبعدُ عن الفظاظة وغلـظ القلـب، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾ . . . .

الآيــة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١][2].

وقيل: إن الآية نزلت لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض الصحابة على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في بعض الديات بمقتضى المعاهدة التي كانت بينه وبينهم، وأراد هؤلاء الفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فحفظه الله منهم، وقد بسط ذلك في الخازن في تفسير هـذه الآيـة، وهـي أوائل المائدة[3].

قوله: (﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ . . .﴾) إلخ: (ما) صلة ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾؛ أي: سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك، ومعنى ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو توفيقُ الله عز وجل نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم للرفق والتلطف بهم.

(﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾) يعني: جافياً.

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٨٠ ـ ١٨١) عن ابن أبي عتاب، وعثمان بن الضحاك بن عثمان، وعبدالله بن أبي بكر. وروى البخاري (٤١٣٥)، ومسلم (٨٤٣)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ نحو هذه الحادثة دون ذكر اسم الرجل. وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٢١).

﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾) قاسِيَه.

(﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾)؛ أي: لنفروا عنك وتفرقوا.

(﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾)؛ أي: تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يومَ أحد.

(﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾)؛ أي: واسأل الله المغفرةَ لهم.

(﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾)؛ أي: استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم، وقيل: هو عام مخصوص، والمعنى: وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، وذلك في أمر الحرب وغيره.

وقيل: أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم.

وقيل: إنما أمر بمشاورتهم؛ ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم، لا ليستفيد منهم رأياً.

واتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه وحي من الله تعالى لم يجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشاور فيه الأمة، وإنما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالحِ الحرب ونحوِ ذلك.

وقيل: أن يشاورهم في أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم شاورهم في أسارى بدر، وهو من أمر الدين.

ولبعضهم في مدح المشاور:

وشاوِرْ إذا شاورتَ كلَّ مهذَّبٍ ... لبيبٍ أخي حزمٍ لترشدَ في الأمرِ

ولا تكُ مِمَّن يستبدُّ برأيه ... فتعجزَ أو لا تستريحَ من الفكرِ

أَلَمْ ترَ أن الله قال لعبده ... وشاورهم في الأمر حتماً بلا نُكْرِ

غزوة بُحْران

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة، فسار إليهم في ثلاثِ مئةٍ من أصحابه لِسِتٍّ خَلَونَ من جمادى الأولى، وخلَّف على المدينة ابنَ أم مكتوم، ولما وصل بُحران، تفرقوا، ولم يلق كيداً، فرجع[1].

اهـ. خازن باختصار[2].

وقال ناصح الدين الأرجاني:

شاورْ سواك إذا نابَتْكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهل المَشوراتِ

فالعينُ تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسَها إلا بمِرْآةِ[3]

وقال بشار بن برد:

إذا بلغَ الرأيُ المَشورةَ فاستعنْ ... برأيِ نَصيحٍ أو نَصيحةِ حازمِ

ولا تجعلِ الشورى عليكَ غَضاضةً ... فإنَّ الخَوافي قوةٌ للقوادمِ[4]

غزوة بحران

قوله: (بحران) ـ بفتح الموحدة ويضم، وسكون الحاء ـ، وعبر عنها الحافظ الدمياطي بغزوة بني سليم[5]، وبحران: موضعٌ بالحجاز معروف، بينه وبين

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣١١ ـ ٣١٢).

(٣) انظر: «ديوان الأرجاني» (١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وفيه: «تلقى كِفاحاً ما نأى ودنا» بدل «تنظر منها ما دنا ونأى».

(٤) انظر: «ديوان بشار بن برد» (١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» للدمياطي (ص: ١٩٢).

سرية [زيد بن حارثة إلى القردة]

لما تيقنت قريشٌ أن طريق الشام من جهة المدينة أُغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبرُ عنها؛ لأن بها حياتَهم، أرسلوا عِيراً إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جمعٌ من قريش، منهم: أبو سفيان بنُ حرب، وصفوان بنُ أمية، وحويطب بنُ عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله، فأرسل لهم زيدَ بنَ حارثة في مئة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السرية حتى لقيتِ العِيرَ على ماء اسمه: القَرْدَة بناحية نجد، فأخذت العِيرَ وما فيها، وهرب الرجال، وقد خمَّس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له[1].

المدينة ثمانية بُرُد، وكانت الغيبة في هذه الغزوة عشر ليال.

سرية

قوله: عنونها السيد الدحلاني بسرية زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ إلى القَرْدَة ـ بفتح القاف وسكون الراء ـ: اسمُ ماء من مياه نجد[2].

قوله: (منهم أبو سفيان. . .) إلخ: قال الدحلاني: هؤلاء كلهم أسلموا عام الفتح[3].

قوله: (وقد خمس. . .) إلخ: قال الدحلاني: بلغ الخمسُ قيمة عشرين ألف درهم[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

غزوة أُحُد

ولما أصابَ قريشاً ما أصابها ببـدر، وأُغْلِقـت فـي وجـوههم طـرقُ التجارة، اجتمع مَنْ بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان رئيسِ تلك العير التي جلبت عليهم المصائب، وكانت موقوفة بدار النـدوة، ولـم تكـن سُـلِّمت لأصحابها بعدُ، فقالوا: إن محمداً قد وَتَرنا، وقتل خيارنا، وإنّا رضـينا أن نتركَ ربحَ أموالنا فيها، استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بـذلك كلُّ من له فيها نصيب، وكانَ ربحُها نحواً من خمسين ألفَ دينار، فجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثةُ آلاف رجل، ومعهم الأحـابيش ـ وهم حلفاؤهم من بني المصْطَلق، ....

غزوة أحد

(أحد): جبل من جبال المدينة، وهو على نحو ميلين منها.

قوله: (اجتمع من بقي من أشرافهم): منهم: عبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية ـ رضي الله عنهم ـ؛ لأنهم أسلموا بعد ذلك، وغيرُهم.

قوله: (قد وَتَرنا)؛ أي: قتل رجالنا.

قال السجستاني: يقال: وترت الرجل: إذا اقتلت له قتيلاً، أو أخذت له مالاً بغير حق، وفي الحديث: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وُتِرَ أهلَه وماله». اهـ[1].

قوله: (وكان ربحها...) إلخ: قال الحلبي: كان رأس المال خمسين ألف دينار، وكان الربح لكل دينار دينار.

وقيل: أخرجوا خمسة وعشرين ألف دينار، وأنزل الله تعالى في تلك:

---

(١) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٥٢٤)، والحديث رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

وبني الهُون بن خزيمة، ومعهم أبو عامرٍ الراهبُ الأوسيُّ، وكان قد فارق المدينة كراهيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه عدد ممّن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كِنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عَزّةَ الشاعر ـ الذي لا ينسى القارئ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مَنَّ عليه ببدر، وأطلقه من غير فداء ـ : إنك رجل شاعر، فأعِنّا بلسانك، فقال: إني عاهدتُ محمداً ألّا أُعِينُ عليه، وأخافُ إن وقعتُ في يده مرة ثانية ألا أنجو، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين، ودعا جُبير بن مُطْعِمٍ غلاماً حبشيًّا له، اسمه: وَحْشِيّ، وكان رامياً قلّما يُخطئ، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلتَ حمزةَ بعمِّي طُعَيْمةَ، فأنت حُرّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾[الأنفال: ٣٦][١].

قوله: **(الهُون)** هو بضم الهاء.

قوله: **(فلم يزل به صفوان...)** إلخ: حيث قال له: لك عليَّ إن رجعت أن أغنيك، وأن أصبت أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر[٢].

قوله: **(وذهب يستنفر الناس)**؛ أي: هو ومسافع أخذا يستنفران الناس بأشعارهما، أما مسافع، فلا يُعلَم له إسلام، وأما أبو عزة، فظفر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الوقعة بحمراء الأسد، فأمر فضربت عنقه، وحملت على رأسه إلى المدينة[٣].

قوله: **(بعمِّي طُعَيمة)**: هو ابن عَدِيّ، وإنما قال له ذلك، لأن حمزة

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

ثم خرج الجيش، ومعهم القِيانُ والدفوف والمعازف والخمور، واصطحب الأشرافُ منهم نساءهم كيلا ينهزموا، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُلَيفة.

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمُّه العباسُ بنُ عبد المطلب، الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب، محتجّاً بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين، جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه، وأخبرهم الخبر، وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن هم أقاموا، أقاموا بشر مقام، ....

هو القاتل له.

قوله: **(ثم خرج الجيش)**: قال الحلبي: كانوا ثلاثة آلاف، منهم مئتا فارس، وبينهم سبع مئة دارع، ومعهم ثلاثة آلاف بعير[1].

قوله: **(بذي الحليفة)**؛ أي: وهو ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه.

قوله: **(من كتاب بعث به إليه عمه العباس)**: قال الحلبي: أرسل العباس الكتاب مع رجل استأجره من بني غفار، وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها، ففعل ذلك، فلما جاءه الكتاب، فك ختمه، ورفعه لأُبيّ، فقرأه عليه أبيُّ ابنُ كعب، واستكتم أبيّاً، ونزل صلى الله عليه وسلم على سعد بن الربيع، فأخبره بكتاب العباس، فقال: والله! إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٩).

وإن هم دخلوا علينا، قاتلناهم»[1].

فكان مع رأيه شيوخُ المهاجرين والأنصار، ورأى ذلك أيضاً عبدُالله ابن أُبيّ، أما الأحداث، وخصوصاً مَنْ لم يشهد بدراً منهم، فأشاروا عليه بالخروج، . . . .

قوله: (وإن هم دخلوا علينا، قاتلنا فيها)؛ أي: فأنا أعلم بها منهم، قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن. اهـ. حلبي[2].

قوله: (ورأى ذلك عبدُالله بن أبي): قال الحلبي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليه يستشيره، ولم يستشره قبل ذلك، قال: يا رسول الله! أقم بالمدينة ولا تخرج، فوالله! ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا، قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا. اهـ[3].

قوله: (أما الأحداث، فأشاروا. . .) إلخ: قالوا له: اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونا جَبُنَّا عنهم وضَعُفنا، فيكون ذلك جرأة منهم علينا، والله! لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا. اهـ. حلبي[4].

قال الماوردي في باب المشورة: كان يقال: إياك ومشاورةَ رجلين: شابٌّ متعجب بنفسه قليلُ التجارب في غيره، أو كبيرٌ قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٢٦) عن ابن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩١).

وكان مع رأيهم حمزةُ بنُ عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم؛ لأنهم الأكثرون عدداً، والأقوون جلداً، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشرٍ خَلَونَ من شوال، وحضّهم في خطبتها على الثبات والصبر، وقال لهم: «لكم النصرُ ما صبرتم»، ثم دخل حجرته، ولبس عُدّته، فظاهرَ بين درعَين، وتقلد السيف، وألقى الترس وراء ظهره، ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج، لاموهم، وقالوا: ردّوا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أَمَرَ ائتمرنا، فلما خرج عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله! نتَّبعُ رأيك، فقال: «ما كان لنبي لَبِسَ سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»[1].

من جسمه. اهـ[2].

قوله: (وكان من رأيهم حمزةُ): فإنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي أنزل عليك الكتاب! لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[3].

قوله: (حتى تبع رأيهم)؛ أي: وهو كاره للخروج.

قوله: (وقالوا: ردوا الأمر): القائلون سعدُ بنُ معاذ، وأسيد بن حضير.

قوله: (قالوا: يا رسول الله! نتبع رأيك): في الحلبي: قالوا له: ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج، فاصنع ما شئت[4].

قوله: (ما كان لنبي...) إلخ؛ أي: لأن الشروع في العمل ملزم لإتمامه.

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٩٦). ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٥١) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مختصراً.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٧٩).

(٣) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٨٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٢).

ثم عقد الألوية، فأعطى لواءَ المهاجرين لمصعبِ بنِ عُمَير، ولواءَ الخزرج للحُبابِ بنِ المنذر، ولواءَ الأوس لأُسَيدِ بن الحُضَير، وخرج من المدينة بألف رجل، فلما وصلوا رأس الثنية، نظر عليه الصلاة والسلام إلى كتيبة كبيرة، فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أُبيّ من اليهود، فقال: «إنّا لا نستعين بكافر على مشرك»[1]، وأمر بردّهم؛ لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطُّولى في الخيانة. ثم استعرض الجيش، فردَّ من استصغر، وكان فيمن ردّ: رافع بن خديج، وسَمُرَة بن جُندب، ثم أجاز رافعاً لمَّا قيل له: إنه رامٍ، فبكى سَمُرة، وقال لزوج أمه: أجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رافعاً وردّني مع أني أصرعه، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرة، فأجازه.

ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت، . . . .

قوله: (فقال: إنا لا نستعين بكافر. . .) إلخ: إنما قال ذلك بعد أن قال: «أسلموا»، فقيل: لا، فقال: «إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك»، فردهم كما في الحلبي[2].

قوله: (سَمُرة): ـ بفتح السين وضم الميم ـ، وجُندَب: ـ بضم الجيم وفتح الدال ـ.

قوله: (فرد من استصغر): قال الحلبي: كان فيمن رآهم: عرابة بن أوس، وعرابة هذا هو القائل فيه الشماخ:

رأيت عَرابةَ الأوسيَّ يسمو إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٣)، والحديث المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٨٣٢) عن سعد بن المنذر. (ط دار القبلة).

واستعمل على حرس الجيش محمدَ بنَ مسلمةَ، وعلى حرسه الخاصِّ ذكوانَ ابنَ عبد قيس. وفي السَّحَر سار الجيش، حتى إذا كان بالشَّوْطِ ـ وهو بستان بين أُحُد والمدينة ـ رجع عبدالله بن أُبَيَ بثلاث مئة من أصحابه، وقال: عصاني وأطاع الوِلْدان، فعلام نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبدالله بنُ عمرٍو والدُ جابر، وقال: يا قوم! أُذَكِّرُكُمُ الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم، ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] **فقال لهم: أَبْعَدَكُم الله، فسيغني الله عنكم نبيّه.**

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقاها عرابةُ باليمينِ[١]

قوله: (وعلى حرسه الخاص ذكوان): قال الحلبي: فإنه لم يفارقه لما قال صلى الله عليه وسلم: «من يحفظنا الليلة؟» حتى كان السَّحَر[٢].

قوله: (وهو والد جابر): قال الحلبي: وكان في الخزرج كعبدالله بن أبي[٣].

قوله: (أن تخذلوا قومكم ونبيكم)؛ أي: تتركوا نصرتهم وإغاثتهم عندما حضر من[٤] عدوهم[٥].

قوله: (﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾)؛ أي: لو نعلم أنكم تقاتلون، لما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال، وأبوا إلا الانصراف، ولما رجعوا بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبع مئة رجل. اهـ[٦].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٣).
(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٤) في الأصل تكرر: «من».
(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).

ولما فعل ذلك عبدُالله بنُ أُبَيّ، همَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الأوس، وبنو سَلِمة من الخزرج، فعصمهما الله. وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين، فقوم يقولون: نقاتلهم، وقوم يقولون: نتركهم، فأنزل الله في سورة النساء: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[النساء: ٨٨]. ثم سار الجيش حتى نزل الشِّعبَ من أحد، وجعل ظهره للجبل، ووجَهه للمدينة، ....

قوله: (فعصمهما الله): قال الحلبي: قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[آل عمران: ١٢٢] إلخ[١].

قوله: (﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾) إلخ: قال النسفي والبيضاوي والخازن: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: ما لكم اختلفتم في المنافقين، وتفرقتهم فيهم فرقتين؟ و﴿فِئَتَيْنِ﴾ حال؛ كقولك: ما لك قائماً.

قال سيبويه: إذا قلت: ما لكَ [قائماً][٢]؟ فمعناه: لِمَ قمت[٣]؟

ونصبه على تأويل: أيُّ شيء مستقرٌّ لك في هذه الحال؟

وقوله: (﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾)؛ أي: نكسهم وردّهم إلى حكم الكفرة، وأصل الركس: ردُّ الشيء مقلوباً.

وقوله: (﴿بِمَا كَسَبُوا﴾) من ارتدادهم.

وقوله: (﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾) هذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين، والمعنى: أتبتغون ـ أيها المؤمنون ـ هدايةَ هؤلاء المنافقين الذين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).

(٢) ما بين معكوفتين من «تفسير الخازن».

(٣) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٦١).

أما المشركون، فنزلوا ببطن الوادي من قِبَل أحد، وكان على ميمنتهم خالدُ ابن الوليد، وعلى الميسرة عكرمةُ بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوانُ بن أمية، فجعل عليه الصلاة والسلام الزبيرَ بنَ العوام بإزاء خالد، وجعل آخرين أمامَ الباقين، واستحضر الرماة، وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبدُالله بنُ جُبير الأنصاري، فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وقال: «لا تبرحوا: إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا»[1].

أضلهم الله عن الهدى[2]؟

قوله: (وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أقامهم النبي صلى الله عليه وسلم على الجبل، قال لهم: «احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم».

وفي رواية قال لهم: «إن رأيتمونا تخطَفُنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ وأوطأناهم ـ أي: مشينا عليهم وهم قتلى ـ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[3].

وفي رواية: «فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، اللهم إني أشهدك عليهم». اهـ[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، و«تفسير النسفي» (١/ ٢٣٨)، و«تفسير الخازن» (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧ ـ ٣٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٨٧) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ثم عدل عليه الصلاة والسلام الصفوف، وخطب المسلمين، وكان فيما قال: «ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، المؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده»[1].

قوله: (وخطب خطبة): صنيع الحلبي يفيد أن هذه الخطبة كانت عند انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح[2].

قوله في الحديث: (ألقى في قلبي. . .) إلخ: هذا وسط الخطبة، وأولها كما في الحلبي: لما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صفوفاً، خطب خطبة حثهم فيها على الجهاد، ومن جملة ما ذكر فيها: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيّاً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد[3]، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث في روعي الروح الأمين؛ وهو جبريل. . .» إلخ ما هاهنا[4].

قوله: (تداعى له)؛ أي: دعا الأعضاء بعضها البعض للشكوى.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٩١٤) من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧١): وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٧١٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٧٠): أبو معشر أقرب إلى الضعف، وعبد العظيم لم أجد من ترجمه.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة، فخرج رجل من صفوف المشركين، فبرز له الزبيرُ فقتله، ثم حمل اللواءَ طلحةُ بنُ أبي طلحة، فقتله عليّ، . . . .

قوله: (فخرج رجل من صفوف المشركين. . .) إلخ: قال الحلبي: خرج الرجل على بعير له، فدعا للبِراز، فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير، ثم عانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك، فوقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لكل نبيٍّ حَواريٌّ، وإن حواريَّ الزبير»(١).

قوله: (ثم حمل اللواء طلحة): هذا يفيد أن الرجل المتقدم كان حاملاً اللواء، وليس كذلك؛ فإن حامل اللواء في ذلك اليوم من أول الأمر هو طلحة.

قال الحلبي بعد أن ذكر قتل الزبير للرجل: وخرج رجل من المشركين بين الصفين، وهو طلحة بن أبي طلحة، وكان بيده لواء المشركين؛ لأن بني عبد الدار كانوا أصحابَ لواء المشركين؛ لأن اللواء كان لوالدهم عبدِ الدار. اهـ(٢).

قوله: (فقتله علي): قال الحلبي: لما خرج طلحة، وطلب المبارزة مراراً،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٢٧) عن محمد بن شهاب الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ، وغيرهم، وروى البخاري (٤١١٣) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «إن لكل نبيٍّ حواريّاً، وإن حواريَّ الزبير».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧).

فحمل اللواء أخوه عثمانُ، فقتله حمزةُ، فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقضى عليه، فتناوب اللواءَ بعدَه أربعةٌ من أولاد طلحةَ بن أبي طلحة، وكلهم يُقتلون، وخرج من صفوف المشركين عبدُ الرحمن بن أبي بكر يريد البراز، فأراد أبوه أن يبرز له، فقال عليه الصلاة والسلام: . . . .

فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد! [زعمتم] أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار، وفي رواية: إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم [بسيوفنا] إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك، لخرج إليَّ بعضكم، فخرج إليه علي بنُ أبي طالب، فاختلفا ضربين، فقتله عليٌّ. اهـ[1].

قوله: (أخوه عثمان) قال الحلبي: هذا هو أبو شيبة الذي ينسب إليه الشيبيون، فيقال: بنو شيبة ـ وهم سدنة الكعبة وأصحابُ مفاتيحها إلى اليوم ـ، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره، فرجع حمزة وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج؛ يعني: عبدَ المطلب. اهـ[2].

قوله: (أربعة من أولاد طلحة): هم: مسافع، والحارث، وكلاب، والجلاس، ثم حمله أرطاة بنُ شرحبيل، فقتله عليٌّ، وقيل: حمزة، ثم أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف، فقتله قزمان، فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم، فقتله أيضاً، ثم حمله غلام لهم وكان حبشيّاً، فقتله قزمان، وقيل: سعد. اهـ. حلبي[3].

وبقي اللواء مطروحاً إلى أن أخذته[4] امرأة يقال لها: عمرة الحارثية.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٤) في الأصل كلمة غير واضحة، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٦).

«متعنا بنفسك يا أبا بكر!»[(١)].

ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون. ولما التقت الصفوف، وحميت الحرب، ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف، وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء يقول: . . . . .

وقد كان أبو سفيان قال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم على القتال: يا بني عبد الدار! أنتم تركتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما تؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع، وذلك الذي أراد أبو سفيان. اهـ. حلبي[(٢)].

قوله: (متعنا بنفسك): قال الحلبي: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شِم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك». اهـ[(٣)].

وفي «القاموس»: شام سيفه يشيمه: غَمَده[(٤)].

قوله: (يضربن بالدفوف): قال الحلبي: لما التقى الناس، وحميت الحرب، قامت هند في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف [الرجال][(٥)] ويقلن:

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٠٠٤) عن الواقدي، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٩)، والخبر المذكور أورده أبو القاسم الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٩١).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شيم).

(٥) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

«اللهم بك أحول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»[1].

ويهاً بني عبد الدار ... ويهاً حماة الأدبار ... ضرباً بكل بتار

و(ويهاً) كلمة إغراء وتحريض، كما تقول: دونَكَ يا فلان.

والأدبار: الأعقاب؛ أي: الذين يحملون أعقاب الناس.

والبتار: السيف القاطع.

ويقلن:

نحن بناتُ طارقْ ... نمشي على النمارقْ

مَشْيَ القطا النوازقْ ... والمِسْكُ في المفارقْ

والدرُّ في المخانِقْ ... إن تُقبلوا نعانقْ

ونفرشُ النمارقْ ... أو تُدبروا نفارقْ

فراقَ غيرِ وامقْ

النوازق: الخفاف.

وطارق: اسم رجل معروف؛ أي: نحن بنات طارق المعروف بالعلو والشرف.

وأصل طارق: النجم، والنمارق: الوسائد الصغار، والوامق: المحب[2].

قوله: (بك أحول): في «النهاية»: (بك أحول)؛ أي: أتحرك، وقيل:

---

(1) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٩٢)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠١). وروى أبو داود (٢٦٣٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال: «اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل».

(2) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

وفي هذه المعمعة قُتل حمزة بنُ عبد المطلب عمٌّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدُ الشهداء، غافله وحشي وهو يجول في الصفوف، وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا بطنه.

هذا، ولما قُتل حَمَلَةُ اللواء من المشركين، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه، ولَّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويُولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب، فلما رأى ذلك الرماةُ الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل، قالوا: ما لنا في الوقوف من حاجة، . . . .

أحتال، وقيل: أدفع وأمنع؛ من حال بين الشيئين: إذا منع أحدَهما عن الآخر، وفي حديث آخر: «بك أصاول، وبك أحاول»[1]، وهو من المفاعلة، وقيل: المحاولة: طلب الشيء بحيلة. اهـ[2].

قوله: (قتل حمزة): لم يُقتل ـ رضي الله عنه ـ حتى قتل في ذلك اليوم واحداً وثلاثين شخصاً، وقيل: ثلاثة وعشرين، قال وحشي غلامُ جبير: إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ـ يهدّ بالدال المهملة: يهدم، وبالذال: يقطع ـ وقد عثر حمزة، فانكشف الدرع عن بطنه، فهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنَّتِه ـ وهو موضع تحت السرة وفوق العانة ـ فندرته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلب فوقع، فأمهلته حتى إذا مات، جئته فأخذت حربتي، ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لي حاجة غيره. اهـ. حلبي[3].

قوله: (يبكين ويولولن)؛ أي: بعد فرحهم وضربهم بالدفوف، وألقين الدفوف وقصدن الجبل كاشفاتٍ سيقانهن يرفعن ثيابهن. اهـ. حلبي[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٣٣) من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

ونسوا أمر السيد الحكيم صلى الله عليه وسلم، فذكَّرهم رئيسُهم به، فلم يلتفتوا، وانطلقوا ينتهبون. أما رئيسُهم، فثبت، وثبت معه قليل منهم، فلما رأى خالدُ بن الوليد ـ أحدُ رؤساء المشركين ـ خُلُوَّ الجبل من الرماة، انطلق ببعض الجيش، فقتل من ثبت من الرماة، وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأوا ذلك البلاء، دهشوا وتركوا ما بأيديهم، وانتقضتْ صفوفهم، واختلطوا من غير شعور، حتى صار يضرب بعضُهم بعضاً، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء، فاجتمعوا حوله، وكان من المشركين رجل يقال له: ابن قَمِئَةَ قَتل مُصعَبَ بنَ عُمَير صاحبَ اللواء، . . .

قوله: (فذكرهم رئيسهم به): هو عبدالله بن جبير كما تقدم.

وقوله: (ومعه قليل) قال الحلبي: كانوا دون العشرة[١].

قوله: (فقتل من ثبت من الرماة)؛ أي: حتى رئيسهم، ثم إنهم مثلوا به، ومن كثرة طعنه بالرماح خرجت حشوته. اهـ. حلبي[٢].

قوله: (وتركوا[٣] ما بأيديهم)؛ أي: من الأموال والأسرى.

قوله: (ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء): قال الدحلاني ـ بعد ذكره من قُتل من بني عبد الدار حملة اللواء ـ: ثم لم [يزل] اللواء طريحاً حتى أخذته عمرة ينت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، ولاذوا به؛ أي: استداروا. اهـ[٤].

قوله: (ابن قمئة): هو: ـ بفتح القاف وكسر الميم وبعدها همزة ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣).

(٣) في الأصل: «وخلوا»، والمثبت موافق لما في «نور اليقين» (ط الجامعة).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٤١)، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٦).

وأشاع أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل، فدخل الفشلُ في المسلمين حتى قال بعضُهم: علامَ نقاتل إذا كان محمد قد قُتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤَمِّنُوكم. وقال جماعة: إذا كان محمد قد قُتل، فقاتلوا عن دينكم. وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعةٌ من المسلمين، من بينهم: الوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ورِفاعة بن المعلى، وعثمان بن عفان، وتوجهوا إلى المدينة، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها، فرجعوا بعد ثلاث، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه جماعة، منهم: أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بحَجَفَتِهِ، . . . .

اهـ. حلبي[1].

قوله: (إذا كان محمد قد قتل): قال الحلبي نقلاً عن «الإمتاع»: إن ثابت بن الدحداح قال: يا معشر الأنصار! إن كان محمد قد قتل، فإن الله حيٌّ لا يموت، قاتلوا عن دينكم؛ فإن الله مظفركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل على كتيبة فيها خالدُ بنُ الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله، وقتل من كان معه من الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ. اهـ[2].

قوله: (فرجعوا بعد ثلاث): قال الحلبي: لما رجعوا، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذهبتم فيها عريضة»[3]؛ أي: يميناً وشمالاً متحيرين، وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾[آل عمران: ١٥٥]. اهـ[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣).
(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤).
(٣) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١١) من حديث عبدالله بن الزبير.
(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٤).

وكان رامياً شديد الرمي. فنثر كِنانته بين يدي رسول الله، وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقَاء. وكلٌّ من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه الصلاة والسلام: «انثرها لأبي طلحة»، وكان ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[1].

وممّن ثبتَ: سعدُ بنُ أبي وقاص، فكان عليه الصلاة والسلام يقول له: «ارمِ سعد فِداك أبي وأمي»[2].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: طلب منهم الزلل، فأطاعوه، واقترفوا ذنوباً، ولمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة، فمنعوا التأييد وقوة القلب. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (وجهي لوجهك الفداء): في الحلبي: كان يقول له: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوِقاء[4].

قوله: (بحجفة): ـ بتقديم الحاء على الجيم ـ.

وفي «القاموس»: الحجف ـ محركة ـ: الترس من جلود بلا خشب، الواحدة: حَجَفَة[5].

قوله: (يقول له: ارم): قال الحلبي: عن علي ـ كرم الله وجهه ـ: ما سمعتُ

---

(١) رواه البخاري (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ورواه مسلم (٢٤١١)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٠٦).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٥).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حجف).

. . . .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «فداك أبي وأمي»، إلا لسعد ـ رضي الله عنه ـ[1].

وعن سعد: أجلسَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمامه، فجعلت أرمي وأقول: اللهم سهمك فارم به عدوك، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدد رميته، وأجبْ دعوته»[2].

فكان سعد مجابَ الدعوة، ولما سعى أهل الكوفة به إلى سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ؛ أرسل جماعة للكوفة يسألون عن حاله من أهل الكوفة، فصاروا كلما سألوا عنه أحداً قال خيراً، وأثنى عليه معروفاً، حتى سألوا رجلاً يقال له: أبو سعدة، ذمَّه، وقال: لا يقسم بالسَّوِيَّة، ولا يعدل في القضية، فلما بلغ سعداً ذلك قال: اللهم إن كان كاذباً، فأطل عمره، وأدِمْ فقره، وأَعْمِ بصره، وعرّضه للفتن، فعمي، وافتقر، وكبر سنه، وصار يتعرض للإماء في سكك الكوفة، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة؟ يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد[3].

قيل لسعد: لِمَ تستجاب دعوتك من دون الصحابة؟ فقال: ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا أعلم من أين جاءت، ومن أين خرجت[4].

ولما كُفَّ بصرُه قيل له: لو دعوتَ الله سبحانه أن يرد عليك بصرك؟ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ومسلم (٢٤١١) بنحوه.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (١٢١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٣): وفيه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، وهو متروك.

(٣) رواه البخاري (٧٥٥) من حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) أورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم الحكم» (ص: ١٠٧) عن عكرمة بن عمار عن الأصفر.

ومنهم: سهل بن حُنَيف، وكان من مشاهير الرماة، نضحَ عن رسـول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس.

ومنهم: أبو دُجانة سِمَاكُ بن خَرَشَة الأنصاريُّ، تترس على رسـول الله، فصار النبلُ يقع على ظهره وهو منحنٍ حتـى كثـر فيـه. وكـان يقاتـل عـن الرسول صلى الله عليه وسلم زيادةُ بنُ السكن حتى أصابت الجـراحُ مقاتلـه، فأمر به فأُدني منه، ووسده قدمه حتى مات.

وقد أصابه عليه الصلاة والسلام شدائدُ عظيمةٌ تحمَّلها بما أعطـاه الله من الثبات؛ فقد أقبل أُبيٌّ بن خلف يريد قتله، . . . .

قضاء الله أحبُّ إليَّ من بصري[1].

قوله: (نضح بالنبل)؛ أي: رمى بها.

قال الحلبي: وكان بايعه صلى الله عليه وسلم على الموت[2].

قوله: (خرشة) هو ـ بفتح الخاء والراء ـ كما في «القاموس»[3].

قوله: (فأقبل أبي بن خلف): قال الحلبي: لما أقبل، استقبله مصعب بن عمير، فقتل مصعباً، فاعترضه رجال من المسلمين، فأمرهم صـلى الله عليـه وسـلم أن يخلوا طريقه. اهـ[4].

وهذا ينافي ما تقدم في كلام المؤلف من أن قاتل مصعب هو ابن قمئة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٨)، والأثـر المـذكور أورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم الحكم» (ص: ٣٦٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٨).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خرش).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبـي (٢/ ٥١٠)، والخبـر المـذكور رواه موسى بن عقبة كما في «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢١١) عن سعيد بن المسيب.

فأخذ عليه الصلاة والسلام الحربة ممّن كانوا معه، وقال: «خلّوا طريقه»[1]، فلمّا قَرُب منه، ضربه ضربةً كانت سببَ هلاكه وهو راجع، ولم يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَه، لا في هذه الغزوة، ولا في غيرها.

وكان أبو عامرٍ الراهبُ قد حفر حُفراً وغطّاها ليقَع فيها المسلمون، فوقعَ الرسول صلى الله عليه وسلم في حفرة منها، فأُغمي عليه، . . . . . .

قوله: (فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه): قال الحلبي: أخذها من الحارث بن الصمة، أو الزبير بن العوام، فخدشه بها في عنقه خدشاً غير كبير، احتقن الدم بسبب ذلك الخدش، فقال: قتلني ـ والله ـ محمد، فقالوا: ذهب ـ والله ـ عقلُك، إنك لتأخذ السهام من أضلاعك، فترمي بها، فما هذا ـ والله ـ ما بك من بأس، ما أخدعك! إنما هو خدش، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره، فقال: واللات والعزى! لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز ـ السوق المعروف كان عند عرفة ـ؛ لماتوا أجمعون، إنه قد كان قال لي بمكة: «أنا أقتلك»، فو الله! لو بصق عليَّ لقتلني[2].

قوله: (وهو راجع): مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة بسَرِف، وقيل: ببطن رابغ[3].

قوله: (أبو عامر الراهب) هو والد حنظلةَ غسيلِ الملائكة، ومات أبو عامر كافراً بأرض الروم، فر إليها لما فتحت مكة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) عن ابن المسيب، وفيه: «استأخروا» بدل «خلوا طريقه»، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٠)، و«الشفا» للقاضي عياض (١/ ١١٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٢).

وخُدشت ركبتاه، فأخذ عليّ بيده، ورفعه طلحة بن عبيدالله ـ وهما ممّن ثبت ـ حتى استوى قائماً، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته، فتبعه حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ فقتله، . . . .

قوله: (فرماه عتبة): هذا يفيد أنه لما استوى صلى الله عليه وسلم رماه عتبة، وليس كذلك، والذي في الحلبي والدحلاني: ورماه عتبة. . . إلخ[1]، وهو أولى.

قوله: (كسر رباعيته)؛ أي: اليمنى السفلى، وشَقَّ شفته السفلى كما في الدحلاني[2].

في «المصباح»: الرَّباعِيَة: بوزن (الثمانية): السنُّ التي بين الثنية والناب، والجمع رَباعِيَات ـ بالتخفيف أيضاً ـ. اهـ[3].

وفي «القاموس»: الثنية من الأضراس الأربع التي في مقدم الفم؛ ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل[4].

والناب: السن خلف الرباعية، مؤنث، جمعه: أُنيب وأنياب[5].

قوله: (فتبعه حاطب): في الحلبي: قال حاطب: لما رأيت ما فعل عتبةُ برسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت لرسول الله: أين توجه عتبة؟ فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى حيث توجه، فمضيت حتى ظفرت به، فضربته بالسيف،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٥٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٢).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: ربع).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ثني).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نيب).

وشَجَّ وجهَه عليه الصلاة والسلام عبدُالله بنُ شهاب الزهري، وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المِغْفَر فيهما من ضربة ضربه بها ابنُ قَمِئَةَ ـ غضب الله عليه ـ، فجاء أبو عُبيدةَ وعالج الحلقتين حتى نزعهما، فكُسرت في ذلك ثنيتاه، وقال حينئذٍ عليه الصلاة والسلام: «كيف يُفلِح قوم خضَّبوا وجهَ نبيّهم؟!» فأنزل الله في سورة آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ ....

فطرحت رأسه، فنزلتُ وأخذتُ فرسه وسيفَه، وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «رضي الله عنك، رضي الله عنك»، مرتين. اهـ[1].

قوله: (عبدالله بن شهاب): عبدالله أسلم بعد ذلك ـ رضي الله عنه ـ، وهو جدُّ الإمام الزهري من أئمة الحديث.

قوله: (من ضربة ضربه بها ابن قمئة): في الحلبي: أن ابن قمئة ـ لعنه الله ـ قال له لما ضربه: خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقمأك الله»؛ أي: صغَّرك وأذلَّك، وقد استجاب الله فيه دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشدّ عليه كبشها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل، فتقطع[2].

قوله: (﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾): قال البيضاوي: المعنى: أن الله ما لك

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٣)، والخبر المذكور رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٠٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٤)، والخبر المذكور أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٦٦، ٣٧٣) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، وعزاه لابن عائذ في «المغازي». ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٧): وفيه حفص بن عمر العدني، وهو ضعيف.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٢٨][1].

وكان أول من عرف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الدهشة كعبُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ، فنادى: يا معشر المسلمين! أبشروا، فأشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن اصمتْ، ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب، ومعه جمع، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، والحارث بن الصمة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمانُ بنُ عبد المغيرة يقول: أين محمد؟..........................

أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. اهـ[2].

ومعنى: ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يغيظهم ويخزيهم.

وقوله تعالى: (﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾)؛ أي: استحقوا العذاب بظلمهم.

قال البيضاوي: قيل: إنه صلى الله عليه وسلم هم أن يدعو عليهم، فنهاه الله؛ لعلمه بأن فيهم من يؤمن. اهـ[3].

قوله: (وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم...) إلخ: في الحلبي: كان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران ـ أي: تضيئان وتتوقدان ـ من تحت المغفر ـ وهو ما يجعل

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٤٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٤).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٩٠).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٩٠).

لا نجوت إن نجا، فعثر به فرسه، ووقع في حفرة، فمشى إليه الحارثُ بنُ الصمة وقتله، ولما وصل الشعب، جاءت فاطمة، فغسلت عنه الدم، وكان عليٌّ يسكب الماء، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، ووضعتها على الجرح، فاستمسك الدم، ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب، فلم يمكنه القيام؛ لكثرة ما نزل من دمه صلى الله عليه وسلم، فحمله طلحة بن عبيدالله حتى أصعده، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل، فقال: «لا ينبغي لهم أن يعلونا، اللهم! لا قوة لنا إلا بك»، . . . .

على الرأس من الزرد ـ ، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليَّ أن أنصت.

وفي رواية: لما نودي بقتله، لم نشك في أنه حق، وما زلنا كذلك حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين، فعرفناه بكتفيه إذا مشى، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا. اهـ[1].

قوله: (ووقع في حفرة)؛ أي: من تلك الحفر التي حفرها أبو عامر الراهب كما تقدم.

قوله: (وقتله): لما قتل قال صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله الذي أحانه»[2]؛ أي: أهلكه.

قوله: (فنظر إلى جماعة. . .) إلخ: قال الحلبي: كان معهم خالد بن الوليد[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٧).

(٢) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٥١٨)، ولم نقف عليه مسنداً.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

ثم أرسل إليهم عمرَ بن الخطاب [في جماعة] فأنزلوهم[1].

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كثير من الجراحات؛ لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم، خوفاً أن يصل للرسول، فوُجِد بطلحة نيفٌ وسبعون جراحة، وشلَّت يدُه، وأصاب كعبَ بنَ مالك سبعَ عشرةَ جراحة.

قوله: (أرسل إليهم عمر بن الخطاب...) إلخ: في بعض الروايات: أنه أمر سعداً رضي الله عنه ـ بردهم، قال سعد: فأخذت سهماً من كنانتي، فرميت به رجلاً منهم فقتله، وهكذا إلى أن قتل منهم خمسة، فهبطوا حينئذ[2].

قوله: (فوجد بطلحة...) إلخ: هو ابن عبيدالله.

وقوله: (وشلت يده): قال الحلبي: في البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيدالله شلاَّء، وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد[3]؛ أي: من سهم.

وقيل: من حربة، ونزف به الدم حتى غشي عليه، ونضح أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الماء في وجهه حتى أفاق، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال له أبو بكر: هو بخير، وهو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جَلَل؛ أي: قليلة.

وكان يقال لطلحة: الفياض، سماه بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة، وسماه: طلحة الجود؛ لأنه أنفق في أُحد سبعَ مئة ألفِ درهم،

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١١) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٦٣).

أما القتلى، فكانوا نيفاً وسبعين، منهم ستةٌ من المهاجرين، والباقون من الأنصار. ومن المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، . . . .

وسماه في أحد أيضاً: طلحة الخير. اهـ[1].

قوله: (ومن المهاجرين: حمزة): تقدم أن قاتله وحشيٌّ الحبشي، غلامُ جبير بن مطعم.

قال الحلبي: إن هنداً زوجَ أبي سفيان، والنسوةَ اللاتي خرجن معها صرن يمثلن بقتلى المسلمين، يجدَعْن من آذانهم وأنوفهم، واتخذن من ذلك قلائد، وبقرت هند بطنَ سيدنا حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «هل أكلت منه شيئاً؟» قالوا: لا، [قال]: «إن الله قد حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً»[2]. أي: ولو أكلت منه، لم تمسها النار.

ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو حمزة، فوجده ببطن الوادي، فنظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجعَ لقلبه منه، وقال صلى الله عليه وسلم: «لن أصاب بمثلك، ما وقفتُ موقفاً أغيظَ لي من هذا»[3]، وقال: «رحمة الله عليك؛ فإنك كنت ما علمتك فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم»[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٢ ـ ١٣) عن محمد بن سيرين، وابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٤٥). وروى الحاكم في «المستدرك» (٤٨٨١) عن محمد بن عمر، عن شيوخه قالوا: لما أصيب حمزة، جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن أصاب بمثلك أبداً».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٩): وفيه صالح بن بشير المري، =

ثم قال: وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما رأينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم باكياً أشدَّ من بكائه على حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وضعه على القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشق ـ أي: شهق ـ حتى بلغ به الغشي، يقول: «يا عمَّ رسولِ الله، وأسدَ الله، وأسدَ رسولِ الله، يا حمزة، يا فاعل الخيرات، يا حمزة، يا كاشف الكربات، يا حمزة، يا ذابَّ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١).

قال الحلبي: وليس هذا من الندب المحرم، ومحلُّ الكراهة: إذا كان على وجه التفاخر والتعاظم، ولم يكن وصفاً لنحو صالح للحث على سلوك طريقته(٢).

قوله: (ومنهم مصعب بن عمير): قال الحلبي: قتل مصعب بن عمير يوم أحد، وكفن في نَمِرَة إن غطي بها رأسُه، بدت رجلاه، وإن غطي بها رجلاه، بدت رأسه، فقال صلى الله عليه وسلم: «غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»(٣).

وكان مصعب هذا قبل الإسلام فتى مكة شباباً وجمالاً ولباساً، ولما أسلم، تشعث(٤).

قوله: (ومن الأنصار: حنظلة بن أبي عامر): قال الحلبي: سبب قتله:

= وهو ضعيف.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٩، ٥٣٣ ـ ٥٣٤)، والخبر المذكور أورده محب الدين الطبري في «ذخائر العقبي» (ص: ١٨١) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال: خرجه ابن شاذان وقال: غريب.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٤).

(٣) رواه البخاري (٤٠٤٧) من حديث خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).

وعَمرو بنُ الجموح، وابنه خلاَّدُ بنُ عمرو، وأخو زوجه والدُ جابرِ بنِ عبدالله، . . . .

أن حنظلة ضرب فرس أبي سفيان، فوقع على الأرض، فصاح، وعلاه حنظلة يريد ذبحه، فرآه شداد بن الأسود، فحمل عليه فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن صاحبكم لتغسلُه الملائكة» ـ وفي رواية: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة» ـ فسئلت صاحبته؛ أي: زوجته جميلةُ بنتُ عبدالله بنِ أبي ابن سلولَ رأسِ المنافقين أختُ ولدِه عبدِالله ـ رضي الله عنهما ـ، فقالت: خرج جنباً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لذلك غسلته الملائكة»[1].

فإنه دخَل عليها عروساً تلك الليلة التي صبيحتُها أُحد، وقد كان استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الدخول بها، فلما صلى الصبح، غدا يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلزمته، فكان معها، فأجنب منها، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى العدو، فعجل عن الغسل إجابةً للداعي[2].

قوله: (وعمرو بن الجموح): قال الحلبي: كان عمرو بن الجموح أعرجَ شديدَ العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد، فلما كان يوم أحد، أرادوا حبسه، وقالوا له: قد أعذرك الله، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فوالله! إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال له: أما أنت، فقد أعذرك الله، فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «ما عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١٢) عن محمود بن لبيد.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٥).

فأتت زوجُ عمرٍو هندُ بنتُ عمرِو بن حرام، وحملتهم: زوجَها وابنَها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد، فرجعوا.

يرزقه الشهادة»[١]، فأخذ سلاحه وخرج، وأقبل على القبلة وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني خائباً إلى أهلي، فقُتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده! إن منكم من لو أقسم على الله لأبرّه، منهم عَمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ الجنة بعرجته»[٢]؛ أي: كشف له عن حاله يوم القيامة. اهـ[٣].

قوله: (لتدفنهم بالمدينة): قال الحلبي: حملتهم هند على بعير لها تريد أن تدفنهم بالمدينة، فلقيتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد خرجت في نسوة يستروحن الخبر، فقالت لها عائشة ـ رضي الله عنها ـ: جاء خبر الجيش؟ فقالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصالح، وكل مصيبة بعده جَلَل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ثم قالت لها: من هؤلاء؟ قالت: أخي عبدالله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنهم ـ، فبرك بهم البعير، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك، وإن وجه إلى أرض أحد، نزع، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته، فقال: «إن الجمل مأمور»، فقبرهم بأحد، وقال لهند: «يا هند! ما زالت الملائكة مظلةً على أخيك من لَدُنْ قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن». اهـ[٤].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٩) عن أشياخ من بني سلمة.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٢٤) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٨).

وقتل سعدُ بن الربيع، وأرسل عليه الصلاة والسلام مَن يأتيه بخبره، فوجده بين القتلى، وبه رمق، فقيل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنك، فقال لمُبلغه: قُل لقومي: يقولُ لكم سعدُ بن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فو الله! ما لكم عند الله عذر.

قوله: (وقتل سعد بن الربيع): في الحلبي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعدُ بنُ الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فإني رأيت الأسنة قد أُشرعت إليه»، فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله، فقال للمرسل: «إن رأيت سعد بن الربيع، فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تجدك؟» فنظر فوجده جريحاً وبه رمق ـ أي: بقيت روحه ـ فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: أنا في الأموات، قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وإني قد أنفذت مقاتلي، فأبلغْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيّاً عن أمته، وأبلغْ قومَك عني السلام، وقل لهم: إن سعدَ بنَ الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره[1].

وفي رواية قال له ما ذكره المؤلف هنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحمه الله، نصح لله ورسوله حيّاً وميتاً». اهـ[2].

---

(١) أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٥٩٠) عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ. ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٨٥) عن محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن المازني أحد بني النجار مختصراً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٢)، والخبر المذكور رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٤١٤) عن يحيى بن سعيد.

وقُتل أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك؛ فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال: يا قوم! ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم، فلم يزل يقاتل حتى قُتل ـ رضي الله عنه ـ.

ومَثَّلتْ قريش بقتلى أُحُد، حتى إن هنداً زوجَ أبي سفيان بقرت بطنَ حمزة، وأخذت كبده لتأكلها، فلاكتها ثم أرسلتها، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء. ثم إن أبا سفيان صَعِد الجبل، ونادى بأعلى صوته: نِعْمَتْ فعالِ، . . . .

قوله: (موتوا على ما مات عليه إخوانكم): في الحلبي: قال لهم: موتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كما قال المؤلف كان سمع بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ ثم إنه استقبل القوم، وقال لسعد بن معاذ: هذه الجنة وربِّ الكعبة أجدُ ريحها دون أحد، وقاتل ـ رضي الله عنه ـ حتى قُتل، ووجدوا فيه بضعاً وثمانين جراحة؛ ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ولما قُتل، مثل به المشركون، فما عرفته أختُه إلا ببنانه، قال ابن أخيه أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ: لما نزل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] الآية، قلنا: إن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين ـ رضي الله عنهم ـ. اهـ[1].

قوله: (نعمت فعال): صوابه: أنعمتْ؛ كما في ابن هشام والحلبي والدحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩).

إن الحربَ سِجالٌ، يومٌ بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل، ثم قال: إنكم ستجدون في قتلاكم مُثْلَةً لم آمر بها ولم تَسُؤْني.

ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة، ولم يُعَرِّجوا على المدينة، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلكَ اليوم، وإلا، لم يكن بدٌّ من تعقب المشركين لهم حتى يُغِيروا على مدينتهم. ثم تفقَّد عليه الصلاة والسلام القتلى، وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً، ودفن الشهداء كلهم بأُحُد، . . .

قال الدحلاني: وهو بسكون التاء؛ أي: أجابت بنعم في فعلها البالغ، فـ (فعالِ) معدول عن فاعلة صيغة مبالغة؛ يعني: بالغت هذه الفعلة ـ يعني: الوقعة ـ. اهـ[1].

وقوله: (إن الحرب سجال. . .) إلخ: تتمة العبارة كما في الحلبي والدحلاني: حنظلة بحنظلة، يوم أحد بيوم بدر، اعْلُ هُبَل[2].

وسبب قوله ذلك: أنه حين أراد الخروج، كتب على سهم: نعم، وعلى الآخر: لا، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم (نعم)، فتوجه إلى أحد، فلذا قال: اعل هبل؛ أي: زد علوّاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «أجبه»، فقال: الله أعلى وأجل. اهـ[3].

قوله: (ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة. . .) إلخ: قال الحلبي: بعث

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٥٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧٠) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه. وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد؛ لما كان عليه المسلمون من تعب، فكان يشقّ عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة، سخر منهم اليهود والمنافقون، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء، وقالوا لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾[آل عمران: ١٥٦][(١)].

رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ وقيل: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ فقال: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ـ أي: جعلوها منقادةً بجانبهم ـ وامتطَوا الإبل ـ أي: ركبوا مطاها؛ أي: ظهورها ـ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده! إن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم». قال علي كرم الله وجهه ـ أو سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة[(٢)]؛ أي: بعد أن تشاوروا في نهب المدينة، فأشار عليهم صفوان بن أمية أن لا تفعلوا، وقال لهم: فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. اهـ[(٣)].

قوله: (وأظهروا ما في قلوبهم): قال الحلبي: صاروا يظهرون أقبح القول، ومنه: ما محمد إلا طالبُ ملك، ما أصيب بمثل هذا نبي قط؛ أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٤٠ ـ ٢٥٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨ ـ ٥٢٥).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

وهذا الذي ابتُلي به المسلمون درس مهمٌّ لهم، يذكِّرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأُصيبوا، أولهما: طاعة الرسول في أمره؛ فقد قال للرماة: لا تبرحوا مكانكم إن نحن نُصرنا أو قُهرنا، فعصَوْا أمره ونزلوا. والثاني: أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة، وهؤلاء أرادوا عَرَض الدنيا، والتهَوا بالغنائم حتى عُوقبوا، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فَصَّلَتْ غزوة أُحُد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ . . . .

واستأذنه صلى الله عليه وسلم عمرُ في قتل هؤلاء المنافقين، فقال: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قال: بلى، ولكن تعوذاً من السيف، فقد بان أمرهم، وأبدى الله تعالى أضغانهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «نُهيت عن قتل من أظهر ذلك». اه[1].

قوله في الآية: (﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾)؛ أي: وَعْدَه إياهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة؛ فإن المشركين لما أقبلوا، جعل الرماة يرشقونهم، والباقي[2] يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

(﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾) تقتلونهم، من حَسَّه: إذا أبطل حِسَّه.

(﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾): جَبُنْتُم وضعف رأيكم، أو مِلْتم إلى الغنيمة؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٤٩)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١١٣ ـ ١١٤) عن قتادة بمعناه، ولكن في غزوة أخرى.

(٢) في «تفسير البيضاوي»: «والباقون».

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٥٢]. **فسبب هذا الابتلاء التنازع، فينبغي الاتفاق، والفشل، فينبغي الثبات، والعصيان، فينبغي طاعة الرئيس، نسأل الله التوفيق.**

غزوة حمراء الأسد

فإن الحرص من ضعف العقل.

(﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾): يعني: اختلافَ الرماة حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: فما موقفنا هاهنا؟ وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول، فثبت مكانه أميرُهم في نفر دون العشرة، ونفر الباقون للنهب، وهو المعني بقوله: ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، وهو امتحنكم.

(﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾): وهم التاركون المركز للغنيمة.

(﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾): وهم الثابتون محافظةً على أمر الرسول عليه السلام.

(﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾): ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم.

(﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾) على المصائب، ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها.

(﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾) تفضلاً، ولِما علم من ندمهم على المخالفة.

(﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾) يتفضل عليهم بالعفو. اهـ. بيضاوي[1].

غزوة حمراء الأسد

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، أصبح حَذِراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم، . . . .

قوله: (أصبح حذراً من رجوع المشركين): قال السيد الدحلاني: قال الواقدي: باتت وجوه الأنصار على بابه صلى الله عليه وسلم خوفاً من كثرة العدو، فلما طلع الفجر، وأذن بلال بالصلاة، جاء عبدُالله بنُ عمرٍو المزنيُّ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد أقبل من عند أهله بِمَلَلٍ ـ اسم موضع قرب المدينة ـ إذا قريش قد نزلوا، فسمعهم يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي، وصفوانُ بن أمية يأبى ذلك عليهم، ويقول: لا تفعلوا؛ فإن القوم قد غضبوا، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف عن الخروج، فارجعوا والدولة لكم؛ فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أرشدهم صفوان، وما كان برشيد»(١).

وحينئذ دعا صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فذكر لهما ما أخبر به المزني، فقالا: يا رسول الله! اطلب العدو، لا يقتحمون على الذرية ـ أي: يدخلون ـ ، فلما صلى الصبح، ندب الناس، وأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج(٢).

ثم قال: روى النسائي والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسَ ما صنعتم، ارجعوا، فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فندب المسلمين فانتدبوا، فخرج بهم(٣).

---

(١) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٥٥٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٤)، والخبر المذكور =

فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وألّا يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرح، فضمَّدوا جراحاتهم، وخرجوا واللواءُ معقودٌ لم يُحَلَّ، فأعطاه عليَّ بنَ أبي طالب، وولى على المدينة ابنَ أم مكتوم، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراءَ الأسد، وقد كان ما ظنه الرسول صلى الله عليه وسلم حقاً؛ فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر، . . . . . .

قوله: (وأن لا يخرج إلا من خرج معه بالأمس): قال الدحلاني: أراد بذلك إظهارَ الشدة للعدو، فيعلمون من خروجهم مع كثرة جراحاتهم أنهم على غاية من القوة والرسوخ في الإيمان وحبِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأراد أيضاً الزيادة في تعظيم من شهد أحداً، وأيضاً: خاف اختلاط المنافقين بهم، فيمنون عليهم بخروجهم معهم، وهم مسلمون ظاهراً، فلا يمكنه منعهم. اهـ[1].

قوله: (القرح): الجراح: ـ بفتح القاف وضمها ـ، وقيل: القَرح ـ بالفتح ـ: الجراح، ـ وبالضم ـ: ألم الجراح.

قوله: (فضمدوا جراحاتهم)؛ أي: شدوها بالضمادة، وهي العصابة، و(ضمد) من باب ضرب.

قوله: (شن الغارة): في «القاموس»: شن الغارة عليهم: صبها من كل وجه. اهـ[2].

= رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز، وهو ثقة.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شنن).

فأصرّوا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروجُ الرسول صلى الله عليه وسلم في أثرهم، ظنوا أنه قد حضر معه مَنْ لم يحضر بالأمس، . . . .

قوله: (ولكن لما بلغهم خروجُ الرسول صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ:
قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: إن النبي صلى الله عليه وسلم لقي بحمراء الأسد معبدَ بنَ أبي معبدٍ الخزاعيَّ، وهو يومئذ مشرك، وأسلم بعدُ ـ رضي الله عنه ـ، وكان بنو خزاعة عَيبةَ نصح للنبي صلى الله عليه وسلم، مسلمُهم وكافرُهم، كلهم يحبونه صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد! والله! لقد عز علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت لغيرك، ثم مضى حتى أتى أبا سفيان وأصحابه وهم بالروحاء، وقد أجمعوا على الرجوع، وقالوا: أصبنا في أحد أصحاب محمد وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ عليهم فلنفرغَنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك؟ قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثلَه قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويلك! ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، فملئوا رعباً من ذلك، ورجعوا إلى مكة. اهـ[1].

والعيبة ـ بفتح العين والباء وسكون الياء ـ. في «القاموس»: العيبة: زبيل من أَدَم، وما يجعل فيه الثياب، ومن الرجل: موضع سره[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٤ ـ ٧٥)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عيب).

وألقى الله الرعب في قلوبهم، فتمادوا في سيرهم إلى مكة، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر، الذي مَنَّ عليه ببدر بعد أن تعهد ألّا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد! أقِلْني، وامنُن عليّ، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألّا أعود لمثل ما فعلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا والله! لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعتُ محمداً مرتين، لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين، . . . .

والمعنى هنا: أن أفئدتهم ممتلئة نصحاً.

قوله: (فتمادوا في سيرهم. . .) إلخ؛ أي: أبعدوا فيه.

قوله: (وظفر عليه السلام. . .) إلخ: سبب الظفر به: أن المشركين لما نزلوا بحمراء الأسد، تركوه نائماً، فاستمر حتى ارتفع النهار، وكان الذي أخذه عاصم بن ثابت، وما أسر أحد من المشركين غيرُه في تلك الوقعة، وقيل: أسره عمير بن عبدالله. اهـ[1].

قوله: (والله لا تمسح عارضيك): العارض: الشعر الذي ينبت على عرض اللحية فوق الذقن.

ويظهر أنه كانت عادة العرب إذا أراد أن يحدث أحدهم حديثاً على طريق التفاخر والمباهاة، مسح عارضيه بيده، والمعنى ـ والله أعلم ـ: إني قاتلك لا محالة، ولا أدع لك مجالاً لأن تمسح عارضيك وتقول متفاخراً: خدعت محمداً مرتين.

قوله: (لا يلدغ المؤمن. . .) إلخ: وفي رواية: «لا يلسع»[2]؛ أي: لا يدهى المؤمن من جهة واحدة مرتين؛ فإنه بالأولى يعتبر.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

اضرب عنقه يا زبير»[1]، فضرب عنقه، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف؛ فإن الرجل الذي لا يحترز مما أُصيب منه ليس بعاقل، فلا بدّ من الحزم لإقامة دعائم المُلْك[2].

حوادث [السنة الثالثة]

وفي هذه السنة زوَّج عليه الصلاة والسلام بنته أُم كلثوم لعثمانَ بنِ عفانَ بعد أن ماتت رقيةُ عنده، ولذلك كان يُسَمَّى: ذا النورين.

وفيها تزوَّج عليه الصلاة والسلام حفصةَ بنتَ عمر بن الخطاب، . . . .

قال الحلبي: والمعنى: أنه ينبغي للمرء أن يستعمل الحزم، وهذا المثل لم يسمع من غيره صلى الله عليه وسلم، ومورده: أن شخصاً جرد سيفه وقصد النبيَّ صلى الله عليه وسلم فضربه ليقتله، فأخطأت الضربة، فقال: كنت مازحاً يا محمد، فعفا عنه، ثم عاد لمثل ذلك مرة أخرى، وقال مثل ذلك، فأمر صلى الله عليه وسلم بقتله، وقال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». اهـ[3].

حوادث [السنة الثالثة]

قوله: (وتزوج عليه السلام حفصة. . .) إلخ: قال الحلبي: كان ذلك في شعبان من السنة الثالثة لما انقضت عِدةُ وفاة زوجها خنيس بن حذافة من شهداء بدر بعد أن عرضها عمر على أبي بكر فلم يجبه لشيء، وعرضها على عثمان فلم

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٥٥) عن أبي عبيدة بنحوه.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥)، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وأُمُّها أختُ عثمانَ بنِ مظعون، وكانت قبله تحت خُنيسِ بنِ حذافةَ السهميِّ ـ رضي الله عنه ـ، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينبَ بنتَ خزيمة الهلاليةَ من بني هلال بن عامر، كانت تدعى في الجاهلية: أُم المساكين؛ لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبدالله ابن جحش، فقُتل عنها بأُحُد، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها.

يجبه لشيء، فقال عمر: يا رسول الله! قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان»، فتزوج عثمان أم كلثوم، وتزوج صلى الله عليه وسلم حفصة. اهـ[1].

وخنيس: ـ بضم الخاء وفتح النون ـ، وحذافة: ـ بضم الحاء ـ.

قوله: (وأمها أخت عثمان بن مظعون): تقدم ذكر وفاة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في السنة الأولى، وهو أخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة.

قوله: (خنيس بن حذافة): قال العلامة الجبريني: هو ـ بخاء مضمومة ونون مفتوحة ـ، وحذافة ـ بحاء مهملة مضمومة ـ كان من السابقين، هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى المدينة، وشهد بدراً، وأصابته جراحة يوم أحد، فمات منها بالمدينة، وقيل: بعد بدر، وجزم ابن سعد بأنه مات بعد قدومه عليه السلام المدينةَ من بدر، وبه جزم ابنُ سيد الناس. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (عبدالله بن جحش): وهو من البدريين.

قال العلامة الجبريني في «شرح أسماء أهل بدر»: إنه كان من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وكان

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ص: ٢٤).

وفيها ولد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ[1].

وفيها حُرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج؛ لِما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها، فيصعب إذاً تحريمُها دفعة واحدة، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تُنَفِّر عنها؛ لأن المنكر إذا أُسند تحريمُه لحادثةٍ أَقرّ الجميع على تقبيحها، كان ذلك أشدّ تأثيراً في النفس.

يعرف بالمُجَدَّع في الله؛ لأنه مُثل به يوم أحد، وقطع أنفه وأذنه، وذلك أنه قال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: ألا تأتي فندعوَ الله عز وجل؟ فخلَوَا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب! إذا لقيت العدو غداً، فلقِّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَرَدُه ـ أي: غضبه ـ فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر فأقتله، وآخذ سلبه، فأمَّنَ عبدالله بن جحش، ثم قال عبدالله بن جحش: يا رب! ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك، فيقتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتُك قلتَ: يا عبدالله! فيما جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: كانت دعوة عبدالله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقان في خيط، ودفن هو وحمزة في قبر واحد. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (وفيها حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج): قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية: نزلت في الخمر أربع آيات: نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣، ٣/ ٥٠٠).

(٢) انظر: «شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ص: ٤٧)، والخبر المذكور أورده محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى» (ص: ٢٥٤ ـ ٢٥٥) عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

فأولُ ما بُيِّن فيها قوله تعالى في سورة البقـرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢١٩]. . . . .

وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النحل: ٦٧]، وكـان المسـلمون يشـربونها وهي حلال لهم، ثم إن عمراً ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبـة للمال، فنـزل فيهـا قولـه تعـالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢١٩]، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فقام بعضهم يصلي فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبد مـا تعبـدون)، فنزلـت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء: ٤٣]، فقل من شربها، ثم اجتمع قوم من الأنصار، وفـيهم سـعد بـن أبـي وقاص، فلما سكروا، افتخـروا وتناشـدوا الأشعار حتى أنشد سعـد شعـراً فيـه هجاء للأنصار، فضربه أنصاري بلَحْي بعير، فشجه شجة موضـحة، فشـكا إلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شـافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائـدة: ٩١]، فقال عمـر: انتهينا يا رب.

قال القفال ـ رحمه الله ـ: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيـب: أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شـرب الخمـر، وكـان انتفـاعهم بـذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعةً واحدة، لشق ذلك عليهم، فلا جرم اسـتعمل فـي التحريم هذا التدريج، وهذا الرفق[1].

قوله: (﴿وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾): هو القمار.

قوله: (﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾): قال الفخر: الإثم الكبير فيه أمور:

أحدها: أن عقل الإنسان أشرفُ صفاتـه، والخمر عدوُّ العقل، وكـل من

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٣٥).

فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجسم، ولما شربها بعض المسلمين وخلَّط في القراءة حُرِّمت الصَّلاة على السكران، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء: ٤٣]، ولما حدثَ من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم، حُرِّمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . . .

كان عدو الأشرف فهو أخس، فيلزم أن يكون شرب الخمر أخسَّ الأمور.

وثانيها: ما ذكره الله تعالى من ايقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

وأطال الكلام ثمةَ، ومما قاله بالجملة: فالخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل، حصلت القبائح بأسرها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الخمر أم الخبائث»[1].

وأما الميسر، فالإثم فيه أنه يفضي إلى العداوة أيضاً، ولأن صاحبه إذا أخذ ماله مجاناً أبغضه جدّاً، وهو أيضاً يشغل عن ذكر ربه وعن الصلاة.

وأما المنافع في الخمر، فإنها تقوي البدن، وتسلي المحزون، وتشجع الجبان، وكانت مورد تجارة لهم، وأما المنفعة التي كانت لهم من الميسر؛ فلأن ما يحصِّله أحدُهم ولو كان مئة بعير، كان يصرفه إلى المحتاجين، فيكتسب منه المدح والثناء[2].

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾) إلخ الآية: أكد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر الجملة بـ (إنما)، وقرنها بعبادة الأصنام، ومنه الحديث:

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٤٧) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٤٠ ـ ٤١).

﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠ ـ ٩١][1].

وقد أجاب المسلمين على ذلك بقولهم انتهينا، فليجب المسلمون الآن.

«شارب الخمر كعابد الوثن»[2]، وجعلهما من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت، وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خساراً.

وقوله: (﴿رِجْسٌ﴾)؛ أي: نجس، أو خبيثٌ مستقذر.

وقوله: (﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾) يعني: من تزيينه وإغوائه ودعائه إياكم إليها، وليس المراد أنها من عمل يديه.

وقوله: (﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾) الضمير يرجع إلى الرجس، أو إلى عمل الشيطان، أو إلى المذكور.

وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً، ثم أفردها آخراً؛ لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطَوْنه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك، فكأنه لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر، ثم أفردهما بالذكر؛ ليعلم أنهما المقصود بالذكر. اهـ. نسفي وخازن[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي ٢/ ٥٥٦.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٢٣٨٢) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٧٠): وفيه فطر بن خليفة، وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر.

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).




السَّنة الرَّابعة

سرية [أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد]

في بدء السنة الرابعة بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن طُليحة وسلمة ابنَي خويلدٍ الأسديين يدعوان قومَهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام، فدعا أبا سلمةَ بنَ عبد الأسد المخزومي، وعقدَ له لواءً، وقال له: «سِرْ حتى تنزل أرضَ بني أسدِ بنِ خزيمةَ، فَأَغِرْ عليهم»، وأرسلَ معه رجالاً، فسار في هلال المحرم حتى بلغ قَطَناً، فأغار عليهم، فهربوا من منازلهم، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها، ولم يَلْقَ حرباً، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه[1].

السنة الرابعة

سرية

قوله: (وأرسل معه رجالاً): قال السيد الدحلاني: كان معه مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم: أبو عبيدة، وسعد، وأسيد بن حضير، وأبو نائلة[2].

قوله: (حتى بلغ قطناً) قال الدحلاني: قطن ـ بفتح القاف والطاء وبالنون ـ: جبل بناحية فَيْد ـ بفتح الفاء وسكون الياء وبالدال المهملة آخره ـ، وهو اسم ماء

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٢٠) عن سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة من ولد أبي سلمة بن عبد الأسد، وغيره أيضاً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٧).

سرية [عبدالله بن أُنيس الجهني]

وفي بدئها أيضاً بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبَـيْح الهُذلي المقيم بعُرَنَة يجمع الجموعَ لحربه، فأرسل له عبدَالله بنَ أُنَـيْسٍ الجهنـي وحدَه ليقتله، فاستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يَتَقَوَّلَ حتـى يـتمكن، فأذن له، وقال: «انتسب لخزاعة»، فخرج لخمـسٍ خَلَـونَ مـن المحـرم، ولما وصل إليه، قال له سفيان: ممّن الرجل؟ قال: من خُزاعـة، سـمعتُ بجمعك لمحمد، فجئت لأكون معك، فقال له: أجل، إني لفي الجمع لـه، فمشى عبدالله معه، وحدَّثه وسفيانُ يستحلي حديثه، فلما انتهى إلـى خِبائـه، تفرق الناس عنه، فجلس معه عبدالله حتى نام، فقام وقتله، ثم ارتحل حتـى أتى المدينة، ولم يلحقه الطلب، وكفى الله المؤمنين القتال[1].

لبني أسد بنجد. اهـ[2].

سرية

قوله: (يجمع الجموع): قال الدحلاني: لما بلغه صلى الله عليه وسلم أنه جمـع الجموع لحربة، قـال لعبدالله: «ائته فاقتله»، فقال: صفـه لي يا رسول الله حتى أعرفه، قال: «إذا رأيته هِبْتَه وفرقْتَ منه، ووجدتَ لـه قشـعريرة، وذكـرتَ الشيطان»، قال عبدالله: وكنت لا أهاب الرجال، فقلت: يا رسول الله! ما فرقت من شيء قط! فقال: «آية ما بينك وبينه ذلك»، واستأذنته أن أقول، فقـال: «قـل ما بدا لك»، وقال: «انتسب لخزاعة».

فأخذت سيفي، وخرجت أعتزي لخزاعة، فلما وصلت إليه بعرنة، لقيته

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبي (٣/ ١٥٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٦ ـ ٧٧).

. . . .

يمشي ووراءه الأحابيش، فهبتُه وعرفته بنعت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: صدق الله وصدق رسوله، وقد دخل وقت العصر حين رأيته، فصليت وأنا أمشي وأومئ برأسي إيماءً، ثم دنوت منه، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، فجئت لأكون معك، قال: أجل إني لفي الجمع له، فمشيت معه وحدثته، فاستحلى حديثي، فقلت له: عجباً لما أحدَثَ محمدٌ من هذا الدين المحدث، فارقَ الآباء، وسفَّه أحلامهم، قال: إنه لم يلق أحداً يشبهني.

ثم مشيت معه وهو يتوكأ على عصاً يهدّ الأرض حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قرية منه وهم يُطيفون به، فقال: هلم يا أخا خزاعة، فدنوت منه، فقال: اجلس، قال: فجلست معه، حتى إذا نام الناس، اغتررته وقتلته، وأخذت رأسه، ثم أقبلت فصعِدْت جبلاً، ودخلت غاراً، وأقبل الطلب وأنا كامن في الغار، وضربت العنكبوت على الغار، وأقبل رجل معه إداوة ضخمة ونعلان في يده، وكنت حافياً، فوضع إداوته ونعليه، وجلس يبول قريباً من الغار، ثم قال لأصحابه: ليس أحد في الغار، فانصرفوا راجعين، فخرجت، فشربت ما في الإداوة، ولبست النعلين، ولم يرني أحد، فطلبهما صاحبهما بعد ذلك فلم يجدهما، فرجع إلى قومه.

وكنت أسير الليل وأتوارى النهار خوفاً من الطلب أن يدركني حتى قدمت المدينة، فوجدته صلى الله عليه وسلم بالمسجد، فقال صلى الله عليه وسلم: «أفلح الوجه»، قلت: أفلح وجهُك يا رسول الله، ووضعت الرأس بين يديه، وأخبرته خبري، فدفع إليّ عصاً، وقال: تخصَّر بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل، فكانت العصا عنده، حتى إذا حضرته الوفاة، أوصى أن يدرجوها في أكفانه، ففعلوا[1].

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٠) بنحوه.

سرية [عامر بن ثابت الأنصاري]

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش، مع رهط عَضَل والقَارَةِ، الذين جاؤوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يطلبون من يفقِّههم في الدين، وأمَّر عليهم عاصمَ بنَ ثابتٍ الأنصاري، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، حتى إذا كانوا بالرَّجيع، غدر بهم أولئك الرهط، ودلُّوا عليهم هذيلاً قومَ سفيانَ بنِ خالد الهذلي الذي كان قتله عبدُالله بنُ أنيس، . . . .

والتخصُّر: الاتكاء على قضيب ونحوه.

قال موسى بن عقبة: وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتل عبدالله ابنِ أنيس لسفيان بن خالد قبل قدوم عبدالله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ. اهـ[1].

السرية المسماة بيوم الرجيع

قوله: (سرية): عنونها ابنُ هشام بـ: ذكر يوم الرجيع، وقال: إنها كانت سنة ثلاث[2].

القصة أيضاً مبسوطة في الخازن نقلاً عن الإمام البخاري[3].

قوله: (أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال): سبب إرساله هذه السرية: أن بني لحيان من هذيل بعد قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي مشوا إلى عضل والقارة، وهما قبيلتان من بني الهُون بن خزيمة، فجعلوا لهم إبلاً أن يكلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليهم نفراً من أصحابه، فقدم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٧ ـ ٧٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٢٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ١٣٧)، والخبر المشار إليه رواه البخاري (٤٠٨٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

فنفروا إليهم فيما يقرب من مئتي رامٍ، واقتفَوْا آثارهم حتى قربوا منهم، فلما أحسَّ بهم رجال السرية، لجؤوا إلى جبل هناك، فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهدُ ألّا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم، . . . . . .

سبعة نفر مظهرين الإسلام، فقالوا: يا رسول الله! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم ستة من أصحابه ـ وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية، وفي البخاري: كانوا عشرة[1]، كما ذكره المؤلف هنا ـ وأمّر عليهم عاصمَ بنَ ثابت، وقيل: مرثدَ بن أبي مرثد، وتمامه في الدحلانية[2].

وهذه العبارة أوضحُ من عبارة المؤلف وأولى؛ لأن من أولها يستفاد أن مجيء هؤلاء كان مكراً وخديعة، بخلاف عبارة المؤلف، فإن ذلك لا يستفاد إلا من آخرها، وعاصمُ بن ثابت هو جدُّ عاصمِ بن عمر بن الخطاب.

قوله: (لجؤوا إلى الجبل): الذي في الدحلانية: لما أتتهم رجال هذيل، وهم نحو مئتي رجل، أخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم[3].

قوله: (فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهد. . .) إلخ: قال الدحلاني: إنهم قالوا لهم ذلك لأنهم يريدون أن يسلموهم لكفار قريش، ويأخذوا في مقابلتهم مالاً؛ لعلمهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يؤتَوا بأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يمثلون به ويقتلونه بمن قُتل منهم ببدر وأُحد[4].

قوله: (فنزل إليهم ثلاثة): هم خُبيب بن عديّ الأوسيُّ، وزيدُ بنُ الدَّثِنَة وعبدالله بن طارق.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

وقاتلهم الباقون، ومعهم عاصمٌ غيرَ راضين بالنزول في ذمة مشرك. ولما رأى الثلاثة الذين سلَّموا عينَ الغدر، امتنع أحدُهم فقتلوه، وأما الاثنان، فباعوهما بمكة ممّن كان له ثأر عند المسلمين، وهناك قُتِلا. وقد قال أحدهما، وهو خُبيب بنُ عديّ حين أرادوا قتله:

قوله: (وقاتلهم الباقون): هم عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وقد قاتلوا حتى قتلوا، ولم يذكر ذلك المؤلف، وكان الأولى ذكره.

قوله: (امتنع أحدهم حتى قتلوه): هو عبدالله بن طارق، فإنه قال لهم: لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء ـ يعني القتلى ـ أسوةً، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه.

قوله: (وأما الاثنان. . .) إلخ: هما خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وقد باعهما جامع وزهير الهذليان بأسيرين من هذيل بمكة، وقيل: باعوا خبيباً بأمةٍ سوداء، والذي اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل؛ لأن خبيباً هو الذي قتل عامر ابن نوفل يوم بدر، واشترى زيدَ بن الدثنة صفوانُ بن أمية، وكان شراؤهما في ذي القعدة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، فقتلوا زيداً وخبيباً. اهـ. دحلاني[1].

قال الزرقاني في «شرح المواهب»: روي أن قريشاً طلبوا جماعة ممن قتل آباؤهم وأقرباؤهم ببدر، فاجتمع أربعون بأيديهم الرماح والحراب، وقالوا لهم: هذا الرجل قتل آباءكم، فطعنوه بالرماح والحراب، فتحرك على الخشبة، فانقلب وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته، فلم يستطع أحد أن يحوله[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٢/ ٤٨٩).

وَلَسْتُ أُبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً على أَيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبارِكْ على أَوصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

قوله: **(أوصال شلو ممزع)** الأوصال: المفاصل، أو مجتمَع العظام[2].

والشلو ـ بالكسر ـ: الجسد من كل شيء[3].

وممزع: مفرق، والتمزيع: التفريق. اهـ. قاموس[4].

قال الدحلاني: قد ذكر ابنُ إسحاق زيادة في الشعر المتقدم، وكذا الواقدي وغيره، وهذا لفظهم:

لقد جمع الأحزابُ حولي وألَّبُوا قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مجمَعِ
وكلُّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ عليَّ لأني في وثاقٍ مضيع
وقد جَمَّعوا أبناءهم ونساءهم وقُرِّبت من جذعٍ طويلٍ ممنَّعِ
إلى الله أشكو غُربتي ثم كُربتي وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارِكْ على أوصال شلوٍ ممزع
وقد خيروني[5] الكفرَ والموتُ دونَه وقد هَمَلَتْ عيناي من غير مجزَعِ
وما بي حذار الموتِ إني لميتٌ ولكنْ حذاري جَحْمُ نارٍ ملفع
ووالله ما أخشى إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مضجعي
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: وصل).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شلو).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مزع).

(٥) في الأصل: «خيروا في»، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٠).

سرية [القُرَّاء]

وفي صَفَر وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو براء[1] عامرُ. . .

قال الحافظ ابن حجر: وفي هذا: إنشادُ الشعر عند الموت، وقوة نفس خبيب، وشدة قوته في دينه[2].

وكان خبيب هو الذي سَنَّ لكل مسلم قُتل صبراً الصلاةَ؛ لأنه فعل ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستحسن ذلك من فعله، وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك.

وعن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أرادوا قتل خبيب، ووضعوا فيه السلاح والرماح والحراب وهو مصلوب، نادَوْه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله! ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه[3].

وقيل: إن زيدَ بنَ الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله، فأجابهم بمثل ذلك، فقال أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً. اهـ. ملخصاً[4].

سرية

قوله: (سرية): تسمى هذه السرية: سريةَ بئر معونة، وسريةَ القراء، وسرية المنذر بن عمرو؛ لأنه كان رئيسها، وكانت على رأس سنة وثلاثين شهراً من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحُد.

قوله: (أبو عامر)[5] الصواب: أبو براء عامرُ بنُ مالكٍ كما في الدحلاني

---

(١) سقطت من «نور اليقين» (المطبعة الجامعة)، والمثبت من طبعة دار الإيمان.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٣٨٥).

(٣) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٢ ـ ٨٣)، وقول أبي سفيان رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٣٤٣).

(٥) تقدمت الإشارة إلى السقط الحاصل في نسخة المتن.

ابنُ مالكٍ مُلاعِبُ الأسِنّة، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام، فلم يُسْلم ولم يبعد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، ولو بعثتَ معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد». فقال أبو براء عامر: أنا لهم جار[1].

فأرسل معه المنذرَ بنَ عمرٍو في سبعين من أصحابه كانوا يُسَمَّون: القرَّاء؛ لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، . . . .

وابن هشام[2].

قوله: (أنا لهم جار)؛ أي: هم في ذمامي وعهدي وجواري. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (كانوا يسمون: القراء): عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: كانوا يشترون الطعام لأهل الصفة، ويأتون به إلى حُجَر أزواجه صلى الله عليه وسلم، ويتدارسون القرآن بالليل ويصلون. اهـ. دحلاني[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٧) عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيره من أهل العلم.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٧).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥)، والخبر المذكور رواه مسلم (٦٧٧) بلفظ: فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القراء، فيهم خالي حرام، يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فبعثوا حَرَام بنَ مِلحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيدِ بني عامر، فلما وصل إليه، لم يلتفت إلى الكتاب، بل عدا على حَرَام فقتله، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابَه من بني عامر، فلم يرضوا أن يخفروا جوارَ ملاعبِ الأسنة، فاستصرخ عليهم قبائلَ من بني سُليم، وهم رِعْلٌ وذَكوان. . . . .

قوله: (عامر بن الطفيل): قال الدحلاني: هو ابن أخي أبي براء، ومات كافراً بالإجماع، وليس هو عامر بن الطفيل الأسلمي الصحابي ـ رضي الله عنه ـ[١].

قوله: (بل عدا على حرام فقتله): قال الدحلاني: وفي رواية الطبري: فخرج حرام فقال: يا أهل بئر معونة! إني رسولُ رسولِ الله إليكم، فآمِنوا بالله ورسوله، فخرج رجل برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر[٢].

وفي الصحيح: فجعل يحدثهم، فأومؤوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه بالرمح، فقال: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة[٣].

قال ابن إسحاق: وهذا الذي طعنه هو عامرُ بن الطفيل. اهـ[٤].

قوله: (أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة)؛ أي: ينقضوا عهده وذمامه.

قوله: (سُليم): ـ بضم السين وفتح اللام ـ.

وقوله: (رعل وذكوان): هما قبيلتان من سليم، و(رعل): ـ بكسر الراء

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٨٢ ـ ٨٣) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه البخاري (٤٠٩١)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

وعُصَيَّة، فأجابوا وذهبوا معه، حتى إذا التقوا بالقرَّاء، أحاطوا بهم، وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يُجْدِهم نفعاً؛ لقلّة عددهم وكثرةِ عدوهم، ولم ينجُ إلا كعب بن زيد، وقع بين القتلى حتى ظُنَّ أنه منهم، وعمرو بن أمية كان في سَرْح القوم. وَأُبْلِغَ عليه الصلاة والسلام خبرَ القراء، فخطب في أصحابه، وكان فيما قال: «إن إخوانكم قد لَقُوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا بلِّغ قومنا أنّا قد لقينا ربنا، فرضينا عنه ورضي عنّا»[1].

وسكون العين ـ، و(ذكوان): ـ بفتح الذال وسكون الكاف ـ كما ضبطهما في «القاموس» في مادة (رعل)[2].

و**(عُصَيَّة)**: ـ بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء ـ.

قوله: (كعب بن زيد)؛ أي: الأنصاري الخزرجي البدري ـ رضي الله عنه ـ؛ فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً بإصابة سهم. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وعمرو بن أمية)؛ أي: الضمري.

قال ابن إسحاق: كان عمرو في سرح القوم ـ أي: في رعي غنمهم ـ هو ورجل من الأنصار، وهو المنذر بن محمود بن عقبة، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطيرُ تحوم على المعسكر، فقالا: والله! إن لهذه الطير شأناً، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، والخيلُ التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فقال

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٩٣، ١٠٢٩٤) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رعل).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

. . . .

الأنصاري: لكني ما كنت لأرغبَ بنفسي عن موطنٍ قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل، وأما عمرو، فأسروه، ثم أخذه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته ـ أي: الشعر المجاور لها ـ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه[1].

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: جاء خبرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام في تلك الليلة، فقال: «هذا سببه عمل أبي براء حيث أخذهم في جواره، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء، فمات عقب ذلك أسفاً على ما صنع ابنُ أخيه عامرُ بن الطفيل[2].

وقال حسان ـ رضي الله عنه ـ لربيعة بن عامر يحرضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا مَنْ مبلغٌ عني ربيعاً ... بما قد أحدث[3] الحِدثان[4] بعدي

أبوك أبو الفعال أبو براء ... وخالك ماجدٌ حكمُ بنُ سعدٍ

بني أُم البنين ألمْ يَرُعْكُم ... وأنتم من ذوائبِ[5] أهلِ نجدِ

تحكم[6] عامرٌ بأبي براءٍ ... ليخفرَه وما خطأ كعمدِ

فلما بلغ ربيعةَ هذا الشعر، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أيغسلُ عن أبي هذه الغدرةَ أن أضربَ عامراً ضربة أو طعنة؟ قال:

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٨١) من طريق ابن إسحاق.

(٣) في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١): «فما أَحْدَثْتَ» بدل «بما قد أحدث».

(٤) في هامش الأصل: «الحدثان: بكسر الحاء: نوائب الدهر».

(٥) في هامش الأصل: «من أشرافهم وأعزائهم».

(٦) في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١): «تهكم».

وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد، فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، وأقام يدعو على الغادرين بهم. . . .

«نعم»، فرجع فضرب عامراً ضربة أشواه بها، فوثب عليه قومُه، فقالوا لعامر: اقتصّ، فقال: قد عفوت. اهـ. دحلاني[1].

وفي «السيرة الهشامية»: قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل، فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه فأشواه، ووقع عن قوسه، فقال: هذا عمل أبي براء، إن أمت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتى[2].

قوله: (في يوم واحد)؛ أي: ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين في دعاء واحد، ولهذا جمع البخاري القصتين في ترجمة واحدة حتى توهم بعضُهم أنها قصة واحدة، وليس كذلك، اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ؛ أي: لكونه لم يرسلهم لقتال، إنما هم مبلغون رسالة، وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لا تُقتل.

قوله: (وأقام يدعو على الغادرين. . .) إلخ: قال الزرقاني: لما أصيب أهل معونة، جاءت الحمى إليه صلى الله عليه وسلم، فقال لها: اذهبي إلى رعل وذكوان وعصية، فإنهم عصوا الله ورسوله، فأتتهم، فقتلت منهم سبعمئة رجل،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٦)، والخبر المذكور أورده ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٤٧٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٧)، وانظر: «صحيح البخاري» (٥/ ١٠٣)، وفيه: باب غزوة الرجيع، ورعل، وذكوان، وبئر معونة، وحديث عضل، والقارة، وعاصم بن ثابت، وخبيب وأصحابه.

شهراً في الصلاة[١].

غزوة بني النَّضِير

يا لله! ما أسوأ عاقبةَ الطيش؛ فقد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر، يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور، ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاءِ الخزرج، الذين كانوا يجاورون المدينة؛ فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كلٌّ منهم الآخرَ، ولكنْ بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً.

بكل رجل من المسلمين عشرة، وإنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك في كثير من الأشياء؛ لأنه سبق في علمه تعالى إكرامُهم بالشهادة. اهـ. دحلاني[٢].

غزوة بني النضير

قوله: (غزوة بني النضير): قيل: إنها كانت بعد غزوة بدر، وقيل: أُحد، وذهب ابن إسحاق إلى إنها كانت بعد بئر معونة[٣]، ورجَّح المحققون من الحفاظ قولَه، قالوا: وكانت في ربيع من السنة الرابعة.

وبنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود ينسبون إلى هارون أخي موسى عليهما السلام، سكنوا مع العرب ودخلوا فيهم. اهـ. دحلاني[٤].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٧ ـ ٨٨). وانظر: «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٢/ ٥٠٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩).

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضٌ من أصحابه في ديار بني النضير إذِ ائتمرَ جماعة منهم على قتله؛ بأن يأخذ أحدٌ منهم صخرةً ويلقيها عليه من علو، فأُطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم، فرجع وتبعه أصحابه، . . . .

قوله: (فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ديار بني النضير. . .) إلخ: سبب وجوده في ديارهم مع بعض أصحابه: أن عَمرو بنَ أمية الضمريَّ الذي تقدم ذكره لما عاد من أسره من عند عامر بن الطفيل إلى المدينة، قَتل في طريقه رجلين ذُكرا له أنهما من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم بذلك، فلما أتى المدينةَ، وأخبرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك، قال له: «لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنَّهما»[1]؛ أي: أُعطي ديتَهما؛ للجوار والعهد الذي عقده لهما.

ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعين بهم في دية ذينك الرجلين، وكان بين بني النضير وبني عامر عقدٌ وحلف، فيسهل الدفع فيهم لكون المدفوع لهم من حلفائهم، وكان في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وطلحة وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة. دحلاني[2].

قوله: (إذِ ائتمرَ جماعة منهم. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أتاهم عليه السلام يستعينهم في دية القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال منفرداً

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

ثم أرسل لهم محمدَ بنَ مسلمة يقول لهم: «اخرجوا من بلادي؛ فقد هممتم بما هممتم من الغدر»[١]؛ . . . .

ليس معه أحد من أصحابه إلا نحو العشرة، وكان صلى الله عليه وسلم قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم، فقالوا: من يعلو على هذا البيت، فيلقي هذه الصخرة عليه، فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء مع جبريل بما أراد القوم، فقام عليه الصلاة والسلام مُظهراً أنه يقضي حاجة؛ خوفاً أن يفطنوا له فيؤذوا أصحابه، ولذا ترك أصحابه في مجالسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة.

وبينما بنو النضير على إرادة إلقاء الحجر، إذ جاء رجل من اليهود فقال: ما تريدون؟ فذكروا له الأمر، فقال: أين محمد؟ قالوا: هذا محمد؛ يعنون تحت الجدار، فقال لهم: والله! لقد تركت محمداً داخل المدينة، فسُقِط في أيديهم ـ أي: ندموا ـ وقالوا: قد أُخْبِر بأمرنا.

ثم إن أصحابه صلى الله عليه وسلم استبطؤوه، فقاموا في طلبه، ولما انتهوا إليه قالوا: قمتَ ولم نشعر، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به[٢].

قوله: (ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة. . .) إلخ: قال الدحلاني: روى ابن سعد: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين هموا بغدره، وأعلمه الله بذلك، نهض إلى المدينة سريعاً، ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ: أن اخرجوا من بلدي، فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك، ضربت عنقه.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

إذِ الحزمُ كلُّ الحزم ألا يتهاون الإنسانُ مع مَنْ عُرف منه الغدر. فتهيأ القوم للرحيل، فأرسل لهم إخوانُهم المنافقون يقولون: لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١١ ـ ١٢].

فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون، واكتـرَوْا مـن أنـاس مـن أشـجعَ إبـلاً، فأرسل إليهم عبدُالله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي من العرب يدخلون حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم شيء، وتمدكم قريظةُ وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حييُّ بنُ أخطبَ فيما قاله عبدالله بن أبي، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك(١).

قوله: قوله تعالى: (﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ...﴾) إلخ: الآية في سورة الحشر، وأولها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ الآية.

وقوله: (﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾)؛ أي: في قتالكم وخذلانكم.

(﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾)؛ أي: من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

وقوله: (﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾): لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك، كما قال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا...﴾[الحشر: ١٢] إلخ الآية.

وقوله: (﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾)؛ أي: على الفرض والتقدير.

وقوله: (﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾)؛ أي: يخذلهم الله، ولا ينفعهم نصرة المنافقين

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩١ ـ ٩٢)، والخبر المذكور أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٥٧).

ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد، وتأخروا عن الجلاء، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم، فلما اجتمع الناس، خرج بهم، واستعمل على المدينة ابنَ أم مكتوم، وأعطى رايته عليًّا، وأما بنو النضير، فتحصنوا في حصونهم، وظنوا أنهم مانعتُهم من الله، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ستَّ ليالٍ، ثم أمر بقطع نخيلهم؛ ليكون أدعى إلى تسليمهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ولم يروا من عبدالله بنِ أُبَي مساعدةً، بل خذلهم، كما خذل بني قينقاع من قبلهم، . . . .

أو نفاقهم.

وفيه دليل على صحة النبوة، وإعجاز القرآن. اهـ. بيضاوي[1].

قوله: (فتحصنوا في حصونهم)؛ أي: كما قال الله تعالى مخبراً عنهم في سورة الحشر: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾[الحشر: ١٤].

قوله: (ثم أمر بقطع نخيلهم. . .) إلخ: في «السيرة الحلبية»: وعند ذلك قالوا: يا أبا القاسم! قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! ـ وفي رواية: قالوا: يا محمد! زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطعُ النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟ ـ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد، وأنتم تفسدون، وحينئذ وقع في نفوس بعض المؤمنين شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الحشر: ٥]؛ أي: في قولهم: إن ذلك من الفساد، قال بعضهم: جميع ما قطعوا وحرقوا ست نخلات. اهـ[2].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٤).

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجليهم، ويكفَّ عن دمائهم، وأن لهم ما حملت الإبلُ من أموالهم، إلا آلةَ الحرب، ففعل، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم؛ كيلا يسكنها المسلمون[1].

ولما سار اليهود، . . . .

قوله: (وأن لهم ما حملت الإبل)؛ أي: ما يمكنها حملُه.

قال الحلبي: وكانت ستَّ مئة بعير[2].

قوله: (إلا آلة الحرب): في الحلبية: تركوا (٥٠) درعاً، و(٥٠) بيضة، و(٣٤٠) سيفاً[3].

قوله: (وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم): قال الحلبي: وفي رواية: جعل المسلمون يهدمون بأيديهم من حصونهم، ويهدم الآخرون ما يليهم[4].

قوله: (ولما سار اليهود): قال الدحلاني: إنهم حملوا النساء والصبيان على الهوادج، وعليهم الديباجُ والحرير والخزُّ الأخضر والأحمر والمعصفر وحُلِيُّ الذهب والفضة، وأظهروا تجلداً عظيماً.

قال ابن إسحاق: خرجوا بالنساء والأبناء والأموال، ومعهم الدفوف والمزامير والقينات يعزفن خلفهم بزهاء وفخر لم يُر مثلُه. اهـ[5].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٥).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٥).

نزل بعضهم بخيبر، ومنهم أكابرُهم حُيَيُّ بنُ أخطب، وسلاّمُ بنُ أبي الحُقَيْق، ومنهم من سار إلى أَذْرِعَات بالشام، وأسلم منهم اثنان: يامينُ بنُ عمرو، وأبو سعدِ بنُ وهب، ولم يخمِّس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ من بني النضير؛ فإنه فيءٌ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ومثل هذا يكون لمعدّات الحرب، وللرسول، يطعم منه أهله، . . . .

قوله: **(نزل بعضهم بخيبر)**: قال الدحلاني: لحق أكثرُهم بخيبر، ودان لهم أهلها، فبقوا هناك إلى أن أهلكهم في غزوة خيبر كما سيأتي. اهـ[1].

قوله: **(ومنهم من سار إلى أذرعات)** قال الدحلاني: روى موسى بن عقبة: أنهم قالوا: إلى أين نخرج يا محمد؟ قال: إلى الحشر؛ يعني: أرض المحشر، وهي الشام[2].

قوله: **(وأسلم منهم اثنان: يامين، وأبو سعد)**: وبإسلامهما أحرزا أموالهما؛ أي: أمنا عليها.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل يامين: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به في شأني؟»؛ يعني: عمرو ابن جحاش الذي هم بإلقاء الحجر، فجعل يامين لرجل من قيس عشرة دنانير، وقيل: خمسة أوسق من ثمره على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله غيلة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: **(فإنه فيء)**؛ أي: غنيمة.

وقوله: **(لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب)**: الإيجاف: سرعة السير،

---

(1) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣).

(2) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣).

(3) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٦).

ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما قال تعالى في سورة الحشر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧]، فأعطى عليه الصلاة والسلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وردّوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم، ....

والركاب: الإبل التي تحمل القوم، وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم، طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في آية: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] أنهم لم يقطعوا إليها شقة، ولا نالوا مشقة، وإنما كان بنو النضير على ميلين من المدينة، فمشوا إليها مشياً، ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على جمل. اهـ. خازن(١).

قوله: (﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾)؛ أي: ما رَدَّ الله على رسوله.

وقوله: (﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾): الدولة: اسمُ الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، والمعنى: لئلا يكون الفيء الذي حقُّه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بُلْغة يعيشون بها جدًّا بين الأغنياء يتكاثرون به، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة، أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي بعده ما شاء، فجعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فيما أمره به. اهـ. نسفي وخازن(٢).

قوله: (فأعطى عليه السلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين...) إلخ: قال الدحلاني: لما غنم صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير، دعا ثابت بن قيس،

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢٦٨).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٣١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧٠).

وأخذ عليه الصلاة والسلام أرضاً يزرعها ويدّخِر منها قُوت أهله عاماً[1].

فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «الأنصار كلها»، فدعا الأوسَ والخزرج، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وإيثارهم إياهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم، قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وإن أحببتم أعطيتُهم وخرجوا من دياركم»، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار كلهم: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»[2].

وفي رواية: أنه قال للأنصار: «ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه خاصة»، فقالوا: بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، فقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، فوالله! ما مثلُنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّتِ

أَبَوْا أن يملُّونا وإن كان أُمُّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملَّتِ[3]

---

(١) رواه مسلم (١٧٥٧) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٢٠) عن أم العلاء.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٤ ـ ٩٥)، والخبر المذكور رواه البلاذري في «فتوح البلدان» (ص: ٣٤) عن أبي بكر بن عياش. وانظر: «ديوان طفيل الغنوي» (ص: ١٣٠).

غزوة ذات الرقاع

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه، وهم: بنو محارب، وبنو ثعلبة، فتجهَّز لهم، وخرج في سبع مئة مقاتل، وولّى على المدينة عثمانَ بنَ عفان، . . . .

قال الحلبي: ولما أعطى المهاجرين، أمرهم بردِّ ما كان للأنصار؛ لاستغنائهم عنهم، ولأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك، وإنما كانوا دفعوا لهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها. اهـ[١].

غزوة ذات الرقاع

قوله: (غزوة ذات الرقاع): سبب تسميتها بذات الرقاع: أنهم رقعوا فيها راياتهم.

وقيل: بشجرة في ذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع.

وذكر الدحلاني غير ذلك من الأقوال، ثم قال: قال السهيلي: وأصح الأقوال كلها: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، ونحن ستة نفر ـ أي: من الأشعريين ـ بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت[٢] قدماي، وسقطت أظفاري ـ أي: من الحفاء ـ ، فكنا نلفُّ الخِرق على أرجلنا، فسميت غزوة ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب من الخِرَق على أرجلنا. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠).

(٢) في الأصل: «أو نقبت»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري»، ومصدري التوثيق.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٦). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٣/ ٤٠١)، والحديث رواه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦).

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم، فلم يجدوا فيها أحداً غيرَ نسوة، فأخذهنّ، فبلغ الخبر رجالهم، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاؤوا للحرب، فتقارب الناسُ، وأخافَ بعضهم بعضاً. ولما حانت صلاة العصر، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلّون، صلى بالمسلمين صلاة الخوف، فألقى الله الرعبَ في قلوب الأعداء، وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم.

قوله: (ولم يزالوا سائرين): في الدحلاني: لم يزل صلى الله عليه وسلم سائراً حتى وصل إلى موضع يسمى: وادي الشقرة، وبَثَّ السرايا، فرجعوا إليه من الليل، وأخبروه أنهم لم يروا أحداً، فساروا حتى ترك نخلاً، وهو من نجد من أراضي غطفان، فلم يجد في مجالسهم إلا نسوة... إلخ ما في كلام المؤلف[1].

قوله: (صلى بالمسلمين صلاة الخوف...) إلخ: قال الحلبي: وكانت أولَ صلاة صلاها للخوف. اهـ[2].

أقول: وسبب حصول هذا الخوف بيِّن في رواية، وهي كما في الحلبي: حانت صلاة الظهر، فصلاها صلى الله عليه وسلم بأصحابه، فهمَّ بهم المشركون، فقال قائلهم: دعوهم، فإن لهم صلاة بعد هذه هي أحبُّ إليهم من أبنائهم ـ أي: وهي صلاة العصر ـ، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فصلى صلاة العصر صلاة الخوف. اهـ[3].

وصفتها عند الحنفية: أن يجعل الإمام الناس طائفتين: طائفة إلى وجه العدو، وطائفة خلفه، فيصلي بهذه الطائفة ركعة وسجدتين، فإذا رفع رأسه من

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٢).

ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة، وأجمعَ أهلُ السِّيَرِ على خلافه[1].

السجدة الثانية؛ مضت هذه الطائفة إلى وجه العدو، وجاءت تلك الطائفة، فيصلي بهم الإمام ركعة وسجدتين، وتشهَّد وسلَّم، ولم يسلِّموا، وذهبوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الأولى، فصلوا ركعة وسجدتين وحداناً بغير قراءة؛ لأنهم لاحقون، وتشهدوا وسلموا، ومضوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى وصلوا ركعة وسجدتين بقراءة؛ لأنهم مسبوقون، وتشهدوا وسلموا. اهـ. هداية[2].

وصفتها عند الشافعية: أن تصفَّ طائفة مع الإمام، وطائفة وجاهَ العدو، فيصلي بالتي معه ركعة، ثم يثبت قائماً، ويتمون لأنفسهم، ثم ينصرفون وجاهَ العدو، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعة الثانية التي بقيت من صلاتهم، ثم يثبت جالساً، ويتمون لأنفسهم، ثم يسلم بهم. اهـ. «بداية المجتهد»[3].

وفي «الدرر»: لم يجوزها أبو يوسف بعده صلى الله عليه وسلم؛ لأنها إنما شرعت على خلاف القياس؛ لإحراز فضيلة الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى انعدم بعده عليه الصلاة والسلام، وجَوَّزاها؛ لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أقاموها بعده صلى الله عليه وسلم، وسببها الخوف، وهو يتحقق بعده أيضاً. اهـ[4].

قوله: (كانت في السنة السابعة)؛ أي: بعد خيبر.

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٧١، ٢٧٣)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠ ـ ٥٧٦).

(٢) انظر: «الهداية شرح البداية» للمرغيناني (١/ ٨٩).

(٣) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ١٢٧).

(٤) انظر: «درر الحكام» لملا خسرو (٢/ ١٧٩).

. . . .

قال الحلبي: احتج البخاري ـ رحمه الله ـ على أن هذه الغزاة كانت بعد خيبر بما رواه عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ، مما يدل على أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، وهو: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر بيننا... إلخ الحديث المتقدم في أول الغزوة[١].

وإذا ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع بعد خيبر، وثبت أنه لم يجىء إليه صلى الله عليه وسلم من الحبشة إلا بخيبر؛ لزم أن تكون غزوة ذات الرقاع بعد خيبر[٢].

ثم قال: وقد ذكرها الشمس الشامي ـ من علماء السير ـ بعد خيبر[٣]، ثم قال الحافظ ابن حجر: وادعى الدمياطي ـ من علماء الحديث ـ غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه، والاعتماد على ما في الصحيح من تأخيرها على خيبر أولى؛ لأن أصحاب المغازي مختلفون في زمانها. اهـ[٤].

قال المحقق ابن القيم في «زاد المعاد»: قال ابن إسحاق وجماعة من أهل السير والمغازي: إن هذه الغزوة كانت في سنة أربع، وتلقاه الناس عنهم، وهو مشكل جداً؛ فإنه قد صح أن المشركين حبسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق من صلاة العصر حتى غابت الشمس[٥].

وفي السنن، و«مسند أحمد» والشافعي ـ رحمهما الله ـ: أنهم حبسوه عن

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠).

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد» للشامي (٥/ ١١٥، ١٧٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧١). وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٤١٨).

(٥) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٦٢٧)، من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ.

. . . .

صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً، وذلك قبل نـزول صـلاة الخوف[1].

والخندق بعد ذات الرقاع سنة خمس، والظاهر: أن النبي صـلى الله عليـه وسلم أول صلاة صلاها للخوف بعسفان كما قال أبو عياش الزرقي: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان، فصلى بنا الظهر، وعلى المشركين خالـدُ بـنُ الوليـد، فقالوا: لقد أصبنا منهم غفلة، ثم قالوا: إن لهم صلاة بعد هذه هي أحـبُّ إلـيهم من أموالهم وأبنائهم، فنزلت صلاة الخوف بين الظهر والعصر، ففرقنـا فـرقتين. . . وذكر الحديث، رواه أحمد ـ رحمه الله ـ، وأهلُ السنن[2].

وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم نـازلاً بـين ضـجنان وعسفان محاصراً للمشركين، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاةً هم أهوى إليهـا من أبنائهم وأموالهم، أجمِعوا أمركم، ثم ميلوا عليهم ميلةً واحدة، فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين. . .، وذكـر الحـديث، قـال الترمـذي: حـديث حسن صحيح[3].

ولا خلاف بينهم أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وقد صح عنه صـلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الخوف بذات الرقاع[4]، فعلم أنها بعد الخندق، وبعد عسفان.

---

(١) رواه النسائي (٦٦١)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩)، والإمـام الشـافعي في «مسنده» (١/ ٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٩/٤)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي (١٥٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٣٠٣٥) وقال: حديث حسن غريب.

(٤) رواه البخاري (٤١٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبـي صلى الله عليه وسلم صلَّى بأصحابه في الخوف في غزوة السابعة، غزوة ذات الرقاع.

. . . .

ويؤيد هذا: أن أبا هريرة وأبا موسى الأشعري شهدا ذاتَ الرقاع، كما في الصحيحين عن أبي موسى: أنه شهد غزوة ذات الرقاع، وأنهم كانوا يلفون على أرجلهم الخرق لما نقبت، فسميت: غزوة ذات الرقاع[1].

وأما أبو هريرة؛ ففي «المسند»، والسنن: أن مروان بن الحكم سأله: هل صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف؟ قال: نعم، قال: متى؟ قال: عام غزوة نجد[2].

وهذا يدل على أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر، وأن من جعلها قبل الخندق فقد وهم، وهذا ظاهر.

ولما لم يفطن بعضهم لهذا، ادعى أن غزوة ذات الرقاع كانت مرتين؛ فمرة كانت قبل الخندق، ومرة بعدها، على عادتهم في تعديد الوقائع إذا اختلفت ألفاظها وتاريخها، ولو صح لهذا القائل ما ذكره ـ ولا يصح ـ لم يمكن أن يكون قد صلى بهم صلاة الخوف في المرة الأولى؛ لما تقدم من قصة عسفان وكونها بعد الخندق، ولهم أن يجيبوا عن هذا بأن تأخير يوم الخندق جائز غير منسوخ، وأن في حال المسايفة يجوز تأخير الصلاة إلى أن يتمكن من فعلها، وهذا أحد القولين في مذهب أحمد ـ رحمه الله ـ، وغيره.

ولكن لا حيلة لهم في قصة عسفان أن أول صلاة صلاها للخوف بها، وأنها بعد الخندق، والصواب تحويلُ غزوة ذات الرقاع من هذا الموضع إلى بعد الخندق، بل بعد خيبر، وإنما ذكرناها هاهنا تقليداً لأهل المغازي والسير، ثم

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٢٠)، وأبو داود (١٢٤٠)، والنسائي (١٥٤٣).

غزوة بدر الآخرة

لما أهلّ شعبانُ هذا العام، كان موعد أبي سفيان؛ فإنه بعد انقضاء غـزوة أُحُد قال للمسلمين: موعدنا بدرٌ العامَ المقبل، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وكان بدرٌ محلَّ سوق تُعقد كلَّ عام للتجـارة فـي شـعبان يقيم التجار فيه ثمانياً، فلما حَلَّ الأجلُ، وقريش مُجدِبون، لم يتمكن أبـو سفيان من الإيفاء بوعده، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كـيلا يُوسـم بخُلف الوعد، فاستأجر نُعيمَ بنَ مسعودٍ الأشجعيَّ، ليأتي المدينة، . . . . .

تبين لنا وهمُهم، وبالله التوفيق. اهـ[1].

وهو تحقيق بديع، وقد تبين من أن ما مال إليه الإمام البخاري من أن هـذه الغزوة كانت في السنة السابعة هو الصواب، وأن قول المصنف: (وأجمع أهــل السير على خلافه)، فيه ما فيه، إذ قد تبين مما نقلنـاه مـن التحقيـق عـن الحلبـي وعن ابن القيم أن لا إجماع، وأن الخلاف بينهم موجود.

غزوة بدر الآخرة

قوله: (غزوة بدر الآخرة): قال الدحلاني: وتسمى: غـزوة بـدر الصـغرى؛ لعدم وقوع القتال فيها، فهي صغرى بالنسبة للتي وقع فيها القتال وهي الكبرى[2].

قوله: (لما أهل شعبان) قال الحلبـي: وقيـل: خـرج فـي شـوال، وكـان وصوله إلى بدرٍ هلالَ ذي القعدة، وكان ذلك موسماً لبدر في كـل سـنة يحضـره الناس، ويقيمون به ثمانية أيام. اهـ[3].

قوله: (فاستأجر نعيم بن مسعود): سبب استئجاره له: أنه لما قرب الموعد

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٩).

ويُرجِفَ بما جمعه أبـو سفيان من الجموع العظيمة، فقـدم نُعيم المدينـة، وقال للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣] **ولم يلتفت عليـه الصلاة والسلام لهـذا الإرجاف؛ اتِّكالاً على ربه، بل خرج بألف وخمس مئة من أصحابه، . . . .**

الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبي سفيان؛ أخـذ النبـي صـلى الله عليه وسلم يهيئ أصحابه للخروج، فقدم نعيم بن مسعود مكة، فأخبر قريشـاً بتهيـؤ المسلمين لحربهم، فكره أبو سفيان الخروج، وجعل لنعيم عشرين بعيراً على أن يذهب إلى المسلمين ويخذلهم، وضمنها له سهيلُ بنُ عمرو، وحمله على بعير، فقدم نعيمٌ المدينةَ، وأرجف المسلمين بكثرة العدو حتى قذف في قلـوبهم الرعـب، ولـم يبق لهم نية في الخروج، حتى خشي عليه الصلاة والسلام أن لا يخرج معـه [أحد][1]، فجاء العمران ـ أي: أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهمـا، فقـالا: إن الله مظهرٌ دينه ومعزٌّ نبيه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسِرْ لموعدهم، فوالله! إن في ذلك لخيراً إن شاء الله.

فسر صلى الله عليه وسلم بذلك وقال: «والذي نفسي بيده! لأخـرجن وإن لم يخرج معي أحد»، فأذهب الله عن المسلمين ما كان الشيطان أرعبهم بـه. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ . . .**﴾) إلخ الآية: المراد بالناس: أبو سفيان وأصحابه.

وقوله: (﴿**فَزَادَهُمۡ**﴾)؛ أي: هذا القولُ، أو هذا القائل (﴿**إِيمَٰنٗا**﴾).

قال البيضاوي: والمعنى: أنهم لم يلتفتوا إليه، ولـم يضعفوا، بل ثبت به

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحـلان (٢/ ٩٩ ـ ١٠٠)، والخبـر المـذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٢٦)، وابـن سـعد فـي «الطبقـات الكبـرى» (٢/ ٥٩).

واستخلف على المدينة عبدَالله بنَ عبدالله بنِ أُبَيَ. ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً، فلم يجدوا بها أحداً، لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نيّة الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين، ظانًّا أن إرجاف نُعيم يفيد، فيكون المخلف هم المسلمون، فسار حتى أتى مجنَّة ـ وهي سوق معروفة من ناحية مَرّ الظهران ـ فقال لقومه: إن هذا عام جدب، . . . .

يقينهم بالله، وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وأخلصوا النية عنده[1].

قوله: (واستخلف عبدالله بن عبدالله بن أبي): وقيل: استخلف عبدَالله بنَ رواحةَ الخزرجيَّ.

قوله: (لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج. . .) إلخ: قال الحلبي: إن أبا سفيان قال لقريش: لقد بعثنا نعيماً ليخذل أصحاب محمد عن الخروج، ولكن نخرج فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع، فإن كان محمد لم يخرج، وبلغه أنا خرجنا، فرجعنا لأنه لم يخرج، كان هذا لنا عليه، وإن خرج، أظهرنا أن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام عشب، قالوا: نعمَ ما رأيتَ، فخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان وخمسون فرساً حتى انتهوا إلى مَجنة ـ أي: بفتح الميم والجيم وتشديد النون ـ وهو سوق معروف من ناحية مَرَّ الظهران ـ وقيل: عسفان ـ ثم قال: يا معشر قريش! لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه الماء، وإن عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس، فسماهم أهل مكة: جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم لتشربوا السويق. اهـ[2].

قوله: (مر الظهران) ـ بفتح الميم ـ: موضع[3] على مرحلة من مكة. اهـ. قاموس[4].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٠).

(٣) في الأصل: «فيها عين»، والتصويب من «القاموس المحيط».

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مرر).

ولا يصلحنا إلا عامُ عشب، فارجعوا، أما المسلمون، فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٤]**، ولما سمع بذلك صفوانُ بنُ أمية، قال لأبي سفيان: قد والله! نهيتُك أن تَعِدَ القومَ، قد اجترؤوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم**[١].

قوله: (فأقاموا ببدر): كانت مدة إقامتهم فيه ثمانية أيام. اهـ. دحلاني[٢].

قوله: (﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾)؛ أي: فانقلبوا بعافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه.

(﴿وَفَضۡلٖ﴾) ربح في التجارة، فإنهم باعوا ما معهم من التجارة الدرهم درهمين.

(﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾): من جراحة وكيدِ عدوّ.

(﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾) قد تفضل عليهم بالتثبيت والزيادة والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد، والتصلب في الدين، وإظهار الجراءة على العدو، وبالحفظ عن كل ما يسوءُهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله تعالى وفضل، وفيه: تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به. اهـ. بيضاوي[٣].

قوله: (ولما سمع بذلك صفوان): قال الحلبي: كان المخبر لقريش معبد ابن أبي معبد الخزاعي؛ فإنه بعد انقضاء الموسم خرج سريعاً إلى مكة، وأخبرهم بذلك. اهـ[٤].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٠٠).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١١٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨١).

حوادث [السنة الرابعة]

وفي هذا العام ولد الحسينُ بن علي، وفيه توفيت زينبُ بنتُ خزيمةَ أُم المؤمنين، وفيه توفي أبو سَلَمة ـ رضي الله عنه ـ ابنُ عمةِ رسولِ الله، وأخوه من الرضاعة، وأولُ من هاجر إلى الحبشة . . . .

حوادث

قوله[1]: **(زينب بنت خزيمة)**: هو ابن عبدالله بن عمر بن عبد مناف، وكانت يقال لها: أم المساكين؛ لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم، وكانت تحت عبدالله بن جحش، فاستشهد بأحد، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: كانت تحت الطفيل بن الحارث بن المطلب، ثم خلف عليها أخوه عبيدة، وكان دخوله بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وماتت. اهـ. «إصابة»[2].

قوله: (وفيه توفي أبو سلمة. . .) إلخ: عبدالله بن عبد الأسد المخزوميّ، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة، وكان أخا النبيِّ صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وابنَ عمته، أمه برةُ بنتُ عبد المطلب، ومات بالمدينة، وروي من حديث ابن عباس: أولُ من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بنُ عبد الأسد، وأولُ من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان[3].

وقال أبو نعيم: كان أول من هاجر إلى المدينة، وهو ممن هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً وأحداً، وكانت وفاته في جمادى الآخرة. اهـ. ملخصاً من «الإصابة»[4].

---

(١) تكرر لفظ: «قوله» في الأصل.

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٧/ ٦٧٢).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «الأوائل» (٨٢).

(٤) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أُمَّ سَلَمَةَ هنداً زوجَ أبي سلمة بعدَ وفاته[1].

قوله: (وفيه تزوج صلى الله عليه وسلم أم سلمة هنداً. . .) إلخ: هي بنتُ أبي أميةَ بنِ المغيرة من بني مخزوم، وهي بنت عم أبي سلمة، وهي ممن أسلم قديماً هي وزوجها، وهاجرا إلى الحبشة، فولدت له سلمةَ، ثم قدما وهاجرا إلى المدينة، فولدت له عُمر، ودرة، وزينب، وقيل: إنها أولُ امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة، وأولُ ظعينة دخلت المدينة.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن أم سلمة قالت: لما انقضت عِدَّة أم سلمة، خطبها أبو بكر، فلم تتزوجه، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم يخطبها عليه، فقالت: أخبرْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أني امرأة غَيْرَى، وأني امرأة مُصْبية، وليس أحد من أوليائي شاهداً، فقال: «قل لها: أما قولُك: غيرى؛ فسأدعو الله فتذهب غَيرتك، وأما قولك: إني امرأة مُصْبية؛ فستكفين[2] صبيانك، وأما قولك: ليس أحد من أوليائي شاهداً؛ فليس أحد من أوليائك شاهداً أو غائباً يكره ذلك»، فقالت لابنها عمر: قم فزوِّجْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فزوجه[3].

وروى عنها: أولادها، وأخوها، وابن أخيها، ومواليها، وروى عنها: الصحابة، والتابعون، وكانت وفاتها في شوال سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة إحدى وستين، وهي آخرُ أمهات المؤمنين موتاً. اهـ. ملخصاً من «الإصابة»[4].



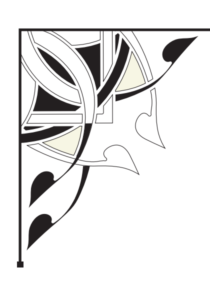
---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣).

(٢) في الأصل: «فسلي»، والمثبت من «سنن النسائي»، و«الإصابة» لابن حجر (٨/ ٢٢٣).

(٣) رواه النسائي (٣٢٥٤).

(٤) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٨/ ٢٢١ ـ ٢٢٤).




فهرس الموضوعات

القسم الأول

الدراسة

الفصل الأول

ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ والشيخ محمد الخضري

الموضوع	الصفحة

الفَصْلُ الثَّانِي

دراسة الكتاب

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني

النص المحقق

الفتح المبين

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
غزوة بدر الأولى	٤٠٧
سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة لرصد قريش	٤٠٧
تحويل القبلة	٤١٢
صوم رمضان	٤١٥
صدقة الفطر	٤١٧
زكاة المال	٤١٧
غزوة بدر الكبرى	٤١٩
أسرى بدر	٤٥٣
الفداء	٤٥٧
العتاب في الفداء	٤٧٠
خاتمة في فضل أهل بدر	٤٧٤
غزوة بني قَينُقاع	٤٧٥
جلاء بني قينقاع	٤٧٩
غزوة السَّويق	٤٨١
صلاة العيد	٤٨٢
زواج علي بفاطمة عليهما السلام	٤٨٥
*** السَّنة الثّالِثَة**	٤٩٠
قتل كعب بن الأشرف	٤٩١
غزوة غَطَفَان	٤٩٥
غزوة بُحْران	٤٩٩
سرية زيد بن حارثة إلى القردة	٥٠٠
غزوة أُحُد	٥٠١

الموضوع	الصفحة

